١٠٠٠ كتاب

الجغرافيا والسيادة العالمية

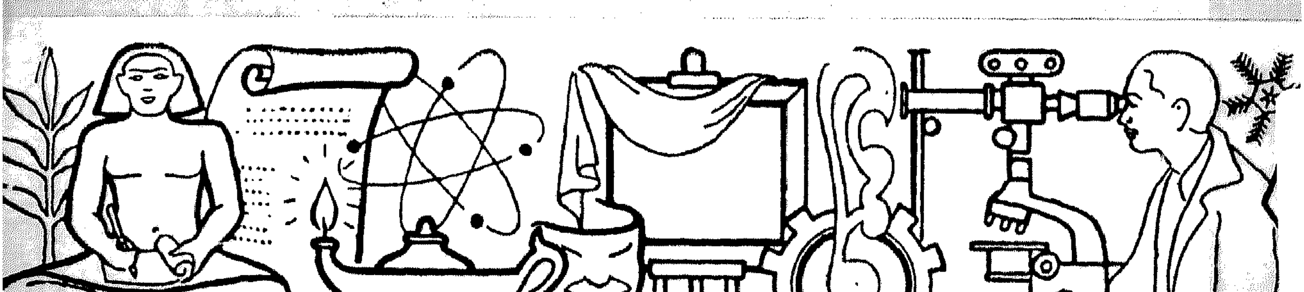
تأليف

جيمس فيرجريف

ترجمه
علي رفاعة الأنصاري

راجعه
الدكتور محمد عبد المنعم الشرقاوي

بإشراف إدارة الثقافة العامة
بوزارة التربية والتعليم بمصر



نشرته مكتبة النهضة المصرية

الألف كتاب

الجغرافيا والسيادة العالمية

(٩٦)

General Organization of the Alexandria Library (GOAL)
Bibliotheca Alexandrina

بإشراف إدارة الثقافة العامة
وزارة التربية والتعليم بمصر

هـذه ترجمة لكتاب :

GEOGRAPHY

AND WORLD POWER

JAMES FAIRGRIEVE

University of London Press Ltd.

الألف كتاب (٩٦)

الجغرافيا والسيادة العالمية

تأليف

چيمز فيرجريف

ترجمه

علي رفاعة الأنصاري

رئيس قسم التبادل الثقافي
بوزارة التربية والتعليم

راجعه

الدكتور محمد عبد المنعم الشرقاوي

رئيس قسم الجغرافيا
بجامعة الاسكندرية

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة النهضة المصرية
١٩٥٦

تقـــديم

إن هذا الـكتاب يمثل محاولة طيبة ترمى إلى شرح العوامل الجغرافية وتوضيح أثرها فى توجيه التاريخ . وقد أسهب المؤلف فى دراسة الحضارة المصرية لأنها فى نظره بعثت النور والعرفان إلى شتى نواحى العالم ، وكانت البذرة الأولى التى أخذت عنها الحضارات القديمة والحديثة فى مختلف العصور . وقد نظر المؤلف إلى البيئات المختلفة نظرة صادقة ناقدة وقام بدراسة الحقائق الجغرافية فيها ووصل بهذه الدراسة إلى تـكييف التطور التاريخى فى كل منها .

ومعنى هذا تفسير التاريخ بأسلوب يسمو كثيراً عن مجرد سرد الوقائع والأحداث بدون إشارة إلى العوامل الجغرافية الأساسية . وقد وصل بهذا المجهود إلى بحث فلسفة الحضارة الإنسانية وكيف إنها رغم تنوعها فى البيئات المختلفة ترمى دائماً إلى إسعاد البشر ورفاهيتهم ، وتدعو إلى التقارب بين الأمم وإلى توطيد روح التفاهم بينهـا . وإذا كان الـكتاب قد طبع فى عام ١٩٢٧ فإن حقائقه واستنتاجاته لا تزال سليمة نصدق فى معظمها على أحوال العالم فى الوقت الحاضر .

أما عن الترجمة إلى اللغة العربية فيسرنى أن أشير إلى أن حضرة المترجم قد بذل جهداً محموداً يجمع بين الدقة فى الترجمة وبين جمال الأسلوب العربى . ويضاف إلى ذلك أنه كان أميناً فى نقل أفـكار المؤلف نقلا صادقاً حتى تصل إلى القارئ فى عبارات عربية وألفاظ سهلة مختارة تؤدى المقصود منها فى الأصل تماماً .

وقد قمت بمراجعة هذه الترجمة مراجعة دقيقة ، وعنيت فى أن تـكون الأسماء العربية الواردة فى هذا السفر على صورتها الصحيحة حتى يستكمل هذا البحث صورته العلمية الـكاملة .

بهذا نأمل أن تـكون الإدارة العامة للثقافة بتقريرها ترجمة هـذا الـكتاب إلى اللغة العربية قد أسدت خدمة كبرى للمـكتبة العربية التى تفتقر إلى أمثال هذه المؤلفات من الـكتب العلمية القيمة .

محمد عبد المنعم الشرقاوى

تمهيد بقلم المؤلف

ما العالم إلا مسرح كبير

في هذا المؤلف محاولة لقصة محبوكة الأطراف تبين أن نظاماً حقيقياً ينتظم أحداث هذا الكوكب السيار وأن بدت فى ظاهرها خالية من كل نظام يربط بينها . ولما كنا نتناول تاريخ العالم وجغرافيته فى مثل هذا الحيز الضيق كان من الضرورى أن نتحاشى ذكر الكثير من التفاصيل ، وقد تختلف الآن فيما يجب حذفه ، وقد تظهر للناس بعض الأشياء على صورة تختلف عن صورتها فى نظر المؤلف ، ولكن صدق هذه النظرية فى مجموعها لا يتوقف على دقة هذا التعبير أو ذاك أو على هذه النظرة أو تلك ، ويجمل بنا أن نؤكد بوجه خاص أن هذا الكتاب وهو يعالج تاريخ العالم إنما يعنى بوجه واحد منه . وغايته الرئيسية فى الحقيقة هى العناية بالمسرح وإعداده ، لا بتمثيل المسرحية ذاتها ، وهدفه هو تبيان كيف كان المسرح معداً فى فترات مختلفة من التاريخ العالمى ، كما يعنى بصفة خاصة بإعداد المسرح الحالى لتمثيل المسرحية فى الوقت الحاضر .

وقد يبدو هذا الكتاب لأول نظرة عابرة أنه يمثل ناحية مادية ولكن ماديته فى الحقيقة ترجع إلى أن طبيعة البحث تفرض العناية بالنواحى المادية . وقد تتبعنا الطرق التى أثرت بها العوامل الجغرافية فى الممثلين ، وأغفلنا النواحى الروحية المسرحية والتى لا تبرز أثر العوامل الجغرافية ولكن هذا لا يعنى أنها غير قائمة .

جيمس فيرجريف

محتويات الكتاب

الفصل الأول

مقدّمة

موضوع الكتاب

وضع هذا الكتاب ليظهر كيف أن تاريخ العالم قد سيرته عوامل ووجهته ظاهرات تدخل جميعها تحت كلمة « جغرافية » ، وليبين أى الحقائق الجغرافية جوهرية حقاً وذلك بملاحظة العوامل التى لها أكبر الأثر فى توجيه التاريخ . وفى هذه الجملة الأخيرة نجد ثلاث كلمات يجب أن ندرك المقصود منها تماماً وهى :

« التاريخ » و « التوجيه » و « الجغرافيا »

١ — التاريخ : إذا تكلمنا عن التاريخ على هذا النحو فإن كلامنا ينصب بطبيعة الحال على تاريخ الإنسان على وجه الأرض ، ومع ذلك فإن التاريخ يشمل معانى عديدة منها ما يلى :

(ا) قد يكون التاريخ مجرد سرد لجميع الأحداث التى وقعت وفق الترتيب الزمنى لحدوثها دون أى تعليق ، وحين ندرس التاريخ تحتم الضرورة معرفة الكثير عن هذه الأحداث ، ولكن مجرد العلم بها لا يثير اهتماما كبيراً ، بل ولن يستطيع أحد الإلمام بهذه الحوادث كلها حتى وإن تيسر له جمعها . فلا مناص إذن من أن نتخير منها أعظمها أهمية .

(ب) ومن ثم فنحن نخرج بفكرة أخرى عن التاريخ باعتبار أنه رواية لأكثر الأحداث أهمية حسب ترتيب حدوثها ، على أنه ينبغى عند انتخاب أهم الأحداث

أن نقارن بينها حتى نحكم أيها أكثر أهمية. ولكى نقوم بهذا العمل يجب بطبيعة الحال أن نفكر لماذا هى « هامة » . وعندئذ نجد أن الأحداث تكون هامة إذا أثرت فى خير البشر إلى حد كبير ، وهى أقل أهمية إذا لم تؤثر فى الإنسان إلا قليلا .

(حـ) وهكذا تخطر على أذهاننا فى الحال فكرة ثالثة عن التاريخ باعتبار أنه قصة الأحداث الهامة والأسباب التى سببت حدوثها والآثار التى خلفتها فى الإنسان، وعند تقدير هذه الأهمية يجب أن نذكر أن بعض الأحداث يؤثر فى الإنسان أثراً عميقاً لفترة ما ولا يؤثر إلا قليلا بعد ذلك . على حين لا يؤثر بعضها الآخر فى الإنسان إلا قليلا فى مبدأ الأمر ويظل تأثيرها يفعل فعله أمداً طويلا .

فإذا ما نظرنا إلى التاريخ على هذا النحو وجدنا أن بعض الحوادث التى تبدو قليلة الأهمية هى فى الواقع أحداث هامة ، وفى الوقت ذاته قد تبدو بعض الحوادث الأخرى هامة جداً ولكنها فى واقع الأمر دون هذه المرتبة ، ونجد أيضاً أن الأسباب والنتائج التاريخية متشابكة متداخلة حتى لتجعل من التاريخ وحدة كاملة حية ، فإن بعض الحوادث المعينة قد أدت بطبيعة الحال إلى أحداث أخرى ، وأن ماقام به فرد أو قبيلة أو أمة بعينها قد أثر فى حياة أناس آخرين وأمم أخرى ، هذا وأن دراسة التاريخ شائقة جداً ومرجع ذلك هو أنها إحدى الدراسات التى تعالج أمور البشر وعلاقاتهم بعضهم ببعض ، كما تعنى بالأثر الذى يتركه كل إنسان أو كل مجموعة من الناس فى الآخرين . وأننا نعلم أيضاً من دراسة التاريخ أن جماعات من البشر، وإن بعدت الشقة بينها فى الزمان والمكان ومع ذلك فهم يتصفون بخصائص جد متشابهة ، حتى أن بعض الأحداث المتشابهة جداً قد تحدث فى مناطق جد مختلفة من العالم ، وقد يختلف زمن حدوثها بل وقد تفصل بينها عدة قرون من الزمان ، وما حدوثها نفسه إلا نتيجة هذا التشابه ، ومن هذا يبدو اتجاه التاريخ « لأن يعيد نفسه » كما يقال .

ولكن التاريخ ليس كله تكراراً بل فيه تقدم وفيه رقى . وقد لانلحظ ذلك إذا رجعنا إلى الوراء عاماً أو عامين ولكننا لو رنونا بأفكارنا إلى الوراء قروناً وشملت نظرتنا العالم بأجمعه لأمكننا أن نلحظ أن تقدماً قد حدث وإذا اتسعت

نظرتنا فشملت تاريخ العالم بأجمعه ازداد ظهور هذا التقدم وضوحاً . وقد يغلب علينا الريب فى التعبير عما نقصد بكلمة « تقدم » ولكننا فى الواقع نلمسه على كل حال، فنحن ندرك مثلاً أن أفكار الناس عن الحق وعن الباطل قد طرأ عليها تغيير إبان العصور التاريخية فتغيرت فى جملتها إلى ماهو أحسن وما هذا سوى جانب واحد من جوانب الرقى . وهناك اتجاهات أخرى واضحة يسير التطور فيها نحو التقدم فقد ارتفع مستوى معيشتنا لا من الناحيتين الأخلاقية والفكرية فحسب بل ومن الناحية المادية أيضاً فنحن الآن أفضل كساء وغذاء مما كان عليه أجدادنا منذ قرون ويتوافر لنا من أسباب الحياة أكثر مما تيسر لهم واتسع وقت فراغنا أكثر مما اتسع لهم . ولدينا آلاف من الشواهد على أننا بوجه عام أسعد حالاً فى حياتنا فى القرن العشرين بعد الميلاد مما كنا عليه منذ خمسة آلاف عام مثلاً .

فما هو الذى حدث ؟ وإذا تركنا جانباً كل المسائل الدينية فماذا نعنى بكلمة تاريخ ؟ أليس هناك ثمة عبارة موجزة تعبر عن معنى التاريخ ؟ . قد يجاب عن هذه الأسئلة إجابات عدة وقد تثار اعتراضات على الجواب الذى نثبته هنا . ولا شك أن لهذا الجواب حدوداً غير أنه يمكننا القول بإن « التاريخ » فى أوسع معانيه من الناحية المادية هو تسجيل لقدرة الإنسان المتزايدة على التحكم فى الطاقه . ونقصد بكلمة « طاقة » القدرة على أداء عمل أو بعث حركة وليس التحكم فيها ، بمعنى دفع الأشياء إلى الحركة أو إيقافها ، سواء أكانت قطارات أم ساعات أم طواحين أم بشراً . وهكذا نحتاج إلى الطاقة فى كل عمل . وإنما تقوم حياة الإنسان على سعيه إلى الحصول على أكبر قدر ممكن من الطاقة والانتفاع به ، وتقليل الضائع منها بقدر الامكان . وكل وسيلة تكسبه طاقة أكبر أو تنقص من خسارته منها هى علامة تقدم ورقى ولها أهميتها فى تاريخ العالم . وكل اكتشاف توصل به الانسان إلى كيفية صنع الأشياء بل وكل مانسميه اختراعاً مما يمثل مراحل متميزة من الرقى ليست مجرد حقائق — هامة إلى حد ما — لا صلة لها بالتاريخ ، بل أن صلتها به وثيقة للغاية فاختراع الكتابة الهروغليفية مثلا والحروف الأبجدية والأرقام

الحسابية والطباعة والبوصلة والفأس والعجلة والأبرة والآلة البخارية وورقة النقد » هذه كلها أشياء لها أكبر الأثر فى مجرى التاريخ العالمى ، وأهميتها تتركز فى أنها مكنت البشر من استغلال الطاقة واقتصادها .

ومن ثم يتضح لنا أن للطاقة أهميتها البالغة فيما نسميه « التاريخ الاجتماعى » بل ومن الضرورى أن نبرز أنها لا تقل فى أهميتها أيضاً للتاريخ الحربى والدستورى — أى التاريخ الذى يعنى بالقوانين والمعارك ويؤرخ الملوك والجمهوريات . وقد يكون من المفيد أن نضرب لذلك مثلا استغلال الطاقة المتولدة من الفحم المحترق أو من المياه الساقطة ، فهى لا تستغل كلها فى أن تحفظ للآلات دورانها بل أننا نستغلها فى فى نواحى أخرى . وقد يبدو فى الظاهر أنها تذهب سدى إذا استخدمت بقصد الحصول على طاقة أكبر فيما بعد . ويجرى هذا النحو بأساليب تشبه إلى حد كبير تلك التى نراها تعمل عملها على نطاق واسع فى التاريخ السياسى والاجتماعى .

١ — فقد تستخدم الطاقة فى إبدال أجزاء جديدة من آلة بأخرى قديمة أو فى إضافة أجزاء أخرى أكثر صلاحية لهذا العمل فنستنفد الطاقة فى صناعة الجزء الجديد وفى تركيبه وضبطه ، وقد يبدو هذا مجهوداً ضائعاً ، كذلك الأمر عند ما توضع نظم جديدة للحكم ، فليس ذلك سوى ادخال تحسينات فى آلة الحكم . وكل تغيير تدريجى فى وسائل الحكم هو بمثابة إضافة أو تجديد فى هذه الآلة بينما الثورات التى تطوح بنوع من الحكومات وتحل محله آخر هى بمثابة إحلال آلة جديدة محل أخرى قديمة . ومع ذلك ، فإن مثل هذا الإستبدال نادر ويكاد يكون غير معروف على أى نطاق واسع ، ذلك لأن قدراً كبيراً من النظام القديم يبقى عادة ويدخل فى تركيب النظام الجديد حتى فى أشد الثورات عنفاً .

٢ — وقد تبذل طاقة فى تشحيم الآلات ، وكل طاقة تستخدم فى صناعة الزيت وتنقيته واستعماله تبدو جهداً ضائعاً ، ولكن استعمال الزيت يمكن الآلة من أداء عملها أكثر مما تستطيعه بدون هذا الزيت . وعلى نفس هذا النمط ينتفع الجهاز الحكومى بجهود عدد من الرجال هم بمثابة الزيت للآلة حتى يتسنى لها أن تدور فى سهولة ويسر . وعلى مر الزمن يزداد الانتفاع بالطاقة لصالح الأفراد الذين يعنيهم

الأمر . وإن البنوك والأسواق المالية (البورصات)والصحف التجارية هي كلها بمثابة الزيت الذى بفضله تسير شئون العالم التجارى فى مجراها بسهولة ، كما تيسر بطريقة غير مباشرة شئون العالم الإجتماعى والسياسى .

٣ — وقد يحدث فى بعض الأحيان أن تذهب طاقة الآلة سدى فتنطلق هاربة دون أن تؤدى عملا نافعاً — وهى عادة على صورة طاقة حرارية وعندئذ يضع المهندس بعض الوسائد حول بعض أجزاء الآلة ليمنع تسرب الحرارة منها . كما تتطلب الآلات نوعاً من الحماية لكى يمنع عنها الصدأ ولمقاومة ماقد تحدثه لها قوة الهواء من أضرار . وفى كلتا الحالتين فان ما يبذل من الجهد فى حماية الآلات قد يبدو ضائعاً غير أنه على مدى الزمن يؤدى إلى كسب قدر من الطاقة أكبر مما استنفد . ولهذا الغرض عينه تقام المبانى سواء أكانت لحماية الآلات أم لحماية الناس . كذلك الحال فى قوات البوليس والجيش والأسطول وغيرها من الهيئات فإنها تشبه عمليات الحماية والوقاية التى يقصد بها منع تسرب الطاقة هباء أو لتحول دون أن تحدث لها أضرار أو لتمنع المؤثرات الخارجية من أن تحول بينها وبين مواصلة عملها بانتظام .

وهناك نظرية هندسية أخرى لها أثر عميق جداً فى التاريخ إلا وهى نظرية الحمولة الكاملة أو الحمل الأقصى . ومعنى هذا أن إدارة عدد من الآلات مجتمعة يتطلب طاقة أقل مما تتطلبه إدارة كل آلة على حده ، لأن الآلات لا تعمل قط بأقصى قوتها فى وقت واحد . ولنضرب لذلك مثلا النقل بالترام . فإن تسيير قطارات الترام جميعاً بوساطة محطة مركزية لهو أكثر اقتصاداً من تسيير كل منها على حدة بقوة خاصة بها . وهناك وفر كبير آخر علاوة على الاقتصاد الناتج عن إنشاء عدد أقل من الآلات ، ألا وهو إن العربات لا تعمل جميعها بأقصى سرعتها فى وقت واحد . هذه النظرية مثل غيرها تطبق على نطاق واسع فى التاريخ الاجتماعى ويرجع إليها الفضل فى نمو المدن فى الوقت الحاضر . كما أن المخازن الكبرى وبيوت الأعمال العظمى والنقابات تدين لهذه النظرية باهميتها ، بل ولدرجة ما يمكن أن يرجع اليها بعض الفضل فى وجود القوميات والامبراطوريات .

(ى) وهكذا تولد لدينا الآن فكرة رابعة عن التاريخ ، فعندما نتكلم عن تاريخ العالم بأوسع معانيه نقصد وجود علاقة منظمة بين أحداث تبرز كيف تمكن الإنسان بالتدريج من أن يستخدم من الطاقة قدراً متزايدا ، هذا مع بيان أسباب هذه الأحداث ونتائجها .

وتتصل بنظرية الحمولة الكاملة نظرية هندسية أخرى وهى « القصور الذاتى » والقصور الذاتى هو مقدرة الجسم على استمرار التحرك إذا ما بدأ فى الحركة وليكن هذا الجسم قطاراً أو مؤسسة أو مدينة أو صناعة القطن فى لنكشير أو الامبراطورية البريطانية ، وكلما عظم الجسم عظمت معه قوة القصور الذاتى . وعلى العموم فمن السهل أن تحافظ على حركة الجسم عن أن توقف حركته لأن إيقاف الأشياء يتطلب بذل طاقة ؛ وإذا ما كفت الأجسام فجأة عن الحركة نشأ عن ذلك ضرر ، وإذا مامنعنا عن جسم متحرك القوة الدافعة له فإنه لا يكف عن الحركة فى التووالتحظة كما أنه لا يصل إلى أقصى سرعته فى لحظة إطلاق هذه القوة عليه مرة أخرى . والآلة المتحركة لا تسكن سكون الأموات إذا منعنا عنها مورد البخار ، كما أنها لا تقفز إلى الدوران فى أقصى سرعتها إذا ما أعيد إليها موردها من القوة . وإذا لم يتوافر لها القدر الكافى من الطاقة لدورانها فإنها تبطىء فترة ثم تقف ، ولكنها لا تقف فجأة . وقد ظلت الامبراطورية الرومانية تعيش ثلاثمائة عام بعد أن نقصت قوتها الدافعة نقصاً خطيراً .

٢ — التوجيه : ويجب أن نحدد معنى كلمة « توجيه » . قد يساعدنا على فهم معناها ذكر ما لا ينطوى تحتها وضرب بعض الأمثلة على ذلك . فالتوجيه لا يعنى صنع الأشياء أو خلق أسباب وجودها فهذا أبعد من أن يتضمنه معناها . فنحن نوجه الحصان ونضبط سيره أو نحدد فى أى الاتجاهات يسير أو نوقفه ، ولكننا لا نخلق الحصان ولا الطاقة التى يستخدمها فى استجابته لتحقيق رغباتنا ثم إن الناس قد يستطيعون ضبط مجرى مائى فى انحداره من سفح تل من التلال ويبلغ تحكمهم فيه أنهم يحفرون له قناة ويبنون له شواطئها بالأحجار ليحولوا دون فيضانها على الجوانب أو يضعون الأنابيب لنقل بعض مائها أو كله إلى حيث يريدون . ولكنهم لا يستطيعون

خلق النهر نفسه بمعنى خلق الماء ذاته ، كذلك يستطيع الإنسان أن يتحكم فى الافادة من الطاقة المتولدة من الفحم سواء فى التدفئة أو فى تسيير قطار ما بحمله أو فى إدارة آلة تدير مصنعاً للنسيج ، ولكنه لا يستطيع أن يخلق الفحم ذاته .

وهكذا إذا قلنا أن التاريخ توجهه وتحدده الجغرافيا فإنا لا نعنى أن الإنسان مضطر بحكم الجغرافيا إلى أن يزيد فى إستخدام الطاقة شيئا فشيئا ، ولكن معناه أن الجغرافيا تحدد إلى مدى كبير الطريق المعين الذى قدر للانسان أن يسلكه فى هذا الاستغلال .

٣ — الجغرافيا — ويجب أن نحدد أيضاً معنى كلمة « جغرافيا » وأن نحذر القول بأن العلم بالجغرافيا لا يحوى إلا المعرفة بأسماء الأماكن أو مواقعها أو أن نعرف عن هذه الأماكن بعض المعلومات الطريفة، فما هذا سوى جزء واحد بالغ الأهمية من بين أجزاء الجغرافيا ، وهو الجزء الذى يماثل معرفة الأحداث فى علم التاريخ ولكن لا يعدو أن يكون جزءاً ، كذلك يجب أن يكون معروفاً أن الجغرافيا ليس معناها معرفة كل ما على سطح الأرض — وإذا كان كل ما على الأرض يتصل بالجغرافيا فليس معنى هذا أن العلم به من الجغرافيا فى شىء . ويتضح من دراسة الجغرافيا معرفة مواقع الأشياء كالمدن والجبال والأنهار بل والناس واحوالهم وكذلك تعرف كيفية توزيع الأشياء على سطح الأرض وكيف ينتظم اليابس والماء وأين تسقط الأمطار بغزارة وأين ترتفع درجة الحرارة وأين تنخفض وأين تنمو أنواع الحياة النباتية على إختلافها وأين تهب العواصف وأين تهدأ الرياح وأين يعيش الناس بمختلف أجناسهم .

ولما كانت أكثر الأحوال الجغرافية هى نتيجة لظروف جغرافية أخرى فإننا كثيراً ما نضمن دراستنا الأسباب والنتائج ، فنعرف لماذا وجدت غالبية الأشياء التى نحن بصددها حيث هى ، وكيف أثر وجودها أو انعدامها فى حياة الإنسان ، ولقد فرضنا عند التعرض لتعريف ماهية التاريخ أن الأحداث تحدث نتيجة لأعمال البشر فيما مضى ولكننا هنا فى الجغرافيا نفرض أن الأحداث إنما تحدث بالشكل أو الأسلوب الذى تحدث به بسبب عوامل أخرى مسيطرة .

أما وقد تبينا معنى هذه الكلمات الثلاث ألا وهى التاريخ والتوجيه والجغرافيا فاننا نستطيع أن ندرك أن هذا الكتاب قد وضع ليبين الطريق الذى يسر للانسان استغلال الطاقة شيئاً فشيئاً وكيف أن طريقه قد حددته التوزيعات الجغرافية على سطح الأرض .

وهكذا تتكون لدينا فكرة عن المسرح العالمى الذى يمثل عليه البشر الآن أدوارهم فى الحياة .

العوامل الكبرى البعيدة الأثر مع بساطتها

وقبل أن نمضى فى تتبع أثر العوامل الجغرافية فى مجرى التاريخ فجعلت ظروفاً وحوادث معينة تتوالى بعضها أثر بعض فى ترتيبها الزمنى ، يحسن بنا أن نبين أثر بعض العوامل الأساسية البارزة والمألوفة لنا إلى حد قد يكمن فيه خطر نسيان أهميتها القصوى ، وذلك لأنها قائمة على الدوام ومألوفة لكل إنسان ، فلم تعد تستلفت النظر ، ولما كانت تعمل عملها فى صمت وتؤثر أثرها على الدوام وفى البشر جميعاً — وفى جميع مراحل المدنية ، أصبح من الصعب تصور الأثر العميق الذى تتركه فى الحياة .

أولا — المكان : — من الواضح أن لكل حادث مكانا يقع فيه ، وفكرة المكان وهى أبسط ما توحى به الجغرافيا ، ترتبط بأبسط فكرة عن التاريخ ارتباطاً وثيقاً بل أن الأحداث التى تحدث فى مكان معين أو فى أقليم بالذات لها علاقتها المحددة فى غالب الأحيان ببعضها بعضا وترتبط عادة فيما بينها بنوع ما من العلاقات ولا تتصل اتصالا وثيقاً بالأماكن التى تخرج عن نطاق حدوثها ، وتؤخذ مثل هذه الحقائق فى تتابعها على أنها تاريخ تلك البقاع أو الأمكنة . فنتكلم عن تاريخ انجلترا أو تاريخ فرنسا أو تاريخ اليونان أو تاريخ لندن . وهذه طريق هامة إن لم تكن بديهية تحكمت بها الجغرافيا فى التاريخ وسندرك أهميتها البالغة فيما بعد

ولكننا نعلم أن تواريخ هذه البقاع وهذه الأقاليم لايمكن أن تدرس بمعزل عن غيرها فانا لانستطيع الوقوف على جزء كبير من تاريخ لندن مالم نكن على علم

إلى حدما بتاريخ انجلترا . وأن الانجليز كانوا على اتصال بالفرنسيين لفترة طويلة من الزمان وأن تاريخ انجلترا قد تأثر بتاريخ فرنسا الذى تحكم فيه إلى حد ما . ومثل هذا القول يصدق على جميع التواريخ وكل منها يستند إلى حقيقتين : الأولى أن تاريخ الأقليم يمثل وحدة قائمة بذاتها لسبب أو لآخر . والثانية أن سكان الأقليم يتأثرون بظروف حياة سكان الاقاليم الأخرى قربت أم بعدت . ولكل منها وحدته الخاصة وهذه هى الظاهرة الغالبة فى الأزمنة الحديثة ولكنه ينطبق أيضاً على التاريخ القديم .

ثانيا — الطاقة — ومادمنا قد قررنا أن التاريخ يعنى زيادة معرفة الإنسان بطرق استخدام الطاقة وتوفيرها فان التاريخ مسير بحكم توزيع الطاقة فى صورها المختلفة وبحكم توزيع أى عامل قد يحول دون استخدامها أو ما قد يحفز الإنسان على زيادة الإنتفاع بها .

وكل طاقة على سطح الأرض مصدرها الشمس أما فى شكل حرارى أو ضوئى وربما فى أنواع أخرى من الإشعاع وبفضل هذه الطاقة استطاع البشر أن يصنعوا الأشياء ويبعثوا بالحركة فيها ، فهم يتسلطون على هذه الطاقة ويخضعونها لإرادتهم وتصبح جزءاً منهم ، فهم يأكلون الخبز المصنوع من القمح أومن الحبوب الأخرى والتى ما كانت تنمو وتزدهر لولا حرارة الشمس وضوؤها ، كما أصبح الحب دقيقاً مطحوناً بفضل استخدام الفحم الذى هو فى الأصل نبات نما بفضل حرارة الشمس ، وقد يطحن الدقيق بقوة مستمدة من المياه وهذه مصدرها الأمطار حين تنحدر على سفوح الجبال ، وهى أصلا قد تصاعدت فى صورة أبخرة من المحيط بفضل حرارة الشمس ثم حملتها الرياح إلى اليابس ، وللشمس الفضل الأول فى حركة الرياح ، كما أن البشر قد يستمدون طاقتهم من لحم الحيوان الذى يأكل النبات فى غذائه بعد نموه بفضل أشعة الشمس ، وقد يستطيع البشر الإستغناء عن بعض الطعام وتدفئة أنفسهم بالنيران التى وقودها المواد النباتية كالفحم أو الخشب أو الزيت وهى جميعاً تستمد طاقتها الكامنة من الشمس . وقد يحاول البشر اقتصاد بعض الطاقة بارتداء الملابس والفضل فى وجودها مباشرة أو غير مباشرة عائد إلى الشمس ، ومن اليسير

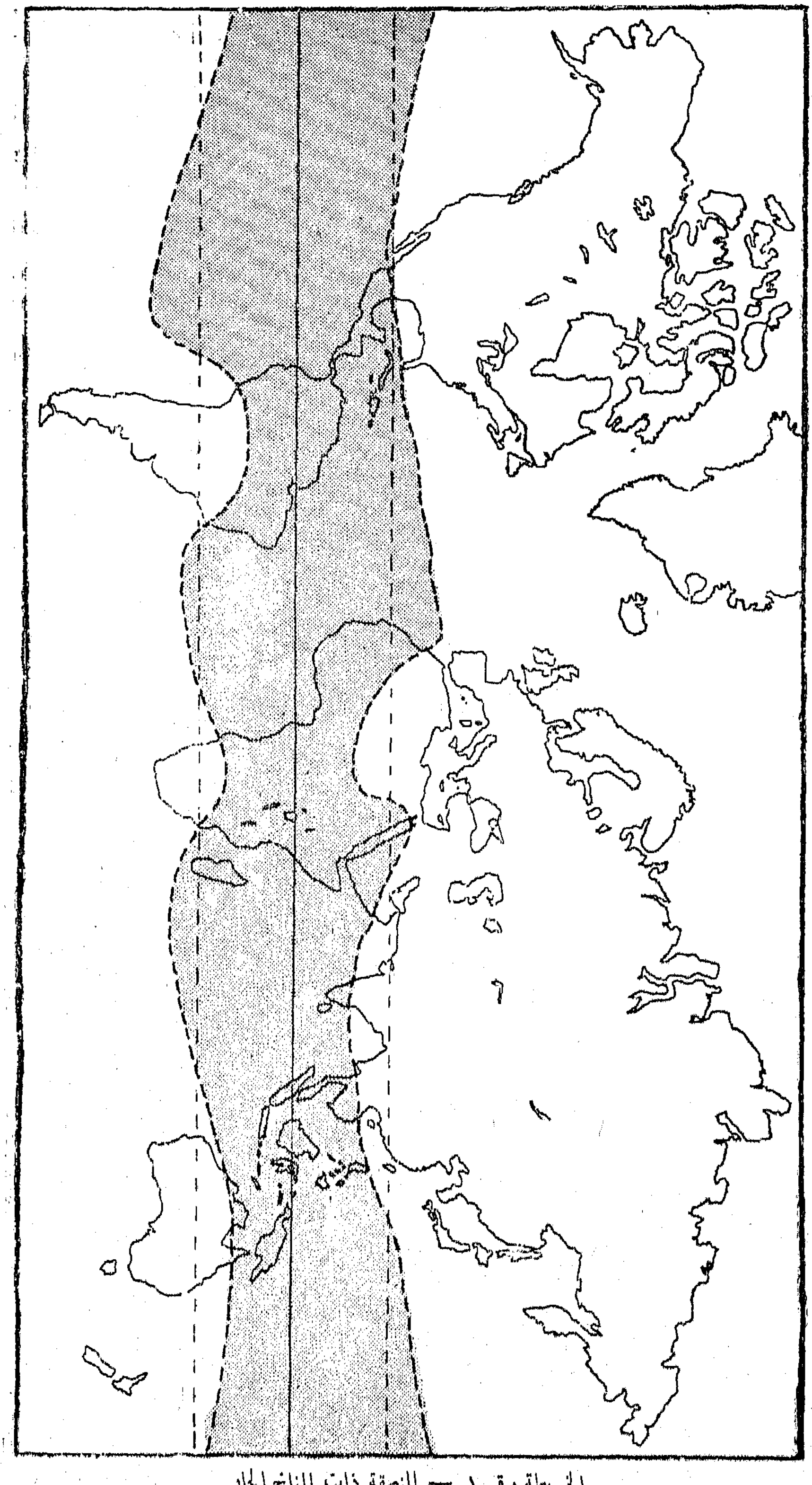
أن نتبين فى جميع هذه الحالات الجوهرية وفى حالات أخرى كثيرة تكاد لا تقل عنها أهمية أن الطاقة التى يسيطر عليها الإنسان مستمدة من الشمس مباشرة وأن قليلا من التفكير يظهر أن الشمس هى المصدر الأول لذلك القدر الهائل من الطاقة التى يحتاج إليها فى قضاء آلاف المطالب العديدة اللازمة للحياة اليومية

ومن هذا يتبين أن توزيع الطاقة على الأرض هو فى الجملة توزيع للطاقة الشمسية فالأماكن التى تقع مباشرة تحت الشمس تتلقى قسطاً من الطاقة أوفر من تلك التى تستقبل الإشعاعات بميل أو بانحراف ، وبعبارة أخرى أن الأماكن القريبة من خط الاستواء هى فى مجموعها أوفر حظاً من تلك التى تقع قرب القطبين ولعل هذه الحقيقة هى أهم حقائق التاريخ العالمى وأبقاها ، ومدى الاستفادة من هذه الطاقة متأثر بتوزيعات أخرى عديدة بدرجات متفاوتة وفى أزمنة مختلفة ولكن توزيع الطاقة يظل فى جميع مراحل التاريخ هو الأساس الأول الذى تقوم عليه جميع الأحداث.

ويمكن أن نبين بجلاء الأثر الذى تتركه هذه التوزيعات فى تاريخ العالم إذا تصورنا الكرة الأرضية بما عليها من قارات ومحيطات كما نعرفها اليوم ، تدور حول الشمس ، وهى تدير لها دائماً وجهاً واحداً فقط ، لو حدث مثل ذلك لتركزت الحرارة والضوء فى نصف واحد من الأرض وبصفة خاصة فى وسط ذلك الجزء من الكرة الأرضية وبطبيعة الحال لن يتلقى النصف الآخر شيئاً من هذه الاشعاعات ، ومن الواضح أن الحياة لن تصبح ميسورة كما هى حالنا اليوم ، ولو أنها قد تصبح ميسورة فى أماكن تستحيل فيها الحياة اليوم استحالة مادية . ثم إذا تصورنا الأرض تدور كما تدور الآن ولكن ميل محورها يختلف عن ميله فى الوقت الحاضر فإن قليلا من التفكير يرينا كيف تختلف الأحوال عندئذ اختلافا جسيما عن الظروف السائدة فعلا الآن ، وإن كانت هذه فروضاً فيها تعسف ولكنها تؤكد كيف أن توزيع الطاقة فى حالته الراهنة يتحكم فى التاريخ .

وقد يقال أن التوزيع النظرى للطاقة على سطح الأرض قد تأثر ببعض العوامل البشرية أو بما يعرف أحياناً بالتعادل البشرى (١) غير أن هذا التوزيع للطاقة يتأثر

(١) يقصد المؤلف هنا تناسب طاقة البشر مع الطاقة الطبيعية — فكلما نقصت الطاقة الطبيعية كلما ازدادت الطاقة التى يبذلها الإنسان فى حياته والعكس بالعكس — المترجم .



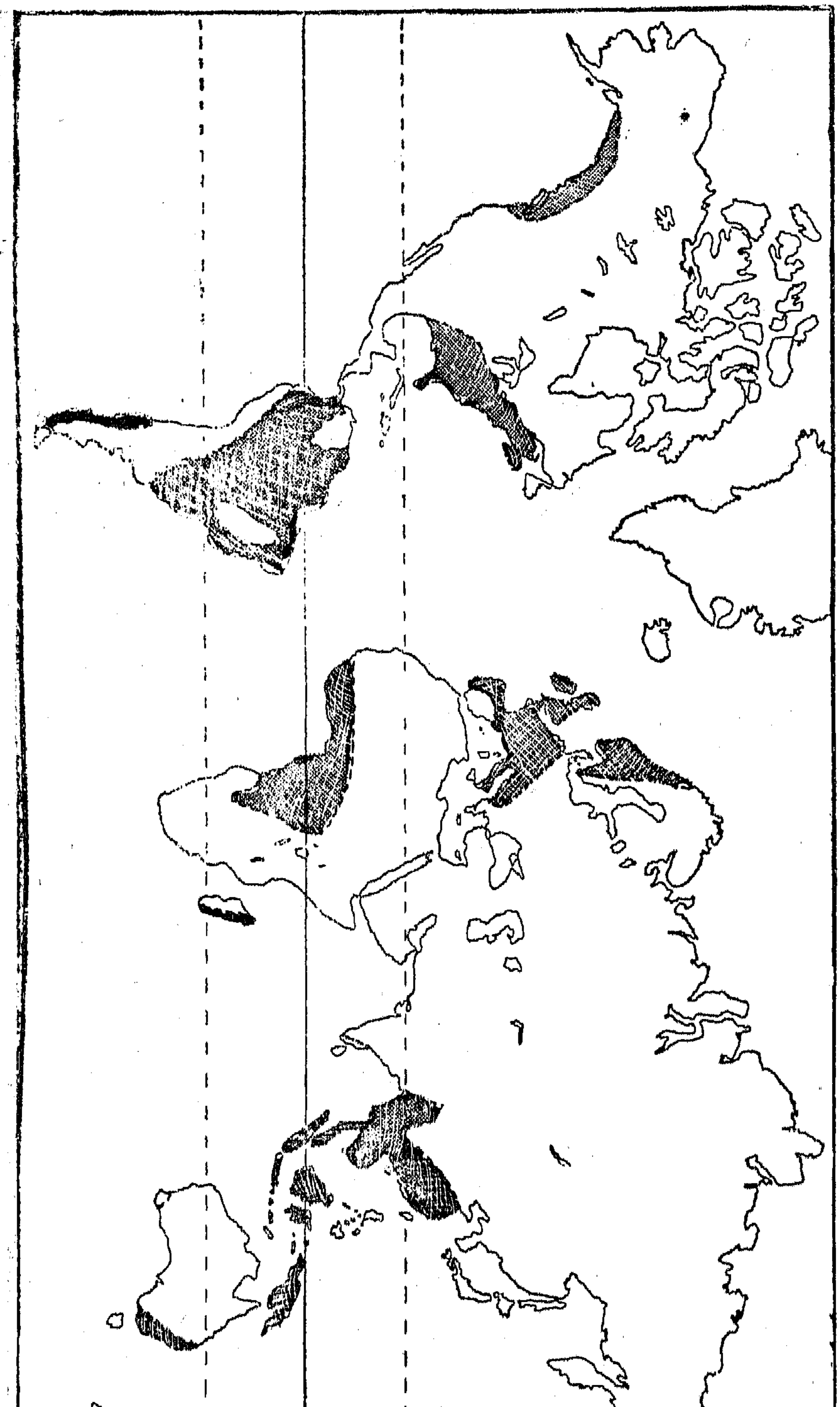
الخريطة رقم ١ — المنطقة ذات المناخ الحار
تبين المساحة المظللة الأماكن التى لا تنخفض فيها درجة الحرارة إطلاقا عن ٥٠ فهرنهيت
إبان السنوات العادية

إلى حد ما بعوامل أخرى مختلفة ومثال ذلك أن الأماكن القريبة من خط الاستواء تتلقى بصفة عامة قسطاً من الطاقة أوفر من تلك التى تجاور القطبين ولكن هذا النقص فى الطاقة لا يسير على وتيرة واحدة فبعض الأقاليم يتلقى فعلا قسطاً من الطاقة أكبر من أقاليم أخرى تقع على مقربة من خط الاستواء بسبب اختلاف توزيع الهواء والتيارات الهوائية أوما نسميها بالرياح .

(ا) ومن الأهمية بمكان ملاحظةالتوزيع الفعلى للهواء، ومن المعلوم أنه كلما ارتفعنا عن سطح الأرض نقصت درجة الحرارة أو بعبارة أخرى قلت الطاقة التى يمكن الاستفادة منها وهذايتصل بحقيقة أخرىوهى أنه كلما ارتفعنا كلمانقص الهواء نفسه .

وهكذا تصبح الابعاد الرأسية ذات أهمية بالغة مع أن هذه الابعاد عينها قد، لاتستحق الذكر لو أنها اتخذت على مقياس أفقى وذلك بسبب هذا النقص فى الطاقة وحده، فالقمح مثلا وهو غذاء رئيسى يمكن أن ينمو فى بريطانيا فى منطقة تمتد شمالا إلى انفرنسشير (Invernesshire) ولكنه لاينمو فى انجلترا نفسها على ارتفاع ألف قدم بسبب نقص الحرارة الكافية اللازمة لنضوجه لأن درجة الحرارة تنقص بمعدل درجة فهرنهيت واحدة لكل خمسين أو ستين ميلا حين نتجه نحو القطبين ولكنها تنقص بنفس المعدل لكل ٢٠٠ أو ٣٠٠ قدم يرتفعها الانسان عن سطح الأرض .

(ب) ولا يقل توزيع التيارات الهوائية أهمية عن عامل الارتفاع بل وقد يفوقه أهمية فإلى فعل الرياح ودفعها للتيارات المائية يرجع الفضل فى أن انجلترا أدفأ مناخاً من لبرادور وأن الحياة ميسورة فيها عموما لإن تياراً مائياً دفيئاً يأتى من الجنوب الغربى فيرفع من درجة حرارة المناخ فوق المعدل المعتاد لمثل هذه العروض وهى تتراوح بين ٥٠ و٦٠ درجة بينما الحياة فى لبرادور تكاد تكون مستحيلة بسبب تأثرها بالمياه المثلجة الآتية من الشمال المتجمد ولو قارنا خريطتين إحداهما تمثل الرياح والأخرى تمثل التيارات المحيطية لاتضح أن التيارات تدين بوجودها



(الخريطة رقم ٢)
توزيع مناطق الأمطار الغزيرة الدائمة

المناطق المظللة يزيد فيها
المطر عن عشر بوصات طول العام

إلى الرياح ، ولو أمكن مقارنة الخريطتين بخرائط أخرى تمثل الحرارة لاتضح لنا أن نظام الرياح مسئول عن عمران أو جدب الأراضى التى تقع فى نطاق ٢٠° عرضية جنوبى الدائرة القطبية الشمالية .

ومعنى هذا أن نظام الرياح قد تحكم تحكما فعالا فى مجرى التاريخ بطريقة أخرى ، وقد سبقت الإشارة إلى اعتماد الانسان فى حياته على غذائه وحيثما يكون الانسان فإنه يأكل ليعيش، وطعامه إما أن يكون مستمداً من النبات وأما من الحيوان. ولما كانت الحيوانات تعتمد آخر الأمر فى غذائها على النباتات أدركنا بوضوح الأهمية البالغة التى للمواد النباتية . حقاً أن مجتمعات قليلة جداً قد تعيش على الأسماك وهذه بدورها تعتمد على أنواع خاصة من النباتات المائية أو على مخلوقات أخرى تعيش معتمدة على الأنواع النباتية الدنيا ولكن أغلب البشر يعتمدون فى غذائهم على المنتجات النباتية التى تنمو بفضل المطر فإنه لا يكفى أن توجد الطاقة (الحرارة) بل أن وجود المطر أساسى حتى يتيسر للنباتات أن تنمو ، أى أن الأمر لا يقتصر على وجود الطاقة فحسب بل على إمكان الإفادة منها ، أى أنه متوقف على وجودها بالمظهر أو الشكل الذى يمكن الانسان من استخدامها ، والمطر هو الأبخرة الآتية إلى اليابس من المحيط ، والرياح هى الناقل الوحيد لها فإذا هبت الرياح من البحر إلى اليابس تهيأت الفرصة للأرض التى تهب عليها لأن تستفيد من طاقتها فتصبح صالحة للسكنى والحياة . أما إذا هبت من اليابس إلى البحار كانت الأراضى التى تهب منها جافة قاحلة لا يقبل الناس على العيش فيها .

يتضح مما سبق أن الظروف الجغرافية قد تحكمت فى التاريخ تحكما حقيقياً لا مجازا ، فهى التى جعلت بعض الأماكن تلائم بوجه عام حياة البشر أكثر من غيرها، ولكن الظروف الجغرافية تحكمت فى التاريخ بمعنى آخر أدق يمكن اجماله بالقول بأنها وجهت التاريخ فى مجراه توجيهاً فعلياً .

هذه الظروف وآثارها هى التى نحن بصدد دراستها .

الفصل الثانى

الصحراء — بدء التاريخ — مصر

لقد رأينا مما سبق أن عوامل جغرافية تتحكم فى التاريخ وتسيره بمعنى أنه بفضل توزيع الحرارة والرطوبة أصبحت الحياة أكثر يسراً فى بعض بقاع الأرض عن غيرها . وعلينا الآن أن نبحث الظروف الجغرافية الأخرى التى تحدد السبل التى سار عليها التقدم والرقى .

أولا — ينبغى أن نلاحظ أن الظروف الجغرافية هى التى خلقت الحافز الذى دفع الإنسان إلى التقدم ومتابعته، حقا ان الأقاليم الإستوائية بما توافر لها من الحرارة والرطوبة قد تيسر أسباب الحيـاة للحيوان إلى أقصى حد ، غير أن من الحقائق الراهنة أن الإنسان فى الأقاليم المعتـدلة لا فى الأقاليم الإستوائية قد بلغ الغاية فى قدرته على التحكم فى الطاقة . والتاريخ الجدير بهذا الإسم لا نجـده فى أفريقيا الإستوائية وإنما نجده فى أوربا المعتدلة ويرجع هـذا إلى عاملين جغرافيين ترجع أهمية كل منهما للأثر الذى يتركه فى عقل الإنسان كما يتركه فى جسمه .

(١) يأتى فى المرتبة الأولى أنه ليس فى العروض الإستوائية ما يحفز الإنسان أو الحيوان إلى بذل الجهود أكثر من أن يتناول الطعام الضرورى الذى يحفظ عليه الحياة . وما ذلك إلا لأن الحياة ونعنى بها الحياة الحيوانية ميسورة فى هذه العروض ، وأما فى العروض المعتدلة ، فكلما ابتعدنا عن خط الإستواء أصبحت الحياة أكثر صعوبة ، ولهذا السبب إذا ما قدر للمخلوقات فيها أن « تعيش » وتستمر كان من الضرورى لها بذل قدر أكبر من المجهود والنشاط .

وليس للهمج من سكان أفريقيا الإستوائية من حاجة إلى ارتداء لباس ما ولو كان غطاء من الجلد . ومثل ذلك فى الغذاء فهو صعب المنال فى أوروبا ويتطلب الحصول

عليه جهداً ونصباً . وعلى ذلك فإنه حتى فى ذلك الزمان الذى كانت الأجناس البشرية جميعاً على درجة من التأخر والهمجية نجد متوحشى أوروبا أرقى من متوحشى أفريقيا لا لسبب إلا لأن الحياة فى أروبا تتطلب نشاطاً ذهنياً أكثر بسبب النقص فى الطاقة الشمسية .

(ب) ثم يأتى فى المرتبة الثانية أن الأيام فى الأقاليم الإستوائية تكاد تشبه بعضها بعضاً ولكن الأيام تختلف فيما بينها كلما اتجهنا شمالاً فلا تشبه بعضها بعضا .

وبحكم تتابع الفصول فى العروض المعتدلة تصبح فيها أيام للصيف وأخرى للشتاء . وهى تختلف تبعاً لاختلاف كمية الطاقة الحرارية أو تبعاً لاختلاف مقدار الرطوبة فى هذا الفصل عن ذاك . وفى أى من الحالين فمن المؤكد أن يكون الطعام شحيحاً فى فترة وموفوراً إلى حد ما فى فترة أخرى .

ونشأ عن ذلك أن اليوم أصبح دورة الحياة فى إفريقيا الاستوائية حيث يعزف الأفراد والأجناس عن النظر إلى المستقبل البعيد ويقصرون حياتهم على الزمن الحاضر وحده ولا يحتاطون للمستقبل بينما السنة هى دورة الحياة فى الأقاليم المعتدلة ومن ثم عنى الناس بالتفكير فى أمر مستقبلهم .

هاتان المجموعتان من الظروف الجغرافية ، شأنها شأن كثير من الظروف الجغرافية إن لم يكن أغلبها ، واضحتان وضوحاً يخشى معه أغفال شأنهما أو التقليل من خطرها فى تاريخ العالم ، ولكنهما تعملان فى إصرار وإلحاح ولهما صفتا الاستمرار والتأثير على مدى الزمان فى كل رجل وكل امرأة وكل طفل فى كلا الاقليمين . هاتان الظاهرتان بمفردهما ، أو بالاشتراك مع غيرهما ، تفسران اختلاف تاريخ الاقليمين ، « تقدم حضارة أوروبا » وجهالة « القارة المظلمة » .

وتبدو أهمية هاتين الظاهرتين فى خلق الحافز الذهنى الذى يدفع بالإنسان إلى توفير الطاقة فى المناطق التى نطلق عليها اسم الأقاليم المعتدلة ، إذا ما قدر للحياة فيها أن تبقى مستمرة ، فإن ارتداء الملابس يحول دون إشعاع الطاقة الحرارية ويوفرها لتستغل فى غرض آخر والعروض التى تتأثر بالتغيير الفصلى تتطلب أن تحدد أوقات معلومة للبذر والحصاد وأوقات معلومة للازهار والأثمار ويصبح من الضرورى

ءكان توفير الطاقة الغـذائية من الأيام السمان للانتفاع بها فى الأيام العجاف . والإنسان يستهويه أن يجد أقل قدر من المقاومة ، سواء فى الأقاليم الاستوائية أو فى الأقاليم المعتدلة ولـكنه فى واحدة منها يجد دافعاً أو حافزاً للعمل قد يصل به إلى درجة الحاجة التى هى أم الاختراع بينما ينعدم عنده هذا الحافز فى الإقليم الآخر . ولما كان الحافز إلى التفكير فى اقتصاد الطاقـة يكاد يكون معدوماً فى العروض الاستوائية ، فإنا نجد فيها أجناساً بشرية أكثر انحطاطاً من غيرها من السلالات التى تسكن المناطق الأخرى حتى بعد أن تقادمت العهود على ارتقاء هذه السلالات الأخيرة وارتفاعها عن مستوى معيشة الحيوان . ومن ثم يجب ألا ننتظر من هذه السلالات تقدماً ، وبالتالى يجب ألا ننتظر منها تاريخاً ، أما فى العروض المعتدلة فبفضل وجود هذا الحافز واستمراره نرى الأجناس توالى تقدمها وتضيف لنفسها قوة على قوة . وهذا يبين لنا السبب الذى يفسر الحقيقة التالية وهى أن تاريخ العالم هو فى معظمه تاريخ المناطق المعتدلة التى تقع على وجه التقريب بين خطى عرض ٣٠°, ٦٠° .

ثانيا — ويبرز أثر هذا الحافز كاملا فى بعض الأماكن أكثر من غيرها تبعاً للظروف الجغرافية . ولما كان الإنسان يتحكم فى الطاقة ويسيطر عليها سواء يتناول الأطعمة ذاتها كما هو الحال فى البيئات البدائية أو باستخدام الفحم كما هو الحال فى بيئة القرن العشرين ، ففى استطاعته أن يسخر هذه الطاقة بطريقتين : أما بالإفادة منها بتسخير طاقة أكبر منها ، وأما بتبديدها دون فائدة ، بل وقد يسخرها فى تدمير وسائل الانتفاع بها . وقد يتبع الطريقتين فى وقت معاً إلى حد ما ، وقد يبذل مجهوده الخاص لينتفع بمجهود غيره وفى هذه الحال تزيد قدرة الفرد ولـكن لا تزيد كمية الطاقة التى يتحكم فيها مجموع البشر .

ومن البين أن أقدر الجماعات على توفير الطاقة هم أولئك الذين يعيشون فى وئام وسلام ، والفضل فى تضامنهم مع غيرهم مبعثه تزايد قدرتهم على توفير الطاقة ، الأمر الذى ييسره لهم اتحادهم ، ولا ينتظر أن تظهر مثل هذه الجماعات لأول مرة فى الأقاليم الإستوائية لا لمجرد انعدام الحافز الذى يدفع بهـا إلى التفكير فى المستقبل ولـكن لأن الأفراد والقبائل لا تعيش فى سلام بسبب ما تفرضه عليها الطبيعة من انحطاط

فى مستوى حضارتها — نعم قد تعيش قبائل — لأن الفضل فى وجودها يرجع إلى عوامل غير جغرافية — ولكن القبيلة ، فى غير المناطق الإستوائية تنمو وتصبح نظاماً أكثر تعقيداً .

بل حتى فى المناطق التى يتوفر للانسان فيها هذا الحافز يحتاج أيضاً إلى نوع من الحماية كى يتيسر له الرقى . وقد تأخذ الحماية أشكالا شتى ، فقد يحمى الرجل نفسه وقد تحمى الأمة نفسها باستخدام جزء من طاقتها فى الدفاع ، ومن الواضح أنه من الأفضل لو أمنت أمة الدفاع عن نفسها دون تنفق فى هذا طاقتها كأن تتكفل ظروفها الجغرافية فتدفع عنها شر العدوان . ويجب أن نتصور أن مثل هذه الجماعة أو القبيلة أو السلالة سرعان ما تخرج من مرحلة التأخر والهمجية وهو الدور الذى تكفلت فيه الطبيعة بحمايتها . وقد تكفلت الظروف الجغرافية بحماية أمم مختلفة فى عهود مختلفة وفى أحوال مختلفة ، غير أن أنواع الحماية تتغير تبعاً لتغير الأحوال وما يعد حماية فى عصر من العصور قد لا يصبح حماية كافية فى عصر آخر — ويعد درعا واقياً فى أى عهد من العهود كل ما يحول دون تدخل القبائل أو الأجناس الأخرى . وتعد من أنواع الدفاع الخاصة تلك الظاهرات الجغرافية التى يتعذر على الناس تخطيها أو عبورها فى يسر ، ويزيد الدفاع مناعة كلما زادت الطاقة التى يبذلها الإنسان فى هذا السبيل .

وتقوم بهذا الدور ظاهرات جغرافية كثيرة كالأنهار والبحيرات والجبال والسفوح الشديدة الانحدار والمستنقعات، ولها جميعاً أثرها فى حماية المجتمعات الصغيرة، ولكن الظاهرات الكبرى التى لحمايتها أثر فى مجرى التاريخ العالمى هى الهضاب الواسعة التى تبلغ حداً من الإرتفاع يتعذر معه نمو النباتات ، أو الصحراوات المترامية الشديدة الجفاف لدرجة تفقدها كل قدرة على الإنبات ، أو البحار التى لا يتيسر للانسان أن يتخذ فيها مقراً . ويقتضى التغلب على كل من هذه العقبات بذل الجهود بالإضافة إلى أنها تكاد تفتقر إلى أول مقومات الحياة البشرية . ولا بد للانسان أن يكون على قسط كبير من المدنية قبل أن يصيب نجاحاً فى التغلب عليها . ولهذا هيأت فى العصور الأولى حماية كاملة للمجتمعات التى احتضنتها . لقد كانت هذه الظاهرات مجهولة مخيفة وكان البحر أكثرها غموضاً ورعبا .

ثالثاً — كما يجب أن نذكر أثر هذه الظروف الجغرافيـة باختصار ونوضحها كعوامل موجهة للتاريخ ، ذلك أن مجرى التاريخ بأسره ، بما فى ذلك بداياته ، قد تأثر بصفات الأفراد والأجناس وميزاتهم ، وبعض هـــذه الصفات يرجع إلى عوامل جغرافية وبعضها الآخر لا يرجع الفضل فيه إلى مثل هذه العوامل ولـكنا نأخذها قضية مسلمة ، كما أن أحداث التاريخ بكل ما استتبعته من نتائج وحدوثها فى الأزمان التى قدرت لها — بل أن مجرد حدوثها وحده — كل هذا يرجع إلى إرادة الإنسان ورغبته فى العمــل . ولو حرم الإنسان قوة الإرادة لما حدثت هذه الأحداث إطلاقا . غير أن أعمال البشر من ناحية أخرى تتكيف طبقاً لمقتضيات الظروف المحيطة بهم كما تتـكيف حسب تكوين أجسامهم . والاتجاهات التاريخية الـكبرى لم تتأثر إلى حد كبير بالصفات المميزة للأفراد ، لأن الظروف الجغرافيـة على مر العصور أقوى أثراً من عبقرية الأفراد ، وأبعد مدى من المميزات الجنسية ما لم تكن هذه المميزات وليدة عوامل جغرافية وهكذا بدأ التاريخ حيث بدأ بفضل هذه الظروف الجغرافية .

ومن الواضح أن معلوماتنا عن صـور الحضارات الأولى ناقصـة وفى أغلب الأحيان قليلة ، ومن الطبيعى ألا يكون لدينا سجل للتقدم التدريجى الذى حدث خلال العصور الطويلة قبل أن يخرج الإنسان من ظلمات الوحشية ، وأقصى ما نأمل فى البحث عنه هو بقايا هذه الحضارات القديمة ، تلك البقايا التى صمدت للدهر طويلا لأنها متينة فى تكوينها ، ولا شك أن أنها بقايا حضارة متقدمة إلى حد ما .

ومن الطبيعى أيضاً ألا تصـل الحضارات الأولى التى سمعنا بها إلى ما وصلت إليه إلا بعد عهد قد يقدر بعشرات الآلاف من السنين لأن نمو هذه الحضارة كنمو الأشجار بطىء فى مبدئه لو قورن بنموها فيما بعد حين يتيسر للشجرة أن تنمو فى أجزاء كثيرة منها ، ويجب أن نذكر أنه حتى فى تلك الأزمان التى نبدأ فى اعتبارها أزماناً تاريخية سبقها تاريخ بدائى على نطاق ضيـق كان يجرى منذ زمان سحيق وقد يمتد فيزيد طولا عن عمر التاريخ كله ولـكن أيضاً يجب أن نذكر أنه قليـل الأهمية محدود النطاق من وجهة نظر التاريخ العالمى .

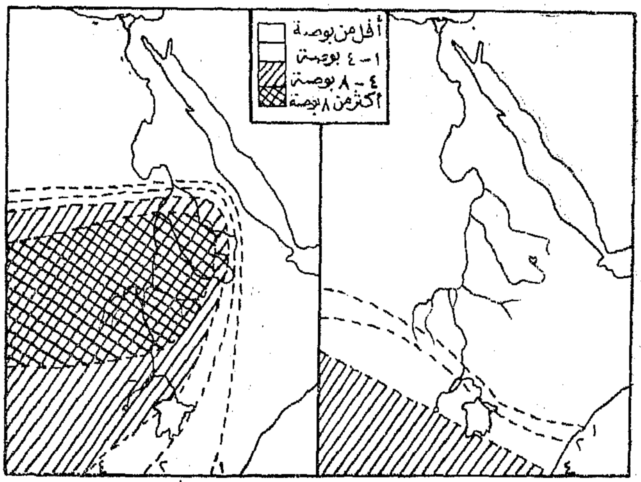
هذا البطء فى النمو هو نتيجة طبيعية لعوامل فرضتها الجغرافيا . ولما كانت الظروف الجغرافية هى عوامل موجهة أو ضوابط وليست فى حد ذاتها قوى دافعة فهى تستغرق زماناً طويلا لتجعل أثرها محسوساً . وبمرور الزمن تبدو نتائج هذه الضوابط أكثر وضوحاً وربما أفعل تأثيراً وقد أثرت بمضى الوقت بطريقتها الخاصة لأن أحوالا معينة كانت سائدة ، أو لأن أحوالا أخرى غابت عن الميدان فمثلا يستغرق شخص أو جنس من الأجناس فى اكتشاف حقيقة ما وقتا أطول مما يستغرقه تلقينه اياها ، ولهذه الحقيقة مزايا ، فاكتشاف الأنسان لحقيقة معينة يدل على أنه قد وصل إلى المستوى العقلى الذى يمكنه من الإفادة بذكاء من اكتشافه لها ، وليس هناك أشد خطراً من فرض حضارة زائفة أى حضارة منقولة على هذا الجنس إذ أن ضررها يزيد على نفعها .

ولتلخيص ما سبق ذكره نقول أن أول بوادر الحضارة ظهرت حيث الحياة سهلة ميسورة إلى حد ما ، وحيث دورة الحياة ليست اليوم أو النهار ، وحيث يتحتم على الانسان أن يعمل من أجل حاضره ومستقبله . وأكثر من هذا نجد الأجناس الأولى المتحضرة عاشت فى بعض الأماكن فى جماعات أكبر نسبياً من الأسرة ومن القبيلة ولكنها مجتمعات صغيرة بحيث تكون فى حد ذاتها وحدة تشعر بكيانها وذاتيتها . هذا على أن يتوافر لها قسط من الحماية ضد عدوان الأعداء ممن تفوق قدرتهم على التخريب قدرة هؤلاء على الانشاء . وحين تبدأ معرفتنا بهذه الأجناس ، لابد وأن تكون قد استغرقت زمناً طويلا حتى نجحت فى الخروج من مرحلة الهمجية التى كانت تعيش فيها .

☆ ☆ ☆

هنا نرى مصر تتمتع بمناخ بديع — فهى وإن خلت من الأمطار فأحاطتها الطبيعة بصحراء على كلا الجانبين إلا أنها تستمتع بمورد من الماء العذب — وهو على دوامه ذو دورة فصلية ، وقد لا ندرك هذه الظاهرات المتناقضة إلا إذا درسنا جغرافية مصر ، فلمياه النيل مصدران — أحدهما إقليم المطر الاستوائى الدائم حيث يستمد النهر ماءه بعد أن تنظمه مجموعة من البحيرات والمستنقعات فيخرج

منها ذا تصرف تقل معه ذبذبة المستوى خلال العام كله ، والمصدر الآخر مرتفعات الحبشة — وهى بلاد تمتاز بموسم مطير إذ يسقط عليها فى أواخر الربيع وأوائل الصيف طوفان من الأمطار فتنحدر من المرتفعات إلى السهول ثم من السهول إلى الأراضى الجافة فى شمالها .



يوليه — يناير

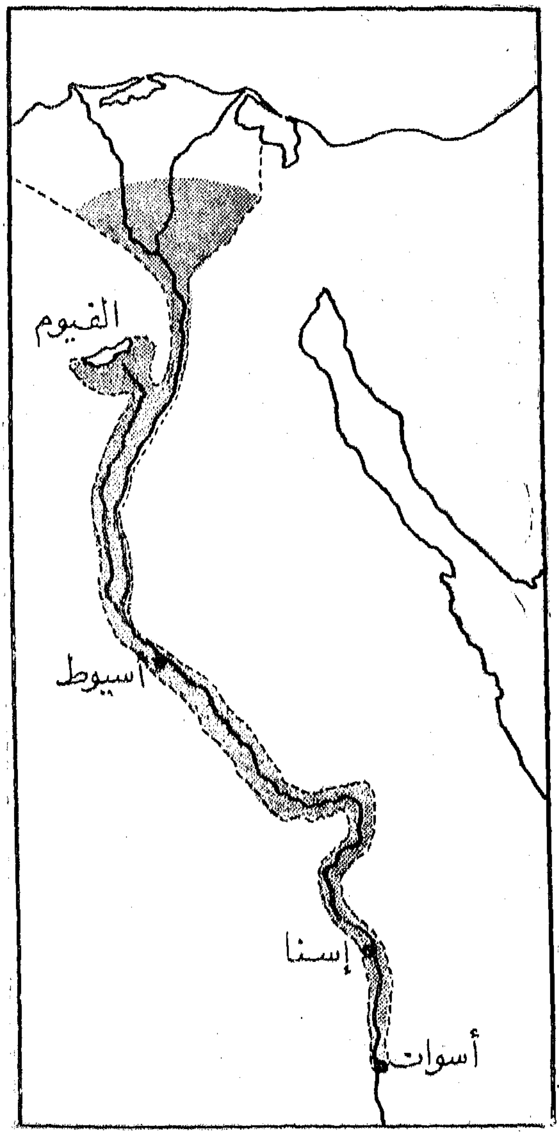
الخريطه رقم ٣

سقوط الأمطار فى حوض النيل

تبين الخريطتان كيف أن الروافد الجنوبية تستمد ماءها صيفاً وشتاء بينما تستمد الرافد الشرقية كميات كبيرة من الماء خلال شهور الصيف فقط

وما مصر سوى دلتا النيل وواديه الأدنى إلى مسافة سبعمائة ميل من مصبه فهى شريط ضيق ، لا يصل عرضه فى أغلب الأحيان أكثر من عشرة أميال ، يمتد بمحاذاة مجرى النهر العظيم حتى البحر — ترويه النيل وتحميه الصحراء من كل جانب وقد وقفت حاجزاً لا يسهل عبوزه — وفى حقيقة الأمر فإن هذه الحماية أكمل مما تبدو — فإن النيل فى مجراه الأدنى يجرى خلال أراض من الحجر الجيرى حفر فيها واديه فى أول الأمر ، ثم ملأه بعد ذلك بما جلبه معه من طمى تحتته الفيضانات المتوالية من جبال الحبشة ، وهو يجرى فى الجنوب ابتداء من موقع أسوان الحديثة فوق طبقات من الحجر الرملى ترتكز على كتل كبيرة من الصخور الصلبة ، والنهر هنا لم يكون واديا حقا لمسافات شاسعة بل اقتصر

على عدد من الخوانق تفصل بينها الجنادل وقد لا يبعد شاطىء النهر عن الصحراء الجرداء أكثر من مسافة متر أو مترين لا تصلح لأن ينمو فيها شيء فى الواقع وليس فيها ما يغرى على الاقامة ، وهكذا عزلت مصر من الجنوب تماماً كما عزلت من الشرق والغرب .



الخريطة رقم ٤

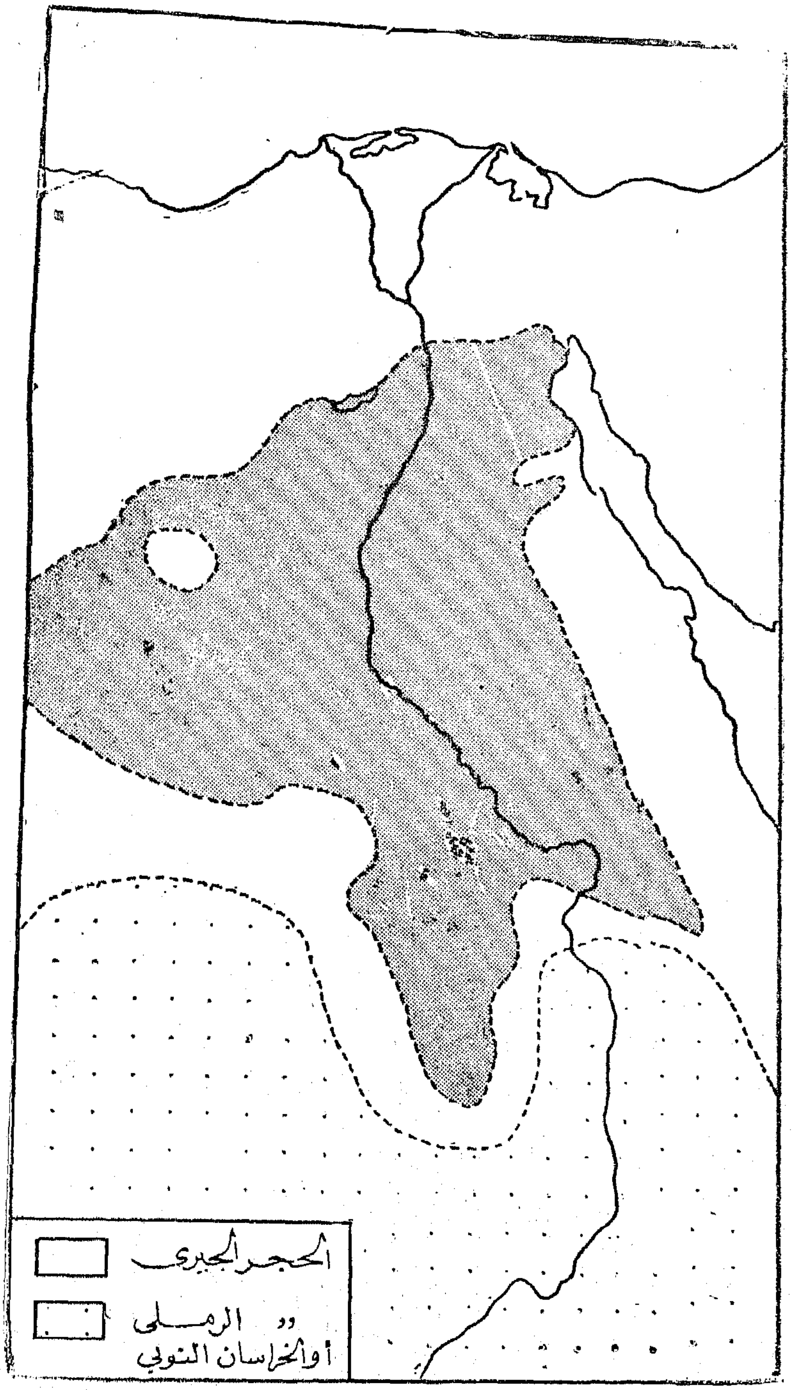
مصر

وفى الشمال يوجد البحر . وفى الأيام الخوالى كان البحر مجهولا ولذا وهب لمصر حماية كاملة شأنه شأن الصحراء تماماً ، ولا نجد مثل هذه الظروف موفورة فى جهات أخرى توائم فيما بينها نشأة حضارة مبكرة وترعاها بدرجة لاتدانى .

ويتبين من المعلومات الضئيلة الأولى عن تاريخ مصر الطويل أنه كان يسكنها جنس بشرى لم يكن على أية حال فى الدرك الأسفل من الهمجية والتأخر . وما كاد هذا الجنس يظهر حتى اختفى ليحل محله جنس آخر أرفع شأوا فى حضارته . غير أننا لانعرف عن هذا الجنس الأخير إلا قليلا ، وقد أقامت هذه الشعوب فى وادى النيل وعاشت هادئة مطمئنة زهاء ألفى عام قبل أن يظهر على المسرح أولئك الذين يطلق عليهم اسم قدماء المصريين .

ولما بدأ المصريون يسيطرون على البلاد حوالى عام ٤٥٠٠ قبل الميلاد اقتبسوا بدورهم حضارة أولئك الذين سبقوهم فى سكناها ، وارتفعوا بمستواها فى شىء من السرعة حتى أنه لم تحل سنة ٣٧٠٠ ق . م الميلاد حتى كان ملوك الأسرة الرابعة يحكمون البلاد جميعاً من الجندل الأول إلى البحر وبلغوا درجة من التنظيم مكنتهم من تشييد الأهرامات العظيمة .

ثم حدث إنحطاط ملحوظ — كما يحدث عادة فى غير مصر — ويبدو أن الأداة الحكومية قد أصابها البلى فضعفت قوة الحكومة المركزية خلال عهود أسرات عديدة ، ثم انقسم وادى النيل إلى أقاليم ومقاطعات مختلفة بحكم طوله وضيق اتساعه ، وأخذ حكامها يستأثرون بالسلطان على حساب الملك واتجهت الأمور شيئاً فشيئاً نحو الفوضى مما أخر تقدم البلاد ، إلا أن الحضارة المصرية ظلت تتابع سيرها الحثيث ، وإن كان بطيئاً خصوصاً فى النواحى التى تميزت بها ، والتى اعتمدت على تحسين وسائل الرى . ونظراً لأن مقر الحكومة المركزية إبان هذه العصور الأولى كان يقع قرب رأس الدلتا دائماً ، كان من الطبيعى ، حين تنشب ثورة من الثورات فى مقاطعة صغيرة أن تأخذ فى نشر نفوذها فى المقاطعات المجاورة لها ، ولا بد وأن تكون القوة الناشئة أو الثائرة بعيدة ما أمكن عن مقر الحكومة المركزية .



چولوچية القطر المصرى
يبدأ وادى النيل الأدنى حيث تبدأ طبقات الحجر الجيرى

ولما استعادت مصر مجدها حوالى عام ٢٥٠٠ قبل الميلاد تحت حكم الأسرة الثانية عشرة كانت طيبة — لا هرقليوپوليس أو منف — هى القلب فى جسم الحياة المصرية . وعم الرخاء القطر المصرى تحت حكم هؤلاء الملوك وأقيمت مشروعات الرى الكبرى وزادت الثروة القومية حتى ليمكننا أن نقول أنها بلغت ذروة تقدمها فى ذلك الحين .

ثم ضعف الحكم الوطنى مرة أخرى وكان من الطبيعى أن ينتقل الحكم أخيراً دون غزو بالمعنى المعروف من أيدى الوطنيين إلى ملوك الهكسوس ، وهم قبائل من الرعاة جاءوا إلى مصر ، أما لأن الدلتا قد اجتذبتهم إليها بما فيها من خيرات وإما لأنهم لجأوا إليها اضطراراً يبحثون عن مأوى يقيهم شر أعدائهم . وقد اتخذت هذه القبائل بصفة خاصة حضارة البلاد حضارة لها ثم اندمجت بالسكان الذين عاشت بين ظهرانيهم ، ثم قام أمراء طيبة بفضل بعدهم عن مركز سلطان الهكسوس فى الدلتا ، وانتزعوا السلطة من أيدى هؤلاء الحكام وطردوا جزءاً من السكان من أرضهم ودانت لهم زعامة البلاد .

ولأول مرة فى تاريخ مصر يطرد منها غزاة ، وإن كانوا قد دخلوها مسالمين ، ولأول مرة فى تاريخها تبدأ مصر غزواً خارجياً حوالى عام ١٦٠٠ ق . م . تحت امرة ملوك الأسرة الثامنة عشرة ممن تسموا بأسماء تحتمس وامنحوتب . واستمر هذا الغزو حتى امتدت السيطرة المصرية شمالا إلى جبال أرمينية .

وهكذا يظهر التاريخ المصرى ثلاث فترات بلغت مصر فيها ذروة المجد ، وتعد عصوراً ذهبية بارزة ليس فقط لأن التقدم التدريجى فى حضارتها كان أوضح ما يكون فى هذه الفترات وإنما لأنها أضافت إلى كفايتها ما اقتصدته فى الطاقة بفضل مركزية حكومتها ، وإلى هذا الاقتصاد يرجع بعض الفضل فيما أحرزته البلاد من تقدم سريع آخر . وتعتبر الفترة الذهبية الثالثة أرفع ذروة وصل إليها مجد مصر فى نواحى الثروة والرخاء المادى . ثم أخذت الحضارة المصرية والقوة المصرية فى الهبوط على الرغم من مجىء الرعامسة فيما بعد وقامت ظروف أخرى ليست كلها جغرافية قللت من أثر العوامل الجغرافية وهى التى ظلت تتحكم أو تسود الموقف حتى هذا

العصر ، وبدأت ظروف جغرافية أخرى تحدث أثرها . ولما تم لسنحاريب هزيمة ملوك مصر لم تكن هذه سوى بداية سلسلة من الفتوحات خضعت مصر معها تحت حكم أمم مختلفة كالأشوريين والبابليين والفرس واليونان والرومان والعرب والأتراك والبريطانيين . ولم تر مصر الاستقلال منذ عام ٣٣٠ ق م .(١)

وليس تقدم الدولة المصرية راجعاً إلى العبقرية الموروثة لسكانها فانه على الرغم من الحماية التى كفلتها الطبيعة للبلاد نجد جنسين إن لم يكن ثلاثة أجناس منفصلة قد استوطنت البلاد على التوالى فى عصور تاريخية وكان كل منها على جانب رفيع من الحضارة بالنسبة للعصر الذى عاش فيه ولكنه بلغ فى مصر مستوى من المعيشة أرفع مما بلغه سكان البلاد الأخرى فى نفس الوقت .

لقد كان التقدم وليد الظروف الجغرافية التى ذكرناها آنفاً بما توافر لمصر بصفة خاصة من حمايه ممتازة . لقد غزيت البلاد ولكن يجب ألا يغيب عن الذهن أن الغزوات كانت قليلة فى عددها وفى طول مدتها بالنسبة لطول التاريخ المصرى ومن المحتمل أنه تصل فترة استقلال مصر إلى أربعة آلاف عام لم يشهد المصريون خلالها عدواً غازياً لهم فى عقر دارهم ، (أى بما يزيد بألف وخمسمائة عام عن المدة التى تفصل زماننا عن زمانهم) وساد حكم الملوك الوطنيين طوال تاريخهم فيما عدا فترة لم تتجاوز بضع مئات من السنين ، حقاً اعترى الملوك الوطنيين الضعف والإنحلال بعد عام ٢٥٠٠ ق.م وحل محلهم لفترة ما حكام من أصل أجنبى ، غير أنه بعد أن طردهم ملوك الوجه القبلى من المصريين وهم الذين لم يخلعوا عن عروشهم لاعترافهم بسيادة ملوك الهكسوس عاشت مصر نحو ألف عام ، وهى أمبراطورية مترامية الأطراف ، قبل أن تدول دولتها وتحل محلها حضارات ساهمت مصر بقسط كبير فى خلق الحافز الأول الذى بعث بها إلى الوجود .

ولو قارنا تاريخ مصر بتاريخ دول العالم الأخرى لوجدنا أنه ما من واحدة منها عاشت نصف ذلك الزمان بدون غزو أو اجتياح . وأن طول العهد الذى لبثته

(١) يمكن الرد على هذا بحقائق تاريخية ثابتة تؤكد استقلال مصر فترات طويلة بعد هذا التاريخ .
المترجم

الدولة المصرية إنما يرجع الفضل فيه إلى استحالة الغزو الأجنبي أو احتمالاته ، وهذا بدوره يرجع إلى الحماية التي كفلتها الصحراء — تلك الحماية التي سمحت بالنمو الطبيعي الحثيث لنواحي الحضارة المختلفة دون أن تضطرب بسبب تدخل عناصر أجنبية من حين إلى آخر .

ولما سقطت مصر من برجها العالي استمرت الأحوال الجغرافية تؤثر في تاريخ البلاد — وليست الصحراء في حمايتها بأقل شأناً من غيرها إذ اعتاد سكان مصر أن يثقوا في حمايتها مدى أربعة آلاف عام فعجزوا عن أن يدفعوا العدوان . ولما أخذت العوامل الجغرافيــة تنتج مدنيات أرفع شأواً أصبحت مصر كالقصبة المرضوضة كما تنبأ بذلك النبي العبري (١) .

وتدل المظاهر الخاصة التي تمتاز بها الحضارة المصرية بوضوح على أثر العوامل الجغرافية ومن الطبيعي أن يدرك سكان وادي النيل مقدار الطاقة التي يوفرها لهم ري الأراضي ، غير أن الأمر لم يقتصر على ادراكهم الجانب المادي للحياة فإن مسلكهم العقلي يبدو اكثر وضوحاً بطريقة أخرى — فمن البين أن الفكرة الجديدة ، فكرة الاستعداد للمستقبل ، قد سيطرت على عقول المصريين بوحي التغيير الفصلي ، حتى أن أهم الآثار التي تركوها كانت قبوراً ومعابد ، معابد يعرف الأحياء بوساطتها متى يتوقعون الفيضان ومتى تحل بهم التحاريق ومتى تجيء أيام البذر وأيام الحصاد — وقبورا يحفظون فيها أجسامهم الرقيقة مدى عصور لا حصر لها — وكان تراثهم الأدبي الأكبر « كتاب الموتى » مما يؤكد لك أن المصريين أمة وهبت نفسها لتدبير الحياة المقبلة .

---

(١) يبدو تأثر المؤلف في هذه الفقرة بالتوراة .

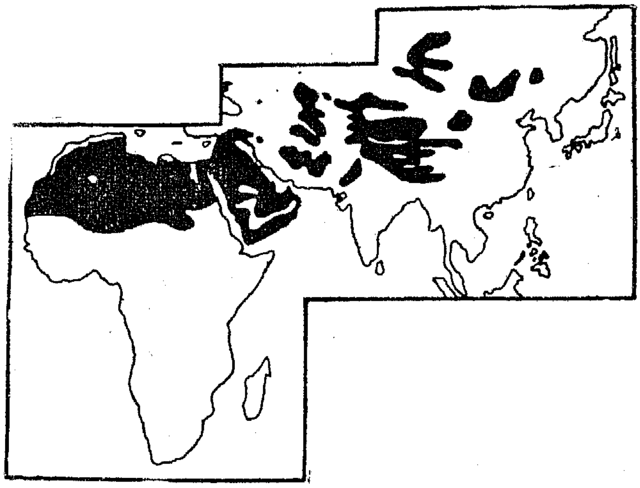
الفصل الثالث

المستنقعات والمراعى — بابل وآشور

رأينا أن أول تباشير المدنية ظهرت فى مصر وهى بلاد حبتها الطبيعة ومنحتها وفرة فى الماء والدفء . وليس من المؤكد معرفة أى عصر من العصور بدأت مصر مايصح أن نسميه تاريخاً ، ولكن مما لا شك فيه أنه قبل أن يحل عام ٥٠٠٠ق.م. كان سكان مصر على قسط كبير من الحضارة وكانوا قد قطعوا شوطاً فى المدنية بعد بهم عن مرحلة الهمجية البدائية ، ومن المؤكد أنهم توصلوا إلى استخدام الأحجار فى بناء المقابر إن لم يكن فى بناء المنازل أيضاً .

ولنلق الآن نظرة على الخرائط لنرى إن كانت هناك أقاليم أخرى ، لها مثل هذا التاريخ العريق وتشابه أحوالها أحوال مصر . ولنترك جانباً العروض القريبة من القطبين وكذلك القريبة من خط الاستواء إما لعدم توافر الطاقة الكافية لتقدم الحضارة وإما لانعدام الدافع الذى يحفز الإنسان إلى استغلالها . أما وقد عرفنا أن الصحراء تكفل الحماية للبلاد التى تحتضنها فمن الطبيعى أن نوجه نظرنا إلى المنطقة الصحراوية لنرى إن كانت تحوى أقاليم أخرى ذات موارد من الماء تهيئ لها الخصب . فإلى الغرب من نهر النيل على طول الصحراء الكبرى لا نجد إقليماً يمكن أن يقارن بمصر ، أما إلى الشرق منه فإن النطاق الصحراوى يتجه شمالا نحو قلب آسيا وهو منطقة جافة لأن الرياح حين وصولها تكون قد تخلصت من رطوبتها بمرورها فوق الجبال المحيطة بهذه المناطق . ولكن الصحراء هنا ليست بالقسوة التى عليها الصحراء المحيطة بمصر ، وليست الأحوال المناخية ملائمة لبناء الحضارة كما هى الحال فى مصر إذ أن مصر فذة فى مزاياها . نعم قد نجد فى بقاع أخرى أرضاً محمية وتخضع للتنوع الفصلى ، موفورة الماء والحرارة ولكنك لن تجد إقليما

تجتمع فيه كل هذه المزايا مثل اجتماعها فى مصر إذ أنها انفردت بهـذا كله بين أقاليم العالم .



الخريطة رقم ٦ — النطاق الصحراوى فى العالم القديم

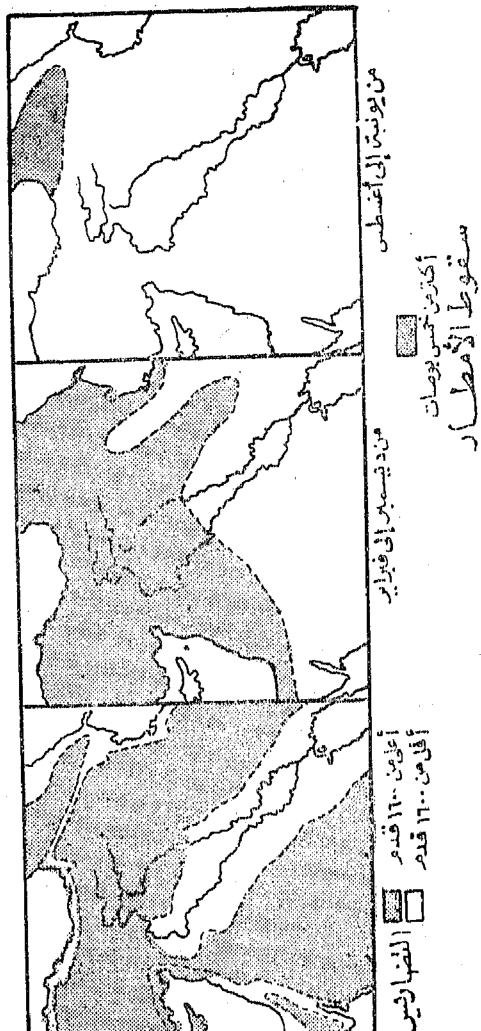
وليس هناك نهر كنهر النيل بمنبعيه أحدهما فى إقليم المطر الدائم والآخر فى إقليم المطر الفصلى . ولـكنا نجد نهرى دجلة والفرات يجريان من منطقة الأمطار الشتوية الخفيفة وتقع منابعهما فى مرتفعات تغذى النهرين صيفاً بماء الثلوج الذائبة والتى تساقطت عليها إبان الشتاء السابق . فجمعا الميزتين إذ يجرى بهما المـاء الدائم فى جميـع الفصول ويتأثران كذلك بالتغيرات الفصلية . وهكذا تبدو الظروف الطبيعية هنا مشابهة لظروف مصر وإن اختلفت عنها اختلافاً أثر بالفعل فى تاريخ النهرين ففى مصر يجرى النيل فى واد ضيق ينخفض انخفاضاً فجائيا عن مستوى الصحراء ببضع مئات من الأقدام — وتقاس بالياردات المسافة الفاصـلة بين الصحراء الجرداء والتربة ذات الخصوبة الزاخرة . فـكل أرض تصل إليها مياه النيل تنتج النبات على حين يسود الجدب كل أرض أخرى لاتصيب مطرا . ومن ناحية أخرى لم تنخفض سهول دجلة والفرات كثيراً عن مستوى الأراضى التى تحيط بهما فإن الجزء الأدنى بادئاً من شمال موقع بغداد سهل فيض رسوبى متسع ، كونه النهران وليست هذه السهول المنخفضة جميعها بخالية من الأمطار . ومن ثم لا يجرى

نهرا دجلة والفرات خلال صحراوات وإن كانت الصحراوات تحيط بسهولها من الجانبين — حقاً إن بادية الشام وصحراء النفود تمتدان إلى الجنوب الغربى ولكنهما لا تقربان النهر إلا فى نقاط محدودة بعيدة هنا وهناك . ويفصل بين النهر والصحراء عادة منطقة من مراعى (الاستبس). إما إلى الشمال الشرقى فالصحراوات تسود الجزء الأوسط من هضبة إيران ، وتمتد من منطقة المراعى إلى قرب سفوح الجبال وهى خالية من الزراعة إلا فى بعض بقاعها التى تصلح لها . وهذه المراعى بوجه عام ليست خالية تماماً من السكان بينما اوديان الجبلية تصلح فى مجموعها لأن تعول عدداً كبيراً من البشر ، والجزء الشمالى الغربى من السهول إقاليم رعوى أيضاً غير أن الجفاف يسود فيما بين الأنهار حتى ليكاد يكون شبه صحراوى وإن كانت نسبة الرطوبة فيه ترتفع قليلا عند سفوح الجبال وعلى طول مجارى الأنهار .

وهكذا نرى أن الظروف المصرية تسود تلك البيئة بشكل مخفف . وتشمل فيما تشمله ظاهرة أخرى موجودة فى مصر وإن كان أثرها فى مصر قد طغى عليه الدور الذى لعبته الصحراء ، فعندما يقترب الدجلة والفرات من البحر ويأخذان فى الجريان على السهل الفيضى تنتشر مياههما على شكل برك ومستنقعات توفر قدراً كبيراً من الحماية للأراضى الخصبة من ثلاث نواح لأن المستنقعات المترامية تهىء حماية فعالة للمجتمعات الصغيرة فالإنسان يستطيع قطع الأراضى سيراً على الأقدام ويستطيع عبور المجارى المائية فى القوارب ولكن المستنقعات عقبة كأداء إلى حد كبير . ومن الميسور أن تنشأ حضارة مبكرة فى ظل حماية هذه المستنقعات . أضف إلى ذلك أن الأنهار فيما بين المستنقعات ، بفروعها المتداخله تكفل حماية طيبة كما أن الأراضى التى تمتد وراء الأنهار والمستنقعات قليلة السكان وتتدرج إلى صحراء جرداء . وقد هيأ البحر فى الجنوب الشرقى حماية أخرى لوادى دجلة والفرات شأنه هنا شأن البحر فى مصر هذا مع العلم بأنه كان هنا أكثر اتساعا فى الزمن الغابر عما هو عليه اليوم لأن كلا من النهرين كان يقذف إليه بمائه من مصب منفصل مستقل .

هذه هى أرض بابل — وهنا كما هو الحال فى مصر نرى أن طبيعة المكان بظروفه الخاصة تمثل الحقيقة الكبرى فى تاريخها . هذا على الرغم من أننا لا نعلم

علم اليقين إلا بالقليل عن تاريخ بابل خلال أربعة الآلاف عام التى تلت سنة ٧٥٠٠ ق . م . ومن المعروف أن جنسين من البشر كانا مصدر ارتقاء الحضارة



الخريطة رقم ٧ — سقوط الأمطار (بابل وأشور)

فيها بالشكل الذى عرفت به وأن الجنس الذى جاء أولا أتقن كثيراً من فنون الحياة قبل أن يتصل بالجنس الآخر .

وفى العصور البدائية تكفى الحماية الجغرافية لأن تصد الأعداء وتسمح بالتطور والنمو غير أن هذه الظروف ذاتها دفعت بابل إلى الانقسام إلى أجزاء صغرى. فبالرغم من أن بابل قد أخذت من المدنية بقسط كبير منذ زمن قديم وقد تصل فى عراقه حضارتها فتعاصر الحضارة المصرية بل وقد تفوقها قدماً إلا أن توحيد البلاد هنا تأخر نحو ألف عام عن العصر الذى ظهرت فيه مصر كدولة موحدة. ولم تتحد بابل قبل أن تقوم امبراطوريتها الأولى تحت قيادة سرجون الأكادى عام ٣٨٠٠ق.م. إذ عاش البابليون قبل هذا التاريخ عيشة زراعية مطمئنة فى دويلات صغيرة مستقلة. وقد أمنوا شر الأعداء المتوحشين وراء خطوط دفاعهم، وأخذوا يرقون بنظم حياتهم فى بطء شديد استغرق منهم آلاف السنين. فعرفوا كيف يصنعون الآجر ويبنون المنازل والمدائن ويحفرون القنوات قبل أن يحفرها المصريون ولكنهم لم يتحدوا تحت حكم ملك واحد؛ وحتى بعد أيام سرجون كانوا يميلون إلى اعتبار نظام الحكم عندهم كأنه حلف مرن بين دويلات مختلفة تربط بينها المصلحة المشتركة أكثر من كونهم يمثلون دولة واحدة تحت حكومة مشتركة.

ولما تحسنت أحوال المعيشة كان من الطبيعى أن ينشىء البابليون علاقات مع جيرانهم، وتدرجت حضارتهم من حضارة تعتمد على الزراعة فى أساسها إلى حضارة تحتل التجارة فيها المقام الأول. وكان لهذا نتائج هامة، فطالما كان البابليون يحيون حياتهم وراء خطوط دفاعهم ويفضون مشاكلهم الصغيرة بأنفسهم كان حريا بهم أن يحرزوا تقدمهم دون تدخل خارجى. ولكن توسعهم فيما وراء حصونهم سبب ضعف مركزهم وأضحى تاريخ سهول دجلة والفرات منذ عام ٢٥٠٠ق.م. هو تاريخ للمحاولات التى بذلها السكان المحيطون بها ليضعوا أيديهم على قلب البلاد الخصيب. لقد كانت المستنقعات كفيلة بإبعاد الهمجيين فى العصور البدائية الأولى حين كانت حمايتها كافية أو تكاد تكون كافية، غير أنها لم تكن مستحيلة العبور خاصة بعد أن نقصت مساحاتها بفضل جهود البابليين. وقد كان وراء هذه المستنقعات بقاع تصلح للسكنى وتسكنها فعلا أجناس تمدنت قليلا باتصالها بمثل الحياة البابلية ونظرت هذه الأجناس بعيون ملؤها الحقد والحسد إلى الأراضى

الخصيبة التي كانت في متناول أيديهم . فتناوب حكم البابليين جنس بعد آخر . وكان حكم الأسر الوطنية قصيراً غير ذي بال فسكن العيلاميون الجبال التي تحد بابل من الشرق وتحف بهضبة إيران وسكن القاصيون Kassites إلى الشمال منهم على امتداد نفس هذه المرتفعات . وسيطر كل منهم على أراضي بابل لمدة طالت أو قصرت،وحينما هبطوا إلى السهول اقتبسوا الحضارة التي وجدوها هناك وانفصلوا عن ذويهم في الجبال وفقدوا خصائصهم بالتدريج وأندمجوا في سكان السهول الآخرين .

وبعد ذلك برزت دولة أشور من بين المراعي الشمالية الغربية . ويرجح أنها قامت على شاطيء دجلة الأوسط الذي كان خاضعاً لبابل وأن تأسيسها كان على يد البابليين أيام توسعهم ،ولما كانت أشور بعيدة عن بابل وتفصلها عنها مساحات شاسعة بعضها مراع وبعضها يكاد يكون صحراء اتجهت نية أشور إلى الاستقلال وفرض سيطرتها على البلاد الخصيبة الواقعة قرب سفوح الجبال . وحين بدأت بابل تسقط تحت أقدام الملوك الأجانب كانت أشور قوة يحسب حسابها .

وطالما كانت بابل مركز الحضارة كان تاريخ ما بين النهرين في جملته تاريخ سلم وهدوء إذ اعتمد أهلها على الزراعة والتجارة ولم تكن بهم حاجة كبرى أو حافز قوي يدفع بهم إلى الغزو والفتح واستمر الحال على ذلك حتى خضعت بابل لحكم الأسرات النازحة من التلال الشمالية الشرقية ثم اختلفت الأحوال حينما سيطرت آشور وسادت .

ويرجع السبب إلى الظروف الجغرافية ، فإن آشور لا تصلح للزراعة إلا في بقاع صغيرة . ولم يتيسر لها التوسع في زراعتها . أما بابل فالأراضي فيها مسطحة وهي تعلو قليلا عن مستوى مجاري الماء . ولذلك أمكنها في يسر حفر القنوات التي استخدمت في أغراض الري والتجارة . ولكن الأمر مختلف في أشور إذ الأنهار في معظم حالاتها تنخفض عن مستوى الأرض انخفاضاً يضيع معه معظم فائدتها . حقاً أن الجزء الصالح للزراعة من أراضي أشور كان مضرب الأمثال في الخصوبة إلا أنه أصغر من يعول عدداً كبيراً من السكان . ولم يتوافر له من الحماية أكثر

مما هيأته له أراضى المراعى المحيطة به . وهذه ليست صحراوية إلا فى الجنوب الغربى فقط . ولهذا وقع عبء الدفاع عن أشور على كواهل أهلها أنفسهم — وهم وإن لم يكونوا من البابليين إلا أنهم اقتبسوا حضارتهم من حضارة بابل التى كانت تسبق زمانهم ، وكانوا قادرين على الدفاع عن أنفسهم بنجاح ومن الأفضل طبعاً أن تقوم بالدفاع حكومة مركزية قوية ، ولهذا قامت فى أشور منذ أول الأمر حكومة ملكية موحدة مقرها نينوى ثم نمت بغزو القبائل المجاورة لها التى لم تبلغ بعد درجة تدانيها فى فنون الحرب ، ولم ينجل عام ١٤٠٠ ق . م . حتى خلعت أشور عنها رباط الولاء الذى كانت تدين به لبابل ، بل وأكثر من هذا فإنها استطاعت أن تغزو بابل نفسها فى عقر دارها .

والأشوريون قوم مطبوعون على القتال ، وحب القتال فيهم خصلة تجرى فى دمائهم . وكان الدرس الذى لقنته إياهم الظروف الجغرافية هو أن يفيدوا من نشاط غيرهم ما داموا لا يجدون ما يفى بحاجاتهم . ولما كانت الجبال تحد أطماعهم من الشرق فإنهم اتجهوا غرباً وفرضوا الجزية على بابل وسوريا وفلسطين وفينيقيا . ورغم مرور العهود الطويلة لم تبتدع أشور نظاماً للحكم للاستفادة من الولايات المفتوحة على خير وجه . فقد استولت جيوشها على كافة الدول المجاورة لها وأخمدت ثوراتها إن ثارت ، ولكنها كانت تترك هذه الدول وشأنها ما دامت تدفع الجزية لها وما دامت كلمة أشور قوية نافذة ، وظلت الحال على هذا المنوال إلى أن كانت سنة ٧٥٠ ق . م . فى عهد ما نسميه الإمبراطورية الأشورية الثانية حين بذلت المحاولات لتأمين الفتوحات واستغلال الدول المقهورة على أمرها كى تسيطر أشور على تجارة العالم الشرقى بأجمعه .

وكان هذا هو الهدف الأسمى للحكومة إلى حدما . ولكنها فشلت فى محاولة تأسيس امبراطورية تجارية تقوم على القوة الغاشمة وحدها كما فشلت فى محاولة توطيد أركان امبراطورية تجارية دون أن تستعد للدفاع عنها . لأن الدول التابعة لها أخذت تثور على سلطانها واحدة إثر أخرى . حقاً أخمدت بعض الثورات ولكن حين غابت الجيوش الأشورية عن الميدان اشتعلت الثورات من جديد . وقد أحاطت

بأشور أجناس وحد بينها شعور الكراهية للغزاة وإن لم يوحد بينها شيء غيره . وهاجمت هذه أشور حتى دمرتها تدميراً .

ومن ثم تعلمت بابل درساً تاريخياً قيما أدركت منه معنى الإتحاد فأسست إمبراطورية بابلية على أنقاض أشور وقام بتأسيسها والى بابل الاشورى الاسبق . غير أن الخطر سرعان ما بدا يتهددها من هضبة ميديا لأن أشور بمشروعاتها التجارية فتحت أبواب الاتصال بالعالم الخارجى كما مدن أهل ميديا بفضل اتصالهم بسكان السهول المجاورة لهم فيما وراء جبالهم ومن ثم انحدروا إلى السهول واستولوا عليها .

فى كل هذا التاريخ تبدو العوامل الجغرافية واضحة وإن كان تاريخ بابل وأشور ليس بالبساطة كتاريخ مصر لأن الظروف الجغرافية فيهما أكثر تعقيداً. ولكن الحقائق الأساسية ظاهرة وقد تهيأت لبابل الفرصة لإنماء حضارة خاصة بها فى أول الأمر وليدة لظروفها المناخية التى وفرت لها من الطاقة مايكفيها وانعكست آثارها على صفحات عقول سكانها فعملوا على استغلال الطاقة ما أمكن ، ذلك بالإضافة إلى الحماية الطبيعية التامة ، ثم أخذت آشور بمقاليد الأمور لأن الظروف الجغرافية حفزت أهلها ليدفعوا العدوان عن أنفسهم . وكما أن الشعور بالحماية الطبيعية والاعتماد عليها خلق فى مصر وبابل سكاناً عاجزين عن حماية أنفسهم كذلك كان التعرض الطويل للعدوان حافزاً للدفاع عن النفس وباعثاً للإيمان عند بعض الشعوب بأن القتال فى حد ذاته هو إحدى ضرورات الحياة .

ومنذ أن سقطت نينوى والعوامل الجغرافية لم تنقطع عن عملها . وبعد أن فشلت أشور فى إقامة امبراطورية تعتمد على القوة توحدت سهول الدجلة والفرات وكانت بابل أهم أجزائها ولكن الناس هنا كما هم فى مصر لم يكن من اليسير أن ينسوا الدرس الذى ألقته عليهم الطبيعة مدى آلاف السنين واستمرت الأشياء تجرى على طبيعتها وكان جريانها قويا غلابا ، فلم تستعد بابل استقلالها قط وبقيت أرضاً مفتوحة لكل من حدثته نفسه بالاستيلاء عليها واستغلال أراضيها كل حسب استطاعته وكيفما كان يسمح به زمانه فبعد أن سيطر عليها العيلاميون والقاصيون

والاشوريون تبعهم أهل ميديا وفارس واليونان ثم الرومان والعرب والاتراك ودام استعبادها زهاء ثلاثة آلاف عام لم تمد خلالها وسائل الدفاع القديمة عقبات أمام أقوام ارتفع بهم مستوى معيشتهم، فليس بعجيب بعدئذ أن تعود بابل اليوم فتصبح مستنقعاً راكداً كما بدأت في غابر الزمان..

وقد تستصلح أراضيها اليوم . وفي مقدور هذه البلاد أن تصبح بستاناً ينتج الفاكهة على نطاق أوسع مما كانت في الماضي ، وقد تبني بها الخزانات الكبيرة كما هو الحال في مصر فتخزن بها المياه من الفيضان إلى التحاريق ، وقد تتخذ احتياطات فعالة للحيلولة دون الفيضانات الخطيرة المدمرة التي تغرق الأراضي وتسبب المستنقعات ولو تيسر لها حكم صالح لأصبحت جنة من جنات الأرض ..

الفصل الرابع

الطرق — فلسطين — وفينيقية

لقد أشرنا فيما سبق إلى نشأة مركزين للحضارة فى مصر وفى بلاد النهرين لأن الظروف الجغرافية فيهما قد هيأت لسكان الإقليمين مزايا لم تتوافر لغيرهم من سكان البلاد الأخرى . ولقد تأثر سكان الأقاليم المجاورة بقيام الحضارة فى هاتين المنطقتين وعلى الأخص فى المنطقة الثانية . ومن الطبيعى أن يشمل التأثير أولئك الذين يعيشون بين المنطقتين فيتأثرون بهما تأثيراً متصلا على توالى الأيام . وربما لم يبلغ تأثرهم بإحدى هاتين الحضارتين نفس الدرجة التى تأثر بها غيرهم من سكان البلاد الأخرى لو أننا قصرنا المقارنة على عهد من العهود .

وعلى الرغم من أن مصر تحيط بها الصحراء من كلا الجانبين وهى صحراء قاسية منيعة يصعب اجتيازها إلا أن إطارا ساحليا يمتد من الركن الشمالى الشرقى من مصر على طول ساحل البحر المتوسط وهو أقل جدبا من بقية الصحراء ويتدرج شمالا إلى شريط ضيق من السهول الساحلية والتلال الداخلية الخصيبة فى مجموعها والتى تستمتع بمورد من الماء لا بأس به . هذا الإقليم هو موطن الفلسطينيين والعبرانيين والفينقيين وهذا الشريط هو حلقة الاتصال بين مقر الحضارتين العريقتين ويرجع إلى هذه الحقيقة وحدها الفضل فى أهميته العظمى .

وهكذا يظهر خلال دراستنا لتقدم الحضارة وسير التاريخ ، أننا نواجه عاملا جغرافيا آخر ، ذلك أن الناس لا يعيشون فقط حيث الحياة أسهل ما تكون بل ويتحركون فى اتجاهات حيث الحركة أسهل ما تكون ، ويبذلون فيها أقل طاقة ممكنة . والانتقال دائماً يتبع أقل قدر ممكن من العقبات أو الحد الأدنى

المقاومة كما يقال دائماً ، وحيثما توجد الطرق يسير الناس ، وقبل أن توجد الطرق بزمن طويل كانت هناك دروب استخدمها الناس فى انتقالاتهم لأن الانتقال عليها، بفضل ظروف جغرافية خاصة ، كان أكثر سهولة . وهذه فى الواقع سبل وليست طرقا فالطريق قد تبلغ عرضها عدة أقدام أو ياردات على حين ليس للسبيل بالمعنى المعروف عرض محدود وهناك مثلا سبيل من باب الحجرة إلى موقد النار أى السبيل الذى يسلكه الانسان ليتجنب ما قد يوجد أمامه من عقبات ولكنه لا يعتبر طريقاً . وقد يكون هناك سبيل واحد وعدة طرق — فإن السبيل أو الممر بين لندن واسكتلند يجرى شمالا بين نهر الهبر وجبال البنين مخترقا سهل يورك ونيوكاسل ويسير فى محاذاة الساحل حتى أدنبره — ويمكن اعتبار الطريق الشمالى العظيم أنه كان ولا يزال صورة له ، كما أن سكة حديد الشمال وما يتصل بها تمثل المظهر الحديدى لهذا الطريق .

ولما لم يكن فى ذلك الوقت بين مصر والعراق طريق ظاهر فقد كانت هناك دروب محددة جدا تكون فى مجموعها طريقاً واحداً فى معظم المسافة بين القطرين . وكان من الميسور إلى حد ما الانتقال من بابل والاتجاه شمالا على طول وادى الفرات ثم الهبوط إلى وادى نهر العاصى بين سلسلتى جبال لبنان الداخلية ولبنان الساحلية ثم الانحدار إلى سهل الليطانى أو البقاع إلى أعالى الأردن مخترقين سهل اسرائيل أو مرج ابن عامر مارين بماجدو التى كانت ملتقى الجيوش فى هذا العالم الصغير كما يسهل اختراق أرض فلسطين على طول امتداد سواحل البحر المتوسط ثم على طول الشريط الصحراوى الضيق إلى أرض مصر وقد كان اختراق الطرف الشمالى لبادية الشام إلى واحة دمشق رأساً أقصر طولا ولكنه أقل يسراً ولذلك كان يوفر بعض الطاقة عند التجار الذين بلغوا قسطاً من الحضارة والمدنية . وكانت دمشق هى نقطة الابتداء لمن أراد اختراق الصحراء شرقا وهى نهاية المطاف أو المرسى الأخير لمن قصد عبور الصحراء غرباً إلى الجزء الأكبر من سورية . وأيا كانت الجهة التى جاءوا منها فقد كانوا جميعاً يمرون بمرج ابن عامر وفلسطين .

ولم تبرز أهمية هذا الطريق فجأة بل نمت شيئاً فشيئاً تبعاً لنمو البلاد التى تربط

بينها وتبعاً لازدياد أهميتها . وينبغى ألا نتصور أن حركة النقل التى جرت على هذا الطريق كانت تعادل ما يجرى الآن على أى طريق من طرق الريف الانجليزى ومع هذا فقد كان هذا الطريق هو الذى تجرى عليه أكبر تجارة شهدها العالم فى ذلك العهد .

ومن الطبيعى ألا يكون تاريخ البلاد التى تمر بها هذه الطريق عريقا فى القدم كتاريخ مصر أو العراق . ذلك أن بينها وبينهما عهداً بعيداً ولا بد أن تكون الحضارة قد بلغت شأواً عظيماً فى كليهما وانتشر نفوذها قبل أن تتصل احداها بالأخرى . ومع ذلك يبدو أن اتصالها المبكر كان أمراً عارضاً ومن قبيل الصدفة البحتة إذ أرسل ملوك الأسرة الرابعة فى مصر حوالى عام ٣٨٠٠ ق ٠ م . كما أرسل الملك سارجون الأكادى فى بابل الحملات والبعوث من كلتا الدولتين بقصد استغلال مناجم النحاس فى صحراء سينا واقتطاع الأحجار المناسبة لأعمال النحت والتماثيل . وعلى مر الزمن سارت التجارة فى هذا الطريق كما سيرت الجيوش حتى انه لمدى ثلاثة آلاف عام التى كانت مصر والعراق خلالها أهم أقاليم العالم اكتسبت سواحل بلاد المشرق الخصيبة (الليفانت) درجة من الأهمية لا تتناسب وحجمها الطبيعى . ولما كان هذا الموطن موطن الفلسطينيين والإسرائيليين هو المعبر الموصل بين امبراطوريتى العالم القديم فلا عجب إذن أن يظهر سكانه كثيراً على مسرح التاريخ على الرغم من أن فلسطين نفسها صغيرة فى مساحتها لاتتجاوز مساحة مقاطعة ويلز فى بريطانيا حتى أن النبى إيليا — كما جاء فى الكتاب المقدس — عبرها من جانب إلى آخر فى يوم واحد .

وقد حاولت مصر والعراق السيادة عليها فى مختلف العصور — وحتى فى حالة استقرار هذه السيادة فعلا لأحد الطرفين فهى لم تكن دائماً سيادة مباشره وفى غالب الأحيان كانت تسكن الأراضى التى يمر بها هذا الطريق شعوب لم تدن بالولاء لأحد وكانت فى بادىء الأمر دائماً تحارب بعضها بعضاً ثم تحضرت بالتدريج وأدركت المزايا التى تكتسبها من مرور التجارة فى أراضيها .

ولم يتيسر لبنى اسرائيل إلا حوالى عام ١٠٠٠ ق . م السيطرة على الطرق التجارية بنجاح . أى فى عصر النبيين داود وسليمان حينما تدهورت قوة مصر وآشور وتمكن سكان تلال فلسطين الإسرائيليون من السيطرة على الطريق التجارية بنجاح ، الأمر الذى لم يتيسر للفلسطينيين من سكان السواحل — واستطاعا تأسيس امبراطورية فى عهدهما يمكن أن تقارن بالامبراطوريات التى نشأت فى العالم القديم . ولما انقسمت تلك الامبراطورية إلى قسمين فقدت سيطرتها الفعالة على الطريق التجارى ثم عادت سيرتها الأولى دويلة صغيرة بين جيرانها تسكن فى شعاب تلالها . حقاً كانت دولة اسرائيل ذات مركز متوسط ولكنها كانت تافهة الأثر من الناحية السياسية . تضالع هذه الامبراطورية العظيمة آناً وتضالع الأخرى آناً آخر حتى سحقت أثناء الصراع بين الامتين الجبارتين .

ولما دالت دولتا مصر والعراق وانتقل السلطان إلى غيرهما قلت الأهمية الجغرافية للطريق الموصل بينهما ولو أن القدس احتفظت دائماً بأهمية عظيمة لأسباب لا محل هنا لدراستها .

* * *

وقد تأثر تاريخ العالم بظاهرة جغرافية أخرى تتصل بما سبق وترتبط بتوزيع اليابس والماء . فمن البديهى أن البشر يعيشون على اليابس وأن الدول تقوم على اليابس لا على الماء وأن التاريخ مرتبط فى أساسه بالجزء اليابس من الكرة الأرضية ولا يتيسر لجماعة كبيرة من الناس العيش دواما على سطح البحر . ولا يتيسر لهم أن يستغلوا طاقتهم بنجاح وتوفيق وأن يسجلوا لأنفسهم تاريخاً بحرياً خاصاً بهم ، غير أن الانتقال بعكس الاستقرار أيسر على البحر منه على اليابس . إذ أن بعض العقبات تقوم على اليابس فتعوق الاتصال ولا بد للانسان من أن يتغلب عليها أو يدور حولها ليتجنبها وفى كلتا الحالتين يستنفد هذا المجهود جزءاً من نشاطه دون أن يفيد منه شيئاً ذا بال . وليس الأمر مقصوداً على هذا وحده بل أن أى مقدار من المتاجر يحتاج فى نقله على الماء إلى طاقة أقل بكثير مما يتطلبه نقله على اليابس ، ومعنى هذا أن الماء أصلح من اليابس كطريق لانتقال الإنسان والبضائع من مكان إلى آخر .

وقد عرفت هذه الحقيقة الامبراطوريتان العريقتان فى حضارتهما إذ لم يقتصر

دور أنهار النيل ودجلة والفرات على أمداد الإنسان بحاجاته المباشرة من الماء وكفاية مطالب الرى ولكنها كانت طرقا للسفر والانتقال فاستخدم الإنسان فى أول الأمر أبسط انواع العائمات الطوافة المصنوعة من القصب والغاب والأعشاب ثم تدرج منها إلى استعمال القـــــرب لأنها أقدر على الطفو من غيرها ثم توصل الإنســان أخيراً إلى استخدام القوارب الخفيفة . وبفضلها غامر التجار البابليون حوالى عام ٣٠٠٠ ق . م . وخرجوا بها إلى مياه الخليج الفارسى الهادئة . ومن المؤكد أيضاً أن المصريين استعملوا عدداً قليلاً من المراكب أوالسفن فى البحر الأحمر فى إحدى المناسبات بعد هذا التاريخ بنحو قرن أو قرنين . غـير أن هذه المحاولات كانت استثنائية وكان العــالم ينظر إليها بعين العجب لأن استخـدام القوارب كان دائماً مقصوراً على مجارى الأنهار .

على أن النقل على الأنهار وإن كان يتطلب طاقة أقل منه على اليابس إلا أن له بعض العيوب منها أن الإنسان مضطر إلى السفر حيث يجرى النهر خصوصاً فى حالة الأنهار القليلة الروافد كالفرات والنيل وحتى لو حفرت لها قنوات فهى ليست بذات فائدة تضارع البحر . فإذا ركب الإنسان البحر أصبح فى ميسوره أن يصل إلى أقصى أطراف المعمورة ، وهكذا يصبح توزيع اليابس والماء من الأهمية بمكان . وأهم ظاهرات ذلك التوزيع تتجــلى فى الحقيقــة الواقعة وهى أن الاتصال بالبحر سهل ميسور لأن البحر كل متصل واليابس أجزاء متقطعة .

وفى ذلك الزمن الغابر ، حتى بعد أن تحضر الناس آلافاً من الأعوام ، ظل غموض المجهول يحول بينهم وبين معرفة البحر معرفة كاملة ، والناس بطبيعتهم يألفون اليابس ولــكن الأجزاء الخصيبة المعمورة بالسكان فى العالم القديم تفصلها المستنقعات عن البحر ولقد ألف الناس رؤية الأنهار لأنها تجرى بينهم ولــكنهم لم يدركوا البحر وظلوا يخشونه إن خاطروا بركوبه . ولهذا يعتبر اكتشاف البحر أعظم الاكتشافات العالمية أثراً ، ومن ثم دخل البحر فى نطاق التاريخ ولم يعد ذلك الحاجز المنيــع الذى يفصل بين البشر وأضحى همزة الوصل بين جميع الأقطار التى تحف به .

ومما هو جدير بالذكر أن يقوم بهذا الكشف لأول مرة الأقوام التى عاشت حيث ينتهى الطريق البرى الأعظم إلى شاطىء البحر . إذ امتد بمحاذات الجبال سهل ساحلى خصب ضيق النطاق يمتاز بحره بعمق مياهه وبخلوه من المستنقعات ولم يغب البحر قط عن بصر سكان هذا الساحل ، يفكرون فيه دائماً وينزلون قواربهم إلى اليم العميق مباشرة دون أن يكلفهم ذلك شططاً كما كان يتطلب من غيرهم من سكان البلاد الأخرى .

وقد كان من الاهمية البالغة أن يكون البحر المتوسط أول البحار التى اكتشفها الإنسان وقد أجمع الكثيرون على أنه كان المدرسة الأولى لتعليم الملاحة البحرية لا مجرد الملاحة النهرية وهو كما يدل عليه إسمه يقع وسط اليابس فهو بحر داخلى يخلو من آثار العواصف التى تكثر فى عرض المحيطات ، أضف إلى ذلك أن أهميته بالنسبة لملاحى العهود الغابرة ترجع إلى خلوه من حركات المد والجزر حتى أنه مهما اختلف المكان وفى أى وقت من الأوقات كانت السفن الصغيرة تستطيع أن ترسو إلى شواطئه فى سهولة ويسر ، علماً بأن سفن القدماء كانت فى جملتها صغيرة . ويشارك البحر المتوسط فى هذه المزايا البحر الاحمر والخليج الفارسى ولكنه يبزها جميعاً فى مساحته الواسعة وينفرد دونها بمزايا لم تتوافر لأى من البحرين الآخرين ذلك أن شواطئه على العموم أكثر خصباً ولا تنقصها المرافىء الطبيعية الجيدة ، وتتصف بوجود الرءوس الأرضية البارزة والسواحل كثيرة التعاريج والجزر المبعثرة الظاهرة فوق سطح المياه ولا يغيب البر فيه عن نظر الملاّح ، والمأوى دائماً قريب إن جد الخطر ، فهو بهذه المزايا يصبح المثل الأعلى لتربية رجال البحر .

ولما عرف الناس هذا البحر كطريق للاتصال تهيأت الفرص للفينيقيين من سكان صور وصيدا وغيرهما لأن يلعبوا دورهم فى تاريخ ذلك العالم الصغير فى العهد القديم ، لأنهم يسكنون أرضاً هى همزة الوصل بين البلاد المختلفة ، وهى بمثابة لوحة القفز إلى عرض البحار . ومن البين أيضاً أن تتأخر الحضارة المؤسسة على البحر فى نموها عن الحضارات التى تكلمنا عنها آنفاً ، ومن الطبيعى كذلك ألا تنمو هذه

الدويلات إلا بعد أن يتعرف أهلها على هذا الطريق ومن ثم يمضى عهد طويل قبل أن تتحفز عقول سكانها إلى العمل من أثر الأفكار التى نشأت عن هذه المعرفة ، وعلى أية حال لم يحل عام ١٦٠٠ ق . م . إلا وقد عُرف الفينيقيون كأمة من تجار البحار ، ولا بد أنهم بدأوا مغامراتهم فى هذا السبيل قبل ذلك بزمن بعيد ، لأنهم جاءوا فى الأصل من بابل بعد أن قطعوا الطريق العظيم وبعد أن عرفوا القوارب واشتغلوا بالتجارة وقد أغرتهم السماء الصافية فى بيئتهم الأولى بدراسة علم الفلك ولا غرو فإن فوائده للملاحة الليلية لا تحصى .

وهكذا حفزتهم بيئتهم الجديدة إلى التقدم فى اتجاهات جديدة . وقد بدأت صيدا تملك زمام الأمر ثم تبعتها صور من بين المدائن الكثيرة المبعثرة على طول السواحل ومن هاتين المدينتين كانت تخرج السفن إلى البلاد المتأخرة على بعد المسافة بينها . وربما كان دافع الفينيقيين فى أول الأمر البحث عن بعض الأسماك الصدفية التى كانوا يحتاجون إلى كميات كبيرة منها لصبغ الملابس الملكية باللون الأحمر الأرجوانى الذى اشتهرت بصناعته مدينة صور .

ومن الجائز أن البحث عن الأصباغ لم يكن هدفهم الوحيد ، فالتجارة ، من أى نوع كانت ، محببة إلى نفوسهم ما دامت تجزى عن المتاعب التى يتجشمونها ولكى يتابع الفينيقيون أعمالهم التجارية فى أمن وهدوء أنشأوا المستعمرات على طول سواحل البحر المتوسط من طرف إلى آخر ولم يأت عام ١٠٠٠ ق . م . حتى كانت مجموعة الحلف الفينيقى تكون وحدة يعمل لها حساب وإن كانت ضعيفة الروابط فيما بينها . حقاً ، ملك الفينيقيون بقاعاً صغيرة فى مساحتها لأنهم كانوا فى قرارة نفوسهم تجاراً لا يحتاجون إلى مساحات واسعة من الأرض الخصبة ليزرعوا ما يحتاجون إليه من الغذاء ولكنهم كانوا يفضلون شراءه بما تدره عليهم مهنتهم من كسب وفير .

لقد حكمت صور وصيدا وقرطاجنة مناطق صغيرة فيما حولها ولم تكن دولتهم قطراً واحداً مندمجاً كدولة مصر أو بابل ، بل كانت عبارة عن مستعمرات متفرقة على سواحل البحر المتوسط الذى كان يربط فيما بينها ، وكون من وحداتها دولة تختلف فى طبيعتها ونظمها عن أى دولة سبقتها فى الوجود .

ولم يكن حكم الفينيقيين وحده هو البدعة الجديدة ، بل إنهم كانوا أنفسهم يمتازون بسجايا ذات طابع جديد فرضته عليهم ظروف بيئتهم . ولا بد أن سلوكهم العام كان يفرض على الغير احترامهم والخضوع لهم بدليل بقاء أسواق الهمج المتأخرين مفتوحة لهم زمناً طويلا . والتجارة فى جوهرها مهـنة وديعة . ومهما تقدم المصريون والبابليون فقد بذهم الفينيقيون فى هذا المضمار . وفى الحق كانت الشجاعة من أخص صفاتهم ولم يكونوا كالأشوريين مجرد مقاتلين، كما تركت فيهم الاسفار الدائمة وسط البحار المتلاطمة وعلى ظهور سفنهم الصغيرة صفة التعلق بالحرية إلى جانب ميزة الشجاعة الفريدة التى تكلمنا عنها مما مكنهم من أن يقفوا بالمرصاد ليدفعوا عن أنفسهم محاولات أشور المتكررة للقضاء عليهم .

* * *

وبالرغم من فشل أشور فى القضاء على التجارة الفينيقية فقد سببت هذه المحاولات لها عجزاً وشللا . وقد ضعف بضعفها الفينيقيون فى فينيقيا الأصلية منذ القرن السادس ق . م . حقاً لم تسقط بلادهم نهائياً حتى اضطرتهم الظروف إلى مواجهة قوة بحرية أخرى سندرسها فيما بعد

الفصل الخامس

حضارة البحر

١ — اليونان

رأينا كيف قامت الحضارات القديمة فى مصر والعراق بفضل احتمائهما بالصحراء والمستنقعات وكيف اكتسبت جهات أخرى أهميتها نتيجة للاتصال الطبيعى الذى حدث بين الدولتين ورأينا كيف أصبح البحر أداة للاتصال بين الدول بعد أن كان حاجزاً يفصل بينها ، وقد استطردنا فى تتبع هـذه الحقائق استطراداً طبيعياً . وعلينا الآن أن ندرس أثر البحر فى جهات أخرى غير مصر وفينيقيا ونتبين كيف كان البحر عاملا مؤثراً كفل الحماية فى أول الأمر ثم أصبح أداة للاتصال فيما بعد .

وأما أولئك الذين سنهتم بدراسة أوطانهم فهم من أطلقوا على أنفسهم فى عصور متأخرة اسم الهلينيين والذين نسميهم الإغريق. أما وطن أولئك الهلينيين فهو هلاس . أو بلاد اليونان كما يحلو لنا تسميتها . فأينما عاش الإغريق فهم كانوا يعيشون فى هلاس . وبلاد هلاس هى التى ينبغى علينا دراستها . غير أن هناك خطأ شائعاً يجب أن نتجنبه . إذا ما ألقينا نظرة على خريطة سياسية حديثة رأينا بلاد اليونان تحتل الطرف الجنوبى الغربى لشبه جزيرة البلقان حيث تبدأ السلاسل الجبلية فى الانخفاض والاختفاء تحت سطح البحر ،واسم بلاد اليونان تعبير صحيح لو قصدنا به مملكة اليونان الحديثة فقط ولكنه خطأ إن عنينا أنه الوطن الوحيد لليونانيين حتى المحدثين منهم ، بل ونمعن فى الخطأ لو ظنناه وطن قدماء الإغريق الذين نحن بصدد تاريخهم .

ولو أننا نظرنا إلى خريطة توزيع الأجناس فى الشرق الأدنى لرأينا أن بلاد اليونان الحقيقية أو الوطن الحقيقى لليونانيين يشمل اليوم كل السواحل والجزر

وأشباه الجزر فى بحر إيجه . وبحر إيجه دون أجزاء البحر المتوسط جميعاً يحوى من الجزر المتناثرة على سطحه أكثر من أى بحر آخر وفيه من أشباه الجزر والرءوس ما يمنع انتظام سواحله أكثر من أى ساحل آخر من سواحل البحر المتوسط وقد انتشرت فيه الجزر انتشاراً كثيفاً حتى أن اسم إيجه أو الأرخبيل الذى أطلقه اليونانيون عليه ، وهو بحرهم الرئيسى ، أصبح يدل فى معناه على مجموعة من الجزر . وهو إن دل على شىء فهو يؤكد الميزة التى جعلت لهذا البحر أهميته لأن أول حضارة عرفت فى أوربا قامت على تلك الجزر وأشباهها فى بحر الأرخبيل .

هنا نجد أرضاً كفلت لها الظروف الجغرافية حماية وتهيأت للشعب فرصة لأن يشيد حضارة خالصة من التدخل الخارجى . فقام فى هذا الإقليم نوعان متنافضان من الحضارة . وليس لدينا سبيل إلى الجزم أيهما كان أسبق فى الوجود من الآخر .

أولا — فمن ناحية ارتفع مستوى المعيشة تدريجاً فى جزيرة كريت الكبيرة المساحة وفى البلوبونيز وهى جزيرة تقريباً وفى بقعة أو اثنتين من البقاع الملائمة حيث توافرت للحضارة فيها فرصة النمو والإزدهار بفضل حمايتها حماية كاملة من الغزو والعدوان .

وتحسنت تدريجاً ظروف الحياة لسكانها حتى أنهم قبل أن يأتى عام ٢٠٠٠ ق . م . كانوا قد شيدوا مبانى حجرية عظيمة ومارسوا فنوناً وصناعات من نوع بدائى . وانشأوا المدن فى داخل البلاد ما أمكنهم حتى يبعدوها عن التعرض لأخطار رجال البحر الذين قد يغيرون على سكان الشواطئ والذين كانوا قليلى الثقة بانفسهم إذا ابتعدوا عن بيئتهم الأولى ألا وهى البحر .

ثانيا — ومن الناحية الأخرى فقد وجد رجال البحر حتى فى ذلك الزمان الغابر ومن الجائز أنهم جاءوا من الجزر الصغرى التى لم يغب البحر فيها عن الأبصار ، فأصبح بطبيعة الحال مألوفاً لديهم وربما يكون هؤلاء قد بنوا القوارب وركبوا متن البحر وانتقلوا من مكان إلى آخر وأحرزوا قصب السبق فى هذا المضمار قبل الفينيقيين .

فاذا نمت وتطورت هذه الحضارة وهي التي اتخذت مقرها في مناطق محمية ، كان من المنتظر كلما ازدادت معرفتهم بالبحر أن تختفي الأهوال التي كان ينسبها سكان اليابس إليه . فلما بلغت هذه الحضارة أوجها تقريباً حين عاصرت الأسرة الثامنة عشرة في مصر حوالي عام ١٦٠٠ ق م كانت قد انتشرت في جميع جزر بحر إيجه وعلى شواطيء آسيا الصغرى وتركت آثارها في البلاد التي سميت فيما بعد بإيطاليا وصقلية على حين كانت سفن كريت بكل تأكيد معروفة في مصر ، وكان ملوك الفراعنة يستقبلون في بلاطهم البعوث والسفارات الكريتية . ومهما يكن من شيء فقد كانت هذه حضارة تنتشر لا امبراطورية تحكم وتسود .

كان البحر حاجزاً في الأزمنة الغابرة فتهيأت لليونان ظروف جغرافية لاءمت نمو حضارة عريقة ، مثلها في ذلك مثل مصر وبابل . ويجب أن نلاحظ بدقة أوجه الشبه وأوجه الإختلاف بين هذه الحضارات . فكما اختلفت بابل عن مصر لأن بابل كانت محاطة بمستنقعاتها ، ومصر بصحراواتها — كذلك اختلفت اليونان عن كل منهما بفضل حماية البحر لها . فإن مصر بسبب طولها انقسمت طبيعياً إلى مصر العليا ومصر السفلى ، أو مملكتي الشمال والجنوب ، كما كانتا تسميان ، أي الدلتا والوادي ، وانقسمتا بدورهما إلى أقاليم صغرى أومديريات وإن لم يفصل بينها أي حاجز طبيعي ذي أهمية تذكر ولهذا خضعت مصر في أغلب تاريخها لحاكم (واحد) ومن آن لآخر لحاكمين اثنين ، وفي الأحوال الشاذة لسلطات متعددة منقسمة على بعضها ، هذا إذا ما استقلت أقاليمها ومديرياتها . أما بابل فعلى الرغم من أنها كانت أكثر اندماجا وأحكاما من مصر إلا أنها كانت أكثر من مصر استعداداً للانقسام إلى دويلات صغيرة لأن الفواصل بين الأقسام الصغرى في بابل كانت أبرز وأفعل أثراً ، كما أن أثر النهر في ربط البلاد وتوحيدها لم يشعر به البابليون إلا قليلا . ولما كانت هذه الحواجز غير مانعة كان من الطبيعي أن تضطر الدويلات البابلية إلى الدخول في نوع ما من الاتحاد أما الجزر وأشباه الجزر اليونانية فقد انفصلت تماما عن كتلة اليابس بل وعن بعضها بعضا حينما كان البحر حاجزاً . وبعد أن أصبح البحر طريق الاتصال ظلت مساحات من البحر

تفصل فيما بين الجزر وبعضها وليست الحدود هناخطا فاصلا بل هى مساحات واسعة

والواقع أن هذه الظروف لم يقتصر تأثيرها على توجيه مجرى التاريخ بصفة مباشرة بأن جعلته يسلك أيسر السبل ويفضلها على غيرها، وأنما أثرت فى التاريخ أثراً لا يقل عمقاً بصفة غير مباشرة بفضل انعكاسها على تفكير الإغريق أنفسهم : إذ اختلفت نظرتهم إلى البحر عن نظرة الفينيقيين . فقد كان البحر فى نظر الفينيقيين وسيلة تطرقهـا التجارة حين أنه كان فى نظر الإغريق وسيلة للدفاع عن استقلالهم ، فالبحر قبل كل شىء طريق بالنسبة للفينيقيين ولـكنه ميدان دفاع بالنسبة للاغريق ، ولهذا السبب الرئيسى كان الشعور العميق بالاستقلال من أكبر مميزات الحضارة الإغريقية ، إذ شعرت كل دويلة من الدويلات اليونانية برغبة فى الاستقلال ليس فقط عن كل شعب أجنبى عنها بل وعن الدويلات اليونانية الأخرى، وقد ازداد هذا الشعور قوة من جراء الاختلافات الـكبرى بين مختلف الأجزاء حتى بين الأجزاء المتجاورة فى كتلة الأراضى اليونانية الأصلية ، مما نشأ عن اختلاف الظواهر الطبيعية وما يستتبعها من تنوع فى المناخ ، وهكذا خالج كل دولة شعور قوى بوحدتها وشخصيتها وكان من نتيجته أن التاريخ لم يسجل قط قيام امبراطورية يونانية .

لم يك هذا أثراً عابراً ، فحوالى عام ١٠٠٠ ق . م ، طرأ تغيير على طراز الحضارة الذى ساد البقاع التى نطلق عليها الآن اسم بلاد اليونان . إذ غزتها قبائل من الشمال واعترى حضارتها تأخر ظاهرى لفترة من الزمان لم تدم طويلا لأن الدم الجديد ساعد على سرعة نمو طراز الحضارة الإغريقى الخالص وعمـل على بلوغه درجة عالية من النضوج والازدهار ، وليس هنا مجال التعرض للـكلام عن هذا التطور ، بل ينبغى أن نلاحظ أن أثر الظواهر الجغرافية قد اختلف قليلا واختلف توزيع الدويلات ، وكل ماحدث من تغيير انما يرجع إلى اختلاف الأثر الذى طبعته العوامل الجغرافية على عقول اليونانيين الذين أصبحوا — دون وعى منهم — أكثر دراية بأساليب اقتصاد الطاقة والجهد ، وهكذا انتشرت الحضارة اليونانية الحديثة فى الجزر وأشباه الجزر المبعثرة فى بحر إيجه بنفس

الطريقة التى انتشرت بها الحضارة اليونانية السابقة وإن كانت هـذه أسرع فى انتشارها لأن اليونانيين أصبحوا أكثر دراية بالبحر وإدراكا لقيمته كطريق للاتصال بين الأجزاء المختلفة ، ويبرز فى تاريخ اليونانيين سواء فى العهود المتقدمة أم المتأخرة ، ذلك الدرس الذى لقنتهم الطبيعة إياه وهو أن البحر وسـيلة دفاع وحماية بكل ما ينطوى عليه هذا الدرس من معان ظاهرة فى الحـاضر كما كانت فى الماضى .

ويصور لنا التاريخ الداخلى لهلاس — أى الوطن اليونانى — مدى سيطرة الظروف الجغرافية . حقاً قامت دول يونانية جديدة فأصبحنا نسمع عن إسبرطة وعن أثينا بدلا من أرجولس وطيبة ، وجرى التاريخ فى مجراه المنتظر فرأينا تطوراً مستمراً متعدد الألوان يلم بالوحـدات الصغرى بسبب اختلاف مصالحها خلال الثلاثة أو الأربعة القرون التى برزت فيها اليونان أمام أبصارنا ، فلم يقر قرار لأى وحدة منها إلا قليلا ، وتردد نفس الشعور من عدم الاستقرار فى نفس كل مواطن فى كل وحدة ، وأحس بضرورة تقدير حقوقه الفردية . وفى هذا كله يتضح الدور الأساسى الذى يلعبه البحر فإن التاريخ الداخلى لهذه الدول اليونانية — أو دول اليونانيين بمعنى أعم — ما كان إلا صراعا بين مجموعتين من الأحلاف بين مجموعة أحلاف دول المدن التى قامت على اليابس وبين مجموعة الأحلاف الأخرى التى كان البحر عمادها . ومن الطبيعى أن يكون النصر لفترة طويلة من الزمان حليف الحلف الذى يعتمد على البحر — كما نرى ذلك بيننا فى هـذه الأيام . ولـكن النصر فى هذه المرة كان قصير الأجل بسبب ميل اليونانيين الطبيعى إلى التفرقة والانفصال .

ويبرز التاريخ الخارجى لمجموعة الدول اليونانية هذه الحقيقة أيضاً ، فقد رأينا أن البحر كان وسيلة دفاع بالنسبة للاغريق وأنه كان طريق تجارة بالنسبة للفينيقيين ، ولم يكفل فى نظر الفينيقيين إلا قدراً ضئيلا من الحماية لأن الخطر لم يأتهم من البحر بل من البر ، وقد خلا البحر من المنافسين لهم وهم فى غمرة حماستهم ، ولم ينازعهم سلطانهم إلا بعض سفن للقرصان فى أسوأ الظروف وهكذا ركب الفينيقيون متن البحار

وانتشروا فيها انتشاراً واسعاً ، ولم تبلغ فينيقيا قط درجة التكتل والاندماج التى بلغتها اليونان ، هذا على فرض أن اسم فينيقيا كان يشمل كل الأراضى التى خضعت لنفوذ الفينيقيين ، وما حدث ذلك إلا لأن فكرة القوة البحرية لم تكن قد ولدت بعد ولم يخطر على بال الفينيقيين أن التجارة كالزراعة ، سواء بسواء ، فى حاجة إلى الحماية والدفاع ، وأن السفن التجارية التى تجرى فى عرض البحار تحتاج إلى الدفاع المنظم كالمدن والدول المستقرة على اليابس ، ومن الطبيعى أن يتجه الفينيقيون فى تفكيرهم هذا الإتجاه ما داموا لا يجدون فى البحر منافساً أضف إلى ذلك أنه على الرغم من ضرورة الدفاع عن التجارة فإن البحر خلو من الحصون الطبيعية وأينما وجد البحر أصبح السبيل ممهداً للجميع وغير ممنوع على أحد، والدفاع الوحيد هو فى كفاية رجال البحر أنفسهم ، فإن تساوت الظروف كانت الغلبة فى جانب العدد الراجح . وحين نظر الإغريق إلى البحر كميدان حرب لم يظهروا أى ميل للسماح لغيرهم بأن يشاركهم ميزاته ومنافعه، وكانوا أقدر على فرض إرادتهم وتنفيذها ، وليس بعجيب إذن أنه لما أصبح الأغريق تجاراً فى آخر الأمر كانوا أكثر حذراً فى مزاولة أعمالهم التجارية فى مناطق لا يتمتعون فيها بالنفوذ الأكبر، ومن ثم استطاعوا أن يغتصبوا من الفينيقيين تجارة بلاد كثيرة كان الوصول إليها أمراً ميسوراً إلى حد ما بالنسبة للاغريق ، ولم يعن الفينيقيون قط بالقتال حباً فى القتال لذاته ، فإذا ما شعروا بوطأة المنافسة تركوا المكان إلى غيره إيماناً منهم بأن فى ميدان التجارة متسعاً للجميع . وهكذا أضحى الإغريق تجاراً مقتدين بالمثل الذى ضربه لهم الفينيقيون أو كنتيجة طبيعية للظروف الجغرافية ، وربما كان احترافهم للتجارة مبعثه العاملان فى وقت معاً ، وأخيراً تمكنوا من طرد منافسيهم من شرق البحر المتوسط وجعلوا منه بحراً أغريقياً خالصاً .

ومهما يكن من شىء ، فلم يكن الفينيقيون وحدهم هم الذين اضطر اليونانيون إلى صراعهم ، فقد رأينا أن ميديا قد سيطرت على أكثر أجزاء الإمبراطورية الأشوربة بعد سقوط نينوى وجاء الفرس فى أعقاب الميديين وهم شعب جبلى هبطوا من حافه هضبة إيران وسيطروا على كل أراضى الإمبراطورية الأشورية

وامتدت حدود بلادهم فى جميع الاتجاهات تقريباً ، ولأول مرة فى التاريخ صارعت امبراطورية برية أخرى بحرية ، لأن بلاد اليونان شملت سواحل آسيا الصغرى ، واقتربت فارس من هذه الشواطىء زاحفة من الهضبة الداخلية لإيران بعد غزو مملكة قارون التى لم تخضع قط لدولة أشور ، ومن الجائز أن حكام فارس قد ساورتهم الظنون بأن سكان السواحل سوف يسارعون إلى الخضوع شأنهم فى ذلك شأن الفينيقيين من قبل ، لأن هؤلاء الفينيقيين لم يقدروا فرص الدفاع التى هيأها البحر لهم فأحنوا رءوسهم للعاصفة ودفعوا الجزية واستمروا يزاولون تجارتهم وكأنه لم يحدث شىء ، وقد كان هذا التصرف فى نظرهم حكيما طبيعياً لأن فى الخضوع كسباً تجارياً ، ولكن نظرة الأغريق للأمور اختلفت عند معالجة هذه الأزمة بالذات ، وهنا تبدو حقيقة هامة وهى أن المسلك العقلى للانسان أو للأمة هو ما تفرضه الظروف الجغرافية فرضاً وأن الاستقلال فى نظر الأغريق يفوق التجارة فى قيمته حتى فى نظر سكان شواطىء آسيا الصغرى من اليونانيين فإن سواحلها لم تكن إلا جزءا من بلاد اليونان ، وانظار أهلها ترنو إلى البحر وتعزف عن البر ، يغضون الطرف عن فارس ولا يتجهون نحوها ، ولم يتيسر للفينيقيين من سكان الشاطىء الفنيق أن يتلقوا المدد أو المساعدة من المستعمرات الفينيقية خارج بلادهم ، على حين أن ذلك كان ميسوراً بالنسبة للاغريق من سكان آسيا الصغرى فكانوا يتلقون المساعدات باستمرار من اخوانهم فيما وراء البحر وقد تدور الدائرة فترة ماعلى اليونانيين من سكان الكتلة اليابسة أمام عدوان جيش من الجيوش بينما يظل باقى الأغريق فى قواعدهم فيما وراء البحار وفى جزائرهم بعيدين عن متناول أية قوة برية لا يتوافر لديها أسطول ، ذلك أن الشعب البحرى لا تقهره إلا قوة بحرية ، ولما تيسر لفارس آخر الأمر تسخير سفن الشعوب التى سيطرت عليها وعلى الأخص سفن فينيقيا ومصر وصقلية حاولت غزو اليونان عن طريق البحر ، وقاد أجزرسيس جيشه خلال الأقطار المختلفة ، ولعله كان أكبر جيش رأته الدنيا لمدة قرون مضت ولعدة قرون تلت زمانه . أشاع الذعر معه فى كل مكان وانتشرت ظاهرة الخضوع دون قتال بين أغاب بلاد اليونان ، غير أن الموقف انقلب رأساً على عقب فى موقعة سلاميس إذ أحرزت

دولة أثينا البحرية النصر بعد أن تملكها اليأس ، فألحقت بأسطول أجزرسيس هزيمة منكرة وحالت أثينا بين الأمبراطورية الشرقية العظمى وبين السيطرة الفعلية على البحار ، ويجب ألا يغيب عن الذهن المعنى الكامن فى تصرف الملك الفارسى ، ومصدره انعدام الألفة بينه وبين البحر ، ولهذا العامل أثره الحاسم فى مجرى القتال ، فليس مرجع الهزيمة النقص فى السفن الفارسية وعددها لأنه تبقى لأجزرسيس فى نهاية المعركة عدد من السفن الصالحة للقتال أكبر مما تبقى للاغريق ولكن أجزر سيس جاء من بلاد تنظر إلى البحر نظرة استغراب ولم يكن هو شخصياً من رجال البحر ، ولهذا فقد الثقة بالبحر وعاد مهزوماً ، ولو فرضنا أن أسطوله دمر عن آخره لكان التقهقر لا يعنى أكثر من أن رحى الحرب قد دارت فى غير مصلحته وأنه قد يعود إلى الميدان مرة أخرى ، ولكن تقهقر أجزرسيس ومعه أسطول يفوق أسطول أعدائه فى عدده ، يحمل فى طياته اعترافاً بأن البحر أبعد منالا من أن يمتد إليه الحكم الفارسي .

حدث هذا فى عام ٤٨٠ ق . م . وقد تركز العصر الذهبي لبلاد اليونان فى أقل من قرن ونصف من الزمان وهو العهد الذى عاش فيه أقطاب اليونانيين الذين خلدوا ذكر الثقافة اليونانية ،وكان أثر البحر بارزاً خلال العهد كله سواء أكان بطريق مباشر أم غير مباشر ، ويتضح هذا من أسطورة لعلها أكثر الأساطير شيوعاً فى التاريخ اليونانى ، وهى تلك التى تروى «مغامرات عشرة آلاف جندى» قضوا شهوراً فى التجول والمغامرة حول بحر أيوكسين(١) فلما وقعت أبصارهم على البحر لم يتمالكوا أنفسهم من الصياح «البحر ! البحر ! » هذه الأسطورة تلفت النظر إلى أن البحر هو الظاهرة الكبرى فى حياة اليونانيين ، ومما يبعث على الدهشة أن تأتى هذه الصيحة من جيش يتكون فى غالبيته من أهل اسبرطة وهم أقل اليونانيين تقديراً للبحر .

ومن الطبيعى أن تكون أثينا وهى أكثر الدويلات اليونانية اعتماداً على البحر هى القوة الفعالة فى إلحاق الهزيمة بجيوش أجزرسيس وأساطيله ، فلم يكن

(١) الاسم القديم للبحر الأسود — المترجم .

بد من أن تتولى أثينا الزعامة فى بلاد اليونان فترة من الزمان أطول مدى من أى دويلة أخرى ، ولكن زعامتها فى ذلك الحين كانت قصيرة الأجل نسبياً إذ لم تزد عن الستين عاماً ، فبدأت سياسة من التوسع البحرى أفقدتها أسطولها مرتين ، المرة الأولى فقدت أسطولها فى صقلية على أيدى رجال بحر أُخر فضاعت مكانتها فى التو واللحظة ، والمرة الثانية فقدت أسطولها فى الدردنيل أثناء محاولتها حماية طرق تموينها بالقمح الوارد إليها من البحر الأسود ، ولم تكن أثينا قد استجمت بعد من صدمتها الأولى فلم يتوافر لقوتها الناقهة شيء من المناعة يجعلها تحتمل الصدمة الثانية فخضعت أثينا جوعاً ولم تعد بعدئذ شيئاً مذكوراً .

وخلفت اسبرطة أثينا لفترة تزيد قليلا عن الجيل الواحد وخلفت طيبة اسبرطة لمدة تبلغ نحو عشر سنوات قبل أن تنشط عوامل الانحلال فتعمل عملها ولم تسيطر قط على البحر بينما دانت لاسبرطة السيادة البحرية لبضع سنوات بعد سقوط أثينا ، ثم استعاد الأثينيون السيادة البحرية لحد ما وشاركتهم فيها دول المدن اليونانية فى آسيا الصغرى كما شاركهم فيها الفينيقيون وهؤلاء كما سبق أن رأينا قد انطووا تحت جناح فارس ، وظلت دول المدن اليونانية الأخرى فى آسيا الصغرى نفسها فى حالة من الضعف والانقسام على الرغم من أنها كانت تتطلع فى بعض الأحيان إلى البلاد اليونانية الأخرى طالبة معونتها فكان رجاؤها يتحقق أحيانا ، ويخيب أحيانا غير أن حكومات المدن اليونانية ظلت منقسمة على بعضها بعضاً تحالف بعضها ملك فارس وزودوه بالمساعدة مما مكن الفرس فى فترتين من فرض نوع من السيطرة على جميع البلاد الإغريقية وإن تعذر القول بأنهم مارسوا هذه السيطرة فعلا .

ولا بد من توافر شرطين أساسيين لإمكان قيام وحدة تضم جميع اليونان وهما السيطرة الكاملة على البحر والسيطرة الكاملة على البر ، لأن بلاد اليونان بطبيعتها تتكون من جزائر وأشباه جزائر ، ولن تتحد الجزر إلا بالسيطرة على البحر وفى هذه الحالة تظل أشباه الجزر معرضة للهجوم من البر ، فإذا قامت إلى جانب السلطة البحرية قوة برية منظمة اضطرت الدويلات المختلفة فى بلاد اليونان إلى الاعتراف بسلطة واحدة عليا لفترة من الزمان ، أى إذا اجتمعت إلى القوة البرية

أخرى بحرية قامت دولة لها من السلطان ما يجعلها تسود كل بلاد اليونان وتحكم لعهد قصير كل أنحاء العالم المعروف آنئذ والذى كان له شأن يذكر فى ذلك الزمان. وتبين الفتوحات المقدونية التى قام بها فيليب والاسكندر مدى الأثر الذى تتركه بعض الشخصيات البارزة فى مجرى التاريخ — وعلى كل حال فإن العوامل الجغرافية — وإن لم تتضح هنا تماماً كما وضحت فى حالات أخرى — ذات أثر محسوس فى كل حال وقد يزداد أثرها وضوحاً لو أننا تذكرنا أن العوامل الجغرافية تعمل عملها بالتأثير فى عقول البشر.

كان العالم المعروف للبشر وقتئذ — أى للمتحضرين من البشر — عالماً صغيراً قوامه مصر والعراق واليونان وما بينهما، أما فيما وراء هذه الدائرة فتقع بلاد وبحار يعرفها فى شيء من الغموض من يقطنون داخل الإطار الصحراوى الجبلى فإن سكان الجبال من أهل ميديا وفارس هبطوا فى الشرق إلى أرض العراق ثم زحفوا منها غرباً حتى حالت البحار والمرتفعات الأغريقية دون تقدمهم، وقد لفت هذا الزحف أنظار اليونانيين وعلى الأخص يونانى أوربا إلى وجود قوة متحضرة عظمى إلى الشرق منهم، ومن ثم بدأ الأغريق يوجهون أبصارهم إلى الشرق ويدركون شيئاً فشيئاً أن التقدم شرقاً أمر ميسور بل هو أسهل نسبياً من زحف الفرس غرباً وإن أسطورة العشرة آلاف جندى توحى بأن غزو الشرق ممكن وأن الإغريق يتفوقون على أهل آسيا بطيب عنصرهم الإغريقى ويمتازون عليهم بالتدريب العسكرى فبدأ أجيسلاوس من أسبرطة غزواته، وداعبت الأحلام « جاسون » فى تساليا فصورت له إمكان غزو فارس لو اتحد اليونانيون ولكنهما أخفقا فى تحقيق أحلامهما لأن الوطن اليونانيين ممزق شر تمزيق. ومن ثم يتضح أن فكرة غزو الهيلينيين للشرق حين ظهرت لم تكن بدعة جديدة وإنما هى نتيجة طبيعية للظروف الجغرافية.

كذلك كان تنفيذ هذا الغزو أمراً تحتمه الظروف الجغرافية فليست مقدونيا بإغريقية خالصة فهى تبعد عن البحر أكثر من أية مدينة يونانية أخرى وفيها يجرى أكبر أنهار بلاد اليونان وأكبر وديانها ولم يكن أهل مقدونيا رجال بحر

كأهل اليونان بل كانوا فى غالبيتهم رجال بر وسكان جبال تحضروا إلى درجة لا بأس بها بفضل اختلاطهم بجيرانهم من اليونانيين ، غير أنهم احتفظوا بكثير من عاداتهم البدائية ، بفضل بعدهم عن البحر ، واحتفظوا على الأخص بطاعتهم لسلطان رؤسائهم مما جعلهم جنوداً ممتازين خصوصاً حين أصبح القتال علماً أكثر منه أى شىء آخر ، وبعد أن تعلم المقاتلون طرق الاقتصاد فى الجهود والطاقة ما أمكنهم ، وحين أصبح الجيش أداة تدريب لبضعة آلاف من الرجال يعملون فى نظام وانسجام وكأنهم رجل واحد ، فلما جاء الأوان كان من الطبيعى أن ينجح المقدونيون فى فرض سلطانهم على جميع بلاد اليونان بفضل بعدهم عن مواطن الهجوم عليهم ، الأمر الذى عجزت عن تحقيقه جميع المدن اليونانية الأخرى .

ولم ينقص مقدونيا العلم بالبحار كبلاد فارس لأن توسعها فيما وراء الوديان والأنهار جعلها على اتصال بشبه جزيرة خلقيدية التى تبرز كثيراً داخل البحر بما اشتملت عليه من مدن تجارية كثيرة تعتمد فى حياتها على البحر ، وكلما ازدادت مقدونيا اتساعاً كلما أصبحت فى موقف يهيئ لها السيطرة على هلسبونت (الدردنيل) .



الخريطة رقم ٨ — مقدونيا

وهكذا كانت مقدونيا فى موقفها تختلف كل الإختلاف عن كل من فارس أو اسبرطة وهما القوتان اللتان قامتا فى أساسهما على اليابس وحاولتا فرض السيطرة على بلاد اليونان . حاولت الأولى على بعد الدار أن تسيطر على المدن البحرية فى آسيا الصغرى ، وقبضت الثانية (اسبرطة) على هلسبونت لفترة قصيرة من الزمان رغم أنها لم تكن سيدة البحار فى واقع الأمر ، أما مقدونيا فتفضلهما كقوة بحرية تسود البحر ، فليست هناك جزر حول شبه جزيرة خلقيدية تصلح لكى تتخذها قاعدة لها أية قوة بحرية معادية والشاطىء كله فى متناول مقدونيا .

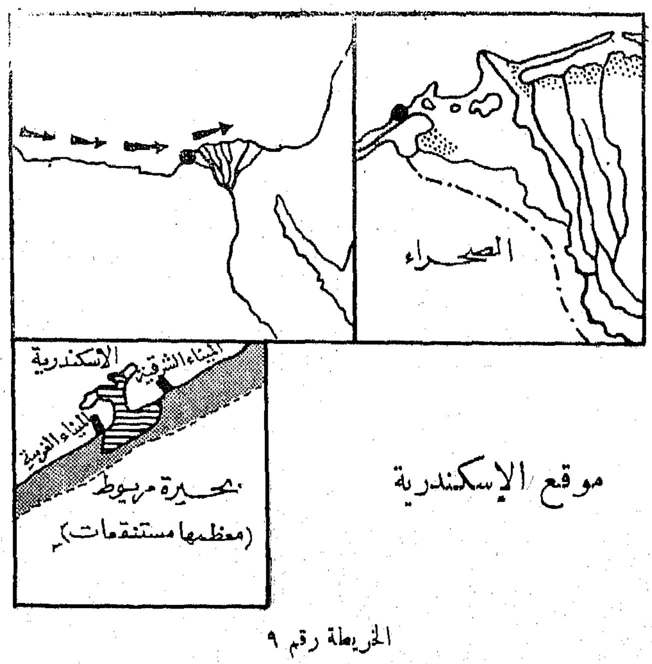
وبعد أن تعلمت هذه الجماعات من سكان الجبال درساً جديداً فى الحياة لقنتها إياه الظروف الجغرافية كان من المنتظر أن يسجل التاريخ أثرها فى عالمها الصغير ، ومن المعقول أن تنجب دويلات يونانية أخرى رجالا يأتون بمثل ما أتى به فيليب والإسكندر ، وما دام من القدر لجيوش من أصل يونانى أن تجتاح العالم فمن الطبيعى أن تأتى هذه الجيوش من مقدونيا إذ تقف وراءها قارة من اليابس ، ومن الطبيعى أيضاً أن تستهوى فكرة إنشاء امبراطورية برية قلوب الحكام المقدونيين ، ومن الواضح أن الجيش هو أداة التوسع البرى . أضف إلى ذلك أن هؤلاء المقدونيين لا يعتورهم شعور الخوف من البحر وهو الشعور الذى يتردد عادة فى قلوب أهل اليابس . وهذه حقيقة يدركها كل من أوتى قسطا من الذكاء وعلى أية حال فإن السيطرة على البحار شرط أساسى لتكوين الامبراطوريات .

وقد استغل فيليب شعور الغيرة عند اليونانيين فاتخذ منه أساساً لربط مقدونيا بكل الوحدات اليونانية المتفرقة وتمكن الاسكندر الأكبر من إيجاد التعاون بين الأسطول والجيش الأمر الذى يطبق الآن بنجاح على نطاق واسع ، ففتح الاسكندر تقريباً كل البلاد التى يمكن أن نصفها بالتحضر ، وأطلق فيض الحضارة اليونانية من عقاله على كل من آسيا الصغرى ومصر والعراق وهضبة فارس وطوران واستطاع أن يوقظ شعوب الهند لفترة من الزمان ، وهى التى قبعت فى عقر أوطانها تبنى حضارتها فى بطء شديد .

كان المثل الأعلى عند الإغريق سياسة لا حكماً وقد قامت الإمبراطورية على

أ كتاف رجلين اثنين إذ ظلت مواهب الحكم عند الإغريق جامدة لم تتطور، فليس بعجيب أن تتفرق امبراطورية الاسكندر بعد موته أجزاء وأن تخضع إلى مصير مختلف كل وحدة طبيعية جغرافية كمصر والعراق وفارس وآسيا الصغرى واليونان وتراقيا ، ومن الطبيعى أن تبتعد كل من هـذه البلاد تدريجاً عن الأخرى إبان الفوضى التى أعقبت موت الاسكندر على الرغم من أن الحكم فيها قامت به أسر يونانية أو مقدونية . ومن الطبيعى أن يسود الشقاق الداخلى بلاد اليونان نفسها، وألا تظل طويلا حتى تبتلعها الامبراطورية الناشئة فى الغرب .

ومع ذلك ظـل البحر العامل الذى يوجه التاريخ اليونانى وقد انتشرت الحضارة اليونانية فى كل الحوض الشرقى للبحر المتوسط وقامت فى البلاد الأجنبية مدن يونانية وانتقلت عاصمة مصر لأول مرة فى تاريخها إلى جوار البحر فقد كانت العواصم القديمة كطيبة ومنف فى داخل البلاد، ولـكن اليونانيين اضطروا حين حكموا البلاد إلى أن يشيدوا عاصمتهم الإسكندرية حيث يتيسر لهم تلقى الأمداد من قواعدهم فيما وراء البحار فى الوطن الهلاسى .



موقع الإسكندرية

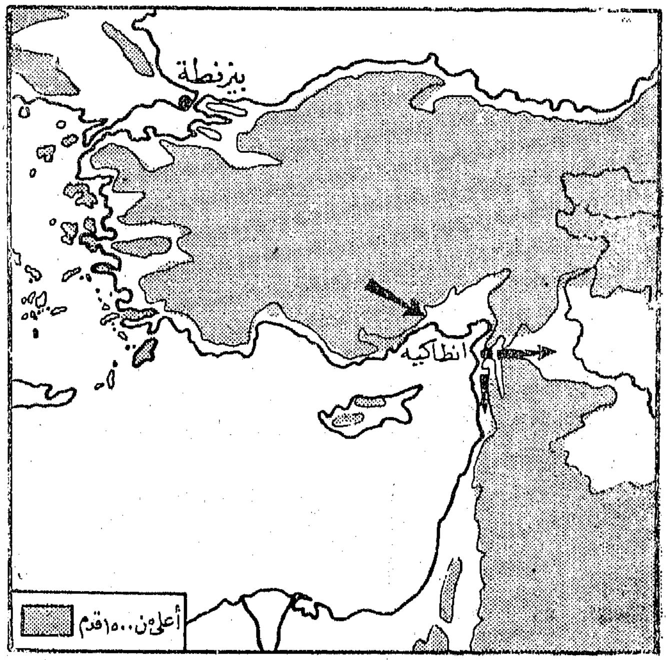
الخريطة رقم ٩

١ — تقع الإسكندرية فى المدخل الغربى لوادى النيل — لتتجنب الرواسب التى يقذف بها النهر ثم يحملها تيار البحر إلى الشرق .

٢ — كما تقع بين المستنقعات والصحراء على أول بقعة من الأرض الصلبة حيث تهيىء الطبيعة ميناء صالحاً .

٣ — وبنيت على جزيرة (اتصلت منـــذ ذاك الأوان بالـكتلة اليابسة) تستند فى ظهرها إلى بحيرة — فهى بهذه الظروف تستمتع بموقع حصين جداً فهى فى أحسن الظروف مواءمة للدفاع عنها .

كما تدين انطاكية أيضاً بنموها وبأهميتها لوقوعها فى البر بين مرتفعات الشمال والجنوب حيث يمهد نهر الفرات الطريق إلى بابل ، وقيامها لا فضل فيه للطريق البحرى ولـكنه وثيق الصلة بالطريق البرى الذى يتبعه المسافر من بيزنطة فيدور حول قلب آسيا الصغرى الصحراوى الجاف حتى يصل إلى انطاكية وعندها يضطر المرء إلى أن يحسم أمره فيختار أحد الطريقين إما إلى بابل وإما إلى مصر .



الخريطة رقم ١٠ — موقع انطاكية

وعلى الرغم من أن اليونانيين عاشوا فى أراضى مصر وسوريا كطبقة منفصلة سواء كانوا تجاراً أم حكاماً إلا أنهم أوحوا بفكرة الوحدة الاجتماعية التى ربطت جميع أجزاء العالم وقتئذ ، حتى أنه حين تدهورت الأمبراطورية الرومانية بعد قرون عدة ظلت بيزنطة عاصمة لإمبراطورية شرقية ووريثة للتراث العظيم الذى خلفته حضارة ترواده وسيطرت بيزنطة على شواطىء بحر إيجه والبحر الأسود وهذه الشواطىء بالذات كانت آخر أجزاء الإمبراطورية الشرقية فى اختفائها تحت طوفان السلالات التركية .

وقد بقيت هـذه المتناقضات إذ بقى اليونانيون يسكنون شواطىء بحر إيجه وجزره وكانت اليونان الحـديثة أول الأمم فى تحررها من الحـكم التركى وقد تهيأ لها استقلالها بعد معركة بحرية وقعت عند نفاريتو بالقرب من شواطئها الغربية ، وعاد الحـكم اليونانى مرة أخرى إلى خلقيدية وسلونيك ولـكن سواحـل آسيا الصغرى بسكانها اليونانيين بقيت فى يد دولة تتخذ اليابس قاعدة لها[(١)]

٢ — قرطاجة

رأينا كيف تمتعت بعض الحضارات القديمة بالسلم فنمت وازدهرت بفضل توفر الحماية لها من وجوه كثيرة ذلك أن الظروف الجغرافية وفرت لها الحماية وتحـكمت فى الاتجاهات التى تحتم على هذه الشعوب اتباعها فى توجيه طاقتها ، أما بتحديد الإتجاهات التى يجد فيها الإنسان أقل قدر من المقاومة وإما بتأثيرها فى العقل البشرى ليختار مسالك معينة ، وأن كانت فى أول الأمر عسيرة غير أنها على ممر الأيام تصبح أكثر يسراً وسهولة . وعلينا الآن أن نذكر حقيقتين حتى ندرك سير التاريخ بعدئذ وكيف أثرت فيه العوامل الجغرافية .

أولا : — الحقيقة الأولى هى أن الشعوب التى سكنت الأقاليم التى ذكرناها آنفا خضعت لهذه العوامل الجغرافية مدى عصور عديدة واستقرت تحت تأثيرها

(١) كان هذا قبل اتفاق لوزان عام ١٩٢٣ وقبل أن يتم تبادل السكان بين تركيا واليونان الذى أجرى بمقتضاه . المترجم

أخلاقهم وأذواقهم وعاداتهم وطرق معاشهم حتى أنه بمرور الزمان لما هاجرت بعض سلالاتهم إلى أراض أخرى سواء كان ذلك طواعية أم اضطرارا انتقلت معهم إلى أحفادهم خصائصهم التى اكتسبوها خلال الأجيال الطويلة ، ولا يهمنا هنا كيف تم هذا الانتقال ، فى بعض الحالات كان الانتقال بالوراثة المباشرة ، وفى بعض الحالات الأخرى كان يتم ذلك الانتقال بالتعليم والتلقين بأسلوب ما .

ومن ذاك الوقت فصاعداً لم يعد التاريخ بالبساطة التى كان عليها فى مراحله الأولى إذ اضطر الناس إلى تعديل المثل أو القيم التى لقنتها إياهم ظروف معينة حتى يوائموا بينها وبين حياتهم فى ظروفها الجديدة ، لأن هذه الظروف على الرغم من أنها تتحكم فى تصرفات الإنسان إلا أن عملها قد يعتريه التعديل أو التحسين بسبب استمرار سيطرة الظروف الجغرافية القديمة على عقول تلك الجماعات وأن قوة القصور الذاتى الذى تكلمنا عنه فى الفصل الأول لهى من الأهمية بمكان فى هذه الأحوال .

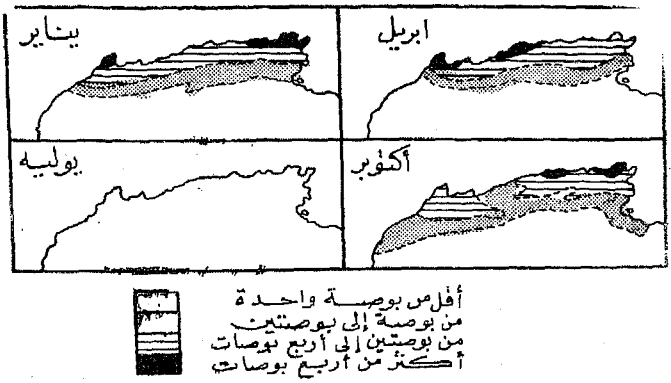
ثانياً — والحقيقة الثانية هى : ولو أن بعض الشعوب قد حبتها الطبيعة فسبقت غيرها فى الإفادة على خير وجه من الطاقة أو الموارد التى وفقت إليها وأنها برزت بروزاً واضحاً وضربت المثل فى كيفية اختزان الطاقة وتوفيرها إلا أن شعوباً وأجناساً أخرى كانت ترتقى فتتعرف كيف تنتفع بالحياة على خير وجه وربما كان حافزها إلى ذلك الاقتداء بغيرها من الشعوب الأكثر تحضراً . وهكذا أخذ مستوى الحضارة العالمى فى الارتفاع تدريجاً . ولكن الشعوب التى تنقل وتقلد غيرها دون إبداع وابتكار تقل فى قيمتها ووزنها عن تلك التى تبتكر التقدم ابتكاراً ، وقبل الفترة التى نحن بصددها بلغت شعوب كثيرة درجة من الحضارة تفوق حضارة الشعب المصرى الذى سمعنا عنه أولا . غير أن شعوباً أخرى ضربت فى تقدمها بسهم أوفر ، والسيادة والسيطرة تؤلان دائماً إلى الشعوب التى تسبق غيرها فى ميدان الحضارة والرقى ، ومن ثم كان تاريخ العالم

مسيراً توجهه الشعوب الأكثر تحضراً ، وإن كان المظهر الذى يتخذه ذلك الرقى تشكله دائماً الظروف الجغرافية .

فإذا تذكرنا هاتين الحقيقتين رأينا أن المرحلة التالية هى مرحلة رقى وتقدم طبيعيين وأن الظروف الجغرافية تحكمت فى هذا الرقى بصفة مباشرة وغير مباشرة . فقد ذهب الفينيقيون إلى احتراف التجارة البحرية تحت إغراء موقعهم الجغرافى ، ولما كانوا تجار بحر وجدوا من الملائم تأسيس المحطات المؤقتة أو الدائمة على الشواطئ التى كانوا يرتادونها ، يجلبون إليها السلع والبضائع أو ينقلونها منها ، وهكذا تناثرت مراكزهم التجارية على طول شواطئ البحر المتوسط .

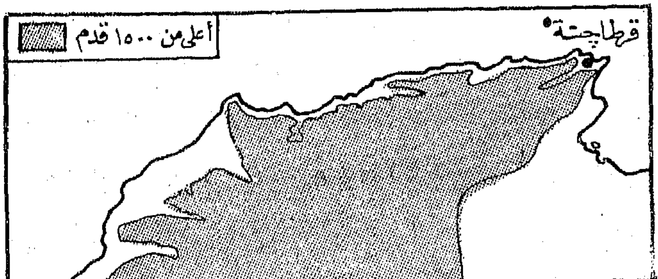
وقد رأينا الإغريق يطردون منافسيهم تدريجاً من جميع المراكز التى سيطروا عليها فى بحر إيجه وحين سيطر الأسكندر على ذلك البحر بأجمعه باستيلائه على شواطئ المشرق حتى الأسكندرية كان يدق المسمار الأخير فى نعش التجارة الفينيقية فى شرق البحر المتوسط .

وعلى أية حال ، ظلت الجاليات التجارية المكونة من عناصر فينيقية ، تعيش فى غرب البحر الأبيض المتوسط فى مستعمرات أسسها الفينيقيون المهاجرون من فينيقيا الأصلية متخطين النفوذ الإغريقى وكانوا يستزيدونها قوة المرة بعد المرة يزودونها بجماعات من المهاجرين من شواطئ المشرق كلما استبد بهم حكامهم فى وطنهم الأصلى وظلت هذه المستعمرات عهوداً طويلة وهى مؤسسات تجارية فقط كتلك التى أنشأها البريطانيون فى الهند . وكانت أهمها مجموعة المدن التى أسست فى موقع مدينة تونس الحالية ، فإذا ألقينا نظرة على خرائط إفريقيا نرى فى شمالها الغربى بين الصحراء والبحر نطاقاً من اليابس معرضاً خلال جزء من العام للرياح الغربية المطيرة ، وهو فى أساسه مرتفعات وهضاب ، وهو أشبه بجزيرة تختلف عما يحيط بها — وتهيأ فيه الفرصة لنوع ما من الحضارة لتنمو وتزدهر — وهو كتلة كبيرة فى مساحتها فلا تستطيع السيطرة عليها أقوام لم تبلغ من التنظيم قدراً محترماً وتسودها فى الوقت عينه عناصر الوحدة والتشابه فلا يسهل تجزئتها أجزاء صغيرة ، غير أن طرفها الشرقى والغربى يتميزان عن الوسط فهما يضمان



(الخريطة رقم ١١ سقوط الأمطار فى شمال أفريقيا)

سهولا وأودية ، فأسس الفينيقيون مستعمراتهم فى الطرف الشرقى (أى الطرف التونسى) وهو الأقرب إلى وطنهم ، وكان سكان هذه المستعمرات على ود وصداقة مع الوطنيين من أصحاب البلاد الأصليين ولم ينظروا إلى أنفسهم كأنهم أصحاب الأراضى فقد كانوا تجاراً ، وتجار بحر على وجه الخصوص ، واعتبروا امتلاك الأراضى أمراً غير ضرورى . ولم يكن عزوفهم عن امتلاك الأراضى مرجعه احترام أى وضع قائم ولكنه كان نتيجة لتأثرهم بالظروف الجغرافية التى تعرضوا لها فى أوطانهم الأولى فى سابق الأيام ، هذا على الرغم من انقطاعهم عن التعرض لها وقتئذ ، وحفزهم إلى اتخاذ هذا الموقف وجود الطريق فى وطنهم الأصلى على حين لم يوجد طريق برى مماثل له فى غرب البحر الأبيض المتوسط .



الخريطة رقم ١٢
شمال افريقيا — التضاريس — جزيرة الأعراب [المنطقة العربية]

وبالطبع كان للظروف الجغرافية القائمة أثرها الخاص أيضا فهم فى وطنهم الأصلى كانوا محصورين بين امبراطوريتين عظيمتين مقرهما النيل ودجلة والفرات وقد ألفوا رؤية غيرهم يحكمون الأراضى وهم يتاجرون براً وبحراً ، ولكنهم فى بيئتهم الجديدة كانوا الشعب الممتاز ولم يكن هناك سادة ينظرون إليهم على الأقل كنظراء لهم ذلك أن الوطنيين فى تلك الأراضى التى استقروا بها والذين تاجروا معهم لم يمارسوا أى سلطة فانعكست هذه الظروف الجغرافية على التاريخ فلم يقتصر الأمر على أن تقوم مدينة واحدة بالزعامة كما حدث لصور وصيدا فى فينيقيا بل قامت قرطاجة بأكثر من ذلك فأقامت إمبراطورية وأخضعت لسلطانها مدناً أخرى ومدت حكمها المباشر على منطقة تونس الحديثة بتمامها .

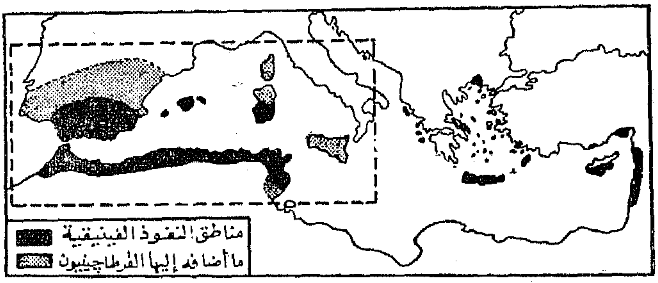


(الخريطة رقم ١٣) — تقع جزيرة الأعراب بين البحر والصحراء

وكانت النتيجة عينها فيما وراء البحار فقد استسلم الفينيقيون فى شرق البحر الأبيض للاغريق دون مقاومة تذكر بينما رفضت قرطاجة وقد استقر أهلها آمنين على أراضيهم وسيطروا على مساحات من اليابس بالقدر الذى أرادو ، وأقاموا امبراطورية بحرية تعتمد على التجارة وتشمل كل غرب البحر المتوسط . وخضعت للحكم القرطاجى كل شواطئ شمال افريقية وغرب صقلية وكورسيكا وجنوب أسبانيا ، ولم يجرؤ تاجر أجنبى أن يخطر فيما بينها من بحار .

كما حددت العوامل الجغرافية نوع الحكم أيضاً ، فإن الساحل المتصل وانعدام الجزائر الصغيرة فى غرب البحر المتوسط كل ذلك أدى إلى انعدام روح الاستقلال الفردى التى كانت مصدر قوة الحضارة الهلينية ومصدر ضعفها فى الوقت ذاته ، وعندما قامت امبراطورية قرطاجة كانت أكثر ثباتاً واستقراراً ، وقد

كسبت قرطاجة بفضل موقعها المنعزل ميزة عدم التعرض للهجوم من البر ، كما يؤيد الواقع ذلك إذ اقتصرت الهجمات التي شنت عليها من البحار فقط .



(الخريطة رقم ١٤) — الأراضى الفينيقية والقرطاجينية

وفى موقع قرطاجة نقطة ضعف أيضاً ، فإن الشعوب التى دخلت تحت لوائها لم تبلغ مثل درجتها من المدنية بسبب الظروف الجغرافية فى غالب الأحيان ، ونظر الفينيقيون إلى الأهالى كشعوب متأخرة وحكموهم كما حكمت أشور رعايا فتوحاتها بيد من حديد . وكلما نمت امبراطورية قرطاجة اختفى شعور الود والصداقة بين الوطنيين والتجار واستبدل به شعور الحقد والكراهية للغزاة ، ولما قدر لقرطاجة أن تواجه امبراطورية أخرى تقوم على أسس أخرى فى الحكم وتتبع أساليب أخرى فى الانتفاع بالطاقة البشرية فى سبيل تحقيق غاية أسمى عجزت قرطاجة عن مواجهتها وسقطت لأن القرطاجيين كانوا أسوأ موقفاً ، على الرغم من تشابه الظروف الأخرى تقريباً ، وعلى الرغم من أن الطرفين كانا قد استعملا بذكاء أساطيلهما وجيوشهما ، ذلك أن جيوش الفينيقيين كانت مكونة من رجال لم يتبادلوا الود مع سادتهم وكانوا ينصرون قرطاجة طالما أجزلت لهم العطاء ، وهذه كانت تجمع أرباحها التجارية لكى تصرف منها فى هذه الأوجه ، وأموالها هى عبارة عن الطاقة التى اقتصدها القرطاجيون ، فلما اختفت تلك الأرباح التجارية فقدوا السيطرة على البحر ، وخانهم جنودهم الجشعون ، إذ لم يتردد فى جوانحهم قط شعور بالوطنية ، وحين فقدت قرطاجة سيادتها البحرية سقطت نهائياً واختفى الفينيقيون من المسرح .

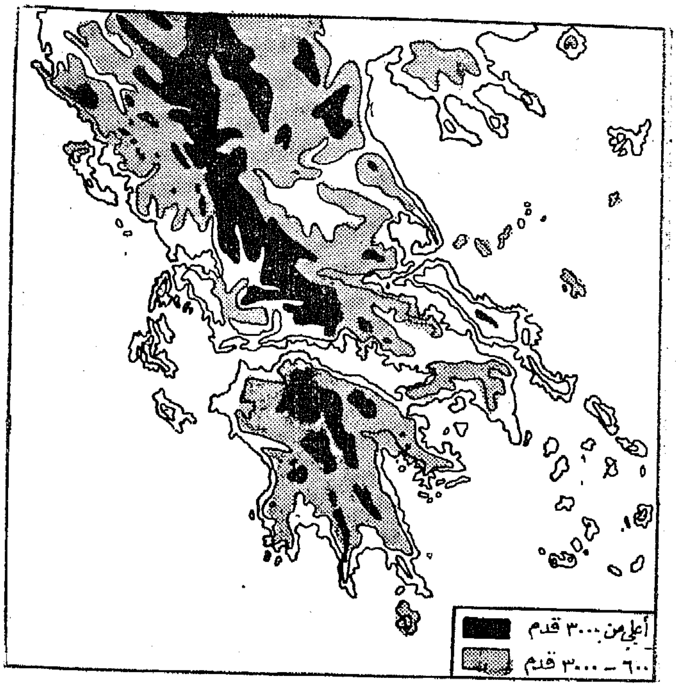
الفصل السادس

التناقض بين البر والبحر وبين المرتفعات والمنخفضات

روما

إن المرحلة التالية من تاريخ العالم أشد تعقيداً فى أسبابها من أية مرحلة سبقت لنا دراستها ، فليس الأمر فيها قاصراً على ملاحظة مجموعة واحدة من الظروف الجغرافية ، ولكنها سلسلة من المجموعات تتابعت وكانت كل منها فى دورها أبرز أثراً من الأخريات . أضف إلى هذا أنه يجب أن نضع نصب أعيننا دائماً الآثار المتجمعة التى تخلفت عن حوادث التاريخ السابقة . وربما لم يدرك الرومان تلك العبر عن دراية وبصيرة ، ولكنهم أخذوا بها واتبعوها خاصة وأنه قد تجمعت فى الامبراطورية الرومانية جميع الإكتشافات الكبرى التى سبقتها إليها شعوب مجيدة فى تاريخها ، وتضافرت هذه الإكتشافات لدرجة هيأت لروما الفرصة فى أن تترك طابعها على التاريخ فى مجراه بشكل لم تدانها فيه أمة أخرى . فلولا الإمبراطوريات السابقات لم تصل روما إلى ما وصلت اليه — وهكذا أثرت العوامل الجغرافية بصفة غير مباشرة ، لأن هذه الإمبراطوريات القديمة إنما تدين بأصل وجودها إلى ظروف جغرافية إلى حد كبير .

كما يرجع إلى العوامل الجغرافية الفضل فى إمكان الجمع بين هذه الدروس التى استخلصتها روما عن هذه الإمبراطوريات السابقة . لقد رأينا إلى الآن ثلاث إمبراطوريات قامت تعتمد كل الإعتماد على اليابس وهى مصر وبلاد الكلدان وأشور . وقد وفرت الظروف الطبيعية الحماية لاثنتين منها وتعلمت الأخيرة كيف تحمى نفسها بنفسها ثم رأينا تتابع ثلاثة شعوب دانت لها سيادة البحر وهم الفنيقيون والإغريق والقرطاجيون فعاش الشعب الأول دون حماية طبيعية وأحتمى الثانى بالبحر واعتمد الشعب الثالث على نفسه فى الدفاع عن وطنه . ثم أدرك رجل واحد قيمة البر والبحر لفترة قصيرة وأخضع العالم بفضل بصيرته النافذة وعبقريته الفذة . فليس بعجيب إذن أن يحدث التطور التالى فى أرض تمتد كثيراً داخل البحر وتتعرض كثيراً لتأثير قوى مختلفة كان التاريخ من صنعها .

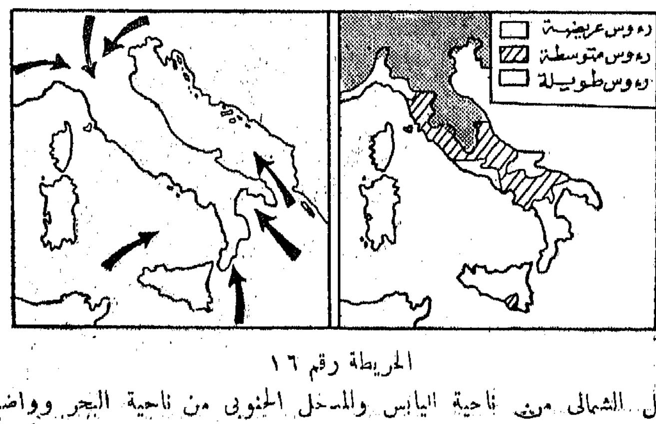


الخريطه رقم ١٥
بلاد اليونان الحديثة
التضاريس
تظهر الخريطة العمود الفقرى والشعاب المتفرعة عنه

ومن الطبيعى أن يقوم فى إيطاليا مركز عظيم جديد للحضارة فإن إيطاليا بحكم تضاريسها وموقعها الجغرافى متصلة بالحضارات القديمة ومنفصلة عنها فى نفس الوقت ، ولكن قليلا من التعمق فى دراسة تفاصيل تكوينها يظهر لنا بوضوح إلى أى حد كان نمو هذا المركز طبيعياً ، ولو قارنا إيطاليا باليونان لظهر الفرق واضحاً بينهما. ففى بلاد اليونان نرى شبكة كاملة من سلاسل الجبال ترتفع فتصبح العمود الفقرى فى وسط شبه الجزيرة ، ثم تنحدر انحداراً فجائياً نحو البحر فتقسم البلاد إلى جزائر وأشباه جزائر صغيرة فى مساحاتها وإلى سهول ساحلية تقع على رؤوس الخلجان . أما فى إيطاليا فنجد كتلة المرتفعات تنحنى محدودبه إلى الجنوب الغربى وتأخذ فى الارتفاع شرقاً ، أطارها الخارجى يواجه بحراً ضحلاً ممتداً إلى الشمال الغربى وقد امتلأ برواسب الصخور المتفتتة من الجبال فارتفع تدريجياً حتى أصبح سهلاً

مستوياً هو سهل لمباردنيا ، وقد خلت البلاد إلا من القليل من الجزائر وأشباه الجزر فيما عدا حيث تتقطع أوصال تلك المرتفعات عند اختفائها تحت سطح البحر فى الجنوب ، وليس هناك من حاجز يقف عقبة كؤودا فى سبيل المواصلات أو يصلح لأن يكون خطا للدفاع . هذا على الرغم من وجود التلال داخل انحناءات الجبال : فنجد المرافىء تكثر فى الجنوب ويقل عددها فى الشمال ، ومن ثم وجد المهاجرون من وراء البحار من الأسباب ما يحفزهم إلى الهجرة إلى جنوب إيطاليا متخذين منها موطناً لهم ومقاماً ، كما وجد أهل كتلة اليابس من سكان القارة ما يغريهم إلى الهجرة جنوباً ، ومن الطبيعى أن تتقابل الجماعتان فى نقطة ما من الإقليم وأن تقوم حضارة حيث تتقابلان وأن يزكى شعلتها الجانبان فى وقت معاً . وهذا هو ماحدث تماماً ، فنجد اليوم سكان الشواطىء فى شمال إيطاليا من سلالات الأقوام التى كانت تسكن إيطاليا من قبل التاريخ وقد اضطرت إلى استيطان تلك البقاع تحت ضغط الجماعات المهاجرة من الكتلة اليابسة بينما الوضع عكس ذلك فى الجنوب ، إذ نجد أقدم السكان هم الذين يقيمون فى داخل البلاد .

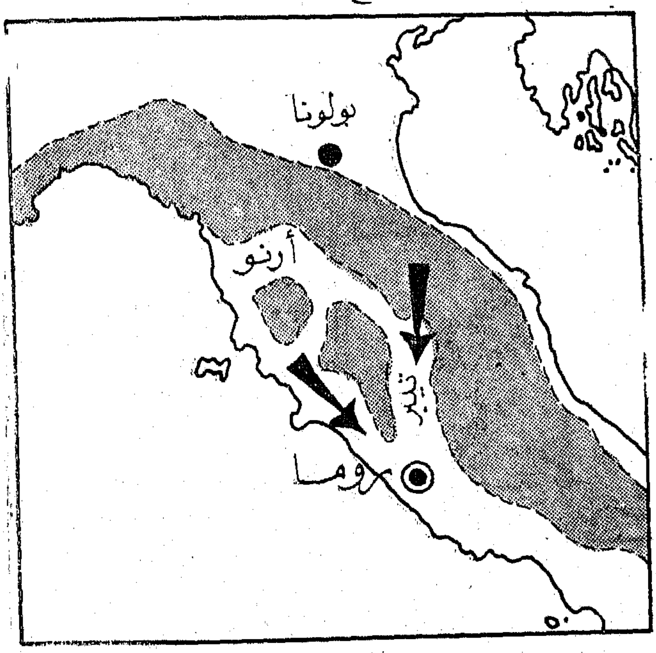
ولم يكن التقاء هذه القوى فى روما بالذات صدفة واعتباطا ، وكذلك لم تكن نشأتها كقلب للحضارة الجديدة أمراً عارضاً حتى تبز غيرها من المدن الصغيرة أو من الحكومات الأخرى ، ونظرة واحدة إلى الخريطة ترينا أن جبال الأبنين الأترورية



الخريطة رقم ١٦

المدخل الشمالى من ناحية اليابس والمدخل الجنوبى من ناحية البحر وواضح أيضاً أن سكان الجنوب هم فى جملتهم طوال الرؤوس وسكان الشمال عريضو الرؤوس كما يتضح أن طوال الرؤوس على الشواطىء وعراض الرؤوس فى الداخل . وهكذا يبدو أن عراض الرؤوس جاءوا من اليابس بينما جاء طوال الرؤوس من البحر .

تقل فى ارتفاعها عن جبال الإبنين الليجورية إلى الشمال الغربى منها ، كما تنخفض عن كتلة المرتفعات العريضة الواقعة بين روما والبحر الأدرياتى فى الشرق . إلا أن كتلة المرتفعات الجنوبية تنحدر انحداراً فجائياً نحو البحر لدرجة تضع العقبات فى طريق المواصلات على طول السواحل الشرقية ويزيدها وعورة وجود المجارى المائية الكثيرة التى يتحتم على المسافر عبورها فى انتقاله من الشمال إلى الجنوب. ولهذا اضطر المهاجرون عند قدومهم براً من البقاع الواقعة فى شمال شبه جزيرة إيطاليا إلى عبور جبال الأبنين الأتروريةمتتبعين أودية الأنهار الموجودة فيما بين بولونيا ومتاوروس Metaurus وإذا ما عبروها وجدوا طريقهم ممهداً على طول وادى نهر التيبر الممتد على الحافة الغربية لجبال الإبنين الوسطى . ولو فرض أنهم عبروا بعيداً عن التيبر أى إلى الشمال منه كان عليهم أن يتابعوا سيرهم بحذاء وادى الأرنو الأعلى ثم على طول السهل الساحلى الممتد بين الأرنو والتيبر . وعلى كل حال فما لاريب فيه أنهم واصلون إلى روما أو إلى موقع يقرب منها بين البحر والمرتفعات . ومن



الخريطة رقم ١٧ — موقع روما

يبين الرسم كيف أن روما تقع حيث تتقابل الطرق الآتية من الشمال وحيث يستطيع الجنوبيون الوقوف للدفاع عن أنفسهم .

المؤكد أنهم سيتصلون هنا بالمؤثرات البحرية الصادرة عن أشباه الجزر والموانى الواقعة فى جنوب إيطاليا . وهكذا تضافرت الظروف الجغرافية فأدت إلى اجتماع الأسباب التى مهدت للحضارات البحرية والقوى البرية أن تتقابل فى إيطاليا ، وفى مكان ما فى وسطها ، وعلى التحديد فى موقع روما أو بالقرب منها .

وليس من الضرورة أن ندرس الأمر أكثر تفصيلا ، ولكن هناك نقطتين توضحان تاريخ الامبراطورية الرومانية توضيحاً ما ، ومن الخير أن نلخصها . فإذا كانت لمنطقة لاتيم (Latium) ميزة ما على باقى إيطاليا فقد امتازت روما على هذه المنطقة بأجمعها، ذلك أنها تقف على نهر التيبر فى موقع يمكنها من الدفاع عن نفسها وإن تعرضت دائما للهجوم ، ومن الطبيعى أن يكون أهلها على أهبة الدفاع دائماً حتى وإن تطلب الأمر منهم تضحيات، ومهما عظمت الآلام التى لاقوها على أيدى العصابات المغيرة فى تجوالها فقد فى لاتبلغ تضحياتهم مبلغ تضحيات سكان المدن الجنوبية ، ولما كان أهل روما أشد قوة من جيرانهم آلت الزعامة لمدينتهم فى منطقة لاتيم . وعلى الرغم من أن تاريخ روما الأول يشوبه الغموض والاضطراب إلا أن هذا الغموض وذلك الاضطراب هما نتيجة متوقعة للظروف المحيطة بها ، ومهما يكن من شىء فالحقيقة الوحيدة الموثوق بها هى أن نشأة المدينة ترجع إلى استقرار جماعات من قبائل مختلفة ، استوطنت بعض التلال التى تشرف على السهل المحيط بروما وأدركت تلك الجماعات أن خير وسيلة للدفاع عن نفسها هو الاعتماد على قوة سواعد أفرادها . وهكذا أدرك أهل روما ما لم يدركه أهل أثينا من أن الإنسان ليس مستقلاً بنفسه استقلالاً مطلقاً وإن عليه أن يضع موضع الاعتبار أفكار الآخرين وتصرفاتهم . ومن الجائز ألا يكون الرومانيون كأفراد قد أدركوا هذا المعنى، ولكنهم عملوا به كجماعات فوجدوا بالخبرة والتجربة أن من صالحهم ومن خيرهم أن ينحوا هذا النحو .

ولما بدأت مدينة روما تمد سلطانها ونفوذها على الجماعات المجاورة كانت أوفر قدرة على إخضاعها ، ولكنها أقل ميلا إلى التحكم فيها تحكماً لا مبرر له ، فقد كانت روما المدينة الوحيدة على وجه التحديد فى وسط إيطاليا جنوبى نهر التيبر وهى تفضل أثينا فى موقعها، علاوة على أن السكان المحيطين بروما كانوا كأهلها تماماً على

وسط من المدنية ، وبالتالى أصعب مراسا فى إخضاعهم من الشعوب المتأخرة الأخرى، التى كانت على اتصال بالقرطاجيين ، وحين تم إخضاعهم عاملهم الرومانيون كنظراء لهم ومواطنين . وقد يبدو الرومانيون الأوائل فى أعيننا قساة غلاظ القلوب ، ولكن قسوتهم فى غالب الأحيان تقل عن قسوة غيرهم ، ولم تكن حباً فى القسوة لذاتها ، أى بقصد إيقاع الأذى بالآخرين ، ولكنها كانت قسوة وضعت خطتها وحسبت نتائجها من قبل مستهدفة الحكم الصالح وترمى فى غايتها البعيدة إلى توفير الجهود والطاقة ، وهكذا كانت الحكومة الرومانية أكثر ثباتاً واستقراراً من حكومات المدن اليونانية بل ومن حكومة قرطاجة أيضاً .

* * *

لقد رأينا كيف تضافرت الظاهرات الكبرى مع الظروف المحلية على أن تجعل من روما مقراً لحضارة من طراز أسمى من أية حضارة ظهرت على الكرة الأرضية حتى ذلك الحين وعملت على ازدهارها فيها . ولولا هذه الظاهرات الكبرى لما كان للعوامل المحلية أثر كبير ، وبازدياد توسع السيادة الرومانية أخذت مجموعة أخرى من العوامل تظهر أهميتها المتزايدة . فإن لتنوع التضاريس فى إيطاليا تنوعاً كبيراً واختلاف أحوالها أثرا فى تاريخها . وقد رأينا كيف تختلف إيطاليا عن شبه جزيرة اليونان كما يبدو تباينها مع أشباه الجزر الأخرى كأسبانيا والدانمرك . فأسبانيا فى غالبها مرتفعات ، والدانمارك فى غالبها منخفضات وسهول ، بينما تحوى إيطاليا المرتفعات والمنخفضات بنسبة متساوية تقريباً . واختلفت نظرة أهل إيطاليا إلى الحياة باختلاف الظروف الجغرافية التى ترجع إلى البحر أو البر . ولذا كان يقطن شواطئها الجنوبية جماعات من الإغريق ظلت على اتصالها بالبحر لدرجة استحقت تسميتها « باليونان العظمى » وكان سكان هذه المدائن تجاراً يعيشون فى بحبوحة من الرخاء . بينما قامت فى الأراضى الشمالية مدنية لم يلعب البحر فيها إلا دوراً بسيطاً ، وتعرضت لمؤثرات ليس للبحر فيها شأن يذكر . أضف إلى هذا أنه كان من بين سكان إيطاليا الجماعات الرعوية التى تعيش فى أعالى الجبال والجماعات الزراعية التى تعيش فى السهول ونشأت بين النوعين اختلافات كبرى : فإلى الشمال من

روما سكنت الجماعات الأمبرية « Umbrian والأترورية ، وإلى الجنوب منها مدن تارنتم وتورى ، وبالقرب من سهول وادى التيبر الأدنى وقفت تلال سابين Sabine وأراضى سامنيـــام Samnium المرتفعة قليلا : فلما اتسعت رقعة الدولة الرومانية كانت مشاكلها من طبيعة مشاكل مدينة روما ذاتها ، فطبق أهلها ما اكتسبوه من خبرة فى المدينة فكانوا أقدر على خلق نظام للحكم ، مما مكنهم من الإستفادة على قدر الأمكان من جهود الجماعات المتنوعة التى اعترفت بسيادة روما وسيطرتها .

وهكذا ولدت الظروف الجغرافية آراء وأفكاراً جديدة عن الحكم والحكومة وتركت هذه أثرها فى التاريخ بطرق ثلاث :

فقد قامت الإمبراطورية الأشورية على فكرة الغزو بقصد الحصول على الجزية التى تجبى من البلاد المفتوحة ، ولكن الأمر اختلف فى روما عن الأزمنة القديمة حينما كانت تقاليد الحكم فى دور التكوين ، وكانت الفكرة العامة فى روما صبغ الوحدات المختلفة بالصبغة الرومانية وجعلها كلا واحداً وإن اعترفت روما بالاختلافات فيما بينها فى نفس الوقت ، وسارت عملية الصبغ أو الإدماج بطيئة فى بادىء الأمر ، ولكنها فى إتقان وكمال فيما بعد ، حتى خلقت فى وسط إيطاليا نواة صلدة تشعر شعوراً رومانياً خالصاً ، وبسبب هذه الحقيقة أطلق إسم المدينة على الدولة الحاكمة . ولم تك قط متاعب الحكومة الرومانية راجعة إلى الثورات على روما نفسها ، ولكنها كانت بسبب محاولات ترمى إلى اكتساب قسط أوفر من مزايا الحكم والنفوذ . ولقد كانت روما شيئاً جديداً مختلفاً أشد الاختلاف عن قرطاجة أو أشور .

ولم تفتقر روما إلى الوحدة والإنسجام فى العمل كما افتقر إليها الإغريق أو الفينيقيون . ولم تك روما مجرد مدينة كصور أو صيدا ، زعيمة بين نظيراتها ، ولا كأثينا مدينة تتزعم عصبة تربطها مصالح مشتركة ، بل كانت أكثر من هذا . وكان على أهالى روما عبء الدفاع عن أنفسهم ، فليس لمدينتهم حماية ما ، ولو أن موقعها يلائم الدفاع عنها كل الملاءمة . فهناك إذن فارق شديد ، ذلك أن إحدى الظاهرتين تبعث على شدة المراس والأخرى لاتبعث عليها كما رأينا فى مصر وبابل .

وقد اعترفت الحكومة الرومانية بضرورة احترام خصائص الأفراد ومميزاتهم. ولكن هذا الاعتراف لا يعني تطبعهم بالجبن والتخنث وإشاعة الرغبة في التخلي عن الواجبات التي يفرضها عليهم الموقع الجغرافي، فكان على روما أن تتولى مقام الزعامة والسيادة. ولم يقتصر هدفهم على تحقيق غاية مشتركة وهدف واحد بين المواطنين، بل تعداها إلى قيام حكومة مركزية موحدة.

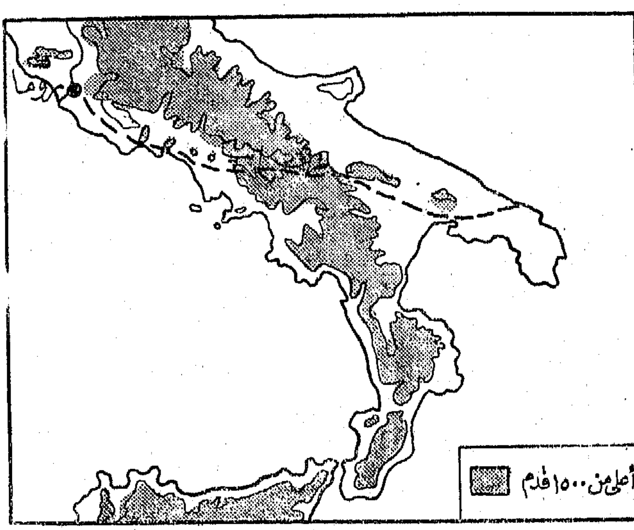
كما يرجع اكتشاف الرومان وسائل توفير الجهود البشرية إلى نفس هذا المسلك العقلي. ويتفق هذا مع ما نراه من أن الطرق المعبدة المشيدة تشييداً أنشئت لأول مرة على أيدي الرومانيين لتخدم أغراضاً حربية أو تجارية. ويتفق هذا مع ما نراه من أن أبيس كلوديس (١) الروماني الأصل كان أول من شيد طريقاً معبداً من روما عبر جبال أبيا ليصل إلى السهول المترامية وراءها لأن اقتصاد الطاقة الذي يهيئه وجود حكومة مركزية يقتضي أن يكون المركز سهل الاتصال بالأقاليم المجاورة. والطرق هي أسهل وسائل المواصلات ما دام الانتقال محدوداً باليابس. غير أنه في ذلك الزمان الغابر حين لم تكن الطرق المعبدة معروفة في العالم كان الناس في بلاد الكلدان ومصر مضطرين إلى الانتقال من دولة إلى أخرى متتبعين الدروب المختلفة، وكان الإنسان والحيوان يقطعان المسافات مشياً على الأقدام، ويحمل الإنسان ما يحتاج إلى حمله على ظهور الدواب. ثم اكتشف الفينيقيون أن الانتقال على الماء أيسر جهداً من الانتقال على اليابس وأن الشراع والمجداف يأتيان بأفضل النتائج نظير مجهود محدود. أما الرومانيون فقد توصلوا إلى اكتشاف من نوع آخر. ذلك أنهم أدركوا أن الإنسان والحيوان أسهل حركة على سطح صلب مستو ناعم منهما على سطح لين خشن غير مستو، وأن العجلات يمكن أن تأتي بفائدة أكبر لو أحسن استخدامها، فيستطيع الحيوان أن يجر أثقالا تزيد في وزنها عما يستطيع حمله. ولا شك أن كلا من الطرق المعبدة والعجلات كان معروفاً من قبل، ولكن فضل استخدامها على نطاق واسع يعود إلى الرومانيين. والظروف الجغرافية مسئولة عن ذلك مباشرة أو غير مباشرة. فإن سهول مصر وكلديا الفيضية الرسوبية لا توائم تشييد الطرق

---

(١) Apius Claudius

إلا قليلا ، وتنقصها الأحجار وعلى الأخص فى كلديا ، مما يجعل تشييد الطرق أمراً يكاد يكون مستحيلا . وليس هناك ما يحفز الإنسان إلى إنشاء طرق معبدة لأن حركة الانتقال فى أحسن ظروفها كانت قليلة ضعيفة، وإذا ما أنشئت الطرق فإن رمال الصحراء سرعان ما تسفيها وتمحوها . وأهم من هذا كله أنه لم يكن هناك تركيز فى الجهود يجدر معه إنشاء الطرق . ولم تكن أشور بأحسن حالا . أما الفينيقيون سواء كانوا فى فينيقيا ذاتها أم فى قرطاجة فإنهم حصروا نظرتهم إلى البحر باعتباره طريقاً لهم بدرجة لم تترك حيزاً فى عقولهم للتفكير فى إنشاء طرق على اليابس . أما اليونان فإن افتقارها إلى الوحدة الجغرافية والسياسية كان سبباً كافياً لعزوف اليونانيين عن إنشاء الطرق — لقد أرادوا أن يفصموا روابطهم بجيرانهم لا أن يزيدوها توثيقاً — أما فى روما فهناك إغراء يدفع إلى إنشاء الطرق يقوم فى أساسه على حقيقة واحدة هى انعدام وسائل الاتصال الطبيعية كالصحراء أو البحر . وكان وجود الأحجار عاملا جغرافيا مساعداً لتحقيق هذا الغرض .

(الخريطة رقم ١٨)



طريق آبيا

يتبع طريق آبيا أقل الجهات ارتفاعاً فى عبوره سلاسل الجبال .

وقد وفقت روما إلى توحيد شبه جزيرة إيطاليا بأجمعها تحت سلطانها بعد عام ٣٠٠ ق . م . بقليل ثم واصلت توسيع حدود امبراطوريتها لتضم البلاد والبحار المجاورة . وظلت تتقدم على هدى الخطوط التى اتبعتها من قبل والتى مكنتها من مواصلة التقدم . والواقع أن تاريخ السلطان الرومانى يرجع إلى تفاعل عاملين جغرافيين هما اليابس والماء ، أو البر والبحر ، فقد نمت القوة الرومانية على الرغم من اتخاذها روما مركزاً لها ، ومن ثم كانت آثارها أكثر تعقيداً .

أولا — لقد اكتسبت إيطاليا أهمية جديدة بالنسبة لظروفها الخاصة بغض النظر عن ظروف المدينة التى قامت على نهر التيبر ، لأن القوة الرومانية أصبحت شيئاً أكبر من مدينة روما بعد أن تحكمت فى شبه الجزيرة بأجمعه . فإن مدينة روما تدين بمعظم الفضل فى وجودها ونشأتها إلى تقابل مؤثرات البحر ومؤثرات البر فى الموقع الذى قامت فيه . ولما أصبحت الدولة الرومانية مرادفة ومطابقة لشبه جزيرة إيطاليا بأجمعه اكتسبت هذه المؤثرات نفسها أهمية جديدة ، إذ أصبحت الدولة الرومانية ذات علاقة مباشرة مع الشمال ومع الجنوب ، فاتصلت من الجنوب ببحر فيه من الجزر مايصلح لأن يتخذه العدو قواعد له فى هجومه ، وفى الشمال أصبحت ذات علاقات مباشرة بأراض ، الهجوم منها ميسور لو قام به أعداء فى أعداد وفيرة ، يشنون على إيطاليا هجماتهم من أوطانهم الواسعة فيما وراءها ، حتى وإن كانوا أقل مدنية وتحضرا . فاضطرت روما كما اضطرت فارس من قبل إلى إعداد أسطول تنتزع به سيادة البحر ممن يحتفظون بقواعد معادية قريبة من شواطىء إيطاليا . وفى الوقت عينه كان من الطبيعى أيضاً أن يتجه التوسع نحو اليابس ، وكان هذا الاتجاه جديداً فى التاريخ .

ثانيا — ومع ذلك ظلت الظروف المحلية بحكم القصور الذاتى لها أكبر الأثر فى التاريخ الرومانى ، لأن روما ما زالت مركز الحكومة ، ولتقاليد أهلها من الاعتبار مايودى بغيرها .

(ا) من ذلك أن البحر لم يكن غريباً على أهل روما كما كان بالنسبة لملوك

فارس ، لأنه يحف بشواطئ لا تبعد عنها أكثر من بضعة أميال — كما أن المدن الجنوبيــة التى خضعت لسيطرة روما كانت تعتمد اعتماداً كلياً على البحر . بل وأكثر من ذلك فإن الأساطير الرومانية تشير إلى نوع من الحكم القديم فرضته روما على المدن الواقعة على شواطىء منطقة لاتيم — ولولا هذه الألفة العريقة المستمرة بين الرومانيين والبحر لتملكنا الشك فى أن يكون لوجود الجزر وأشباه الجزر الجنوبية هذا الأثر السريع وبالكيفيه التى تم بها .

(ب) ومن جهة أخرى تختلف إيطاليا عن اليونان . فأن روما هى المركز الذى اعترفت له باقى إيطاليا بالسيادة والزعامـــــة . ولم يتيسر لروما موقف كموقف مقدونيا — فليس الحكم فيها كله من صنع رجل واحد أو رجلين اثنين فقط — وكثيراً ما تطلب الأمر استدعاء عدد من المواطنين ليقودوا الجيوش أو ليتولوا مقاليد الأمور فى الدولة ومن الطبيعى ألا يكون جميعهم جديرين بهذه المهمات . ولكن حقيقة واحدة تبقى واضحة ، وهى أن الأكفاء من الرجال القادرين على مواجهةالأزمات قمينون بالظهور عند ماتتحرج الأمور . ولمثل هذه الأسباب كانت أداة القتال الرومانية أكفأ نسبياً من الأداة المقدونية .

وكانت حكومات الأقاليم الرومانية المفتوحة أكثر ثباتاً واستقراراً . ويرجع الفضل فى استمرار هذه الأحوال فى واقع الأمر إلى القصور الذاتى التاريخى والى اتجاه الظروف القائمة نحو الاستقرار والثبات .

(حـ) أن المثل العليا التى وضعها أهل روما نصب أعينهم فى أيامهم الأولى أثرت فى تاريخهم المتأخر فيما بعد . فلم تك روما كقرطاجة هدفها التجارة بل كانت غايتها استمرار فرض السلطان الرومانى على الأراضى التى تنتج المحاصيل الأساسية لمقومات الحياة .

هذه هى نتائج الظروف الجغرافية التى أثرت فى تاريخ الدولة الرومانية فأدت إلى توسعها توسعاً عظيما .

هذه العوامل جميعاً يجب أن نذكرها . فقد إنغمست روما على التوالى فى عداوة مع قرطاجة ومع اليونان بسبب إرتباطها بالجزر وأشباه الجزر الجنوبية . وكانت

جيوشها متفوقة على جيوش مقدونيا وقرطاجة ، وأثبتت أساطيلها آخر الأمر تفوقها على الأساطيل التى عبثت ضدها ، وما وافى عام ١٤٦ ق . م . إلا وقد دمرت قرطاجة تدميراً وأجبرت اليونان على الاعتراف بسيادة روما . ولما لم تعد اليونان وقرطاجة دولا بحرية مستقلة خلا البحر ممن ينافس روما على سيادته ، وأخذت البلاد المطلة على البحر المتوسط تسقط صرعى فى يد القوة التى آلت اليها سيادة البحر ومع ذلك فلم يحاول الرومان احتراف التجارة إلا قليلا ، وظلت جزيرة رودس بموقعها الجغرافى بين اليونانيين والفينيقيين المقر الرئيسى للجاليات التجارية لعهود طويلة ، ولم تحاول روما أن تسحق هؤلاء التجار ، فهم ليسوا منافسيها فى شيء . غير ان الفوضى كانت تشيع إذا ماغابت السيطرة الكاملة على البحر . وفى بادئ الأمر لم تكن الفوضى محسوسة ، لأن تدبير الحملات العسكرية بطريق البحر كان سهلا ميسوراً ، ولأن قرصان البحر الذين ظهروا من قبل كانوا يتجنبون مهما جمتها . ولم يجد الرومان ضرورة لتطهير البحار منهم إلا حينما بدأوا فى جلب أغذيتهم ومؤونتهم من بلاد لا تخضع لهم . وعندئذ اتخذ هؤلاء القرصان من الجزر الشرقية مخابيء وقواعد لهم ، وقد نمت القرصنة بسبب عزوف الرومانيين عن معالجتها فى أول الأمر على الرغم من توفر القوة البحرية لديهم . ويبدو هذا واضحاً فى أن القضاء عليهم لم يستغرق من القائد بومبى سوى فترة قصيرة لم تزد على أربعين يوماً ، فقد كانت السيطرة على البحار فى مقدور روما لو أرادت . ومن الواضح أن قوتها البحرية كانت أوسع نطاقاً مما كانت عليه قوة اليونان أو قرطاجة . وظل البحر المتوسط طيلة قرون عديدة وهو بحر رومانى خالص . حقا دارت فيه معارك مشهودة ولكنها كانت بين متنافسين على السلطان فى الدولة لا بين روما وأعداء لها من الخارج .

وهكذا أصبح الاتصال سهلا بين الممتلكات الرومانية ، وعلى الأخص بطريق البحر وأن لم يكن ميسراً فى جميع الأحوال . وأكثر من هذا فأن ممتلكات رومافيما وراء البحار لم تكن مجرد مساحات ضيقة من الشواطئ ، ولكنها أقاليم واسعة برمتها يقتضى حكمها حفظ الاتصال بينها وبين الحكومة المركزية . وهكذا كان اليابس عاملا

فعالا فى التاريخ الرومانى شأنه كشأن البحر سواء بسواء

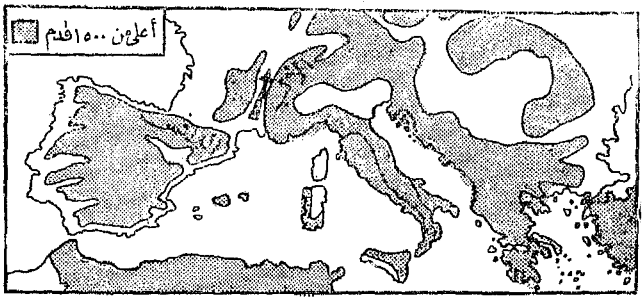
* * *

ويحق علينا أن نزن عاملا جغرافيا آخر عظيم الأثر . فالى جانب التباين العظيم بين اليابس والماء كان هناك تناقض آخر بين المرتفعات والمنخفضات ويلاحظ أن التباين هنـــا ليس تبايناً بين تلال ووديان ولـكنه بين مرتفعات ومنخفضات . فهناك مناطق قد لا يرتفع مستوى الأرض فيها عن سطح البحر إلا قليلا ، ومناطق يرتفع مستواها نحو نصف الميل أو الميل الواحـــد ، بل قد يبلـغ إرتفاع بعضها الميلين . وليس هـذا البعد شيئاً يؤبه له لو أنه كان بعداً أفقياً . ولـكنه ذو أهمية كبرى لأنه ارتفاع رأسى وهذا يؤدى إلى النتيجة الراهنة : وهى أن الحياة تختلف اختلافاً كلياً على سفوح المرتفعات ، فهى أقل هواء وأقل حرارة وأقل رطوبة ، وظروف الحياة فى الأقاليم المنخفضة تظل دائماً مختلفة عن ظروف الحياة فى المرتفعات وتؤثر حتى فى أجسام البشر . فلا يستطيع الزنوج مثلاً الحياة طويلا على ارتفاع ثلاثة أرباع الميل . وربما كانت العلة فى ذلك اختلاف مقادير الهواء وهذا مظهر واحد من مظاهر التباين . كما تختلف ظروف إنتـاج النباتات وظروف اختزان الطـاقة فى عمومها . فلسكان المرتفعات مهن وعادات وغذاء ومثل عليا وقيم حيوية وطرائق فى التفكير تختلف عما لدى سكان السهول . فإن وجد شعبان يعيشان فى أراضى منخفضة على جانبى مرتفعات فلا تفصلها عن بعضها الجبال فقط بل يفصـل بينهما شعب يختلف اختلافاً بيناً عن كل منهما فى كل منحى من مناحى الحياة . وهكذا يصبح كل شعب من الشعوب الثلاثة وحدة قائمة بذاتها . فجبال الألب مثلاً ترتفع فى أعلى قممها إلى ثلاثة أميال وفى متوسطها إلى الميل الواحد ، وتبلغ نحو ١٢٠ ميلا فى عرضها . وهذا ينطوى فى معناه على حقيقة عظيمة الأهمية ، فليست الألب سلسلة من الجبال بقدر ما هى منطقة من المرتفعات . وليست سويسرة الحديثة والتيرول وسافوى سوى ولايات جبلية واقعة على الألب وأهلها يختلفون منذ الأبد عن الشعوب التى تعيش على كلا الجانبين .

والآن وقد رأينا إيطـاليا مكونة من مناطق مرتفعة وأخرى منخفضة يتضح

أن الاختلاف بين الشعوب التى حكمتها روما يرجع إلى التناقض القائم بين المرتفعات والمنخفضات كما يرجع إلى تناقض البر والبحر . وهكذا استطاع هذا العنصر من البشر الذى ربى فى نفسه صفات الحكم على نطاق ضيق فى إيطاليا - استطاع انجاب طائفة من الحكام لمختلف البلاد المفتوحة التى دانت له حتى أن الامبراطورية الرومانية فى أواخر أيامها ضمت وحدات كثيرة كان أهلها يتبادلون بطبيعتهم العداوة والبغضاء . بيد أنها اتخذت فى سبيل توحيد هذه الشعوب نفس الوسائل التى اتبعتها فى توحيد ايطاليا . ولما كان البحر لا يصلح طريقاً مؤدياً إلى كل مكان ، شيدت الطرق فى جميع جهات جنوب أوربا وغربها حتى أضحت مضرب الأمثال فقيل «أن جميع الطرق تؤدى إلى روما» . ويلاحظ مرة أخرى الاتجاه نحو المركزية الحكومية ، لأن جميع الطرق كانت تؤدى إلى روما وتتفرع منها فى نفس الوقت ، ولم تتقاطع إلا فى مواضع قليلة مما قلل فرص اتصال مختلف الوحدات بعضها ببعض كلما أمكن ، فندرت أو انعدمت فرص تضامنها وتآزرها فى ثوراتها ضد السلطة الحاكمة وشيدت هذه الطرق بالطبع فى أماكن تقل فيها مقاومة الطبيعة ، أى أنها اتبعت الحد الأدنى للمقاومة . وأنشئت حيث اقتضى إنشاؤها أقل طاقة ممكنة . ولهذا السبب كان لتوزيع المرتفعات والسهول فى المناطق المحيطة بإيطاليا أهمية بالغة .

وأن نظرة واحدة نلقيها على خريطة أوربا كفيلة بإظهار أن نطاقاً من المرتفعات يمتد على طول المسافة الواقعة بين غربى البحر الأسود إلى وادى الرون ولا ممر فيها إلى السهول المترامية وراءها إلا بالصعود فيها إلى ارتفاعات عالية . فأسبانيا هضبة عالية ، كما تقع فى الثغرة بين جبال الالب والبرانس كتلة جبلية منعزلة بحافتها المنحدرة نحو الجنوب ولكنها لا تغلق هذا المدخل تماماً فتترك وادى الرون ليكون منفذاً إلى الأراضى الممتدة فيما وراء ذلك النطاق وهو الطريق البرى الوحيد من البحر المتوسط إلى الشمال ، ولما كانت مرتفعات الالب مسكونة بقبائل معادية لروما فليس بغريب إذن أن يحرص الرومانيون أشد الحرص على الاحتفاظ بهذا المدخل الذى هو فى متناول أيديهم عن طريق البحر وأن تخضع منطقة فرنسا الحديثة بأجمعها إلى الحكم الرومانى .



الخريطة رقم ١٩ — مدخل وادى الرون
وادى الرون هام جداً لأنه المنفذ الوحيد السهل
من البحر الأبيض المتوسط إلى البلاد الشمالية

ثم امتدت الامبراطورية شمالا بشرق وشرقاً حتى أنه فى بدء التاريخ الميلادى أضافت روما إليها كل البقاع الواقعة إلى الغرب وإلى الجنوب من نهرى الراين والدانوب . هذا إلى جانب ممتلكاتها التى كانت تحف بالبحر المتوسط والتى تمكنت بفضل سيادتها البحرية من فرض سلطانها عليها كما اعترفت بسلطانها آسيا الصغرى والأراضى الممتدة إلى الغرب من نهرى دجلة والفرات . هذه هى الامبراطورية الرومانية وقد هيأ لها السلم الرومانى(١) الذى سادها ثلاثة قرون أو أربعة الفرص لنمو حضارتها وازدهارها فى مساحات مترامية متنوعة ليس بينها انسجام طبيعى سوى تلك الروابط التى نتجت عن خضوعها إلى القوة الرومانية والادارة الرومانية فاستطاع أهلها أن ينعموا بالسلم والأمان وأن يفيدوا من المزايا التى هيأتها لهم طبيعة أوطانهم دون أن يضيعوا الجهود فى الحروب .

وقد قامت الامبراطورية على سلطان تركز فى روما ، ومعظم الفضل فى تماسكها وانسجامها راجع إلى العبقرية العسكرية والإدارية التى امتاز بها الشعب الرومانى والتى هى وليدة عوامل جغرافية — ولما كان العنصر الرومانى يمتاز بتلك العبقرية التى لم تقتصر

(١) Pax Romana كلمة السلم الرومانى اصبحت تعنى السلم المؤسس على القوة .

على فرد دون فرد لم تكن الامبراطورية الرومانية فترة عابرة فى التاريخ مثل الامبراطورية المقدونية — بل استمرت قوية واسعة النفوذ حتى القرن الخامس للميلاد . ثم استمرت تحت اسم الامبراطورية البيزنطية حتى سقطت بسقوط القسطنطينية فى عام ١٤٥٣ م . ثم استمرت إسما دون مسمى حتى جاء اسكندر جديد (نابليون) طوح بالتقاليد القديمة فى أوربا ، وفى هـذا تبدو قوة القصور الذاتى فبقدر ما كانت روما فى قوتها بقدر ما عاشت إلى ذلك الزمن . ثم انحدرت الامبراطورية الرومانية إلى نهايتها شأنها شأن غيرها من الامبراطوريات التى فرضت حكمها على العالم، ولـكنها اقتربت من نهايتها تدريجياً كما نمت تدريجياً لأن العوامل الجغرافية العظمى بدأت تؤثر تأثيرها على نحو آخر .

١ — ذلك أن البحر المتوسط ضيق على طوله . ومن ثم كانت الامبراطورية الرومانية وهى المكونة من أراضى تحف بهذا البحر ؛ طويلة ضيقة تصل فى طولها إلى ضعف عرضها تقريباً كما أن الصحراء فى الجنوب لم تترك بينها وبين البحر إلا شريطاً ضيقاً فى أكثر الأحوال . فلو قصرنا النظر على الأراضى الواقعة شمال البحر المتوسط باعتبار أنها هى الجزء الأهم من الامبراطورية لوضح لنا عدم التناسب الكبير بين طولها وعرضها ومن ثم كان هناك اتجـاه طبيعى نحو الانقسام إلى قسمين إذا ما بدأت السلطة التى تجمع بينهما فى الوهن .

(ب) كما أن الطرف الشرقى للبحر المتوسط يختلف عن الطرف الغربى منه لمجرد بعده عن المحيط ولأنه يحوى واحات فى الصحراء كمصر والعراق ولأنه يشمل اليونان بجزرها ، ومن ثم اختلف الشرق عن الغرب من نواحى كبيرة يسهل التعرف عليها . وظـل الاختلاف بينهما قائماً على مدى الأيام بل لقد كان الاختلاف قائماً حتى قبل أن تتحول الجمهورية الرومانية إلى الامبراطورية الرومانية وبقى مستمراً طوال التاريخ وليس من قبيل الصدفة العارضة أن تجرى مواقع أكتيوم وليبانتو ونفـارينو وأن تدور رحاها فى غربى بلاد اليونان حيث تتقابل قوى غرب البحر المتوسط مع قوى الشرق منه .

لقد جمعت الامبراطورية الرومانية الجزأين معا ولكنهما انفصلا حين وهنت وهنت قوة الروابط التي تجمعهما .

(ح) ثم أن الصحراء وقفت إلى الجنوب من البحر المتوسط ولم يُخش مع وجودها هجوم من تلك الناحية ووقف المحيط إلى الغرب وإلى الشمال الغربى من الامبراطورية فلم يشن من هذه النواحى هجمات ما في العصور الغابرة .

غير أنه امتدت إلى الشرق والشمال الشرقى الكتلة اليابسة العظمى المكونة من قارتى أوربا وآسيا ، ولم تحكم منها روما إلا أطارها ومن هذه الأنحاء يستطيع الأعداء المجىء — وقد أتوا فعلا — وكان طبيعياً أن ينتقل مركز الحكومة إلى الشرق قريباً من الجهة التى تتطلب الحماية والدفاع حتى يسهل الكفاح عنها . غير أن مدينة روما ظلت على ماهى عليه ، لأنها عريقة فى ماضيها وتاريخها ولم تتقهقر إلى مدينة من مدن الأقاليم أو الأرياف ، فلما أنشأ قسطنطين عاصمته الجديدة أصبح فى داخل الامبراطورية مدينتان امبرطوريتان ، إحداهما فى الشرق والأخرى فى الغرب فأضافتا دافعا جديداً إلى الميل الطبيعى للانقسام .

(ى) وأخيرا لما كانت روما تدين بفضل وجودها إلى مقدرة أهلها على الدفاع عن أنفسهم ، ولما كانوا قد بعدوا عن مواطن الخطر ولم يتعرضوا لهجوم يشنه عليهم أعداؤهم من خارج الامبراطورية فقد المتأخرون منهم تدريجيا مقدرتهم على الدفاع ومقدرتهم على الحكم — فلما تعرضوا لألوان من الهجوم أخيراً تجاوزت الجحافل الهمجية البربرية عن المدينة الفتية الحديثة (القسطنطينية) ، وسقطت روما المدينة القديمة العتيدة تحت أقدامهم .

وهكذا انقسمت الامبراطورية الرومانية تدريجياً إلى قسمين أخذ الانسجام بينهما يقل شيئاً فشيئاً فظل القسم الشرقى يحتفظ بالتقاليد القديمة بعد التعديل والتحوير مدى ألف عام ولكن القسم الغربى بسقوط روما نفسها اعوزته الحكومة وانفصل عن جسم الامبراطورية الشرقية . ثم تطور إلى وحدات منعزلة وفى غالب الأحيان متعادية .

ثم أخذت العوامل الجغرافية توجه التاريخ بطريقة تختلف عما وجهته اليه من قبل لأن ميدان تحكمها أضحى مختلفا .

لقد ظلت إيطاليا بمدئذ ألعوبة فى يد التاريخ قرونا عديدة وهى تقف بين قوات البر والبحر ولا تملك لنفسها نفعاً ولا ضراً — فهى تارة فى يد هذه السلطة وتارة فى يد الأخرى خضعت للامبراطورية الشرقية حينا من الدهر كانت تستعيدها فيه كلها أو بعضها كلما استطاع رجال البحر أن يتخذوا منها موطئا ومرفئا وتفقدها كلما استطاع رجال البر أن يتخذوا منها مقراً — وقد تمزقت أوصالها بين القوط واللمبارد والتيوتون فى الشمال وبين الوندال والعرب والبيزنطيين فى الجنوب ، وليس عجبا بعد ئذ ألا يكون لايطاليا تاريخ موحد ، هـــذا بالإضافة إلى ميلها الطبيعى إلى الانقسام ، الأمر الذى يغرى به إختلاف المرتفعات عن المنخفضات ذلك الاختلاف الذى كان مصدر قوتها الأولى حتى أنه فى الستين سنة الأخيرة ظلت العداوة المستمرة بين الأجزاء التى تتكون منها إيطاليا الحديثة أكبر ظاهرة تلفت النظر فى تاريخها .

كما أن تناقض المرتفعات والمنخفضات التى تتكون منها الامبراطووية ذاتها لم يعد عاملا مسيطراً على التاريخ وموجها له فقد ظلت الوحدات على ماهى عليه واقتصر تاريخ العصور الوسطى على تسجيل تكوين هذه الوحدات وإعادة تكوينها ثم إعادة ترتيبها وهى تكافح فى سبيل شىء من التوازن والاستقرار فى أوربا الحديثة . فقد تسببت الامبراطورية الرومانيه مباشرة أو غير مباشرة فى خلق عدد كبير من الوحدات الجغرافية وولدت هذه الوحدات فى عالمنا وكل منها على درجة من المدنية ولكنها تختلف الواحدة عن الأخرى ، كما أن تاريخ العصور الوسطى بما فيه من خلط وتشويش هو فى أساسه تاريخ المحاولات التى بذلتها فى سبيل استقرارها. هذه الوحدات الصغيرة المختلفة والمماثلة حقدا ومنافسة .

وقد تصادف أن كانت وحدات أوربا الغربية صغيرة وعديدة لأن المنخفضات والمرتفعات موزعة على مساحات صغيرة نسبياً وسكانها يتبادلون الغيرة والبغضاء .

وينبغى ألا ننسى أهمية عامل القصور الذاتى فى التاريخ . ولما كان التاريخ يعالج أموراً فكرية تنبت فى عقول البشر فإن للاراء قوة تصنع التاريخ فقد خلقت الظروف من روما إمبراطورية ، وتوصل الرومان إلى حقيقة كبرى وهى أن الحكومة المركزية تؤدى إلى توفير الجهود وظلت فكرة الامبراطورية ووسائل الحكم فيها حية فى عقول الناس كأنها المثل الأعلى وكان أثرها أكبر مساعد على ربط الوحدات المتفرقة ربطاً وثيقاً . ثم جاءت حقبة أخرى أضفت على هذه الفكرة أهمية جديدة ، ذلك أن شهرة روما ومكانتها القديمة بالإضافة إلى ذيوع الفكرة الرومانية وتأصلها ، كل ذلك وضع فى يد أسقف روما قوة لا نظير لها ، فلما أهملت السلطة الزمنية ظلت السلطة الدينية تنمو وتزداد مادامت لا تجد مايعارضها من السلطات الزمنية ، ونما سلطان رجال الدين فى الاقاليم فى الوقت الذى أنهارت فيه السلطة الزمنية انهياراً تاما ، وقد كانت السلطتان مرتبطتين بعضهما أوثق الارتباط . وهكذا انتشرت المسيحية فى القسم الغربى من الامبراطورية الرومانية أكثر مما انتشرت فى القسم الشرقى منها وكانت المسيحية فيها ذات مذهب خاص رومانى فى سداه ولحمته .

هذا التزاوج بين النظامين المتحالفين — الامبراطورية والكنيسة — ولد قائما على الاختلاف الطبيعى بين الوحدات المنوعة وهو العلة الأولى والمسئول الأول عن تاريخ العصور التى أعقبت سقوط روما .

الفصل السابع

السهول والقبائل الغازية

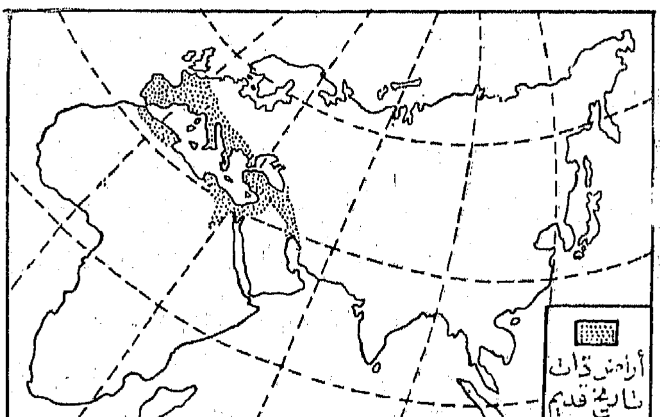
إن التاريخ الذى تتبعنا مجراه حتى الآن يرجع فى سماته العامة إلى تحكم عاملين جغرافيين فى تصرف الإنسان، يضبطان اتجاهاته أو يحفزانه إلى اتخاذ مواقف معينة وهما البحر والصحراء ، وقد كفل كل منهما الحماية لمجتمعات بدائية فى تنظيمها لم تكن ترتبط ببعضها فى بادئ الأمر بروابط وثيقة . وقد ألمحنا إلى عوامل أخرى لم يتعد فعلها تخفيف أثر هذين العاملين العظيمين ،وترجع نشأة الحضارات الأولى إلى هاتين الحقيقتين أى وجود مناطق خصبة تحيط بها الصحراوات ووجود جزر تحيط بها البحار .

ثم قامت مجتمعات أخرى تتصل بهذه المجتمعات المتقدمة وتدين بوجودها إلى الظروف الجغرافية ذاتها بصفة مباشرة إلى حد ما ، وكانت بحكم جيرتها للمجتمعات الأصلية قريبة من البحر والصحراء .

نعم لم تنشأ هذه المجتمعات فى المناطق الاستوائية حيث الحافز إلى التقدم قليل الأثر ، ولم تنشأ فى الشمال ذى المناخ البارد حيث قست صعوبات المناخ على الإنسان الأول فلم يستطع بمفرده أن يصيب نجاحاً يذكر فى التغلب عليها ، بل نشأت فى غالبيتها على طول شواطئ البحر المتوسط ، فى الأجزاء التى استطاع الإنسان سكناها غير أنه قامت مجتمعات متقدمة أخرى إلى الشرق من البحر المتوسط ولعبت الإمبراطورية الرومانية دورها بعد ذلك إذ عملت على وصل غرب أوربا وصلا مباشراً بالمدنيات القائمة وقتئذ فى شرق البحر المتوسط، وهكذا لم يكن بد من أن تصبح أوروبا وعلى الأخص جنوبها هى البلاد التى لتاريخ شعوبها أهمية عظمى للعالم ، وما ذلك إلا لأنه امتد هنا وهنا فقط نطاق من الصحراء ونطاق من البحار تبعثرت فيه الجزر وقسمته أشباه الجزر .

ولقد فرضنا أن توزيع اليابس والماء والبرودة والحرارة والمطر والجفاف كان كما هو اليوم — وظل ثابتاً طوال العصور التاريخية ، هذا لو قصدنا بكلمة العصور التاريخية تلك العهود التى نعرف تاريخهـا غير أن هناك من الأسباب الوجيهة ما يجعلنا نفترض أن هذه الظواهر لم تكن ثابتة منذ ظهور الإنسان على الأرض ، ولما كانت الأحداث التاريخية تؤثر دائماً فيما يتلوها كما رأينا من تاريخ القرطاجيين والرومان أصبح من الواضح أن الظروف الجغرافية فيما قبل التاريخ ولا بد وأنها تركت أثرها فى العصور التاريخية التى تلتها ولا بد أنها وجهت التاريخ وتحكمت فى مجراه على الرغم من أنها قد زالت من الوجود وحلت محلها ظروف أخرى أحدث منها عهداً — وقد يحسن بنا أن نلاحظ كيف أن أقاليم معينة نعرفها اليوم حق المعرفة خضعت لمؤثرات تختلف عما يسودها اليوم .

أما اليوم نرى . حسب الظروف القائمة . أوربا تتصل اتصالاً مباشراً بكل من آسيا وأفريقيا ، وأن لهذا الاتصال أهمية عظمى ، ونرى أوروبا أوثق اتصالا بالقارتين من أى منهما بالأخرى ، ولو ألقينا نظرة على نموذج للكرة الأرضية لتبين لنا أن أوربا وآسيا وأفريقيا تكون متوازياً للأضلاع عظيم المساحة ، وأن أوربا تقع بين جزء كبير من آسيا وجزء كبير من أفريقيا ، كما يظهر لنا أن الأراضى التى نعنى بتاريخها الآن



الخريطة رقم ٢٠ :
متوازى أضلاع العالم القديم
تقع البلاد ذات التاريخ القديم على محور الكتلة اليابسة الكبرى وبين آسيا وأفريقيا

تقع على محور يمتد بين زاويتين عبر الكتلة اليابسة الكبرى التي تتكون من آسيا وأوربا وأفريقيا .

وهكذا تصبح أوربا — وهى مهد المدنية القديمة — بسبب موقعها بالنسبة إلى توزيع اليابس — معرضة لمؤثرات تصل إليها من اتجاهين من الجنوب أى من أفريقيا ومن الشرق أى من آسيا .

وفى الوقت الحاضر كما كان الحال طوال العصور التاريخية — يقف البحر المتوسط والصحراء حاجزين بين أوروبا وأفريقيا ، وليس البحر المتوسط فى واقع الأمر هو الحاجز المنيع ، ولكنها الصحراء هى التى تفصل الجنس الأبيض عن الجنس الزنجى . وحتى الآن يستغرق عبورها من الإنسان نحو ثلاثة أشهر فى أحسن الظروف المواتية ، ونستطيع أن ندرك مدى كفايتها كعامل للحماية لو أننا لاحظنا الحقيقة التالية : فإلى الجنوب من الصحراء تجوب القبائل المتنقلة طول القارة وعرضها كذلك لم يخل ميل مربع واحد فى أوراسيا لم يردد أصداء خطى الجحافل الغازية ، تغزو البلاد أينما حلت وتبحث عن مواطن جديدة لها ، ولكن الصحراء بوقوفها عقبة كؤوداً لم تخترقها جماعات ذات خطر سواء أكان ذلك حرباً أم سلماً . هذا باستثناء أفراد قليلين جاءوا مسالمين فتمكنوا من عبور الصحراء .

وهكذا لعبت أفريقيا دوراً بسيطاً فى تاريخ أوربا خلال العصور التاريخية ، ذلك أن الشعوب الجنوبية الأفريقية وهى بطبيعتها متأخرة فى مدنيتها بسبب افتقارها إلى الحافز الذى يدفعها إلى الرقى عجزت عن عبور الحاجز العظيم واقتصر تأثيرها على الدور الذى كان فى استطاعتها فلم تقض على المدنيات التى نمت وازدهرت فى الشمال منها ، وهكذا كفلت الصحراء الحماية من العدوان لا لمصر وحدها ولكن لكل البلاد التى نشأت فيها مدنيات البحر المتوسط مثل فينيقيا واليونان وقرطاجة وروما .

ولكن الأمر كان على عكس ذلك فى علاقة أوروبا بآسيا كما سنرى ذلك مفصلا فيما بعد وخصوصاً فى الأزمنة التاريخية إذ لم يقف بينهما حاجز عسير العبور ، فكان أهل آسيا قادرين على أن يقذفوا بأنفسهم إلى قلب أوربا بتجشم شئ من

الصعاب وأن تطلب ذلك منهم بعض المهارة والبراعة . وعلى كل حال فالموقف لم يكن كذلك فى عصور ماقبل التاريخ بعد ظهور الانسان على الأرض وكانت الظروف الجغرافية تختلف بعض الاختلاف عنها اليوم ، لأن شمال أوربا كان فيما يبدو وقتئذ أشد بردا عنه فى الوقت الحاضر كما أن بريطانيا وايرلندا والنرويج والسويد وشمال أوربا وروسيا وألمانيا وجميع البحار التى تفصل بينها كانت ترزح جميعا طوال عصور مديده تحت غطاء كثيف من الجليد وامتد إلى الشرق وإلى الجنوب من هذا الغطاء الجليدى بحر عظيم لا تزال بعض بقاياه ممثلة فى بحر الأرال وبحر قزوين واختلفت الأحوال الجغرافية فى الجنوب (أى فى أفريقيا) عما نعهده فيها اليوم ، فلم تسكن الصحراء الكبرى جرداء كما هى الآن ، ولكنها كانت أرطب مناخا ، وهناك من الشواهد ما يؤكد أن البحر المتوسط لم يكن حاجزاً منيعا بين أوربا وأفريقيا وأن الاتصال بينهما كان ميسورا ، ومن هذا يتبين أن أوربا كانت أكثر إتصالا مباشراً بأفريقيا وأقل إتصالا مباشراً بآسيا عما هى اليوم وأن شمال أوربا كان أقل صلاحية لسكنى الشعوب الأولى عنه فى العصور المتأخرة .

وعلى كل حال فمما لا شك فيه أن جماعات تنتمى إلى جنس واحد هاجرت فى عصور ما قبل التاريخ من الأقاليم المدارية الأفريقية وأتجهت شمالا إلى أوربا — ولكنها لم تتصل بالجماعات الأسيويه — وهى تقل فى عددها كلما اتجهنا شمالا أو كلما ازداد المناخ قسوة .

وبالطبع تنقصنا معلومات مسجلة عن هذه العهود فليس لها تاريخ يمكن الرجوع اليه ، كما خلا المسرح من العوامل التى تحفز الانسان فى تفكيرة وأعماله إلى التقدم فأنعدم بذلك أى احتمال للرقى والواقع أنه طالما لم توجد صحراء لم يولد تاريخ جدير بالذكر .

ولما بدأت الأحوال المناخيه الحديثة تظهر فى الوجود أخذت جماعات هذا الجنس المتجانسة قليلا أو كثيرا والتى كانت تسكن أجزاء من أوربا ومن أفريقيا — أخذت تنقسم عن بعضها وفصلت بينها ثلاثة حواجز كبرى وربما لم تكن هذه الحواجز الثلاثة إلا أعراض لظاهرة واحدة .

أولها — أن الطريق الآتى من آسيا أصبح مفتوحاً إلى حدما إلى أوربا ، وجاء اليها جنس بشرى من سكان المرتفعات استقر فى مرتفعات آسيا الصغرى والبلقان والألب وهكذا دق أسفين من سكان المرتفعـــات بين سكان السهول على كلا الجانبين .

وثانيها — أن البحر المتوسط أصبح حاجزاً أكثر مناعة عما كان من قبل .

وثالثها — أن الأحوال الصحراوية فى الصحراء الكبرى أصبحت أكثر وضوحاً وبذا قامت أعظم العقبات .

* * *

هذه الحواجز الثلاثة قسمت السكان الأصليين إلى أربع مجموعات ، تعرضت كل منها لمناخ مختلف ولمؤثرات جغرافية مختلفة فتأقلمت فى بيئاتها وتميزت بخصائصها شيئاً فشيئاً .

(ا) فإلى الشمال سكنت الأقوام النوردية وكانت قليـلة فى عددها فى بادئ الأمر ولم تسود بشرتها بسبب عدم التعرض لكثير من أشعة الشمس .

(ب) وإلى الجنوب من مرتفعات الألب سكن جنس فى أقاليم امتازت بسمائها الصافية وبيئتها الطبيعية الجميـلة فنمت فيه حاسة الذوق الفنى وتقدير الجمال فى الأجسام والألوان .

(حـ) وظل البربر محصورين بين البحر المتوسط والصحراء الكبرى ولم تسمح لهم ظروفهم القاسية بالنمو والتطور كما سكن المصريون مصر وقد تأثروا بطبيعة النظام الحولى الذى يتبعه موردهم المائى .

(ى) وإلى الجنوب من الصحراء الكبرى قطن الزنوج وقد اسودت بشرتهم واستطاعوا مقاومة الشمس الحارقة .

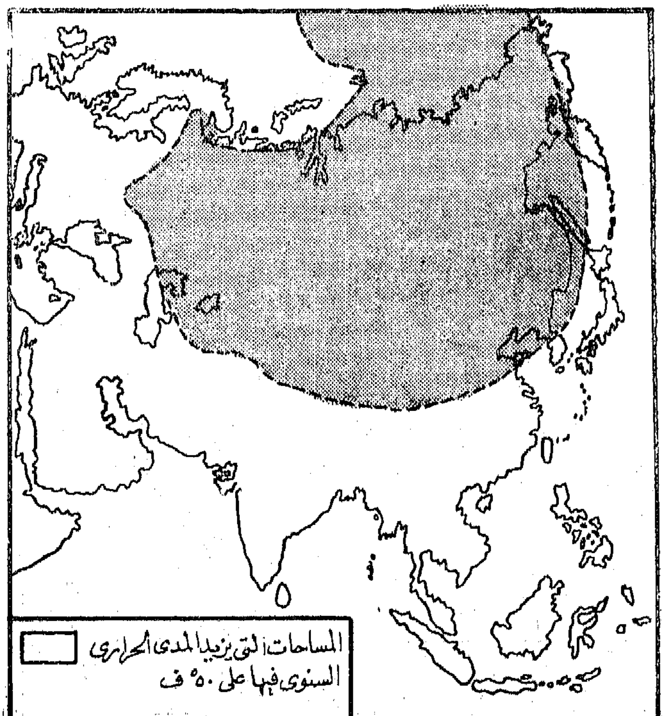
وإنا سنتكلم فيما بعد عن الأراضى الفسيحة الممتدة جنوب الصحراء الكبرى وقد تكلمنا فيما سبق عن الأراضى الممتدة بين الصحراء الكبرى

وجبال الألب ، ولنلق الآن بنظرة على الأراضى الممتدة شمالى جبال الألب .

لم يقتصر أثر تغيير الأحوال المناخية أن أصبحت أفريقيا الجنوبية كتلة منفصلة من اليابس بل أن أوروبا ذاتها قد انفتحت على مصاريعها للمؤثرات الأسيوية .

* * *

أن خرائط أوراسيا تظهر لنا أن نطاقاً عظيما من المرتفعات يحيط بحافاتها من الشرق والجنوب والغرب وأن سهلا عظيما مثلث الشكل تقريباً يقع فيما بين هذه المرتفعات معزولا عن البحر من جميع الاتجاهات إلا فى الشمال المتجمد وأنه يرتفع قليلا عن مستوى ٦٠٠ قدم فوق سطح البحر ، وهو أعظم سهول الدنيا . ولقد لاحظنا الفروق الأساسية بين المرتفعات والسهول فيما سبق — كما رأينا أن تنوع الظاهرات فى أوروبا الغربية كان له أثره فى التاريخ — ويجب أن نلاحظ أن الأحوال الجغرافية فى آسيا هى بعينها فى أوروبا غير أنها أكثر شمولا لمساحات شاسعة ، فالسهل بعيد عن البحر وليس الأمر مقصوراً على البعد ، بل أن نطاقا من

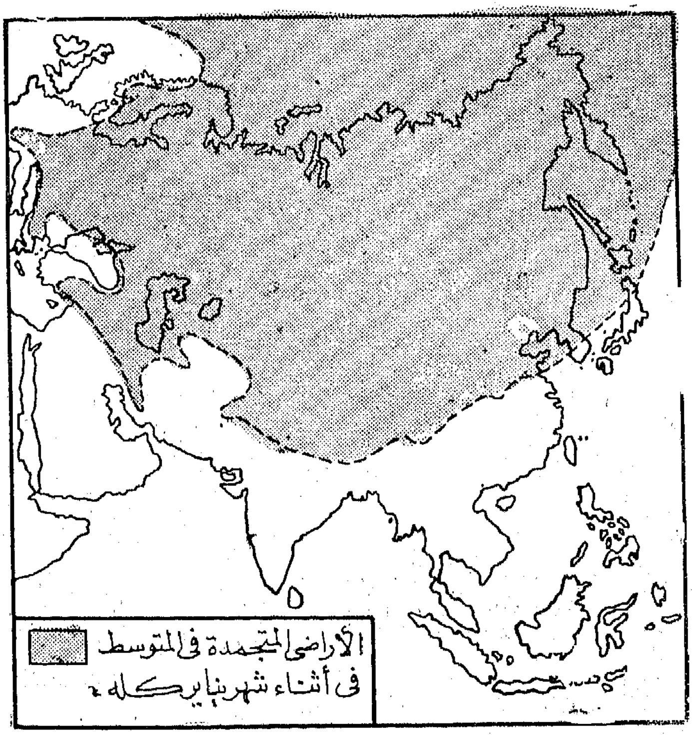


الخريطة رقم ٢١
البلاد المتطرفة فى درجة حرارتها

المرتفعات يتدخـل بينهما وهكذا تفقد الرياح الآتية من البحار جزءاً عظيما من رطوبتها قبل أن تصل إلى السهول ومن ثم يصبح المطر نادراً فى سقوطه على المنطقة بأكملها . فلم تنم فيها إلا الحشائش وأصبحت إقليماً رعوياً ، وللبعـد عن البحر أثر آخر ، ذلك أن الهواء لقلة الرطوبة فيه لايخفف من حرارة الشمس حين تضئ ولا يحتفظ بحرارتها حين تختفى وهكذا عم المنطقة جميعاً نوع واحـد من المناخ المتطرف .

ولقد أثرت هذه الأحوال فى سكان السهول بخمس طرق مختلفة ؟

١ — إذ أوجدت فى السكان حافزاً يدفعهم إلى التقدم بسبب تتابع الفصول بانتظام فالصيف القائظ يمضى ليحل محله شتاء زمهرير — واقتضى الأمر أن عاش فى السهل أناس ليسوا على درجة من الوحشية كأولئك الذين يسكنون السهول الاستوائية ، بل كانوا شجعاناً ممتلئ الأجسام وهبتهم الطبيعة قسطاً من قوة الاحتمال البدنية .



الخريطه رقم ٢٢ — الاراضى الباردة

٢ — ولما كانت الأراضى فى تلك السهول هى مساحات واسعة منبسطة خالية من وسائل الدفاع الطبيعية كالتى كفلتها الصحراء لمصر أو كالتى وهبتها المستنقعات لبابل — كما أنها خلت من المواضع التى تصلح حصونا طبيعية مثل الموقع الذى إستغله أهل روما فى الدفاع عن مدينتهم، لذلك تحتم على هؤلاء أن يعتمدوا على أنفسهم فى الدفاع عنها ، كذلك الأحوال المناخية قد تقسو لدرجة تنشر الهلاك بين الأفراد والعائلات لو أنهم تركوا لأنفسهم ، وتطلب منهم الدفاع عن أنفسهم وضد الأحوال المناخية نوعاً من التنظيم ومن ثم عاشت هذه الأقوام وهى تعيش إلى اليوم تتبع فى حياتها نظام القبيله .

٣ — ولما كانت الحشائش هى النبات الرئيسى ، وهى فى معظم الأقاليم الانتاج النباتى الوحيد كان من الضرورى ألا تعتمد القبائل فى حياتها مباشرة على ماتنتجه الأرض فقط ، وتطلب الأمر أن تكون الشعوب قادرة على استغلال الموارد على أية حال بطريقة أكثر تركيزاً — أى أنهم اضطروا إلى أن يعيشوا على الحيوان وما ينتجه — وهكذا كانت هذه الأقوام — وما زالت — رعاة أغنام وماشية وراكبى خيول يعيشون على اللحوم والألبان والزبد .

٤ — فإذا ما أصبح المرعى فقيرا فى مكان ما وأتلفته الرمال التى تذروها الرياح القوية إضطرت القبائل إلى الهجرة من مرعى إلى آخر — رغم صعوبة الانتقال الطبيعية على الأرض بسبب احتكاك وسائل المواصلات بالأرض فى غالب الأحيان — إلا أن هذه الصعوبة لم تقف أمام قوة أعظم منها شأنا ، ألا وهى قوة الحرص على الحياة . ولما لم تمتز بقعة على غيرها فى وسائل الدفاع لم توجد المغريات التى تحث على البقاء فى مكان واحد بل وجدت الأسباب التى تدفع القبائل دائما إلى الحركة والهجرة والتى تخلق فيهم روح الرعى والتجول وأصبحت هذه الصفات جزءاً من كيانهم .

٥ — أما وقد حرموا كل حماية لهم فى العصور الأولى عدا حمايتهم لأنفسهم فأنهم اضطروا إلى القضاء على أعدائهم الذين ينتصرون عليهم قضاء مبرما وذلك حتى يأمنوا الحياة لأنفسهم لو قلب الدهر لهم ظهر المجن . وهكذا كانوا جنساً اشتهر بقسوته بين البشر .

وسواء أكان سكان هذه السهول الوسطى مـدفوعين فى تحركهم بالجفاف المتزايد أم أنهم هاجروا بدافع قلقهم الطبيعى فحسب ، فأنهم ظلوا طوال العصور التاريخية ، مبعث القلق بين الشعوب التى استقرت نوعاً ما واستوطنت جوانب هذا السهل ، فكانت تظهر جموعهم من وقت إلى آخر المرة بعد المرة من وراء الحافة الجبلية وهى تنشر الخراب والتدمير لا الانشاء والتعمير . ولقد رأينا أن الامبراطورية الأشورية قد أصابها الضعف نتيجة لغزوات القبائل الشمالية وسرعان ماتقوضت دعائمها ، وربما كان خطر هذه القبائل أسبق من أشور عهداً ، فقد تجمع لدينا من الآثار ما يدل على تقدم هؤلاء الرعاة من وراء الجبال نحو البلاد الواقعة إلى الشرق من مراعيهم ، كما خضعت المدينة الأغريقية القديمة فترة ما لغزوات جاءت اليها من الشمال . ومهما كان الأمر فمما لا شك فيه أنا كلما أنعمنا النظر فى الوقائع التاريخية الثابتة فى العالم وجدنا أثر هذه القبائل المهاجرة أكثر وضوحاً وظهوراً .

الآن وقد عرفنا أن أوربا كانت منعزلة إلى حد كبير عن آسيا أبان عصور ماقبل التاريخ ولم يكن السهل سهلا واحداً بل سهلين منفصلين ومن المشكوك فيه أن تعرضت الجماعات فى كلا السهلين فى هـــذه العصور السحيقة لأحوال متماثلة ولدت فيهم الصفـــات التى تميز بها سكان المراعى — وهم ينتمون إلى أجناس مختلفة — فكان الغزاة المتدفقون من السهول على نوعين ، سكان شمال أوربا وهم من ذوى اللحى ويسمون بالتيوتون ، وسكان آسيا وهم مرد الذقون ويعرفون بإسم التتار والمغول ، هذا الإختلاف فى الجنس صاحبته اختلافات أخرى مردها أسباب وعوامل جغرافية — فإن شعوب النصف الأوربى من السهل — كما حدث فعلا — كانوا أكثر اتصالا بالمؤثرات الحضارية عمـا كان عليه سكان النصف الأسيوى . على حين لم يصب سكان جنوب آسيا تقدماً يذكر لأسباب سنتولى مناقشتها فيما بعد . وعلى أية حال فان نطاق المرتفعات فى آسيا أكثر عرضاً عنه فى أوربا مما يجعل منه حاجزاً أشد مناعة أمام حركات الإنسان وأمام انتقال الثقافات ، فاشتدت عزلة النصف الأسيوى من السهل عن مراكز الحضارة الأخرى كما أن الأحوال المناخية تشتد فى قسوتها فى الشرق عنها فى الغرب . والـكتلة

الأسيوية أعظم اتساعاً من كتلة أوروبا ، وهكذا بعـد قلب آسيا كثيراً عن مؤثرات البحر وتطرفت فيه درجات الحرارة والبرودة — كما حال اتساع المرتفعات الأسيوية وارتفاعها دون وصول الأمطار إلى داخل القارة إلا فى كميات قليلة كما أن البعد عن المحيط وخصوصاً المحيط الغربى جعل سقوط الأمطار أقل حدوثاً فى آسيا عنه فى أوربا .

وهكذا أصبح سكان السهول فى أوربا — ولو أنهم على درجة من التأخر — أكثر رقياً أو بعبارة أخرى أقل همجية من إخوانهـم الأسيويين . فـكانت الخصائص المميزة لسكان السهول أقل بروزاً فيهم وأصبحوا أكثر ارتباطا بالأرض من الآخرين وبالتالى قل ميلهم إلى الهجرة — وقد يخيل إلينا أن الأوروبيين كانوا أعلى صوتاً فى العصور السحيقة من غيرهم ولـكن هذا يرجع فى أغلب الظن إلى أن غزوات الجحافل الأوروبية فى معظم الأحوال كانت بسبب اضطراب الرعاة الأسيويين الذين كانوا يضغطون على مؤخرتهم أكثر مما ترجع إلى أية رغبة جامحة فيهم نحو الهجرة .

وما من قبيلة من هذه القبائل الرعوية كانت كثيرة العدد ويتحتم عليها أن تكون على شئ من التنظيم لا غنى عنه لبقائها نفسه ، وليس من المحتمل أن تبلغ عصابة متنقلة درجة عالية من التنظيم بحيث تضم عدداً كبيراً من الأفراد دون أن يعتريها شئ من الفوضى ونجد من الخير لها أن تعمل على توفير المرعى لعدد أقل نسبياً من قطعان الماشية التى تتوقف عليها حياة أفرادها ومهما كان عدد القبيلة صغيراً فهو يفوق عادة عند نقطة وصولها أعداد القاطنين من الشعوب المستقرة ، فيضطر هؤلاء المستوطنون إلى أن يخضعوا ويستسلموا ثم يضغطون بدورهم على آخرين وقد يفضل هؤلاء الانسحاب أمام ذلك الهجوم .

وهكذا بقدر ماتـكون هذه القبائل عريقة فى بداوتها بقدرما تسبب دماراً بين الجماعات المستقرة وتقضى على نظمها وتترك طابعاً ضئيلا تافهاً فى التـاريخ ، لقد مروا كالعاصفة الهوجاء وسرعان ما اختفوا .

فإذا تذكرنا كل هذه النتائج المتمخضة عن الظروف الجغرافية فلننظر الآن إلى التاريخ فى تفاصيله .

ليس لدينا قبل ظهور روما إلا فكرة غامضة مشوشة عن أثر هؤلاء الناس فى تاريخ البلاد المتمدينة — وقد سمعنا حقاً عن القبائل الشمالية الغامضة التى كان المتحضرون القدماء من أمثال الأشوريين والفرس واليونان ينظرون إليها نظرة خشية وخوف . ثم نجحت روما أبان سطوتها ولمدة قرون فى إيقاف تيار البرابرة وصده وراء أنهار الراين والطونه ، ولما انقسمت الإمبراطورية إلى جزأين ، وحلت القسطنطينية محل روما مرقت هذه القبائل كالسهم إلى جميع الأراضى التى كانت تدين لروما بالولاء إما لأنها اضطرت إلى ذلك اضطراراً بحكم تحرك القبائل الهمجية فيما وراءها ، وإما لأنها اجتذبها إلى الإمبراطورية أمل فى السرقة والنهب .

وكان من الطبيعى أن تجيء القبائل الجرمانية أولا مثل قبائل شاتى واللمانى والقوط والواندال — وكانت غارات هذه القبائل الضربة القاصمة التى وجهت إلى القوة الرومانية الغربية فأسسوا فى داخل الإمبراطورية الغربية ممالك تدين بالولاء فى أول الأمر لرئيس رومانى ، ولكنها أخذت تفصم تدريجياً تلك الروابط التى كانت تربط أجزاء الإمبراطورية بعضها ببعض .

وفى القرن الثالث جاءت قبائل الفرنجة وأشاعت التفرقة لفترة من الزمان فى إيطاليا وأسبانيا ، ولكنها سرعان ما اختفت فى معمعان بقية الشعوب ، وإنا لا نستطيع الجزم ، أى من هذه القبائل الأولى المهاجرة كانت متأثرة إلى حد كبير بضغط واقع عليها من السهول فيما وراءها ، ولكنا نعلم أن القوط فى أواخر القرن الرابع بدأوا يضغطون على الفرنجة والألمان والرومان وأنهم كانوا بدورهم واقعين تحت ضغط أخطر شأناً وهو ضغط قبائل الهون عليهم وفى بداية القرن الخامس غزا القوط بقيادة أرلك إيطاليا ونهبوا روما باسم الولاء للنظام والقانون . ولما مات أرلك وكانت روما لا تزال تحتفظ ببقية من الاحترام والرهبة انسحب خليفته إلى جنوب بلاد الغال وإلى شمال أسبانيا مؤسساً مملكة عمرت ثلاثة قرون ،

كانت تعترف بسلطان روما طالما بقى للمدينة الإمبراطورية ظل لسلطان .

ثم جاء الهون من الشرق فى أواسط القرن الخامس تحت قيادة أتلا وهو المعروف باسم (سوط الله) وسار بجموعه مخترقا أوروبا حتى قلب فرنسا الحديثة إلى أن تصدت له قوات أوربا فردته على أعقابه فى معركة شالون وهى من أعظم المعارك العالمية شأناً .

ثم جاءت من الشرق موجة أخرى من القوط بعد خمس وعشرين سنة من هذا التاريخ وأقامت فى إيطاليا مملكة لهم على أنقاض الامبراطورية الرومانية .

فى خلال القرن السادس ظهرت الجماعات السلافية على حدود الامبراطورية الشرقية وانتشرت فى الأراضى الواسعة الممتده شمالا الى بحر البلطيق ولم يكد هؤلاء يظهرون حتى برز وراءهم الآفاروهم أخطر الغزاة الذين أغاروا على أوربا وأمعنوا فى النهب والتخريب . وقد جاءوا إليها قادمين من مسافات بعيدة فأوقفوا امتداد المستعمرات الألمانية على الدانوب وطردوا قبائل اللومبارد من مساكنهم فاضطر هؤلاء الى غزو ايطاليا حيث أقاموا ممالكا واطلقوا اسمهم على السهل الممتد بين جبال الألب والأبنين الشمالية — أى سهل لمبارديا وقد كان احتلال الآفار لسهل المجر وتكوينهم مملكة عاشت حتى القرن التاسع بمثابة دق أسفين بين السلاف الشماليين والسلاف الجنوبيين لقد هاجر السلاف الجنوبيون الى جنوب الدانوب فى داخل الأمبراطورية الرومانية وكانوا لها درعا واقيا لها ضد أعداء أشد منهم مراسا . وكان هذا بداية تكوين سلسلة من الدول السلافية الصغيره بقيت حتى اليوم ، تارة مستقلة وتارة خاضعة لسلطان قوة أكبر منها وما الصرب وكرواتيا وكارنثيا ودالماسيا الا مستعمرات صقلبية ترجع فى أصلها الى السلاف الذين جاؤا فى القرن السابع وكانوا على درجات متفاوتة من الأستقرار .
وتعاصر غزوات الآفار تقريبا حركات قبيلة البلغار التى أسست مملكة فى الأراضى الواقعة بين الدانوب وأرض هايموس ولاتزال يطلق عليها اسم هذه القبيله ، ومنذ ذلك الوقت أحرز سكان هذة البلاد حريتهم مرارا وأسسوا ممالك بلغارية استمرت سنين عديدة ولكن البلغار — مثلهم مثل الآفار ومثل النورمانديين فى انجلترا — فقدوا مميزاتهم واختلطوا بالشعوب التى سيطروا عليها .

وفى القرن التاسع حدثت حركات أخرى كان مصدرها الأول مراعى الأستبس الأسيوية ولكنها أثرت فى التاريخ الأوربى تأثيرا ماديا . فقد قدمت من الشرق قبائل الخزر فطردت أمامها الباتزناك من اقليم الفلجا الذى استوطنوه قبل ذلك بخمسين عاما ، وساق هؤلاء أمامهم المجريين وطردوهم غربا ، وهكذا أضطرب العالم الغربى مرة أخرى بسلسلة من الغزوات — وتميز هجوم المجريين أو (الهنغاريين) بالنهب والسلب وبعد فترة قصيرة قامت بينهم حكومة منظمة فى سهل المجر وهو أشبه بجزيرة من المراعى تحتضنها جبال الكربات — وقد بقى فية المجريون الى اليوم ورغم أنهم شعب شرقى الأصل غير أنهم دخلوا فى حظيرة الأمم التى تدين بمثل الحضارة الغربية ، أما الباتزناك والكومان الذى حلوا محل المجريين فى جنوب روسيا فقد استمروا حتى القرن الثانى عشر قوة تخشاها الأمبراطورية القائمة على شواطئ البوسفور ولكنهم اندثروا بعدئذ .

وفى القرن الثالث عشر خضع السهل بأجمعة لسلطان رجل واحد هو جنكيز خان العظيم — وقد احتفظ أحفادة وخلفاؤه لمدى ثلاثة قرون بالسيطرة على مساحات اتسعت كثيرا أوقليلا فى أواسط آسيا . كانو يرسلون الجيوش المتعاقبة لنهب الدول القائمة على حافة هذا السهل ولتخضعها مددا طالت أم قصرت وقد أجتاح روسيا وبولندا والمجر قائد من قواد الخان الأكبر فخربها تخريبا . وبعد قليل غزا العراق (قبلاى خان) وهو لا يقل عن الخان الأول سمعة وشأنا ، أما فى القرن الرابع عشر فقد حكم تيمورلنك جزءا كبير من آسيا وفى القرن السادس عشر غزا أحد أحفاده الهند وأسس بها الدوله المغولية الكبرى .

وأخيرا جاء الأتراك مفضلين طريق مراعى آسيا الصغرى على الممر الواقع بين جبال الأورال وبحر قزوين (١) ولم ينتصف القرن الحادى عشر حتى سيطروا على هذه البلاد بأجمعها . وحدث أبان العصر الذى حكم فية وليم الفاتح انجلترا أن أضاف الأتراك الى ملكهم مساحة كبيرة من الأراضى امتدت جنوبا حتى مدينة

---

(١) ربما كان السبب فى هذة الحركة هجرة الخزر الذين كان لهم أثر فعال فى بدء غزوات المجريين

القدس . وكان هذا سببا فى بدء الحروب الصليبية فى ذلك الوقت وعدا هذا لم يؤثروا فى السياسة الأوروبية حتى وقت متأخر جدا — لأن قوة البيت الحاكم التركى الأول — أى الأتراك السلاجقه — كانت قد أضعفتها غارات المغول على جبهتهم الشرقية فى القرن الثالث عشر ولم يستأنفوا تقدمهم نحو أوربا إلا على أيدى الأتراك العثمانيين حين قاموا كعصبة تخدم السلجوقيين فى أول الأمر فى كفاحهم مع المغول ثم قبضوا على السطة بأنفسهم ، وعلى الرغم من أن جزءاً كبيراً مما يسمى الآن بتركية أوربا سقط فى أيديهم قبل منتصف القرن الرابع عشر إلا أنه مرت مائة عام قبل أن يستولوا على القسطنطينية ويقضوا قضاء نهائيا على الأمبراطورية الرومانية الشرقية فى عام ١٤٥٣ وفى القرن السادس عشر خضعت المجر للحكم التركى وبقيت خاضعة لهم حتى نهاية القرن السابع عشر عندما استردت حريتها .

وهكذا نرى ظاهرة تتكرر دائما ألا وهى خروج جماعات من السهول تنشر الذعر والإضطراب بين القاطنين على حافاتها لا فى أوربا فحسب بل وفى غرب آسيا وفى الهند وفى الصين .

واستمر ذلك منذ عصر ما قبل التاريخ حتى قبيل بدء عصرنا الحالى ببضعة قرون — ولو أننا استعرنا تعبيرا كميائيا لقلنا أن رعاة السهول كانوا يقومون بدور السائل المذيب للشعوب المستوطنة على اطار هذا السهل — وأن عملية التبلور تتأخر بذوبان البلورات التى سبق تكوينها قبل ذلك الحين ولا تلبث أن تتكون بلورات جديدة أكبر حجما من السابقة ، وهكذا تحل وحدات جديدة أقل عددا وأكبر حجما محل الوحدات القديمة المتعددة ، وتسكنها شعوب مستقرة وتسودها حكومات ثابته .

ولقد تأثرت مصر قليلا بالرعاة بسبب بعدها عن السهل الأعظم ولكن أشور واليونان وروما كما رأيناها كانت تنظر فى هلع نحو الجبال الواقعة على حدودها الشمالية خشية أن تظهر من بين ممراتها ودروبها شعوب مدفوعة فى تحركها بحافز من بيئة المراعى التى تركوها وراءهم ، وكانت الأمبراطورية الرومانية أكثر الدول القديمة تعرضاً لغزوات هذه القبائل لأن حدودها ترامت الى الشمال وإلى الشرق وراء جبال

أوربا الجنوبية وبقيت جهاتها أكثر تعرضاً للهجوم من أى من الإمبراطوريات القديمة ، ولهذا أصبح تاريخ روما المتأخر وثيق الارتباط بتاريخ الشعوب القاطنة فى ذلك السهل وحتى بعد أن تكونت دول عظيمة فى غرب أوربا ظل شرق أوربا قرونا معرضا لهجوم القوات القادمة من المراعى ، كما أن الأمبراطورية الشرقية كان مصيرها كشقيقتها الغربية الانهيار أخيراً تحت سنابك غزوات الرعاة .

ويبدو دور هذه الشعوب فى تاريخ العالم واضحاً ، لأن ظروفا جغرافية متعددة الألوان تضافرت فأدت إلى هذه النتيجة ، ولنر الآن هل أصاب البشر تقدما ؟ وهل استطاعوا فعلا توفير الطاقة واختزانها ؟ لاشك أن هناك مجهوداً ضائعاً ، فقد تهدمت الأمبراطورية الرومانية بنظمها العتيدة العظيمة فهل عوض عنها البشر خيراً ؟ هل كان تدمير جزء كبير من الأمبراطورية الرومانية عبثاً ضائعاً ؟ أو أنه كان بمثابة إزالة آلة مهملة كان من الواجب إزالتها قبل أن تركب مكانها آلة جديدة أفضل منها ؟

لقد حدث التقدم فى ثلاث نواحى :

أولا : أن البرابرة الأسيويين والغربيين كانوا شجعانا أقوياء البنية وكانت أغلب الشعوب القديمه كالمصريين والبابليين واليونان والرومان والفينيقيين تعيش فى أحوال جغرافية مواتية ، غير أن الرعاة من سكان السهول كانوا يعيشون تحت ظروف جغرافية قاسية ، قاسية لأن السهل بامتداده شمالا تقل فيه الثروة الطبيعية ، فاتصف الناس فيه بصفات أسمى من صفات سكان الجنوب ، إذ أهلتهم هذه المميزات لاحراز قسط أوفى من التقدم والرقى ، لأن الشجاعة الفردية لازمة للانسان فى صراعه مع المناخ وقسوته كل يوم ، وفى جهاده مع التربة الجافة ، كما تلزمه فى قتاله مع أعدائه من البشر . وبالجملة فإن الأجناس الشمالية كانت تفوق فى شجاعتها سادة إيطاليا بعد القرن الثانى الميلادى ، فقد نسى هؤلاء منذ أمد بعيد كم تفيد شجاعة الفرد الشخصية ومدى أثرها كعامل عظيم فى استقرار الدولة .

ثانيا : كذلك برزت الروح الفردية بين الأمم التيوتونية فى مظاهر شتى . فإن

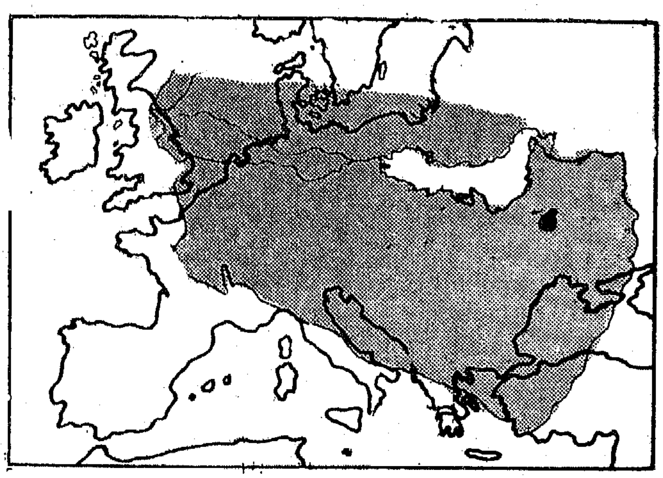
حرية الفرد على ضرورتها يجب أن تخضع للصالح العام إلى حد ما — وحدث مزج بين الفكرتين فى زمان متأخر أبان نمو النظام الاقطاعى . فكرة احترام الحرية الفردية وفكرة التضحية بها فى سبيل الصالح العام . وكانت الظروف الجغرافية الأولى ملائمة لنمو المسلك العقلى الذى يشجع على الحرية الفردية تحت نظام الحكم الإغريقى ثم سايرت الفكرة نظام الحكم الرومانى — وتتجلى الروح الفردية فى خلق صفات خلقية أخرى تدعو إلى التقدم فإن حب العائلة بما ينطوى عليه من فضائل أكثر ظهوراً فى الشمال عنه فى الجنوب .

ثالثا : أن غزو البرابرة الأسيويين على الرغم مما خلفوه من تدمير لم يمض دون أن يترك أثره فى خلق تقدم مادى عظيم فقد اتسعت النظرة إلى العالم وأدخلت هذه الغزوات إلى عقول الأمم الغربية فكرة أخرى عن العالم وهى أنه أكبر اتساعا من بلاد البحر المتوسط ، ووصل الرحالة فعلا إلى الصين وعادوا يقصون القصص عنها ، وأصبح العالم الذى يهتمون به متسع الأرجاء . ونمت بنموه كمية الطاقة التى تصلح للاستغلال ، وليس بكثير أن قلنا أن القبائل الغازية بأشاعتها تلك النظرة كان لها أثر بارز فى خلق مجموعة من الظروف أدت إلى الاكتشافات التى قام بها كولومبس واتباعه .

الفصل الثامن

الواحات والإسلام

لقد رأينا فى الفصل السابق كيف أثر السهل الأعظم فى مجرى التاريخ وهناك مراع أخرى (استبس) لا تصل فى مساحتها إلى مساحة السهل الأعظم على كبر حجمها ، وقد أثرت بدورها فى مجرى التاريخ ولكنها تركت فيه أثراً مختلفاً بسبب اختلاف الأحوال الجغرافية ، إذ أن الصحراء تشغل من السهل الأعظم جزءاً بسيطا بالنسبة لما تشغله مساحات المراعى الواسعة أو التى تفضلها نوعا ما — ولكن البلاد العربية على النقيض من ذلك تحتل الصحراء فيها مساحات واسعة ويكاد يكون الباقى كله من المراعى .



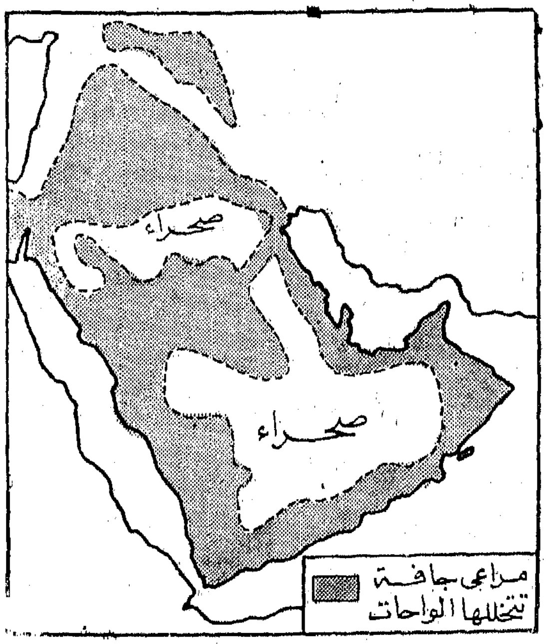
الخريطه رقم ٢٣

مقارنة مساحة بلاد العرب بالنسبه لاوربا

(مقياس الرسم واحد فى الحالتين)

تبلغ بلاد العرب ١٥٠٠ ميل فى طولها تقريباً أى نحو طول المسافة من لندن إلى بلاد القوقاز ، وتبلغ فى عرضها نصف ذلك البعد تقريباً ، وهى ليست كلها صحراء بل أن جزءاً كبيراً منها مراع جافة ، وفى داخلها بقاع من الواحات على

درجات متفاوتة من الخصوبة ، وفى بعض الأماكن تتدرج المراعى شيئاً فشيئاً إلى أن تصبح صحراء جرداء . هـذه هى الجزيرة العربية ، أى بلاد العرب وهى مجموعة من الواحات والأراضى الجافة ، ولهذه الظروف الجغرافية نتائج عدة .



الخريطة رقم ٢٤ — بلاد العرب هى صحراء ومراع

لما كانت بلاد العرب مراعى فى غالبها كان من الطبيعى أن يصبح أهلها رعاة .

١ — ولكونها أشد جفافاً من مراعى آسيا لم تحتمل أن تعول من السكان إلا عدداً قليلا نسبياً لو قورنت بغيرها من المناطق المشابهة لها .

٢ — ولأنها تحوى بعض الواحات فقد رغب بعض السكان فى الاستقرار بها .

٣ — وهكذا وجدت طبقتان متميزتان ، البدو والحضر أى سكان البادية وسكان الواحات . ولم يكن الأخيرون بالعدد الكبير على أية حال ليتركوا فى مجتمعهم أثراً كبيراً فتركزت السلطة غالباً فى أيدى البدو الذين سادوا المراعى الواقعة فيما بين الواحات . ولما كان الرعاة العرب يعتمدون فى حياتهم بعض الاعتماد على واحات معينة فإن سكان المراعى منهم أصبحوا أكثر ارتباطاً ببقعة معينة من الأرض مما جرت عليه عادة الرعاة الخلص . ومن الطبيعى أن تقوم هنا وهناك سلطات صغيرة تفرض سيطرتها لفترة ما على بضع واحات وعلى المراعى التى تتخللها .

٤ — ونظراً لأن المراعى فى الجزيرة العربية محاطة فعلا بالصحراء وبالبحر وكلاهما كان عسير الاجتياز فى العهود القديمة أصبح سكان بلاد العرب شعباً منعزلا ، وتوفرت لهم وسائل الحماية من الغزو الأجنبى ، كما أمسوا ضعاف الأثر فى الشعوب الأخرى ، عاجزين عن التدخل فى الشئون الخارجية ما دامت السلطات القائمة فى المراعى ضئيلة ولا انسجام بينها .

وليس بعجيب إذن أن يترك سكان السهل الأعظم أثراً محسوساً مستمراً فى التاريخ لمدة قرون وألا يؤثر سكان بلاد العرب فى تاريخ العالم إلا فى زمن متأخر من العصور التاريخية ، على الرغم من قرب مواطنهم من مصر وفلسطين وبابل وبلاد اليونان ، هذا على الرغم من أن العرب كانوا يميلون إلى الانتشار فى البلاد المجاورة إلا أن هجرتهم اليها كانت متغيرة متقلبة ولم تتخذ شكلاً محدداً .

وقد يعترضنا السؤال الآتى : « ولماذا ترك العرب إذن فى التاريخ أثرا ؟ » ولأن نجيب على هذا السؤال يجب أن نزن النحو الآخر الذى جرت عليه الظواهر الجغرافية ، وقد رأينا أن الناس قد يتقدمون أو يتأخرون بسبب الأحوال الجغرافية التى تؤثر فى أجسامهم وبالتالى فى صفحات عقولهم ، وقد رأينا أن حماية الصحراء التى كفلت الرخاء المادى للمصريين القدماء وللبابليين أوحت آخر الأمر إليهم بالثقة فى حمايتها لهم ، كما رأينا أن الأحوال الجغرافية السائدة فى بلاد الإغريق ، وما تمخض عنها من نشأة حكومات المدن العديدة مستقلة بعضها عن بعض ، رأيناها تؤثر فى عقول اليونانيين وتخلق منهم رجال سياسة .

كذلك أثرت الأحوال المادية بالطريقة عينها فى عقول العرب وكان تأثيرها مباشراً فإن تنقلهم فى بطء شديد من واحة إلى واحة فوق مراع وصحارى مع تكرار المنظر الطبيعى ونمطيته حيث تخلو الطبيعة من كل ما يلفت النظر أميالا وأميالا ، كل هذا دفع بهم إلى التأمل والتفكير ، فهم أن حلوا بالصحراء شعروا شعوراً آليا ودون وعى منهم بعجز الإنسان الشديد ، وأن حلوا بالواحات أدركوا أنها تقبل الإصلاح والتحسين وأنها تستجيب المجهود الإنسانى الذى يبذل فيها فترد الجميل إنتاجاً متزايداً ، بينما الصحراء لا تستجيب لمجهود ما ولا يمكن التغلب عليها ،

قط ، هنا شعر العرب بوجود ظاهرة عظمى صامتة تسمو على كل عظيم من الأشياء، وأدركوا — تحت ضغط ظروف الحياة — إدراكا متفاوت الدرجات ، أنهم ليسوا أحراراً فيما يريدون ، والناس دائماً على مختلف ألوانهم يعتنقون ديانات يحاولون أن يفسروا بها في وضوح تتفاوت درجته ما عجزوا عن إدراكه من أسرار العالم المحيط بهم . ويفسرون على الأخص الغاية التي خلقوا من أجلها، وأغلب الأجناس والقبائل تحس أنها معرضة لمؤثرات مختلفة وأن أمامهم حقائق شتى تتطلب منهم تفسيراً وحقائق عديدة تبدو لا ارتباط بينها في ظاهرها ، وهكذا عبدوا آلهة متعددة . الا أن الظواهر الطبيعية في الصحراء كان تأثيرها ساحقا على سكانها حتى أنهم في الوقت الذي كانوا يعترفون فيه بآلهة متعددة كان اتجاههم العام يسير بهم نحو الاعتراف بإله واحد عظيم، وليس مما يبعث على الدهشة أن تخرج من بلاد العرب أو من البلاد المحيطة بها الديانات العالمية الثلاث الكبرى التي تدعو إلى التوحيد ، ألا وهي اليهودية والنصرانية والاسلام . وليس بعجيب أيضاً أن تكون أبرز تعاليم إحداها موجزة في عبارتين إثنتين « عليك أن تفعل هذا وإياك أن تفعل ذاك » وهي مجموعة من الأوامر والنواهي (١) كما أدرك سكان الصحراء أن التقدم متعذر في بعض نواحي الحياة ورأوا في الدين قبسا يضيء لهم سرها ، كما رأوا أن جهود الإنسان في نظرهم عبث ضائع ما لم توجه توجيهاً معيناً وأن العقل الإنساني الذي يتحكم في استعمال الطاقة يجب أن يربى تربية خاصة تتجه به نحو إدراك هذه الفكرة عن الحياة .

وليس المفروض دائماً أن يتمسك الناس بعقائدهم لدرجة تجعلهم متعصبين يرغبون في تحويل البشر كافة إلى دينهم ، فأن المتوحشين الذين يحترمون آلهتهم خوفاً ورهبة لا يحاولون نشر دياناتهم عادة . وتختلف درجة حماس الناس في نشر دينهم بقدر ما يرون في بعض الأشياء منكرا يجب النهي عنه لأنه خطأ أو لأنه عبث لا طائل تحته بمضي الزمن ، وبقدر ما يرون أن بعض الفضائل يجب أن يتحلى بها الناس لأنها صواب أو لأنها توفر لهم الجهود لو طال بهم الأمد ، وكلما تعمقوا في إدراك معنى الحياة أي كلما زاد القدر الذي يفهمون به دينهم ، كلما اشتدت رغبتهم في أن ينبذ الآخرون دياناتهم وأن يقبلوا على اعتناق أسلوبهم

(١) يقصد الديانة اليهودية ووصاياها العشر .

فى التفكير . هذه الفكرة لاتكاد تخطر ببال الهمج المتأخرين ، وعلى الرغم من أن البشر شنوا حروباً عديدة فى الأيام الخوالى إلا أن الحروب الدينية البحتة كانت قليلة العدد — وكلما تقدم بنا التاريخ وجدنا الحروب والخلافات الدينية تزداد عدداً،وقد يبدو فى هذا نكسة لتقدم الإنسان ، ولكن الأمر عكس ذلك ، لأن هذه الظاهرة تسجل حقيقه واضحة وهى أن الناس أخذوا يدركون ولو فى غموض أن للحياة هدفاً ، وأن أوجه استخدام الطاقة وتوجيهها أكبر قيمة من الطاقة فى حد ذاتها

من هذا نرى لماذا نجحت الديانات الراقية فى اجتذاب عدد كبير اليها ، بينما قل عدد من يتحولون إلى الديانات المنحطة ، ونرى بوجه خاص لماذا خرج العرب من ديارهم يبغون نشر الدعوة المحمدية عندما اقتنعوا بما آمنوا به تحت تأثير تعاليم النبى محمد (صلعم) . .

ولقد عرفنا لم كان العرب شعباً منعزلا ولماذا آمنو بديانة تقوم على التوحيد ، ولماذا برزوا ليبشروا بهذا الدين ينشرونه وينشرون معه سلطانهم الزمنى وأن جاء ذلك عرضاً ولكنه كان أمراً لازماً — هذه كلها نتائج لظروف جغرافية — وعلينا أن نلاحظ الآن فى دقة كيف نجح العرب فى تحقيق ما رموا اليه .

لندرس أولا الزمان الذى بذلوا محاولتهم أبانه وظروف العالم الذى كان مسرحاً لهذه المحاولة ، فقد فشل العرب فى نشر الاسلام فى العالم أجمع ، بسبب عوامل القصور الذاتى الجغرافية وبعض هذه العوامل طارئ ، وبعضها دائم ، ولقد رأينا آنفاً أن فلسطين تدين فى أهميتها لموقعها الجغرافى بين مصر وبابل ، ويبدو طبيعياً أن قلنا أنها أمة نصف شرقية فى طبيعتها لأنها تحف بالبحر الأعظم ، وأهلها منذ فجر التاريخ ينظرون غربا كما ينظرون شرقاً ، وفى الأيام السحيقة أرسلت فينيقيا بحارتها يجوبون الغرب البعيد كما دخلت فلسطين فى حظيرة الفتوحات الأغريقية وأتخذ أهلها اللغة الأغريقية لغة لهم إلى حد كبير ، فلما ظهرت المسيحية فى الوجود لم تكتب الكتب المقدسة بالأغريقية فحسب بل إن البلاد ذاتها كانت جزءاً من الامبراطورية الغربية العظمى — امبراطورية روما —

وإذا كان من المقدر أن تنتشر المسيحية كان من الطبيعى أن تنتشر فى داخل

الامبراطورية الرومانيـة وبفضل سبقها أصبح أسقف روما معترفاً به كرئيس ينافسه فى الواقع بطريرك الامبراطورية الشرقية فى القسطنطينية فانتشرت المسيحية على اختلاف مذاهبها شرقاً وجنوباً : شرقاً إلى العراق وبلاد فارس وعبر السهول العظمى إلى الصين ، وجنوباً إلى الحبشة والهند وسيلان ولا يزال حتى اليوم فى الحبشة والملبار مسيحية من مذهب ما ، حقاً اختلفت المسيحية التى انتشرت فى داخل الامبراطورية عن المسيحية التى انتشرت خارجها ونظمت السلطـة الـكنسية فى داخل الامبراطورية على منوال حـكومـة الامبراطورية ذاتها ، وبقيت قوية زمنا طويلا حتى بعد أن زالت قوة روما وأصبحت اسما على غير مسمى :

هذه المسيحية التى انتشرت فى بلاد الامبراطورية هى مسيحية من مذهب واحد متجانس على غيرما انتشر منها على حدود الامبراطورية كالشام ومصر حيث ضعف الولاء لـكل من الـكنيسة والدولة وأصبحت المسيحيـــــة فى خارج الامبراطورية تتعارض مع المسيحية المنتشرة فى داخلها مارقة على تعاليمها غير متأصلة فى نفوس أهلها جميعاً .

لقد كان الدين فى هذه البلاد كنسياً تبشيرياً هزيلا نتيجة لهذه العوامل كما أدى اختلاف الظروف اختـــــلافاً طبيعياً إلى تحوير فى المسيحية وإلى ضعفها وانقسامها ولذا نجحت البلاد التى كانت رومانية فى مقاومة الاسلام بينما استسلمت له البلاد الأخرى .

ثم أثر القصور الذاتي الجغرافى فى تاريخ تلك الفترة على نحو آخر ولعل المسيحية أثرت على نحو ما فى تفكير النبى محمد فجعلته يدرك معنى الحياة وأوحت إليه بالبدء برسالته[١] على أنها لم تك إلا الثقاب الذى أشعل النور لا فى قلب الرسول فحسب ، بل وفى قلوب من تبعه ، ولولا أن عقولهم كانت مهيئة لوحى الصحراء مدى أجيال طويلة لما تقبلوا الدين الجديد القبول الذى حدث ، ويجب أن نلاحظ أيضا أن بلاد العرب ــ ونقصد جزيرة العرب نفسها ــ توفرت لها الحماية من المؤثرات الخارجية

(١) لايزال يبدى المؤلف تعصبة للمسيحية — وقد تـكرر ظهور هذا الشعور فى مواضع مختلفة — المترجم

ولابد أن تكون المسيحية التى وصلت إليها مسيحية مشوشة ممسوخة . لقد عاشت طويلا تلك المسيحية التى انتشرت فى الملبار مثلا، على الرغم مما أصابها من تحوير فى بيئتها الحديدة لمجرد أنها امتازت على الأديان الموجودة فيها . كذلك سما الدين الجديد الذى أتى به محمد على أى دين وجد فى الأراضى المحيطة ببلاد العرب .

والآن يجب أن نفرق بين انتشار الإسلام وبين الفتوحات العربية فان الإسلام انتشر فى بلاد تفوق فى مساحتها رقعة الأراضى التى فتحها العرب على عظم اتساعها ، وقد زود الإسلام العرب بقوة دافعة فانتشروا يبغون غزو العالم، وترددت فيهم رغبة فى نشر الإيمان بالله الواحد الذى يحاسب الناس جميعا عن حياتهم وعما يأتونه من خير أو شر ؛ واستمر الإسلام ينتشر حتى بعد أن وصل العرب إلى ذروة فتوحاتهم فانتشر بين الكفار ممن سيطروا على العرب بدورهم ، وإن ما نهتم به فى المقام الأول ليس انتشار الأسلام بقدر اهتمامنا بالفتوح العربية .

لقد قاوم سكان جنوب أوربا الفتح العربى لأنهم كانو مسيحيين ولأنهم كانوا قد نظموا أنفسهم ليقاومو هذا التقدم . أما فى الشرق فلم تكن الدول المسيحية على شىء من التنظيم، فكانت مقاومتها هزيلة تافهة ، وما هذه الحالة سوى نتيجة للظروف السياسيه التى سبقت هذا العهد وعوامل القصور الذاتى الجغرافى أما الفتوحات العربية إلى الجنوب الغربى من بلاد العرب فقد خضعت لعامل جغرافى بحت هو وجود الصحراء التى يصعب على أية جماعة من الناس اختراقها ، لهذا اقتصر نفوذ العرب السياسى على الامتداد على طول حافة أفريقيا الشمالية .

وهكذا اتجه الفتح العربى شرقا وغرباً وكان شاذا فى سرعته عبر مراع متفاوتة فى جفافها ونباتها وتلائم الحركات التى ألفها العرب فى موطنهم الأول ، فان العربى لا تربطه بالأرض رابطة ، سريع التنقل معتمدا فى غذائة على الحيوان الذى يحمله ويحمل متاعه ، ومادامت البيئة الجديدة بيئة مراع فهى مألوفة له تطيب له فيها جميع منازلها ، فكل منزل عنده لا يفضل الآخر ، هكذا كانت الأراضى التى غزاها العرب فى أول الأمر محددة بحكم جغرافيتها وبحكم ماضيها التاريخى .

ولنبحث الآن الوقائع التاريخية : لقد توحدت بلاد العرب تحت زعامة الرسول فى الثلاثين سنة الأولى من القرن السابع الميلادى وغزا العرب فى العشرين سنة التالية مصر

وسوريا والعراق وبلاد فارس وطوران وجزءاً صغيراً من الهند وحولوا أهلها جميعاً إلى الدين الإسلامى ثم توقفوا قليلا أمام بعض العقبات ، ولما كانت آسيا الصغرى على النقيض من سوريا قد تحولت تماماً إلى المسيحية وخضعت لسيطرة الامبراطورية الشرقية لم يستطع العرب قط أن يوطدوا أقدامهم بصفة مستمرة فى الشمال الغربى من جبال طوروس ، أضف إلى هذا أن العرب فى أساس عنصرهم رجال برو الهجوم من البر على دول شمال إفريقيا وما وراءها أمر عسير خاصة وأن الإمبراطورية الشرقية كانت لاتزال تملك اسطولا و ستطيع أن تسدى بعض المعونة لمستعمراتها البعيدة ولهذا تأخر فتح العرب لها إلى أن بسطوا سيطرتهم على مهد الملاحة البحرية فى مصر وفينيقيا وتمكنوا بعد مرور خمسين عاما أخرى أى فى أوائل القرن الثامن من أن يضيفوا إلى سلطان الخلفاء الساحل الشمالى لإفريقيا بفضل حملاتهم البحرية ، وأكثر من هذا ، لقد عبر العرب مضيق جبل طارق وفتحوا أسبانيا فى سنين قليلة ، وهى أبعد بقاع الإمبراطورية عن الحكم الرومانى المركزى ، وفرضوا سلطانهم على كل البلاد الأسبانية ما عدا أجزاء جبلية فى شمالها الغربى استمسكت بالمسيحية ، وكان لهذا الاستثناء هنا أهمية خاصة .

أقيم هذا الملك العريض فى فترة تقل قليلا عن قرن من الزمان ، وكانت بلاد الجزيرة العربية هى مهده ، ثم لم تعد ملاءمة لما تلى ذلك من ظروف السلطان والسيادة شأنها فى ذلك شأن غيرها من المهاد ، فاختيرت على التوالى دمشق و بغداد كعواصم للحكم الإسلامى .

وكان هذا الملك طويلا ضيقا بسبب وجود الدول المسيحية إلى الشمال والصحراء الكبرى إلى الجنوب ، وأنه لمن الصعوبة بمكان أن تحكم البلاد الطويلة الضيقة من مركز واحد ، مثلها كمثل مصر القديمة والإمبراطورية الرومانية ، ويزيد الأمر صعوبة أن مقر الحكم ليس فى وسط هذا الملك العربى فكان من الطبيعى أن ينقسم إلى جزأين كل منهما تحت إمرة خليفة يدعى أنه الوارث الشرعى للنبى محمد والحاكم لجميع أراضى المسلمين وكان هذا فى أواسط القرن الثامن حين انفصلت أسبانيا عن بقية الدولة العربية واستقلت فى نفس الوقت

بلاد البربر استقلالا حقيقياً وهى التى تفصلها عن العاصمة مسافة شاسعة ، وقد بقيت رغم هذا الانفصال تعتنق الدين الإسلامى ، وفى أقل من قرن ونصف من الزمان إستقلت بلاد العرب وما تبقى من البلاد الإفريقية وكونت بذاتها خلافة ثالثة ضمت اسميا ولايات البربر فترة من الزمان .

وهكذا إنقسم العالم الإسلامى إلى أربعة أقسام وهى أسبانيا وبلاد البربر ومصر وباقى الخلافة الشرقية ، وسار كل قسم منها فى تاريخه الخاص لا يربط بينها إلا عقيدة واحدة وإنها كانت فى يوم من الأيام إحدى الفتوحات العربية . ولم يكن الغزاة المسلمون لهذه الاجزاء جميعاً من عنصر واحد بقدر ما كانوا من عناصر متفرقة قذفت بهم الفتوحات السابقة فاختلطوا بالجحافل العربية المغيرة ، ولقد إزدادت الفروق الطبيعية الناشئة عن العوامل الجغرافية وتجسم التناقض بين الوحدات واشتعلت نار العداوة بينها ولم تتمكن وحدة الدين من إطفائها .

ولقد عمرت الخلافة العربية فى أسبانيا واستمرت قوية حتى بداية القرن الحادى عشر حين تفتت إلى دويلات صغيرة عديدة وظلت تنتقص من أطرافها على الدوام أمام تقدم الدويلات المسيحية فى الشمال حتى لم يتبق منها فى النهاية إلا مملكة غرناطة فى الجبال الجنوبية وقضى عليها نهائياً فى آواخر القرن الخامس عشر وعادت شبه الجزيرة بأكملها إلى حظيرة الحكم المسيحى .

أما فى الخلافة الشرقية فقد استمر الحكام العرب يمارسون سلطتهم من مقرهم فى السهول القاسية المحيطة ببغداد ولهم ظل من السيطرة الاسمية على الأقطار المختلفة حتى سنة ٨٠٠ ميلادية حين اضطروا إلى الاعتماد شيئاً فشيئاً على العصابات المرتزقة من الأتراك ممن استأجروهم ليخضعوا بهم البلاد التى كانت تشق عصا الطاعة دائما . وانتقلت السلطة بطبيعة الحال من أيدى العرب إلى الأتراك ، واستأثر الولاة الأتراك تدريجياً بالسلطة الفعلية، ومارسوا سلطانهم بأسماء مختلفة بل وقامت دول تركية مستقلة فى الهضبة الإيرانية على الرغم من أن الخلافة العربية ظلت قائمة فى بغداد حتى منتصف القرن الثالث عشر حين قضى المغول عليها القضاء الأخير ، ولقد رأينا أن الأتراك فى هجرتهم من السهل الأعظم جاءوا كفرة زنادقة ، ومن أسعدها

الحظ عنهم تلقى بعض الوعظ المشوش فى الدين المسيحى . فلما اتصلوا بالإسلام، اعتنقوا الدين الجديد ورحبوا به ، وهكذا لم يؤد تقويض الحكم العربى إلى زوال السلطة الإسلامية بل كان امتداداً لها فى آسيا الصغرى التى لم يفتحها العرب قط إذ أصبحت تدريجياً بلاداً تركية إسلامية ، كما أن الأتراك الذين نزلوا بالهند أقاموا بها حكما إسلامياً ثابتاً أكثر استقراراً من الحكم الذى أقامه العرب بها .

ولما لم يعد البحر المتوسط بحيرة رومانية ظلت الأراضى الإسلامية الممتدة على طول شمال أفريقياو كذا شبه جزيرة العرب ردحاً طويلا من الزمان وهى بعيدة عن الاتصال بالأمم المسيحية كما أنها لم تكن قوية السلطان فتمد سيطرتها الزمنية على الصحراء الكبرى ، ولكن الدين الإسلامى وهو دين سكان الصحراء أخذ ينتشر فيها تدريجياً من مرعى إلى مرعى ومن واحة إلى واحة فازداد الحاجز الصحراوى مناعة على مناعته أمام الأمم المسيحية بسبب وجود قبائل معادية ، وزاد الطين بلة أن اعتنقت هذه القبائل المعادية ديناً مناهضاً للمسيحية أيضاً .

وهكذا تغيرت وظيفة البحر المتوسط ، لقد كان فى الأيام الخوالى حاجزاً ثم أصبح فيما بعد طريقاً تجارياً عند الفينيقيين وكان بمثابة حصن دفاع عند اليونانيين ثم اتخذه الرومان قاعدة لأساطيلهم البحرية التى أخضعوا بها كل البلاد التى تحف بشواطئه ، ثم ضعفت القوة البحرية بضعف روما ذاتها ، وما تحولت أسبانيا وبلاد البربر إلى الحكم العربي إلا لأن الأساطيل البحرية للامبراطورية الشرقية لم تتوافر لها القوة الكافية لتسيطر على البحر كله ، كما لم يستطع المسلمون أن يحرزوا لأنفسهم السيادة البحرية ، ومن ثم أضحت الحال شبيهة بالأيام الأولى التى استعر فيها النزاع بين روما وقرطاجنة ، وأصبح البحر المتوسط كالخندق الذى يفصل بين عدوين ، ورجحت كفة كل فريق حيناً من الدهر ، وتوالى على الجزر الواقعة بينهما الحكم الإسلامى تارة ثم الحكم المسيحى تارة أخرى ، واستولى المسلمون على كريت وصقلية عدة قرون قبل أن يستعيدهما الحكم المسيحى إلى حظيرته فيما بعد .

أما الخليج الفارسى والمحيط الهندى فقد جدت عليهما ظروف جديدة إذ خلا

الجو فيهما للأساطيل العربية من كل منافس لها ، وقد كان لانتشار الحكم العربي في أول الأمر في مساحة واسعة تمتد من شواطىء المحيط الأطلسي إلى البحر المتوسط وإلى الخليج الفارسي والبحر الأحمر وإلى المحيط الهندي كما كان للسيطرة العربية على مفاتيح الطرق بين الشرق والغرب البرية منها والبحرية أكبر الأثر في أن يحترف العرب التجارة من أي نوع كانت ، وهكذا أصبحت سيلان في القرن الثامن مركزاً للتجارة العربية على الرغم من أنها لم تخضع قط لحكم عربي .

وظلت التجارة العربية مزدهرة لم تتأثر بتمزق القوة الإسلامية أو انقسام الخلافة أو استقلال مصر وبلاد العرب وبلاد البربر استقلالا فعلياً ، إلا أنه لما ضعفت الخلافة الغربية في الأندلس في بداية القرن الحادي عشر قامت حكومات مدن جديدة كجنوا وبيزا والبندقية على أنقاض الأمبرطورية الرومانية وأخذت تستأثر بالتجارة البحرية وتبنى الأساطيل البحرية ، الأمر الذي كان وقفاً على العرب حتى ذلك العهد ، وقد مكنتها هذه السيادة البحرية من أن تنقل بطريق البحر حملات الصليبيين لتهاجم القوة الإسلامية في فلسطين ذاتها حين حل الحكم التركي الغاشم محل الحكم العربي .

ومع ذلك ظل المسلمون في الجزائر ومراكش يسيطرون سيطرة من نوع ما على غرب البحر المتوسط ومارسوا فيه أعمال السطو والقرصنة لعدة قرون . وأهم من هذا كله أن التجارة العربية لم تقابل منافسة ما في المحيط الهندي فترة من الزمان لأن حاجزاً من اليابس وقف يفصل بين الشرق والغرب ، والواقع أن زوال ذلك الحاجز في الأيام الحديثة هو الذي أدى إلى انهيار التجارة العربية نهائياً[١]

وهكذا نرى تأثير الصحراء على التاريخ فإن النطاق الصحراوي الكبير كان وما زال منبع الدين الإسلامي ومصدر قوته بامتداده من الصحراء الكبرى إلى بلاد العرب إلى قلب آسيا ، والأصل في وجوده يرجع إلى الظواهر المناخية الطبيعية ، وقد أعقب الفتوحات الإسلامية تقدم في استغلال الطاقة لأنه أتيحت لقوة واحدة السيطرة على البحر المتوسط والمحيط الهندي في آن واحد فألف رجال الغرب الطرق البحرية إلى الشرق كما سبق أن ألفوا الطرق البرية إليه بسبب

(١) يقصد المؤلف اكتشاف الأوربيين لطرق الملاحة الكبرى في نهاية القرن الخامس عشر

الغزوات التى شنها رجال السهول على أوربا ، وهكذا نمت الموارد الصالحة للاستغلال والفضل فى هذه النتيجة هو لموقع الصحراء بالنسبة للطريق المائى الواقع على امتداد محور الكتلة اليابسة الكبرى المكونة من أوربا وآسيا وأفريقيا . ولما كان النطاق الصحراوى متداخلا فى هذا الطريق المائى ومقطعاً إياه إلى أجزاء، ونظراً لأن اليابس كان كتلة متصلة فى ذلك الأوان بعكس البحار ظلت القوة البحرية فى أيدى العرب ، ومن الطبيعى أن تؤثر الصحراء على عقول سا كنيها بتعرضهم لمؤثراتها عهوداً طويلة ، وهؤلاء يؤثرون بدورهم فى غيرهم من الجماعات التى لم تتعرض لمثل هذه المؤثرات ،وقدحفز ذلك الاحتكاك الناس إلى أعمال الفكر واتساع النظرة إلى العالم عما ألفوه من قبل فأخذوا يبحثون فى علل الأشياء ، وهكذا جرى التاريخ فى تطوره الحديث .

الفصل التاسع

المحيط : الاكتشافات : إيبريا

إن لشكل الأرض دائماً أهمية كبرى فى التاريخ لأن توزيع الحرارة والبرودة والمطر والجفاف والغابات والمراعى متوقف فى أساسه على الكيفية التى تدور بها الأرض حول محورها وعلى موقعها بالنسبة للشمس ، وقد وصلنا الآن إلى مرحلة يصبح فيها شكل الأرض ذا أهمية فى تاريخها على نحو آخر .

يتضح مما سبق أن الانسان لم يهتم حتى المرحلة السابقة فى قليل أو كثير بشكل الأرض سواء كانت مسطحة أم كروية — بل كانت مسطحة فى نظر معظم الناس تقريباً — غير أن الراسخين فى العلم كانوا يعرفون أن العالم كروى الشكل حتى أن أراتوستينس الإسكندرى حسب أبعاده وكانت فكرته عن شكل الأرض أدق من فكرة كولومبس عنها وكانت عملية حساب حجمها عنده يسيرة سهلة لأن المسافة بين مدينتى سين (أسوان) والأسكندرية كانت معروفة على وجه الدقة لأن مصر بتربتها الغالية الغنية وفيضانها السنوى فى حاجة دائمة لتعرف مساحة أراضيها بدقة وعناية . ومهما يكن من شئ ، فإن شكل الأرض لم يكن ذا أثر مباشر فى التاريخ إبان عهد أراتوستينيس . بل كان حقيقة علمية ليس لإدراكها أهمية عملية فى حياة البشر . ولما أصبح الناس قادرين على الإفادة من معلوماتهم عن كروية الأرض بدأ شكلها يتحكم فى التاريخ على نحو آخر .

غير أن اكتشاف شكل الكرة الأرضية كان ذا أهمية لأنه اتصل بحقائق أخرى — ذلك أن سيادة العرب كما رأينا كانت تعتمد اعتماداً جزئياً على سيطرتهم على البحار التى امتلكوا ناصيتها — وكانت الإمبراطورية الرومانية تدين بعظمتها لنفس هذه الحقيقة كما اعتمدت سيادة الفينيقيين واليونانيين اعتماداً يكاد يكون تاماً على أساس إتقانهم فنون الملاحة البحرية — وكان البحر المتوسط هو

منبع هذا النشاط الملاحى وإن كانت السفن تشق طريقها بحـذاء السواحل الأخرى ومن الجائز أن تكون السفن الفينيقية قد أبحرت نحو الهند ومن المؤكد أن التجار العرب قد وصلوا إلى الصين ودار أجريكولا بنفسه حول اسكتلندا وعبر قراصنة بحر الشمال إلى الجزائر البريطانية وإيسلند وربما وصلوا إلى جريلند أيضاً وأسسوا فى أوائل العصور الوسطى مستعمرات على جميع شواطىء أوربا الغربية دامت قليلا أو طويلا .

ولا كتشاف البحار أثر بعيد فى تاريخ العالم ، ولقد تكلمنا آنفاً عن سهولة الحركة على الماء بمقارنتها بالحركة على اليابس ولـكنها كانت محدودة بحدود ، فإن الملاحين القدماء اقتصروا فى رحلاتهم على البحار الداخلية والملاحة الساحلية على هامش المحيطات بسبب ما تردد فى نفوسهم من رهبة البحار المجهولة ، وأهم البحار لديهم هو البحر الذى يقع وسط أجزاء اليابس ، وهكذا كان لتوزيع اليابس أثر يتحكم فى التاريخ ومنذ أربعمائة عام بسبب قصور المعرفة الإنسانية ، كان اليابس كتلة واحدة والبحر بحارا عدة والـكتلة اليابسة المـكونة من أوربا وآسيا وأفريقيا تمعن فى امتدادها شمالا حتى لا تجـد فى حافاتها الشمالية ممرا خاليا من الجليد ، وتمتد أفريقيا جنوبا حتى خشى الناس خطر المغامرة فى الدوران حولها على الرغم من أن كثيرا من قدماء الجغرافيين اعتقدوا بسهولة ذلك ، حقا كانت هناك فـكرة أن العالم كتلة من اليابس يحيط بها « إطار من المحيطات » ولم يخطر ببالهم قط أن أرضا واسعة تقع فى أحضان ذلك المحيط وكانوا يفرضون دائما فى تحقيق جميع أغراضهم العملية وجود محيطين عظيمين تفصلهما كتلة من اليابس .

وليست الأعمال التى تمت فى نهاية القرن الخامس عشر مجرد كشف طريق إلى جزر الهند أو مجرد كشف أمريكا أو مجرد دوران مجلان حول رأس هورن ، بل أن رحلات فاسكودى جاما ومجلان أثبتت أن البحار متصلة ببعضها البعض كما أثبتت رحـلات كولومبس وماجلان أن المحيطات مأمونة العاقبة فى عبورها ، وهكذا اكتشف شـكل الأرض ووحدة المحيطات ، ومن ثم تراجعت الملاحة الساحلية إلى المرتبة التالية بعد الملاحة المحيطية . وفى ميدان السياسة احتلت سيادة

المحيطات المكانة التى كانت لسيادة البحار . وهكذا كان لهذه الاكتشافات نتائج مختلفة بعضها ظهر عقب إتمامها مباشرة وبعضها لم نحس به إلا فى صدر العصر الحاضر . وعلينا الآن أن ندرس كيف أن شكل الكرة الأرضية وحقيقة اتصال المحيطات ببعضها البعض تحكمتا فى مجرى التاريخ .

لقد رأينا كيف اتسع العالم تدريجيا ، وكيف نمت المعرفة الإنسانية فوسعت بحارا وأراضى جديدة وكيف استفاد البشر فى جميع أنحاء العالم من حاصلات البلاد المختلفة ، لقد نجحت غزوات القبائل المغيرة فى نشر بعض الأفكار عن كنه هذا العالم ، كما نجح العرب فى نشر المعلومات عن البحار الشرقية ، وحفز تقدم العلم فى هذين الميدانين العقول البشرية على التفكير ولكن فكرة الوصول إلى الشرق عن طريق البر والبحر ، كانت أفعل تأثيرا فى مجرى التاريخ ، لأن الحركة على الماء أسهل منها على اليابس ، لقد قام ماركوبولو برحلته الخالدة إلى الشرق متخذا طريق البر فى ذهابه والبحر فى إيابه كلما أمكنه ذلك .

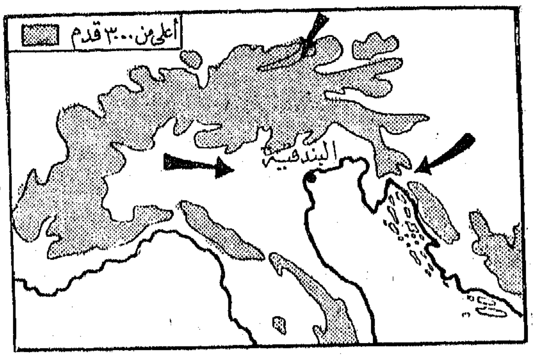
ويجب ألا يغيب عن الذهن أن قوة العرب الزمنية ، وقوة المسلمين عامة لم تقم على القوة العسكرية فحسب بل قامت على أساس التحكم أو السيطرة فى مساحة واسعة ذات أهمية تجارية ، وكان هذا التحكم ممكنا لأن كتلة اليابس كانت متصلة والبحر غير متصل اتصالا ينفع كل أغراضهم العملية ، وكان تحكم العرب فى هذه المنطقة التجارية شاملا باحتلالهم الأراضى ذات الموقع الهام بين البحر المتوسط من جهة والخليج الفارسى والبحر الأحمر من جهة أخرى .

وفى واقع الأمر لقد ورث العرب كل أعمال نقل التجارة التى مارسها الرومان والأشوريون والفرس وأهالى أواسط آسيا وشمال شرق أفريقيا ، ولو قارنا تجارة الماضى بتجارة الحاضر لوجدنا الأولى قليلة الحجم نسبيا لأن التنقل فى تلك الأزمان كان أعسر منه فى هذه الأيام ، وعلى أى الأحوال لقد جمع العرب فى أيديهم تجارة العالم كيفما كانت ثم أخذت التجارة تنتشر باطراد وأخذ البشر يدركون فوائدها ، وقد وجدوا بالتدريج أنه من الخير أن يتبادلوا منتجات اقليم بمنتجات اقليم آخر ، وأن هناك وفرا فى الطاقة لو بذلوا بعض الجهود فى نقل الحاصلات من

الاقليم الى آخر عما لو أنتجت جميع الحاصلات فى الأقليم ذاته حتى ولو كان ذلك ميسورا وأخذت تطرق عقولهم فكرة وجود طريق مائى بحت الى الهند وجزرها .

أضف الى هذا أن الأمبراطورية الرومانية كانت قد تحضرت وقد نشأ زعماؤها وبطانتهم على والترف والنعيم وأسرفوا فى استغلال الطاقة لتحقيق أغراضهم الخاصة كما ألفوا جمع الموارد والثروات بدرجة تفوق مقدرتهم على استيعابها ، وعلى الرغم من سقوط روما سياسياً الا أن بضع مدن ايطالية ظلت تعيش فى بحبوحة من الرخاء والترف واعتاد أهلها التنويع فى المأكل والملبس والمسكن والأثاث ، مما يتعذر انتاجه فى ايطاليا واستوردوه بوساطة التجارة العربية من أقصى أطراف المعمورة .

الخريطة رقم ٢٥



تقع البندقية بعيدا فى الداخل ويمتد وراءها سهل لمبارديا وتتصل بالبلاد المنخفضة الشمالية عن طريق الممرات التى تعبر جبال الألب أو تلتف حولها .

الخريطة رقم ٢٦



موقع البندقية

ممر برنر هو أكثر الممرات الألبية انخفاضا — وهو يسهل الإتصال بمدينة البندقية

كما أن أوربا والت تقدمها في سلم الحضارة ، وظهرت بالتدريج دول على أنقاض الأمبراطورية الرومانية ، تكونت مباشرة بسبب تهديد جماعات الرعاة من الشرق، وهجوم العرب من الجنوب ورجال البحر الأشداء من أشباه الجزر الشمالية ، وأخذ مستوى المعيشة في هذه الدول الناشئة يرتفع تدريجيا ، ووجد أهلها بمرور الزمن أن اللحم المقدد الذي كانوا يختزنونه للشتاء حين تعجز الأرض عن الإنتاج يصبح لذيذ الطعام مستساغا لو أنهم أضافوا اليه بعض البهارات ، وعلى الأخص الفلفل ، وأن النشاط الذي يبعثه الطعام يمكن أن يزيد لو استثيرت شهية الإنسان للأكل، وزادت قدرته على هضمه ، وهكذا أصبح لتجارة التوابل التي كانت في أيدي العرب شأن أي شأن ، ومن ثم اختصت التجارة بما خف وزنه وقل حجمه وغلا ثمنه حتى توازن تكاليف نقلها لا بالبحر وحده بل وفي البر أيضا وعلى ظهور الأبل والجياد . وهكذا جنى العرب أرباحا طائلة من نقل هذه التجاة الثمينة .

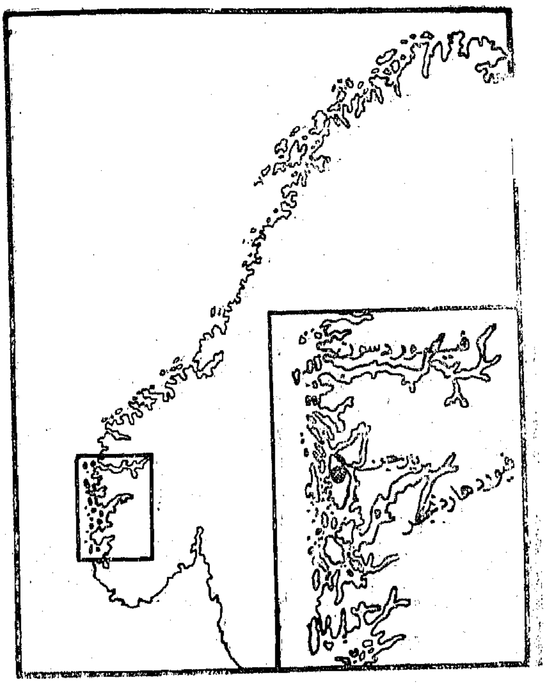
ولكن العرب لم يفتحوا أوربا وقد نشأت بها مدن تجارية في مواقع ملائمة وتجمعت لها قوة عظيمة ، وكان من الطبيعي أن يكون شمال إيطاليا أكثر البقاع ملاءمة لنشأتها حيث البذخ والترف على أشده وحيث تجد التجارة لها أسهل المنافذ إلى أراضي أوربا الشمالية . فقامت البندقية في ظل حماية مستنقعاتها الرملية آمنة من العدوان عليها من البر أو البحر ومارست تجارة عظيمة لسنوات عديدة. وكذلك نشأت جنوة وبيزا جمهوريتين تجاريتين هامتين أيضاً ، ونظراً لحاجة العدد الوفير من سكان شمال إيطاليا إلى مقادير كبيرة من البضائع يستوردونها من البلاد المجاورة كانت السفن تأتي اليهم محملة بالبضائع على كل حال وأضحت البندقية وجنوة الثغور التي تستقبل بضائع الشرق الثمينة وفاقتا الموانى الأخرى في حجم التجارة الواردة اليها ، وهكذا نمت هذه المدن وأضحت موانىء هامة لأن مثل هذه التجارة وإن صغر حجمها كانت تدر أرباحاً طائلة على من يمارسونها بنجاح .

ولما كانت الهند وجزائر الهند هي المصدر الوحيد لهذه البضائع الثمينة تخيل سكان الأمم الغربية بطبيعة الحال أن الهند بلاد غنية وترعرت في صدورهم رغبة جامحة للوصول بأنفسهم إلى هذه الأراضي الجديدة حتى يتسير لهم استحضار كنوزها دون أن يدفعوا للعرب عليها مكوسا .

ويجب أن نلحظ الآن أن الأراضى التى تحف بالمحيط ، ولنسمها بأسمائها الحديثة كالبرتغال وأسبانيا وفرنسا والأراضى الواطئة وألمانيا والدانمرك والنرويج وبريطانيا ، قد استقبلت جميعا أما مباشرة وأما غير مباشرة أضواء الحضارة من مواطنها فى البحر المتوسط ولكنها ظلت تعيش حتى اكتشاف المحيطات على هامش هذا العالم وظل البحر المتوسط هو مركز الثقل فى العالم على الرغم من سقوط الامبراطورية الرومانية ، وتركزت فيه جميع طرق الموصلات وفى الطرف الشرقى منه بوجه خاص حيث إزدهرت أعمال التجارة فى أعظم مقاديرها .

ويبدو لأول وهلة أنه كان من المحتمل جداً أن توفق إحدى هذه البلاد إلى اكتشاف المحيط قد وفق فعلا النرويجيون إلى كشفه فقد اضطرهم فقر تربتهم إلى الهجرة بحثا عن الأسماك ، فأصبح ممر Inner lead هو الطريق الشمالى الأعظم فى ظل

الخريطة رقم ٢٧



الطريق الساحلى للنرويج
ممر انرليد Inner Lead

حماية الجزر العديدة الممتدة بحذاء الساحل وقد تفرعت منه فيوردات [١] لاحصر لها فكانت النرويج ببيئتها خير مدرسة لتربية رجال البحر الأشداء ، ولا يبعث على الدهشة إذن أن يخرج أهلها متجهين غربا ليعبروا المحيط وأن يتجهوا جنوبا على طول السواحل إلى حيث يستقرون لصيد الأسماك أو لامتلاك الأراضي التي يحلو لهم أن يتخذوا منها مقراً ، أما الدانمركيون والسكسون فهم بطبيعتهم أقل ميلا للملاحة ، ولكنهم عبروا بحر الشمال مضطرين بحكم الضغط الواقع عليهم من خلفهم من جراء هجرة القبائل الرعاه من الشرق ، أكثر من أنهم هاجروا استجابة لحنين طبيعي فيهم إلى البحر ، فأنشأوا امبراطورية بحرية في بحر الشمال تحت قيادة سويين وكونوت لم تدم إلا قليلا ولم يوفقوا إلى اكتشاف حقيقة اتصال المحيطات ببعضها ووحدتها ، لقد كانت امبراطوريتهم شبيهة بالامبراطورية الرومانية الأولى التي قامت على شواطىء البحر المتوسط ولكنها أقل سكاناً وأفقر موارد مما يصلح للاستغلال ، لقد كانت لمحة عابرة في التاريخ حتى أن اكتشاف النورسمن [٢] لأمريكا لم يترك في مجرى التاريخ أثراً ما ، لأنها كانت في نظرهم أرضاً بعيدة مهجورة منعزلة عن العالم ذات مناخ بارد فقيرة في مواردها ولم يهتموا وقتئذ ولا بعد ذلك إن كان الماء محيطاً واحداً أو محيطين منفصلين لأن هذه الحقيقة لم تكن لتؤثر في حياة البشر اليومية ..

وكم عاش ملاحون وصيادو سمك آخرون على الشواطىء التي تحف بالمحيط وكانوا يجوبون في قواربهم الخفيفة الساحلية من خليج إلى آخر من بين الخلجان التي تتعمق كثيراً في اليابس غير أن ملاحتهم لم تتصل بالشريان الأكبر للتجارة العالمية بسبب سيطرة العرب على مضيق جبل طارق فظلت تجارة هؤلاء محلية في مجموعها .

على ضوء هذه الحقائق الجغرافية كان من الطبيعي أن يكون كشف المحيطات من إيبريا وأن تكون هي البادئة بجني فوائده ، وقد رأينا من قبل أن معظم شبه جزيرة إيبريا تقريباً قد افتتحه المسلمون وحين وصلوا إلى الغرب كانوا قد فقدوا

(١) خلجان ضيقة في بلاد النرويج .

(٢) أهل الشمال .

كثيراً من النزعة إلى الكفاح المرير وسفك الدماء فتركوا أهل إيبريا يعيشون وقد فرضوا عليهم الخضوع لسلطانهم .

أما فى الشمال من أسبانيا فقد التجأت قلة لم تغلب على أمرها إلى غابات جبال البرانس وشعاب الجبال الكنتبرية حيث يتعذر على خيالة العرب وفرسانهم أن يطاردوهم وبقيت هذه القلة مسيحية فى ديانتها ، فقامت دويلة ليون فى الجبال الكنتبرية ودويلة ناڤار فى أودية البرانس المنعزلة .. ونجحت الدويلتان فى أن تعاودا الهجوم على المسلمين فى أسبانيا وأن تعيداها إلى حظيرة المسيحية . وكلما ازدادت أهمية كل من الدويلتين كلما كان من الطبيعى أن تبرز الفوارق الطبيعية بين السهل والجبل.

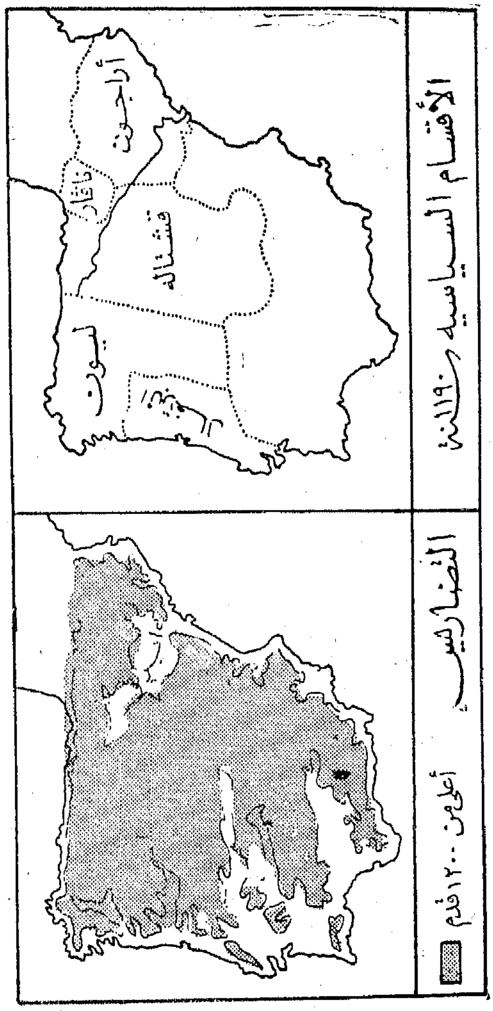
أما الأراضى المنخفضة الواقعة غربى ليون فقد استقلت وأصبحت نواة لدولة البرتغال ، وخرج من ولاية ناڤار وادى نهر الأبرو[1] وامتد شرقا مكوناً أمارة أراجون كما ظهرت أمارة قشتالة فى الهضبة الغربية وبقى من الدويلة الأصيلة فى الجبال الشمالية بقية صغيرة تحمل اسم ناڤار، ثم اتحدت امارتا قشتالة وليون مكونتين قشتالة الكبرى ، وهكذا أصبح فى شبه جزيرة إيبريا فى مطلع القرن الرابع عشر ثلاث دويلات مسيحية كبرى وكانت قشتالة وحدها هى التى تجاور حدودها الدولة الإسلامية الوحيدة الباقية ألا وهى دولة غرناطة .

لقد نجحت البرتغال فى تخليص بلادها من حكم المسلمين وهكذا ولدت البرتغال دولة مسيحية ، خلقت وهى تحارب المسلمين ، ومن الطبيعى أن تتابع الاتجاه الذى وجدت نفسها تسير فيه منذ مولدها لأن أهلها المسيحيين قد تعودوا محاربة المسلمين دفاعا عن عقيدتهم ، فبدا طبيعياً أن يستمروا فى حروبهم الصليبية ضد المسلمين حتى ولو اقتضى تطور الحرب أن يعبروا البحر إلى أفريقيا ، وهكذا تكونت لهم قبيل منتصف القرن الخامس عشر ولاية برتغالية على شواطىء أفريقيا تسمى « بالغرب فيما وراء البحار » (Algarve beyond the sea) ومن ثم تهيأت لهم ظروف مواتية لكشف المحيط .

---

(١) نهر أبرة .

وكان للبرنس هنرى الملاح أكبر الفضل فى السير بخطى حثيثة فى الكشف عن المحيطات ، وهو برتغالى الأصل أوتى الحكمة و بعد النظر ، ولأعماله أكبر الأثر فى الإسراع بأحداث التاريخ الطبيعية فى مسراها المقدر لها . لقد شب الأمير هنرى الملاح وهو يرى أمامه دائماً قوة العرب فى تجارتهم ، فبنى فى عام ١٤١٨ مرصداً على قمة جبل ساجرس الشامخة إلى جوار رأس سنت فنسنت ، وأخذ يرسل منذ العام التالى السفينة وراء السفينة وكلها تسعى جنوبا على طول الساحل الأفريقى وهى تهدف إلى تحقيق الغرض العاجل :أى كشف طريق بحرى إلى الهند .



الخريطة رقم ٢٨

مرتفعات ايبريا وكيف تتحكم فى تقسيمها الى ولايات
لاحظ كيف أن قشتالة وليون مرتفعات وأراجون والبرتغال منخفضات

وكان تقدمهم بطيئاً فى أول الأمر لأن الصحراء الكبرى تمتد فيما وراء البلاد المراكشية . والصحراء وهى أرض المسلمين تصل فى امتدادها إلى حافة المحيط وتهب الرياح التجارية هبوباً ثابتاً نحو الجنوب الغربى وقد خلت من رطوبتها فلا تسقط من الأمطار شيئاً يبعث بالحياة النباتية إلى هذه الصحراء . أضف إلى ذلك أن الشاطىء الأفريقى فيما بعد مراكش ينبعج نحو الجنوب الغربى ، والرياح التجارية فى هبوبها فى ثبات وانتظام تقذف بالسفن بعيداً عن الساحل مما يبعث بالخوف فى صدور البحارة الأوربيين خشية أن يعجزوا عن العودة ، لو أنهم اتبعوها ولن يجدوا رياحا تعيدهم إلى أوطانهم ثانياً ، وبدا لهم رأس نون (n on) وكأنه يقف بالمرصاد لأولئك الجسورين من البحارة الذين تجرأوا وغامروا حتى وصلوا إليه ويقول لهم : « كلا . لا تتقدموا » .

من هذا يتبين لنا كيف تجمعت الأسباب الوجيهة التى حالت دون أن يدور البشر حول أفريقيا حتى ذلك الأوان ، ولكن تشجيع البرنس هنرى والرغبة فى اقتسام خيرات الهند هذه كلها تضافرت فدفعت بالكشف البحرى إلى الأمام . وفى عام ١٤٤٧ أعلن رسميا عن أهداف أعمال الاكتشافات حتى يكون جميع المسيحيين فى الأرض على بينة منها ، إذ سمح البابا للبرتغال بأن تضم إلى تاجها كل الأراضى التى يتم كشفها بين رأس نون وأرض الهند سواء تم كشفها فى ذلك الوقت أو فى مستقبل الأيام ، ومن الأهمية بمكان أن نعرف ما تمخضت عنه هذه المنحة فى سير التاريخ ، فإن التاريخ كما رأينا توجهه عوامل جغرافية وتتحكم فى سيره .

لم يطل الأجل بالأمير هنرى ليرى نتائج مشروعاته وقد تكللت بالنجاح فلم تمض ثمانون عاما على احتلال ساجرس حتى كان البحارة البرتغاليون يجوبون بسفنهم جنوبا على طول ساحل أفريقيا وحتى دار دياز حول رأس الرجاء الصالح ووصل فاسكودى جاما إلى الهند وعاد منها محملا سفنه بالتوابل والإفاوية ليثبت لمواطنيه كشف الطريق إليها ، ومنذ ذلك الوقت لم يعد هناك محيطان منفصلان ، بل أضحت مياه الأرض محيطا واحدا متصلا ، واحتكر بحارة

المحيط أعمال التجارة منذ ذلك الوقت لأنهم استطاعوا توفير الطاقة بفضل نقل البضائع فى طريق مائى بحت ، وهكذا تمت خطوة أخرى عظيمة فى تقدم الحضارة ، ففى أقل من خمس سنوات بعد عودة دى جاما من الهند كانت السفن التى اعتادت نقل البهارات من موانئ بيروت والإسكندرية تدخل ميناء البندقية وهى خاوية ، كما لم يمض على عودته اثنا عشر عاما حتى تم غزو جزر الهند الشرقية وهزيمة العرب فى البحر العربى وفى ملقا ، وهكذا توطد النفوذ البرتغالى على طول سواحل الهند .

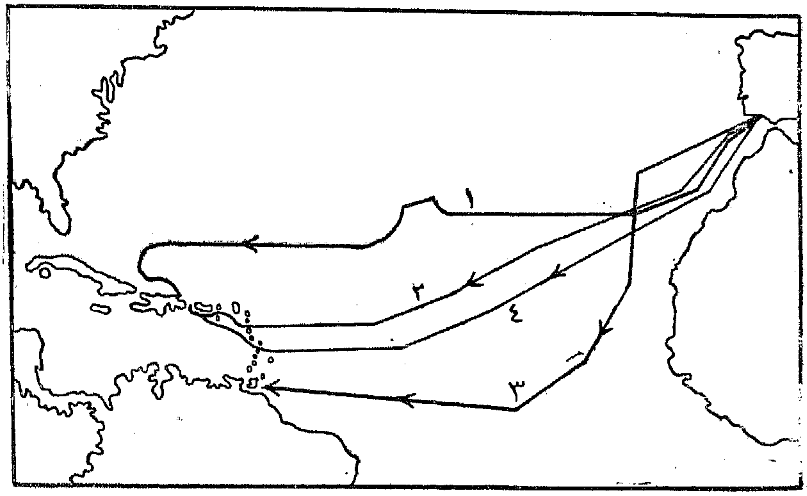
لقد وفقت البرتغال إلى القيام بطلائع أعمال الكشف والإرتياد بفضل موقعها الجغرافى وبفضل همة الأمير هنرى ، ولما كان أهل ايبريا مسيحيين من المذهب الكاثوليكى أى كاثوليك من أتباع الكنيسة الرومانية الذين تملأ قلوبهم الحماسة الدينية لم يعد منشور البابا دون أن يثير غريزة المنافسة فى نفوس أهل قشتالة ، واهتموا جميعا بالكشف البحرى جنوبا وعلى الأخص حين وصلت البعوث إلى ساحل غينيا وأخذت تنقل منتجاتها إلى أوربا .

حينئذ وحينئذ فقط أضحت حقيقة كروية الأرض ذات أهمية عظمى ، فما دامت الأرض كروية فلا بد أن يكون هناك طريق آخر إلى الهند بالإتجاه غربا وهو طريق مفتوح لكل رائد يجرؤ على ارتياد مجاهله ، ولما كانت إيبريا تقع على الطرف الغربى للبحر المتوسط الذى عاش حوله جميع البحارة ممن عملوا على نقل التجارة العالمية ، كان من الطبيعى جداً أن يبحث البحارة من أهل جنوا والبندقية وبيزا عن عمل لهم تحت قيادة السلطات البرتغالية بعد أن بدأت البرتغال عهداً من التوسع فيما وراء البحار وعلى الأخص حين لم يكن هناك من الدوافع ما يحفز البرتغاليين لاحتراف الملاحة فى العصور الأولى ، فليس بعجيب إذن أن يفكر كولمبس فى أن رحلة إلى الغرب جديرة بالمغامرة ، وهو الرجل الجنوى الأصل الذى ألف أعمال التجارة والذى أقام سنين عدة فى البرتغال وقد انتشرت فى أجوائها الأحاديث عن التجارة العالمية ، أضف إلى هذا أنه ملاح قدير شقت سفنه عباب البحر إلى جزر أزورس وإلى إيسلند ، ودرس الكثير عن النظريات التى تعالج شكل الأرض .

ولكن البرتغال لم تهتم بالكشف غرباً وهي التي خصصت جهودها لاكتشاف الطريق الشرقي إلى الهند وهو الطريق الذي انفتح أمامها. أما الولايات الإيطالية فكانت لا تزال تفضل استمرار البحر المتوسط كحلقة في سلسلة الطريق إلى الشرق مفضلة إياه على أن تساهم في فتح طريق جديد، أما بريطانيا فلم تكن تدرك بعد معنى التجارة العالمية، وكانت قشتالة هي البلاد الوحيدة التي وجد فيها كولمبس عطفا ملحوظا على أفكاره. ويجب ألا ندهش من أنه استغرق سنين عديدة ليزيل عن الناس خوفهم من المحيط الذي سيطر على عقولهم أحقابا طويلة، وكولمبس مثله كمثل الأمير هنري قد استغرقت منه المحاولة وقتاً طويلا على الرغم من أنه في كلا الحالين تمت المحاولة على يد رجل واحد، وربما لو قدر لغيرهما أن يقوم بها لأتمها في زمن أقصر مما قدر لأيهما ولكن كليهما كان المثل الذي خلقته الظروف الجغرافية لأداء هذه الرسالة.

وسرعان ما أدركت دول أوروبا قيمة اكتشاف كولمبس إذ لم تمض ستة أسابيع على عودته في عام ١٤٩٣ حتى أصدر البابا منشوراً يؤيد كروية الأرض ويمنح نصف الكرة الغربي لأسبانيا كما سبق أن منح النصف الشرقي للبرتغال، ولم تكن الأراضي التي اكتشفها كولمبس في محاولته للوصول إلى الهند بلادا يهتم بها البشر آنئذ، فقد اقتصر البرتغاليون على تحميل سفنهم بالتجارة الهندية التي اعتاد العرب نقلها من قبل. أما في العالم الجديد فلم يجد الأسبان تجارة أو بهارات ينقلونها، بل أن الأسبان الذين جاءوا في أعقاب كولمبس في أعداد وفيرة كانت تساورهم ثلاث أفكار هي القتال والتبشير بالمسيحية واقتناء الذهب والفضة، ولم تشغل التجارة حيزاً من تفكيرهم. ويجب ألا يبعث هذا على الدهشة لأن أهل قشتالة اعتادوا القتال منذ قرون مضت في سبيل نشر المسيحية، هذا بالاضافة إلى أن الهضبة التي يعيشون على سفوحها تنتج المعادن الثمينة ولا تلائم التجارة.

وعلى الرغم من أن نصف العالم الغربي منح لأسبانيا إلا أن الأسبان لم يفتحوا كل أراضيه، وتحكمت العوامل الجغرافية في تحديد الأراضي التي دخلت في نطاق



الخريطة رقم ١٩
رحلات كولمبس
لم ترسم هنا طرق العودة — يتضح ان اتجاه الرياح التجارية قد حددت الطريق لكل رحلة من الرحلات

نفوذهم ، فان نظرة إلى الخريطة ترينا كيف أن الرياح التجارية فى المحيط الأطلسى تهب فى ثبات وانتظام إلى الجنوب الغربى ، ولهذا لم يعبر كولمبس المحيط فى اتجاه غربى تماماً بل اتخـــذ اتجاهه غربى الجنوب الغربى فوصل إلى الجزائر التى نطلق عليها الآن جزائر الهند الغربية ، ووصل فى الرحلات التالية إلى أمريكا الجنوبية والوسطى ، ولما كان برزخ بنما ضيق العرض فقد سمع كولمبس من الأهالى بوجود المحيط الهادى وبعد بضعة أعوام عبر الأسبان برزخ بنما وبنوا سفنهم على شواطىء المحيط الهادى وهكذا جهل كولمبس وجود أمريكا الشماليـة جهلا تاما وانتشر الاستعمار الأسبانى غرباً من جزائر الهند الغربية نحو المكسيك وجنوباً على طول شاطىء المحيط الهادى فى أمريكا الجنوبية بما فيها الأجزاء الجبلية حيث وجدوا سبيلا إلى استخراج المعادن الثمينة ، وكانوا يبيدون الوطنيين أو يجبرونهم بحد السيف على تغيير دينهم وساقوهم رقيقا يباع فى الأسواق ليخدموا أسيادهم الجدد ، وهـكذا تطورت البلاد التى افتتحها الأسبان فأصبحت أسبانية حتى فى لغتها .

وبينما كان الأسبان يخضعون المكسيك كان ماجلان يحاول اتمام العمل الذى

بدأه كولمبس ، فأبحر غربا يبغى الوصول إلى جزائر الهند الشرقية جريا وراء تجارة الافاوية والتوابل ، ومجلان برتغالى المولد سبقت له زيارة جزر الهند الشرقية وربما كان قد وصل فى رحلاته إلى جزائر مولوكا **Moluccas** وأدرك أن تجارة التوابل تدر ثروات طائلة ، وقد رأينا آنفا أن البرتغاليين لم يهتموا بالطريق الغربى إلى الهند وأن الأسبان لم يهتمـوا إهتماما بالغا بتجارة البهارات غير أن منافستهم للبرتغال حفزتهم إلى مساعدة مجلان كما ساعدوا كولومبس من قبل .

كانت مهمة مجلان هى شبيهة بالجمع بين أعمال دياز و كولمبس ، فهى شبيهة بمهمة دياز ومن سبقوه حينما حاولوا أن يجدوا ممرا حول الطرف الجنوبى لـكتلة عظيمة من اليابس تفصل بين محيطين ، وهى شبيهة بمهمة كولمبس إذ كان عليه أن يعبر محيطا خضما لم يسبق لأحد ارتيادة بل أن مهمة مجلان تفوقهما مشقة فالظروف تحتم عليه ألا يغال جنوبا إلى مدى أبعد مما بلغه دياز وعليه أن يعبر محيطا أوسع من المحيط الذى قطعه كولمبس ، ولـكن الحقيقة الراهنة ظلت ماثلة أمامهم وهى أن مثل هذه الصعاب أن ذللت كان النجاح أكثر احتمالا وكان بحارة ما جلان راغبين فى الاستمرار فى رحلتهم على الرغم من أن الصعوبات الفعلية التى لا قوها كانت تفوق نظائرها فى الرحلات السابقة .

وهكذا نجحت محاولة ما جلان على الرغم من أن الرجل قضى نحبة أبانها فأن الطريق الغربى إلى جزر الهند الشرقية قد تم ارتياده وأمـكن لتجارة البهارات والعطور أن تصل إلى أسبانيا وأصبحت بعض أراضى الشرق الأقصى تخضع لها وطبعها الاحتلال الأسبانى بطابعة الخاص ولا تزال جزائر الفلبين تحمل إسم ملك أسبانيا وقد بقيت أسبانية مدة أربعة قرون ، وظلت فى خلال ثلاثة قرون منها تستقبل السفن التى أبحرت اليها من أسبانيا وقد اتجهت غربا ولا تستقبل السفن الآتية من البرتغال وقد اتجهت شرقا ، وقد ورثت حتى الآن شرور حكم اسمى كسيح عاجز منحه البابا لأسبانيا حين كانت قوة تحارب المسلمين .

غير أن الطريق الأسبانى إلى جزائر الهنـد الشرقية لم يحرز نجاحا ، لا لمجرد كونه أنه يزيد فى طوله كثيراً عن الطريق الشرقى بل لأن هذه

المسافة الشاسعة ترجع إلى أن الطريق يمر عبر مساحة واسعة من المحيط تبلغ نحو نصف محيط الكرة الأرضية تقريباً(١) . وقد خلا هذا المحيط الشاسع من البقاع اليابسة ، وبالجملة فان الإنتقال على المحيطات أسهل بطبيعته ويقتضى مجهوداً وطاقة أقل مما يبذل فى النقل على اليابس ولكن اليابس يمتاز بأنه المكان الوحيد الذى يستطيع الإنسان أن يستقر فيه وأن ينتج ويجعل الطاقة فى متناول يده ، بينما يتعذر إنتاج أى شىء فى المحيط ، ومن ناحية أخرى فإن بلاد الهند الشرقية على الجانب الآخر من العالم لا تقدم للمكتشفين غير التوابل التى اعتز بها البرتغاليون أيما اعتزاز ولم يعرها الأسبان قسطا من اهتمامهم واحتقروا تجارتها وانصرفوا عنها إلى اقتناء الذهب والفضة .

وهكذا نرى أن اكتشاف وحدة المحيطات واتصالها أدى إلى تسلط البرتغاليين على مفاتيح التجارة العالمية وحلولهم محل العرب فى السيطرة عليها على حين أدى الكشف عن شكل الكرة الأرضية إلى تسلط الأسبان على معظم أمريكا غير أن جزءاً من القارة الأمريكية وهو البرازيل وقد وقع فى قبضة البرتغاليين باعتبار أنه واقع فى نصف العالم الذى كان من نصيبهم .

---

(١) يبدو هذا واضحاً إذا عرفنا أن شمال الصين يقع تقريباً على الطرف الآخر المحور الأرضى الممتد بين الصين وجنوب أمريكا الجنوبية.

الفصل العاشر

المحيطات — سيادة المحيطات — هولندا وفرنسا

لقد اقتسمت أسبانيا والبرتغال لفترة من الزمان ثمرات كشف المحيطات وظهرتا كأنهما ستظلان تقتسمان هذا النفوذ إلى الأبد مادامتا حائزتين لتأييد البابا — غير أن البابا ليس فى مقدوره أن يغير الظروف الجغرافية ولا أن يعدل من سلطانها على عقول البشر .

وقد سبق أن رأينا كيف أن فوائد النقل البحرى تربى على فوائد النقل البرى وان الطريق البحرى يمتاز بإمكان نقل البضائع لمسافات طويلة وبتكاليف تقل كثيرا عما يتطلبه نقلها بالطريق البرى — ورأينا أن ايبريا تواجه المحيط مباشرة غير أنها شبه جزيرة منعزل تقريبا عن باقى أوربا وانها بهذا الوضع لاتصلح لأن تكون مرفأ مناسبا للجزء الأكبر من البضائع المرسلة إلى القارة ، وقد امتد وراء مدينة البندقية سهل لمبارديا وهو بلاد عمرت بالسكان بفضل ثروتها وبفضل تاريخها الماضى الذى تحدثنا عنه حتى الآن ، بينما لا يقطن فيما وراء لشبونة عدد وفير من السكان وليس فى أسبانيا ما يشبه سهل لمبارديا ، فهى هضبة جرداء فى معظم أراضيها ، ونشأ عن ذلك أن أصبح أغلب البهارات والتوابل التى تصل إلى لشبونه مصيره النقل مرة أخرى إلى داخل القارة متوخيا أرخص الطرق وأيسر سبل المواصلات .

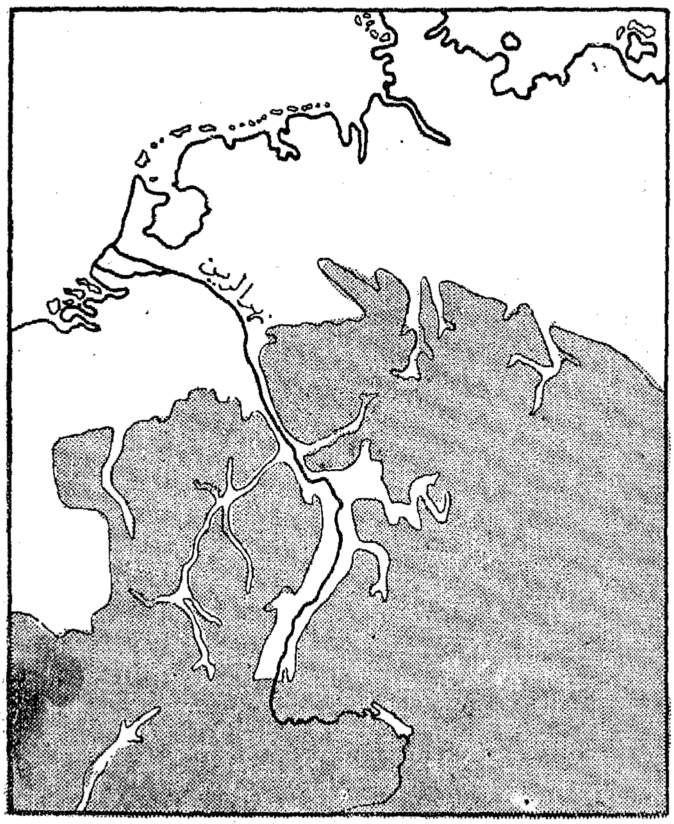
وليس المجال هنا مجال الحديث بإفاضة عن أسباب حركة الاصلاح الدينى أو النهضة التى كان الاصلاح الدينى مظهرمن مظاهرها فان كلاهما راجع إلى حد كبير إلى النظرة الشاملة التى نظر بها الناس إلى العالم والتى أوحت بها اليهم الأحداث التاريخية ، وقد رأينا التاريخ مسيرا بفعل العوامل الجغرافية ، ولكن يجب أن نأخذ بعين الاعتبار أن النهضة وإن عم أثرها أوربا جميعا إلا أن الإصلاح الدينى كان أعمق أثرا

فى البلاد التى كانت أبعد ما تكون عن مواطن الكنيسة الكاثوليكية ، مثله هنا كمثل المسيحية فى انتشارها وتأصلها فى البلاد التى لم تمسسها اليهودية من قبل ، فقد عم الاصلاح الدينى هذه المنطقة بالذات التى تسكنها شعوب لم تستسغ طرائق التبشير بأصول المذهب الكثوليكى استساغة الشعوب التى خضعت لسلطان روما منذ أمد بعيد ، والتى عاشت فى بيئات جغرافية تختلف نوعا ما عن البيئات التى سادها الاصلاح الدينى ، ومن ثم اختلف التطور التاريخى فى شمال القارة عنه فى جنوبها وأصبح الموقف شبيها بالآلة التي لم تهيأ تماما لظروف استخدامها ، وتولد عن هذا الاختلاف بين الشمال والجنوب احتكاك متزايد ، كما أدى اختراع الطباعة فى البلاد الشمالية إلى توفير عظيم فى طاقة أهلها وانطلق الناس يوجهون جهودهم إلى ميادين أخرى فانتشرت بصفة خاصة المذاهب الحديثة انتشارا أسرع كثيرا مما لولم يقدر للطباعة أن تظهر . وهكذا تمكنت العداوة فى النفوس بين أهل الشمال والجنوب ، وظلت كامنة تنتظر الشرارة الأولى فتنطلق من عقالها وليس بعجيب بعد ذلك أن يستغل الناس أسباب العداوة فتندلع الثورة البروتستانية الهولندية من جراء تصرفات الأسبان الكاثوليك(١) .

والعوامل الجغرافية أكبر الأثر فى تكييف ميول أهل الأراضى الواطئة وعليها توقفت قدرتهم ورغبتهم فى تحرير أنفسهم لم يكن بد من أن جرى اتصال إبان العصور الوسطى بين شمال أوربا الذى كان يسير تدريجياً فى طريق المدنية وبين جنوبها العريق فى مدنيته ، وكان المسلمون يضعون أيديهم على بوغاز جبل طارق ولم تكن هناك طرق توصل بين الشمال والجنوب ومن أصبح للأنهار الأهمية الكبرى ونهر الراين هو دون الأنهار الأوربية الوحيد الذى يستمد مياهه من منابعه الألبية فى جنوب أوربا ، أضف إلى ذلك أن واديه يبدو فى خريطة أوربا الغربية كما لو أن الطبيعه قد قدته فى الهضبة المحيطة به وهبطت به إلى مستوى لا يزيد عن بضع مئات من الأقدام فوق سطح البحر. هذا الوادى كان الطريق الرئيسى فى أوربا الغربية الذى انتقلت عليه الأصواف المستوردة من انجلترا ، وانجلترا فى تلك الأيام كانت

(١) يلاحظ أن الأراضى الواطئة كانت فى هذا الوقت تحت حكم الأسبان .

الخريطة رقم ٣٠



وادى الرين

وادى الرين هو جزء من السهل منعزل تقريبا تحيط به المرتفعات

تقوم بدور فى تجـارة الأصواف شبيه بالدور الذى تلعبه استراليا اليوم ، فـكانت ترسل أصوافها إلى المدن الصناعية فى شمال إيطاليا من أمثال فلورنسه وبيزا ، وهما المدينتان المزدحمتان بسكانهما الذين كانوا على مستوى رفيع من العيش يمكنهم من أن يدفعوا الثمن الذى يتطلبه شراء الـكماليات من الملابس الصوفية الجيـدة . وصحبت تجارة الصوف — وهو سلعة كبيرة الحجم — أنواع أخرى من التجارة ، وبمضى الزمن قامت مصانع لنسج الصوف فى الأراضى الوطيئـة وهى التى تقع فى طريق نقـله من انجلترا ، ثم نشأت مدن صناعية فيما نسميه اليوم بلجيكا

وازدادت أهمية هولندة بنمو بلجيكا ، ذلك أن أهل بلجيكا لم يكونوا رجال بحر على حين شب أهل هولندة بحارة بطبيعة سكناهم الجزر المنتشرة بحذاء ساحل بلادهم الضحل. واضطرتهم بيئتهم إلى الاعتماد على صيد الأسماك فى معاشهم المتواضع ، وكلما تجمع السكان تدريجياً فى الغرب (أى فى بلجيكا) وكلما ازدادوا غنى وثروة ، كلما جنى البحارة الهولنديون أرباحاً طائلة من صيد الأسماك التى كانوا يزودون بها الجماعات الصناعية، فازدهرت حرفة صيد الأسماك ونمت بنموها ثروة الهولنديين وزاد عدد من يحترفونها . وأدى هذا التفاعل المزدوج بطبيعة الحال إلى استمانة التجار البلجيكيين بصيادى الأسماك الهولنديين فى نقل بضائعهم بالبحر، أما فى أسبانيا والبرتغال فإن نسبة ضئيلة فقط من سكانهما كانت تحترف الملاحة البحرية، كما احتاجت أسبانيا إلى عدد قليل من السفن لنقل تجارتها من بهارات أو ذهب أو فضة إلى إيبريا ، بينما امتلكت هولندة عدداً كبيراً من السفن . فلما بدأ اليأس يخيم على أهل هولندة فى صراعهم مع أسبانيا وينذر بفشلهم فى سبيل حريتهم اقترح بعضهم بصفة جدية أن تقوم السفن بنقل جميع السكان من البلاد باحثة لهم عن وطن جديد فيما وراء البحار — وهكذا سكنت فى الأراضى الوطيئة جماعات قوية من التجار وإلى الجنوب منها يجرى أبدع طريق مائى إلى قلب قارة أوربا . وليس من الغريب بعدئذ أن تصبح مدينة أنتورب البلجيكية ذات مركز تجارى رئيسى فى أوروبا وأن يضيف الهولنديون إلى جمبة حرفهم حرفة نقل البهارات وأن يجنوا من ورائها أرباحا طائلة .

حقاً كان للأراضى المنخفضة البلجيكية منفذ إلى البحر ولكن كان سكانها تجاراً وصناعاً أكثر منهم ملاحين وبحارة ، ومن ثم أخذت ثروة الهند والشرق تجد طريقها إلى البلاد الهولندية التى لم يكن الدفاع عنها سهلا، حتى أنه لما شبت الثورة الهولندية كان أول ظهور لها فى أبعد جزيرة فى مصب نهر الرين وهى التى استطاع أهلها فعلا أن يغمروا أراضيهم كى يغرقوا أعداءهم ولكى يمكنوا لسفنهم المفلطحة القاع من أن تقترب من مدنهم المحصورة ، وسرعان ما وجد الهولنديون أنفسهم يملكون زمام البحر ، أما بلجيكا فقد حرمت كل هذه الميزات وبقيت خاضعة للحكم الأسبانى ، ولم يقتصر الأمر بالهولنديين أن أصبحوا أمة من التجار بل إنهم تسلطوا على سيادة المحيطات العالمية فترة من الزمان .

ولقد ارتكب الأسبان خطأً فاحشاً ، ذلك أن الذهب والفضة وما يتبعهما مما يسمى أحجاراً كريمة ليست ثروة فى حد ذاتها وإنما هى تقوم مقام قدر معلوم من الطاقة حسب ما جرى عليه العرف والتقاليد، وهى ليست طاقة فى حد ذاتها ، فلم يحدث أى استغلال لموارد الطاقة فى البلاد التى افتتحها الأسبان ، كما أن هذا الفتح لم يزد فى ثروة أسبانيا الحقيقية إلا قليلا — يتضح لنا ذلك لو أدركنا أن إقليم الأراضى المنخفضة الصغير كان يغل للخزانة الأسبانية دخلا يقدر بأربعة أضعاف ما كانت تغله جميع أراضى المكسيك وبيرو ، فى الأولى كانت الطاقة تستغل استغلالا طيباً ويفيض منها الكثير بينما لم تستغل الثروة إلا قليلا فى العالم الجديد ولم يفض منها شيئا .

واعتمدت السيادة المحيطة الأسبانية على الذهب فقط ، على حين قامت القوة البحرية الهولندية على أساس الافادة من الطاقة التى يملكونها والتى يسخرونها فى سبيل الحصول على قسط أكبر منها ، فازدادت الثروة التى تجمعت فى أيديهم وتسربت آخر الأمر إلى هولندة نسبة كبيرة من الذهب الذى جلبه الأسبان من جزر الهند — وليس من شك فى أن مجرد الغزو العسكرى لأى إقليم لا يترتب عليه ازدياد فى الثروة أو اقتصاد فى الطاقة لدى الفاتحين .

ولم تقتصر أسبانيا على غزو إقاليم فيما وراء المحيطات بل أنها تسلطت أيضا على البرتغال فترة من الزمان وقضت على نفوذها وعلى قدرتها فى تنمية ثروتها بالاتجار فى التوابل والبهارات التى احتكرتها حتى ذلك الوقت على الرغم من أن موقعها الجغرافى لم يكن يلائم التجارة مع باقى دول أوربا كما يلائمها موقع هولنده فما وافى عام ١٥٧٨ حتى اقتنصت هولنده هذه الفرصة السانحة وقامت بقيادة وليم الصامت وخلعت عنها كل قيد للسلطة الأسبانية ، واندفع البحارة الهولنديون فى عدائهم مع أسبانيا يجوبون البحار ولا يعترفون للبابا بمنحته السابقة ويغتصبون من أعدائهم كل أرض يستطيعون الاتجار معها ، وكانت هذه الأراضى من الممتلكات البرتغالية فى أغلبها ، ولم يفرق الهولنديون عندئذ أن كانت تلك الأراضى تابعة للبرتغال أو لاسبانيا . ولم يكد يمضى على ذلك نصف قرن آخر حتى كان

الهولنديون يجوبون البحار فى أربعة أركان المعمورة ، وبعد بضعة أعوام أخرى حين بلغت قوتهم ذروتها كانوا سادة جزائر الهند الشرقية بلا منازع ، وأسسوا مستعمرات لهم فى البرازيل وفى غيانه وارتادوا رأس هورن[١] وداروا حوله واطلقوا عليه اسم قرية صغيرة من قرى بلادهم التى اشتهرت بصيد الأسماك ، وامتلكوا محطات تجارية على شواطىء غينا فى أفريقيا وأسسوا المستعمرات فى مدينة الرأس فى طريقهم إلى الهند وامتلكوا جزائر موريس واطلقوا عليها اسم أميرهم كما امتلكوا جزيرة سيلان ووضعوا أيديهم على مدخل أمريكا الشمالية عند مدينة نيو امستردام[٢] ، أضيف إلى ذلك أنهم قاموا بالجزء الأكبر فى نقل التجارة بين دول أوربا كما نقلوا البضائع بين أسبانيا وفرنسا وأمريكا . ولقد جعلوا من أنفسهم عمال الشحن فى البحار كما سموا أنفسهم وهكذا انتقلت إليهم سيادة البحار التى كانت لأسبانيا والبرتغال وأن ظلت أسبانيا محتفظة بثمرات فتوحاتها .

غير أن السيطرة البحرية الهولندية كان لا بد وأن تدول لأسباب جغرافية ، كما دالت من قبل السيطرة البحرية الأسبانية والبرتغالية ، وقد تقدمت وسائل استغلال الطاقة وأصبحت منتجات البلاد البعيدة فى متناول الجميع بأثمان رخيصة نسبياً .

ولكن الضرورة تدعو إلى شيء أبعد من ذلك ، ولنضرب مثل الآلة السابق ذكره توضيحاً لهذه الحقيقة . فكل آلة فى حاجة لبعض العناية لصيانتها لتحول دون تسرب طاقتها حتى تؤدى عملها كما يجب ، ولتحول أيضاً دون تأثير العوامل المضادة تأثيراً ضاراً فيها . ولكى نوفق إلى هذه النتيجة يجب أن توجه الطاقة لتصرف فى وجوه نافعة ، والخير كل الخير أن تقل الطاقة المتسربة ما أمكن ، وهولنده ليست بطبيعة تكوينها قادرة على أن تبذل من جهودها ما يكفى لحمايتها ، ذلك أن دلتا الرين صغيرة جداً ولا تستطيع أن توفر الغذاء والحياة لعدد كبير من السكان ، ومن ثم قل عدد أفراد المجتمع الذين تربطهم صلات المصلحة المشتركة ومن

(١) فى أمريكا الجنوبية .
(٢) نيويورك الحالية .

تتجاوب مشاعرهم وعواطفهم ، فلما استعر الصراع بين الأسبان وهم رجال بر والهولنديين وهم رجال بحر آلت سيادة البحار للأمة البحرية ، ولكن لما نشب الصراع بين الهولنديين وبين أمة بحرية أخرى تدخلت اعتبارات أخرى فى تقرير المصير .

أضف إلى هذا أن المستنقعات التى تكثر بدلتا الراين والقنوات التى تتخللها كان لها أكبر الفضل فى توفير الحماية للدولة الناشئة ، شأنها هنا كشأن المستنقعات التى أحاطت بمدينة البندقية أو كالمستنقعات التى أحاطت ببابل — وبفضلها أحرزت هولنده استقلالها فى صراعها ضد أسبانيا — وبواسطتها تمكنت هولنده من الدفاع عن نفسها ضد الغزوات الفرنسية بعد قرن من الزمان — غير أن حدود هولندة وحاجتها الدائمة إلى الدفاع تقتضى تخصيص جزء من قوتها البشرية — وهى فى الأصل ضئيلة — لتحرس حصون دفاعها ، فلما هاجمها الأعداء من البر لم يكن استسلامها أمراً عجيباً .

* * *

وعلينا الآن أن نقف قليلا عند جغرافية الدولة التى كانت عاملا فعالا فى إسقاط هولندة والتى بذلت فى الوقت عينه محاولات مختلفة لتحرز السيطرة على المحيطات : هذه الدولة هى فرنسا .

قد رأينا فيما سبق كيف امتدت الأمبراطورية الرومانية فشملت كل بلاد غربى أوربا وأيبريا وبلاد الغال وجنوبى بريطانيا ، ومن ثم اكتسبت هذه الأراضى وهى فى ظل السلطان الرومانى أهميتها فى نظر التاريخ العالمى — وكذلك رأينا أيضاً كيف انهارت القوة الرومانية تحت أقدام القبائل المغيرة التى انطلقت عليها من خارج حدودها وكيف قامت آخر الأمر دولة فى الشمال من القبائل الجرمانية التى لم تدخل قط تحت الحكم الرومانى واعترف بها البابا فى روما وسميت بالأمبراطورية الرومانية المقدسة لأنه اعترف بها على أساس أنها تعيد إلى الأذهان ماضى الأمبراطورية المجيد . وشملت هذه الأمبراطورية الجديدة فيما شملت ما يعرف الآن باسم فرنسا وألمانيا ولم تشمل بلاد أيبريا لأنها كانت فى ذلك الوقت دولة أندلسية إسلامية . ثم

انقسمت هذه الأمبراطورية انقساما طبيعياً — فى بادئ الأمر — إلى ثلاثة أجزاء : الجزء الغربى وهو الذى كان تابعاً لروما ، والجزء الشرقى الذى لم يكن قط رومانيا ، والجزء الأوسط وهو الذى كان يتنازعه الإثنان ، وكان الجزءان الأولان يزيدان فى أهميتهما بطبيعة الحال عن الجزء الأخير الذى كان يدخل إلى حد ما فى إطار هذه الوحدة آنا وفى إطار تلك الوحدة آنا آخر ، فظهرت فرنسا تدريجياً من القسم الغربى ،غير أنه يجب أن يلاحظ أن فرنسا الحديثة لم تولد فى العهود الرومانية ولم تولد إبان أمبراطورية شرلمان الأولى ، حقاً كانت الأراضى التى تتكون منها فرنسا اليوم بلاداً متمدينة سواء فى العهد الرومانى أم إبان الأمبراطورية التيتونيــة ، ولـكنها لم تولد كدولة حتى ذلك التاريخ .

ومن الضرورى أن نعرف ماهى الوحدات الطبيعية التى تتكون منها فرنسا ؛ وقدعرفنا من قبل مبلغ أهمية ممر مرسليا أو وادى الرون فى العهد الرومانى فقد أخضعه الرومان لحـكمهم قبل أن يفتحوا سهول لمبارديا وكان وادى الرون أول الأقاليم

الخريطة رقم ٣١



تصاريس فرنسا

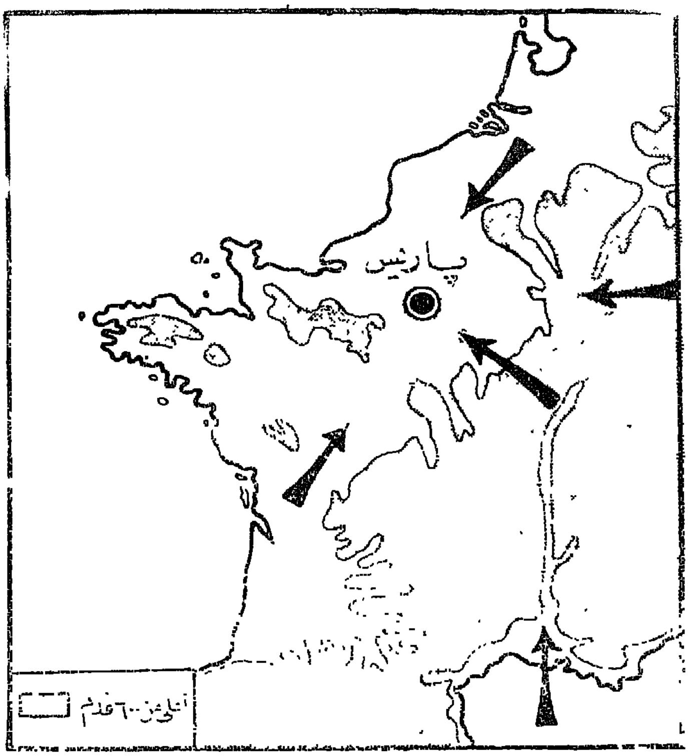
المفتوحة خارج شبة الجزيرة الإيطالية، وهنا تمتد سلسلة من السهول تتكون على التوالى من السهل الساحلى ثم من وادى الرون والساؤن والممر الواقع بين جبال البرانس والهضبة الجنوبية وقد وقفت مرتفعاتها فى الثغرة الواقعة بين حبال الألب وجبال البرانس.

وامتازت هذه الهضبة بالخصائص الاقتصادية التى تسود أقاليم المرتفعات عادة ، فتناقضت تناقضاً بيناً مع المنخفضات على كلا الجانبين وما جبال السفن سوى الحافة الجنوبية الشرقية لهذه المرتفعات فى انحدارها ويسير خط تقسيم المياه متتبعاً أعلى قممها الوسطى ومتجهاً نحو بريتانى وتمتد على طول هذا الخط مرتفعات الأوڤرن وعلى جانبيها يقع سهلا اكوتانيا وشمال فرنسا ، وتتكون تربتهما من مخلفات الرواسب المختلطة التى تخلفت عن فتات صخور متنوعة ،ولهذا امتازت بخصوبتها وعلى الأخص تلك الطبقات الرسوبية التى تملأ وادى اللوار والجارون مخترقة ممر بواتييه وتيسر سبل الاتصال بين السهلين .

وقد خلت البلاد فى العصور الوسطى من الطرق ، لأن الطرق الرومانية قد أصابها التهدم والإهمال، فجرى معظم النقل فى الأنهار حتى أن الملاحة فى ذلك العهد استخدمت أنهاراً تناهت فى الصغر ولا نفكر اليوم قط فى استخدامها ، وكان أثر الطرق المائية عظيما فى تطور السهل الشمالى ، فإن نهر السين وروافده تكاد تصلح للملاحة حتى منابعها ، فيأتى نهر الوازمن الشمال الشرقى ويتصل بالسين بعد باريس مباشرة كما يجرى نهر المارن من الشرق ويتصل به قبل باريس مباشرة ، ويجرى نهر يون Yonne من الجنوب متجهاً إلى باريس أيضاً ، وهكذا نجد شبكة من الطرق المائية تتركز خطوطها حول باريس ، وأكثر من هذا أن نهر اللوار يغير اتجاهه عند مدينة أورليانز فأصبح بمثابة طريقين مائيين يؤديان إلى باريس أحدهما يتجه من مصبه إلى أورليانز والآخر يتجه من منبعه إليها مما أدى إلى اتصال باريس بسهول أكوتانيا وبالوديان الجنوبية التى تتخلل مرتفعات الجنوب ، كما نجد أن وادى الرون والساؤن يهيئان على طول امتدادهما منفذاً سهلا إلى سهول لانجدوك الجنوبية ويمكنان باريس من الاتصال بها عبر مرتفعات كوت دور

وهكذا أصبح من الميسور حتى لهذه المنطقة البعيدة أن تـكون على Cote d'or اتصال بباريس .

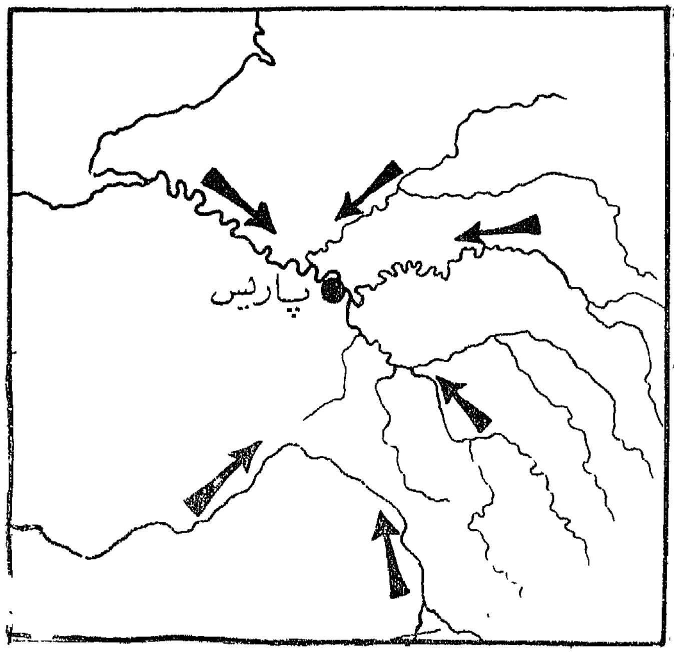
الخريطة رقم ٣٢



موقع باريس — تؤدى الطرق البرية الطبيعية إلى باريس

وهكذا نمت فرنسا حول باريس كما نمت الامبراطورية الرومانية حول روما وكما أن روما اكتسبت أهميتها حين جاء الغزاة البريون من الشمال واستولوا على جنوب إيطاليا ، كذلك اكتسبت باريس أهميتها لأول مرة حين جاء النورسمن أو أهل الشمال يمخرون عباب البحار على طول سواحل أوربا ثم يدخلون إلى نهر السين ويصعدون فيه حتى يصلون إلى جزيرة صغيرة فى وسط مجراه ، وهنا كان الوطنيون قد وجدوا فى هذه البقعة خير مكان لعبور النهر فأقاموا جسراً فوقه ، والجسر بطبيعة الحال يمنع مرور القوارب وهنا وجد رجال البحر من النورسمن عقبة تحول دون تقدمهم فى غزواتهم ، وهكذا نجحت باريس فى مقاومة أهل الشمال فاكتسب موقعها بعض أهميته .

الخريطة رقم ٣٣



الطرق المائية فى السهل الشمالى لفرنسا كلها تؤدى إلى باريس

ثم أصبح حكام هذه العناصر النور ماندية غزاة لانجلترا وحكاما لأجزاء متعددة من غربى فرنسا ومن عادة سواد الشعب ألا يهتمون بمن تكون له الغلبة أو بمن سيتولى أمورهم ولكنهم لم يثقوا فى ملكهم لمجرد نقله العرش إلى انجلترا ، وكانوا يفضلون لو أنهم أخلصوا فى ولائهم لحاكم يتخذ باريس له مقرا ، وبالتدريج اعترفت الوحدات المختلفة بحاكم باريس كسيد لها ، ومما زاد فى هذه الخطوة سرعة ونضوجا تصرف ملك انجلترا وممثليه لأنهم كانوا ينظرون بغيروعى منهم إلى البلاد الواقعة فى الساحل الجنوبى لبحر المانش نظرتهم إلى إقليم اجنبي ، ولنضرب لذلك مثلا « الأمير الأسود الذى أعمل السلب والنهب فى الساحل الغربى من بوردو جنوبا لا لسبب سوى الحصول على الأسلاب والغنائم [١] .

(١) The Black Prince

والآن وقد تركزت فرنسا حول باريس لم تسكن لحدودها القائمة وقتئذ أهمية ما دامت محدودة تحديداً واضحاً بالبحر من الشمال ومن الغرب وفى جزء من الجنوب أما فى الجزء الغربى من حدها الجنوبى فنجده إقليما من المرتفعات أى جبال البرانس ، التى تبرز حدود فرنسا فى هذه الناحية بروزا واضحاً لا لبس فيه ، فلم يبق إلا الشرق الذى خلا من وجود حد فاصل واضح كهذه الحدود السابقة .

وهكذا انشغلت فرنسا خلال فترة طويلة من تاريخها بنمو وحدتها القومية فى داخل هذه الحدود واتخذ معظم أهلها الزراعة حرفة لهم ، وأنتجت فرنسا غذاء كافيا لجميع سكانها نظرا لتمتعها بمناخ بديع لا تشتد حرارتها ابان الصيف ولا يشتد بردها ابان الشتاء ، ويسقط عليها قدر كاف من الأمطار وهى ذات تربة خصيبة فى معظم نواحيها ، فليس هناك ما يغرى أهلها أو يضطرهم إلى ركوب البحار أو ما يدفعهم إلى الهجرة خارج وطنهم فيما عدا الجزء الشرقى منها فأعدت الأساطيل الفرنسية والجيوش الفرنسية بقصد الدفاع فقط ، واشتغل بالملاحة عدد صغير من سكانها لأنهم لا يجنون ربحاً وفيراً من ركوب البحر .

هذا هو مجمل حالة فرنسا ، فجنوبها الشرقى متصل بالحضارات العريقة التى نشأت فى البحر المتوسط وكانت مرسيليا مدينة اغريقية كما كانت مقاطعة بروفانس أولى المقاطعات الرومانية خارج شبه جزيرة ايطاليا ولغة الناس هنا هى إحدى اللهجات اللاتينية وقد وقفت فرنسا بين أسبانيا وهولندة تنظر إلى البحر وأمامها الفرص مهيأة للسيادة البحرية غير أن حدودها فى الشرق وهى غير ثابتة أو واضحة كانت تغرى بالتوسع فى هذا الاتجاه على الرغم من أن فرنسا كانت تستطيع أن تستكفى بمواردها لو أرادت .

وتتحكم فى الجزء الأخير من تاريخ فرنسا أطوار مختلفة فهى تارة تثق فى كفايتها الذاتية وتارة تستجيب لاغراء التوسع البرى وتارة أخرى تستعر فيها رغبة جامحة نحو السيطرة على المحيطات ، وفى كل طور من هذه الأطوار كان أثر باريس واضحا فى اتباع سياسة المركزية المطلقة فى كل ناحية منها .

وقد كانت هذه الدولة عاملا فعالا فى إسقاط القوة البحرية الهولندية ولكنها لم تستطيع أن تنتزع سياسة البحار ذاتها لأنها وزعت اهتمامها وقسمته ، ففى حوالى منتصف القرن الخامس عشر تم توحيد فرنسا وتركيز الحكم فيها فى باريس ولم ينته هذا القرن حتى اضيفت إلى باريس مقاطعات بروفانس وبريتانى ودوقيه برجنديا ، الأولى والثانية هما أبعد الولايات عن باريس وعن أثر قوتها المركزية والأخيرة تقع فى وسط الأراضى الشاسعة التى تخلو من الحدود الفاصلة الطبيعية . وأدى هذا الضم إلى متاعب جمة مع الدول الناشئة إلى الشرق منها . وأن تاريخ فرنسا لمدى خمسين عاما أخرى تستغرقه محاولاتها للاحتفاظ بهذه الجبهة الشرقية الجديدة ، على حين يبين لنا تاريخها الداخلى كيف أن فرنسا أصبحت دولة موحدة تحت زعامة الملكية المطلقة ، وتتخذ باريس مقرأ لها ، وقد أصبحت هذه المدينة أجمل مدن أوروبا .

وسارت فرنسا الموحدة خمسين عاما أخرى وهى تعانى وتجاهد ويلات النزاع الدينى الذى تسرب إلى جميع الدول الشمالية بتسرب مبادىء الإصلاح الدينى ، حتى وفقت أخيرا إلى حل هذه المشاكل قبل عام ١٦٠٠ وظلت فرنسا دولة موحدة متمسكة بمذهبها الكاثوليكى .

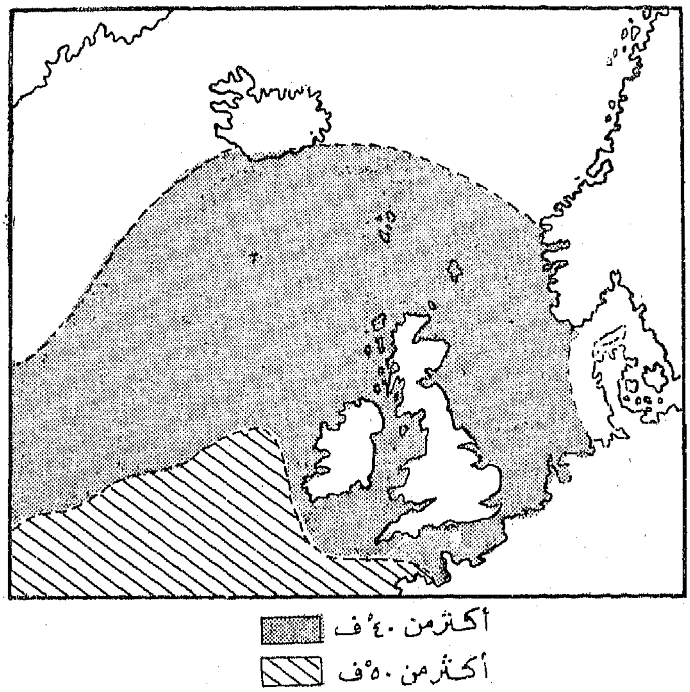
وفى هذه الأثناء كان الهولنديون يبنون حياتهم الجديدة فيما وراء البحار ، وقد تأثر ملوك فرنسا فى تحقيق أهدافهم بهذه العوامل الجديدة ، غير أن الحدود الشرقية ببقائها جبهة غير واضحة المعالم ظلت تقرر إنقسام السياسة الفرنسية ، فاستهدف ريشليو إنشاء قوة بحرية عظمى لتزيد فى ثروة المملكة كما استهدف توسيع حدود فرنسا إلى الشرق ليضم تحت الحكم الفرنسى جزءاً جديداً من الأراضى الزراعية ، وكانت نتيجة هذه المحاولة المزدوجة القضاء على القوة الهولندية وأضعاف القوة النمساوية التى كانت تسيطر على الأراضى المنخفضة وراء حدود فرنسا ، غير أن هذه المجهودات سببت للقوة الفرنسية عجزاً خطيراً ، وفى الحق كانت هذه النتائج صدى لأثر ظهور أحدث القوى البحرية فى العالم الشمالى ، الاوهى بريطانيا ، ولهذا يجب أن ندرس الظروف الجغرافية التى هيأت لبريطانيا فرصة التأثير فى مجرى التاريخ .

الفصل الحادى عشر

المحيط — الامبراطورية المحيطية — بريطانيا

هناك فارق واضح بين بريطانيا والبلاد الأخرى التى تعرضنا لها حتى الآن ، ذلك أن بريطانيا وحدها جزيرة أو بالأحرى جزيرتان لهما مساحة لا بأس بها وعلى درجة من الكفاية تمكنهما من أن تعولا عدداً كبيراً من السكان .

الخريطة رقم ٣٤



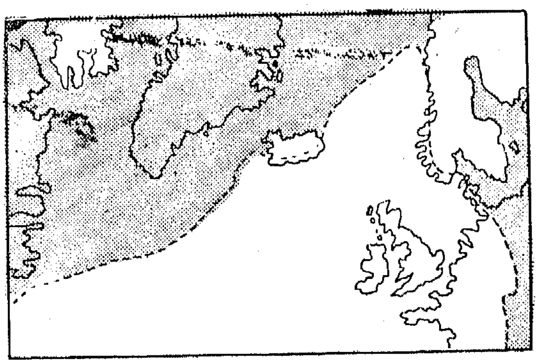
حرارة المياه فى المياه البريطانية فى شهر يناير

وهناك عوامل جغرافية أخرى يجب علينا دراستها قبل أن ندرك الدور العجيب الذى لعبته بريطانيا فى التاريخ حتى اليوم .

أولا — المناخ : تتمتع بريطانيا كغيرها من البلاد التى تطل على المحيطات بمناخ معتدل ليس فيه تطرف . فالرياح الغربية السائدة تجلب إلى شواطئ شمال أوربا الغربية طبقة من المياه تبلغ فى عمقها نحو نصف الميل وهى على درجة من الحرارة تزيد عن المألوف فى مثل هذه العروض مما يحول فى الشتاء دون تجمد المياه فى التربة وفى الأنهار وعلى الشواطئ .

ثم أن بريطانيا توغل فى موقعها صوب الشمال مما يجعل مناخها فى الصيف دفيئاً لا حاراً مع استمرار خضوعها لمؤثرات المحيط .

الخريطة رقم ٣٥



المساحة المتجمدة فى متوسطها خلال شهر يناير كله

خليج الدفء

تظهر الخريطة الوضع الشاذ لمناخ بريطانيا

وهكذا أصبح العمل فى بريطانيا ميسوراً فى كلا البر والبحر وعلى مدار السنة فهى تمتاز بشتاء يبعث برده على النشاط لا الألم والعجز ، وفى صيفها حرارة لا تبعث على الضعف والخمول فيمكن استغلال الطاقة فى كل وقت . أضف إلى هذا أن الرياح الغربية فى هبوبها تجلب معها الأعاصير التى تسبب سقوط الأمطار فتنمو الأعشاب فى كل فصل ، ولا احتمال للجفاف فيها إبان فصل الصيف ، بل إن التقلبات الجوية التى تعاب على جو بريطانيا لتحفز أهلها إلى العمل دائماً وتبعث بالنشاط إلى نفوسهم .

ثانياً — التضاريس : نجد فى جزيرة بريطانيا العظمى إقليمين من المنخفضات أكبرها يقع إلى الجنوب الشرقى مكوناً الجزء الرئيسى من إنجلترا وأصغرها يقع بين نهر الفورث والكلايد مكوناً الجزء الرئيسى من اسكتلندا(١) .

كما تمتد الأراضى المنخفضة فى إرلندة شرقاً وغرباً فى أواسط الجزيرة ومن ثم صلحت مساحات واسعة للزراعة فى هذه المنخفضات — وكانت وحداتها كبيرة المساحة نوعا ما — حتى أنه ليتسنى لنا مقارنة الأراضى المنخفضة فى انجلترا بالأراضى المنخفضة الفرنسية على الرغم من أن تاريخ بريطانيا فى مراحله الأولى امتاز بوجود وحدات سياسية صغيرة عز الاستقرار فيها إلا أنه حين تقدم السكان فى مدنيتهم وخضعوا جميعاً لحكومة واحدة يسود نفوذها كل الأراضى السهلة أصبحت تلك الحكومة موطدة الأركان منسجمة العناصر .

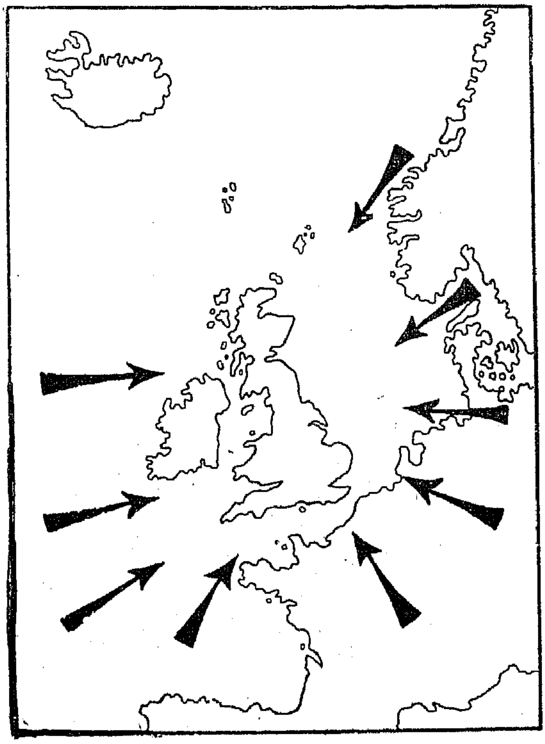
ثالثاً — المد والجزر : ولننظر الآن إلى خريطة لشمال أوربا الغربية مبيناً عليها أعماق البحار أى تضاريسها فيما تحت مستوى الماء ، فنرى أن بريطانيا تقع على رصيف القارة وهو بروز لا يكاد تغطيه مياه البحر ، ولو أصاب الأرض ارتفاع يقرب من ستمائة قدم أو نحوها لاتصلت بريطانيا بالقارة ، لا عن طريق مضيق دوفر فحسب ، بل عبر بحر الشمال وبحر المانش أيضاً ، ولهذه الحقيقة نتائج هامة — فإن موجة المد الناشئة فى المحيط الجنوبى حيث يحيط الماء بالكرة الأرضية إحاطة السوار بالمعصم هذه الموجة تكتسح محيطات الهندى والهادى والأطلسى بسرعة كبيرة ولكنها لا تسبب لمستوى الماء ارتفاعاً أو هبوطاً أكثر من قدم واحد تقريباً . وحين تقترب هذه الموجة من شاطئ ضحل تنقص سرعتها ولكنها تزداد ارتفاعاً — فإذا ما اتسع هذا الشاطئ الضحل وبلغ عرضاً كبيراً زاد ارتفاع المد وهبوط الجزر زيادة عظمى — وإذا ما اقتربت موجة المد من قارة تهبط سواحلها بانحدار مفاجئ إلى عمق كبير تحت سطح البحر فإن شواطئها تكاد لا تحس بالزيادة مطلقاً ، بل وقد لا توجد حركة المد والجزر إطلاقاً . ولهذه الأسباب

(١) هذه الأجزاء هى أراضى واطئة وليست سهولا .

لا تجد مداً أو جزراً من أى ارتفاع كان على سواحل النرويج وأسبانيا — ومن الواضح أيضاً أن البحار المقفلة — كالبحر المتوسط وبحر البلطيق — تخلو من موجات المد والجزر لأن الموجة المحيطية تعجز عن الدخول إليها ، وهكذا نجد أن شواطئ بريطانيا والشواطئ المقابلة لها من الجانب الآخر من القارة ابتداء من ميناء هامبرج حتى رأس خليج بسكاى هى وحدها من بين شواطئ أوربا التى تنتظم فيها حركة المد والجزر مرتين يومياً فتطهر مصبات الأنهار من رواسبها — وتمكن للقوارب من أن تدخل وتخرج إلى عرض البحر وأن تدور حول التعاريج التى يصعب أو يتعذر على السفن الشراعية المرور فيها — ولهذا امتازت بريطانيا وشمال فرنسا وغرب ألمانيا بمصبات خليجية واسعة يمكن أن تدخل إليها السفن من عرض البحار وتنقل فيها البضائع لمسافات طويلة فى داخل اليابس فيقل المجهود الذى يبذل فى نقلها ، وكان لذلك أكبر الفائدة إبان العصور الوسطى حين نسى الناس كيف يشيدون الطرق وقبل أن يفكروا فى اختراع السكك الحديدية .

رابعاً — موقع بريطانيا بالنسبة للعالم القديم . كذلك تشارك بريطانيا غيرها من بلاد شمال غرب اوربا ميزة الموقع الجغرافى . فهى تقع على الحافة الخارجية للعالم القديم الذى كان موضع اهتمام الناس فى تلك الأيام قبل اكتشاف أمريكا — فكانت بريطانيا واقعة فى نهاية العالم وليس وراءها شئ ولا يؤدى الطريق إليها إلى مكان ما بعدها ،فلم تر سواحلها سكان المراعى عند مجيئهم من الشرق ولم تر المسلمين عند مجيئهم من الجنوب — على الرغم من أن العرب قد وصلوا فى زحفهم إلى بواتيية وعلى الرغم من أن البلغار قد تقدموا حتى عبروا نهر الراين — إلا أن بريطانيا تركت وشأنها فلم تك مثلا كصقلية ؛ جزيرة خليقة بأن يكون لها تاريخ خاص غير أنها لم تكن كذلك نظراً لأنها تقع بين الشرق والغرب ، وبين الشمال والجنوب ، وبين الإغريق والفينيقيين ؛ وبين الرومان والقرطاجنيين ؛وبين المسيحية والاسلام ؛ وبين النورمانديين والعرب ؛ وبين الأتراك والأسبان — ولهذا كان تاريخ صقلية هو مجرد تاريخ الصراع القائم بين القوى المختلفة التى تقابلت فيها وكانت ميدان المعركة المشترك لها جميعاً لأنها تقع وسط العالم المحيط بالبحر المتوسط إبان العصور القديمة والعصور الوسطى .

الخريطة رقم (٣٦)



منافذ بريطانيا

تظهر الخريطة أنه يمكن الوصول إلى بريطانيا بسهولة من أكثر من نصف دائرة تحيط بها . وليس لشمال النرويج أهمية تذكر فى هذا المجال .

وهكذا بقيت بريطانيا بلاداً منعزلة حتى اكتسب المحيط أهميته فجأة بفضل اكتشاف البرتغاليين والأسبان ، وحتى اليوم لا تدين بريطانيا فى أهميتها لموقعها فى قلب الكتلة اليابسة . هذا ولو وازنا بين الطرق التى تتخذها السفن فى ذهابها إلى بريطانيا وخروجها منها لم نجد نقلا ما يجرى فى نحو نصف دائرة تحيط بها من الغرب إلى الشمال ثم إلى الشمال الشرقى لأن الطريق إلى الشمال منها لا يؤدى إلى هدف ما — والهجوم من ذلك الجانب هو أبعد الاحتمالات .

هذه العوامل السابقة جميعا تحكمت فى تاريخ بريطانيا مجتمعة تارة ومتفرقة تاره أخرى .

ولما كانت بريطانيا قابعة فى نهاية العالم فقد بقيت لمدى عصور طويلة الملاذ الأخير الذى تلجأ إليه القبائل المهاجرة مارة بزاويتها المواجهة للقارة عند دوفر، ثم اضطرت هذه القبائل إلى الانتقال إلى الشمال الغربى منها رويداً رويداً كلما ضغط عليها مهاجرون جدد — وأننا لا نستطيع أن نتحدث حديث الواثق عن الدوافع التى حدت بهؤلاء الناس إلى أن يعبروا البحر إلى بريطانيا وهم يبصرون شواطئها من سواحل القارة — بل أن حديثنا عن دوافعهم هو من قبيل الحدس والتخمين، ومهما كان الأمر فقد توالت عليها موجات الهجرة، وكل موجة من المهاجرين أرقى مدنية من سابقتها وأقدر على استخدام الطاقة فى كلا الحرب والسلم، ولاشك أنهم اقتبسوا وسائل استخدامها واستغلالها من آخرين — فكانوا مجرد مقلدين . وتركوا أثراً ضئيلا فى التاريخ . ثم أصبحت السهول الإنجليزية فى آخر الأمر جزءاً من الأمبراطورية الرومانية ومن ثم دخلت بريطانيا فى نطاق العالم المتمدن وسارت فى موكب الحضارة .

واستمر تأثير جغرافية بريطانيا على تاريخها باعتبارها جزيرة حتى بعد جلاء الرومان عنها، فلما لم يكن بها حكومة مركزية منظمة شن عليها رجال البحر هجماتهم من كل ناحية، وقد جاؤا إليها من وراء بحر الشمال، فهاجمها السكسون والجوت والإنجلز والدنمركيون والنورسمن من جميع الجهات من الجنوب والشرق والشمال والغرب، وأقاموا بها دويلات صغيرة وأدخلوا إليها عادات جديدة وطرائق فى الحياة لايزال يشعر أهل إنجلترا بأثرها حتى اليوم — بل وقد أقيمت أمبراطورية على شواطىء بحر الشمال عاشت لبضعة أعوام كانت تشمل فيما تشمله جميع الأراضى السهلة فى بريطانيا .

وأخيراً عبر النورمانديون بحر المانش مرة أخرى وحكم وليم وأحفاده السهل الإنجليزى بيد من حديد — وتركز الحكم بطبيعة الحال فى لندن وهى على رأس خليج تصل موجة المد إلى نهايته، وتقع على أول أرض صلبة وسط مستنقعات الشاطىء الشمالى لخليج التيمس — ولهذا اعتبرت لندن موضع العبور الذى تتفرع منه الطرق المختلفة إلى أنحاء وادى التيمس الأدنى كما اعتبرت المرسى الذى تأتى إليه السفن

من البحر ولا ينافسها فى ذلك مدينة أخرى فى تلال الدونز و الشيلترن سوى خليج سوثهمبتون حيث يقوم فيه ميناء آخر هو ونشستر وبدا لفترة من الزمان كما لو قدر لسهول فرنسا الشمالية والغربية من أن تدار دفتها من العاصمة الانجليزية . إذ امتدت مملكة إنجفن Augevin من تلال شفيوت حتى البرانس ، إلا أن جغرافية بريطانيا باعتبارها جزيرة تحكمت فى تاريخها بطريقة أخرى. ومن الطبيعى أن تظهر العداوة التقليدية بين أقوام تتكلم لغات مختلفة ولهذا فإن كراهية أهل فرنسا للملك الجالس فى باريس والذى يتكلم الفرنسية كانت أقل بالطبع من كراهيتهم الملك المتربع فى لندن فيما وراء بحر المانش والذى يتكلم الإنجليزية ، ولهـذا اتحد الفرنسيون حول باريس واتخذوا منها عاصمة لهم وكونوا الأمة الفرنسية — فيما عدا الجزر الواقعة فى بحر المانش والتى لم تخضع لفرنسا قط فقد استمسك بها النورمانديون من قبل فتحهم لإنجلترا وبقيت تذكر البريطانيين لمدة قرون بأن البحر لا يكفل الحماية فقط بل أنه وسيلة الانتقال فى نظر رجال البحر أيضاً .

ثم أخذت الحكومة المركزية القائمة فى السهول الإنجليزية تمد سيطرتها تدريجياً إلى ما وراء السهول غير أن مرتفعات ويلز ظلت منعزلة لأجيال طويلة وتميزت بخصائصها كما ظلت سهول اسكتلند بحكومتها المركزية الخاصة ذات كيان مستقل محتمية وراء مراعيها الواسعة والتى اتخذتها أوكاراً لها عصابات اللصوص التى كانت تسطو على الماشية فى كل مكان فى شمال انجلترا وجنوب اسكتلند — ولم تكن بريطانيا دولة موحدة أيام الحكم الرومانى واستمرت كذلك إلى أكثر من ألف عام بعد ذلك — والمرتفعات هنا ، كما هو شأنها فى كل مكان، تولد بطبيعتها ظروفا سياسية تختلف باختلاف اقتصادياتها — ثم أصبحت الجزيرة بحكم تطور الحوادث تضمها وحدة سياسية واحدة وتحكمها حكومة مركزية يحميها البحر وتستخدمه كوسيلة للدفاع عنها .

وظلت بريطانيا تجمع الثروات وتختزن موارد الطاقة فى كل العهدين — عهد الوحدة السياسية وعهد انفصال السهول عن بعضها — فكان السكان يتجون

الأصواف من الأغنام التى تربى على الحشائش وهى هنا تنمو طوال العام — وأمكن الاحتفاظ بالأغنام وتربيتها لأن الحكومة القومية أمنت الأهالى ضد الغزو والعدوان ، كما أمنتهم شر الفوضى الداخلية فباعوا أصوافهم إلى التجار فيما وراء البحار وازدهرت تجارتهم شيئاً فشيئاً وجمعوا الطاقة واستخدموها فى سبيل الحصول على قسط أكبر منها ، وذلك بفضل الحقيقة الراهنة وهى أن العمل ميسور طوال العام ، وأن السفن تستطيع أن تدخل فى الخلجان إلى مسافات بعيدة فى داخل اليابس لكى تفرغ شحناتها أو لكى تحمل بضائعها — وهذا الرقى كان ميسوراً لا لمجرد احتماء البلاد بالبحر من جميع جهاتها فحسب ، ولكن لأن البلاد خضعت لحكومة مركزية وطيدة الأركان ، وهكذا أصبحت إنجلترا فى واقع الأمر أول دولة أوربية ذات حكومة مركزية فى العصور الحديثة .

ولقد ظلت طيلة هذه الأيام وهل فى نهاية العالم ، ثم تغيرت الحال باكتشاف المحيط وارتياد أمريكا فأحدث فيها هذا الكشف أثرين مختلفين : —

أولا — وجدت بريطانيا نفسها تواجه المحيط مباشرة وتتعرض لمؤثراته ، مثلها فى ذلك كمثل البرتغال وأسبانيا وهولنده وفرنسا ، وأبحر الناس منها بسهولة كما كانوا يبحرون من غيرها وخرجوا يبغون الدوران حول العالم ، بل حاولوا فعلا الوصول إلى الهند وجزائر الهند الشرقية . وقبل أن يبدأ كولمبس رحلته بأثنى عشر عاماً أرسل تجار بريستول بعثاتهم وسفنهم بقصد اكتشاف الجزر التى تصلح لأن تكون محطات فى الطريق إلى أرض التوابل فى الشرق الأقصى .

ثانياً — وكلما ازدهرت حركة النقل فى المحيطات إلى الهند وإلى أمريكا أصبحت هذه البلاد وثيقة الصلة بشواطىء بريطانيا الجنوبية بينما ظلت شواطئها الشمالية الغربية منقطعة عن كل تجارة وبعيدة عن كل هجوم .

ونستطيع أن نستنتج سير الأحداث فى بريطانيا — كما جرت عادتنا دائما — بتتبع تاريخها الماضى وبدراسة أحوالها الجغرافية ، فقد نهضت أنجلترا واحتلت مكانتها بين الدول الناهضة فى العصور الوسطى بفضل دفاعها عن نفسها على متن البحار

المحيطة بها — كما أدى قيام حكومتها المركزية إلى ازدياد ثروتها وتوطيد الأمن فيها ، فاشتغل جزء كبير من أهلها بالملاحة وأدرك تجارها أنهم يجنون ثروات لو مارسوا التجارة فيما وراء البحار — ومن ثم أصبحوا عماد ثروتها المتزايدة والمدخرة ولم يكن البحر شيئاً مجهولاً بالنسبة لبريطانيا إلا أنها لم تفد كثيراً من اكتشاف طريق الهند إذ اغتصبت البرتغال من الجمهوريات الإيطالية الجزء الأكبر من التجارة الشرقية — ثم تبعتها هولنده بعد ذلك ، واستولت أسبانيا على البلاد ذات المعادن الثمينة — حقاً أن بحارة الإنجليز أثبتوا تفوقهم على الجنود الأسبان الذين جاءوا إليهم فى حملة الارمادا الجبارة والذين لم يألفوا البحر . وإذا كانت السفن الإنجليزية أصغر من الأسبانية حجما إلا أنها كانت أسلس قياداً ، إذ بنيت فى أساسها لتكون سفناً تعمل فى البحر ويعيش على ظهرها بحارة ، بينما بنيت السفن الأسبانية كالقلاع العائمة تحمل جنوداً وتحميهم وهم يقاتلون فى عرض البحر وكأنهم يقاتلون فى معركة برية .

وقد حاول البحارة البريطانيون من أمثال رالى ودريك أن يجلبوا إلى الوطن البريطانى كنوزاً اغتصبوها من الممتلكات الأسبانية فى الغرب ولكن حكام بريطانيا آنئذ ، بعكس حكام أسبانيا ، لم يقتنعوا بفكرة التوسع والغزو ولم تفتنهم شهوة امتلاك المستعمرارت فيما وراء البحار خاصة وأن امتلاك فرجينيا لم يعد عليهم بكبير فائدة ، فقد أسسها رالى مدفوعا بشهوة الحصول على الذهب الذى لم يجد منه فيها شيئاً . واقتصرت فائدة فرجينيا بعدئذ على أن غدت مثلا يضرب للأجيال القادمة لتشجيعها على الهجرة فيما وراء البحار لزراعة الأراضى .

وهكذا لم يتأثر رخاء بريطانيا فى التو بفكرة التجارة كما تأثر رخاء البرتغال وهولندا من قبل وقد عرفنا أن البرتغال كانت تحتكر التجارة فى بادئ الأمر قبل عهد الإصلاح الدينى بمقتضى منشور البابا ، ثم تحفز الهولنديون إلى احتراف النقل البحرى وسيطروا على مفاتيح الطرق الرئيسية التى كانت تمر بها البضائع الهندية فى طريقها إلى أوروبا الشمالية — وجمعوا من الثروة والقوة ما مكنهم من الحصول استقلالهم عن أسبانيا . وبلغت الأمتان هذه الغاية قبل أن تتاح الفرصة لبريطانيا

وهى بمعزل عن الطرق التجارية الواضحة . غير أنه نظرا لشدة قرب بريطانيا من هولندا فإن التجار البريطانيين سرعان ما حاولوا جلب البضائع الثمينة من مواطنها البعيدة بأثمان رخيصة ، وهكذا وجدوا أنفسهم ينافسون الهولنديين وجهاً لوجه — وقامت العداوة بين الدولتين بطبيعة الحال فانزلقت بريطانيا إلى حرب مع هولندا ثم مع فرنسا ، ولم يمض عليها قرن من الزمان حتى عدت قوة بحرية ضخمة لا فى البحار المحلية فحسب بل القوة البحرية الأولى فى العالم والقوة الأولى فى المحيطات .

وقد استمر الصراع من نهـــاية القرن السادس عشر حتى أوائل القرن الثامن عشر غير أن النصف الأول من تلك الفترة كان سلماً مقنعاً — فقد ظلت التجارة البريطانية تنتشر شيئاً فشيئاً وتصارع التجارة الهولنـدية وإن لم تمتشق الحسام معها ، وقد بدأت تلك المنافسة من عام ١٦٠٠ حين رفع الهولنديون سعر الفلفل من ٣ شلنات للرطل إلى ٦ شلنات وأجاب البريطانيون على ذلك بتأسيس شركة الهند الشرقية البريطانية واستمر الصراع دائراً إلى أن أصـدر كرومول قوانين الملاحة فى عام ١٦٥١ . ويجب ألا يغيب عن الذهن أنه فى خلال هذه الفترة التى ازداد فيها توتر العـلاقات بين الجانبين حاول ريشليو أيضاً فى الفترة من ١٦٢٨ إلى ١٦٤٢ ، أن يبنى لفرنسا أسطولا بحريا . ولما لم تكن المحاولة صادرة من أعماق الفرنسيين ولم تنبعث من نواحى نشاطهم الطبيعية كما أنهـم لم يتابعوا الخطة ذاتها فى مثابرة وإصرار لم تؤد محاولاتهم إلى نتائج عظيمة كما كان منتظراً .

ولنعد إلى قوانين الملاحة فى انجلترا فقد نصت على أن جميع البضائع المستوردة من انجلترا ومستعمراتها — وهى التى كانت تتسع تدريجيا — يجب ألا تحملها إلا سفن انجليزية أو سفن الدولة التى تنتجها صناعة أو زراعة ، وكان هـذا تحديا للهولنديين تبعه بالطبع نشوب الحرب بينهما ، واستمر النزاع على سيادة البحار ستين عاماً ويمكن تقسيمه إلى أربع مراحل محددة تحديداً واضحاً .

١ — مرحلة الحرب بين بريطانيا وهولندا منفردتين .

٢ — مرحلة الحرب بين بريطانيا من جانب وبين هولندا وفرنسا متحالفتين .

٣ — مرحلة الحرب بين بريطانيا وفرنسا متحالفتين ضد هولندا

٤ — مرحلة الحرب بين بريطانيا وهولندا متحالفتين ضد فرنسا

١ — لبثت المرحلة الأولى من عام ١٦٥٢ إلى عام ١٦٦٥ — وفى تلك الحرب كانت كفة انجلترا ترجح قليلا فى عهد الأيام الأولى للجمهورية وفى عهد الملك شارل الثانى. كانت بريطانيا فائزة بوجه عام، غير أن قوتها الحقيقية لم تظهر إلا عرضاً ومن قبيل الصدفة ذلك أنه فى خريف ١٦٦٥ انتشر مرض الطاعون فى انجلترا فلم تستطع أساطيل بريطانيا أن تظهر فى البحر على الرغم من تفوقها البحرى — وعندئذ ظهر الفارق بيننا وبين مركز الفريقين لأن بريطانيا استغلت ثروتها المتجمعة فاستأجرت جنوداً مرتزقة لتهاجم بهم هولندة من البر .

٢ — وكان هذا سبباً فى استئناف القتال فى المرحلة الثانية لأن الهولنديين التجأوا من فورهم إلى فرنسا يطلبون نجدتها لتحمى لهم جبهتهم — غير أن هذه المرحلة لم تدم طويلا — إذ دامت عامين اثنين فقط هما عاما ١٦٦٦ ، ١٦٦٧ وعلى الرغم من أن بريطانيا كانت أفضل مركزاً من هولندة إلا أن كلا من الطرفين أدركا أن فرنسا تستغل خسائرهما التجارية فعقدا صلحاً بل وتحالفا لبضعة سنين .

٣ — ثم جاءت فترة أخرى بذلت إبانها فرنسا بإرشاد كولبير إحدى محاولاتها العصبية لتصبح قوة بحرية فاتبعت الأسلوب الفرنسى الذى يمتاز بطابع التنظيم والمركزية ونسقت الإنتاج القومى وسار جنباً إلى جنب مع برامج بناء الأساطيل وتأسيس المستعمرات ، مما بشر بأن فرنسا سوف تحتل مكان الصدارة كقوة بحرية عظمى — غير أن ماضيها التاريخى وأحوالها الجغرافية عادت فأثرت فى مجرى الأحداث التاريخية ، ذلك أن الفرنسيين من ناحية جروا على الأسلوب الذى ألفوه فى الحياة فلم يفيدوا لتوهم من مزايا التنظيم الذى أدخل على الحكومة. كما أغرت الأحوال الجغرافية الحكومة الفرنسية إلى معاودة التفكير فى التوسع فيما وراء الجبهة الشرقية — وأن ترجع عن هذه الإصلاحات قبل أن تؤتى ثمراتها المرجوة — خاصة وأن الأراضى الهولندية المنخفضة تتاخم هذه الجبهة البرية حيث توجد أسهل الطرق للخروج من فرنسا نحو الشمال الشرقى وكانت بلجيكا وقتئذ لا تزال

خاضعة لأسبانيا التى أصابها الوهن والانحلال فانهارت قواتها لتوها أمام الجيوش الفرنسية الزاحفة ، فأحدق الخطر بهولندة واتفق هـذا مع الأغراض البريطانية خصوصاً وأن فرنسا لم تكن تنافس بريطانيا تجارياً ، على الرغم من أن أسطولها ازداد فى أهميته عن ذى قبل — وفى عام ١٦٧٢ تحالفت انجلترا وفرنسا وأعلنتا الحرب على هولندة وبعـد فترة من الجهاد الشاق الذى كابدته انجلترا بمفردها أحرزت نفوذاً متزايداً فى البحر — وفى خلال هذه الحرب ساعد هولندة بعض حلفائها الذين خففوا عنها ضغط الهجوم على حـدودها البرية نظير معونة مادية قدمتها إليهم مما جنته من أرباح تجارية — كما أمكنها أن تؤمن بلادها من الغزو المباشر من البحر بفضل قوة أسطولها البحرى وقد شعرت هولنـدة بالحاجة إلى بذل هذه المعونة المالية بسبب صغر مساحتها وتعرضها فى البر لهجوم قوات برية عظيمة مركزة كما أن قوتها البحرية أخـذت تضعف ضعفاً ظاهراً أمام أساطيل بحرية لم يقع عليها عبء الدفاع عن حدود بلادها البرية وتفرغت للهجوم وحـده فلما انسحبت بريطانيا من الحرب عام ١٦٧٤ كانت سيادتها على البحر — أمراً معترفا به من فينيستر Finisterre [1] حتى النرويج — ولم تقف المزايا التى اكتسبتها بريطانيا عند ذلك الحد لأنها بقيت محايدة فى الفترة الباقية من الحرب التى ظلت حتى عام ١٦٧٨ فتحول نقل التجارة البحرية من السفن الهولندية إلى سفن انجلترا لأنها كانت أكثر أمناً فى أسفارها فى عرض البحار من السفن الهولندية التى ما زالت مهددة بالأساطيل الفرنسية .

أما فرنسا فإنها انتهجت سياسة مرسومة بأمعان ففضلت عمداً وبإصرار انتهاج سياسة برية على اتباع سياسة بحرية ، فسمحت لبريطانيا عمليا بأن تضع يدها على البحر — بل أن بريطانيا ادعت سيادتها على البحار منـذ أيام الملك جيمس الأول واعترفت لها فرنسا بهذه السيادة — ولو قدر لمشروعات كولبير النجاح أو لو استمع ساسة فرنسا لنصيحة ليبنتز لأدى موقعها الجغرافى بمزاياه إلى إنشاء امبراطورية بحرية فرنسية ، كان يستحيل على هولندة أن تقاومها ، وكان يصعب على بريطانيا أن تتغلب عليها — ولو أن فرنسا استفادت من جبهتها التى

(١) مايسمى لندز إند أى الطرف الغربى للجزيرة البريطانية

تطل على البحر المتوسط الذى خلا وقتئذ من الأساطيل البحرية ولو أنها اتجهت إلى حكم مصر مثلا لاستولت على الجزء الأكبر من تجارة الهند وبلاد المشرق ولاضطرت أن تحتل القواعد على كلا الساحلين المصريين ولأصبحت ذات قوة بحرية أشد بطشا من قوة هولندة ولاحتلت بالتدريج مكان حليفتها وغدا موقعها أعظم تدعيما وأمست على كل حال منافسا خطيراً لبريطانيا .

٤ — وهكذا تأتى المرحلة الرابعة التى حاربت فيها بريطانيا متحالفة مع هولندة ، ولكن هولندة كانت الحليف الضعيف بل الضعيف جدا — فأمكن لبريطانيا فى هذه الحرب القضاء على بحرية فرنسا وأسطولها التجارى وقد استمرت الحرب من عام ١٦٨٨ إلى عام ١٧١٣ شغلت فيها فرنسا أيضاً بنزاع فى قارة أوربا فى حروب حلف أجزبرج وحرب الوراثة الأسبانية — وهنا يجدر بنا أن نلاحظ أن مجرد امتلاك الدولة لأسطول بحرى قوى لا يتيح لها السيطرة البحرية . فنى بداية الحرب كان لفرنسا أسطول قوى يتفوق عدده وعدده على أساطيل بريطانيا وهولندة مجتمعتين ولكن كان ينقصها التجارة البحرية التى هى مصدر الثروة ، فكانت بريطانيا تستطيع أن تعوض خسائرها بسرعة بينما لم تستطع فرنسا أن تعوض خسائرها المستمرة التى استنزفت معظم مواردها فى استمرار القتال على حدودها البرية . وزودت بريطانيا أعداء فرنسا بالأموال التى كانوا يحاربون بها ، وعلى الرغم من أنه لم يجر قتال بحرى هام بعد العام الأول تقريبا وعلى الرغم من أن بريطانيا كانت تبدو وكأنها لا شأن لها بشئون القارة الأوروبية إلا أن هذه الفترة كانت من أهم عصور التاريخ البريطانى . وكان ذلك الإرهاب الصامت الذى تنشره قواتها البحرية المتزايدة عنصرا فعالا فى مصير الصراع كله . حقا لقد قاست التجارة البريطانية بعض الخسائر على يد القراصنة الفرنسيين غير أن هذه الخسائر لم تكن جسيمة محسوسة بالنسبة إلى الرواج الزاهر الذى حققته فى تجارتها ، وقد جنت أرباحا وثروات طائلة مكنتها من أن تحول دون استنزاف مواردها كما مكنتها من أن تحول الصراع البرى حتى انهكت قوى فرنسا .

وفى أثناء ذلك القتال لم تعد هولندة قوة بحرية على الإطلاق ، فلم تستطع أن

تعوض خسائرها فى البحر كما عوضتها بريطانيا — لأن موادرها استنزفت فى حروبها البرية شأنها شأن فرنسا تماما — ثم أخذت تعتمد شيئا فشيئا على قوة بريطانيا البحرية ولم تكسب فى معاهدة أوترخت شيئا يستحق الذكر وفقدت إلى الأبد وظيفتها فى نقل التجارة كما فقدت تفوقها البحرى . وانتقلت كل هذه المزايا إلى بريطانيا واضحت ميزتها الكبرى نمو تجارتها نمواً كبيراً ، إذ سيطرت على تجارة البرتغال وأضافت إلى ممتلكاتها جبل طارق وميناء ماهون فى البحر المتوسط وجزيرة نيوفوندلاند ونوفاسكوشيا عبر المحيط الأطلسى فتهيأت لها قواعد مختلفة ساعدتها على نشر تجارتها وحمايتها من كل عدوان .

وقد أدت العوامل الجغرافية وكيفية الإفادة منها إلى نتائج أخرى فى تجارة بريطانيا فلم يقتصر الأمر على أن أصبحت السفن البريطانية أكثر أمنا وسلاما فى نقل التجارة عن غيرها من سفن الدول المنافسة لها بل تحول نقل التجارة العالمية إلى الأيدى البريطانية .

ولما أصبحت الأراضى البريطانية جميعها أكثر الدول تمتعا بالسلم والأمان عادت عليها التجارة بأوفر الأرباح وتطلبت ممارستها أقل نفقات ممكنة .

* * *

ومن المعروف أن استعمال النقود المعدنية فى تبادل السلع كان خطوة كبرى فى تقدم الحضارة لأن الأشياء المراد استبدالها كانت ضخمة الحجم عسيرة الحمل وقد يحدث أن يحتار شخص بما معه من فائض البضائع فلا يجد الراغب فى شرائها وإن وجد فقد لا يجد معه ما يتوق هو إلى اقتنائه .

وهكذا سهلت العملة المعدنية التداول بقبولها من الجميع وزادت القدرة على الإنتاج بازدياد تبادل البضائع وسهولة الحصول عليها .

ثم حدث فى ذلك العهد الذى نحن بصدده تقدم آخر عم جميع البلاد المتحضرة وعلى الأخص بريطانيا ، إذ لم تعد العمليات التجارية — فيما عدا البيع بالتجزئة — تتطلب نقودا وعملات تدفع من شخص لآخر بل بسطت تجارة البلاد تبسيطا

كبيراً بإدخال نظام الحسابات الجارية بالبنوك ، فيفتح الشخص أو المؤسسة اعتمادا بمبلغ من المال فى بنك من البنوك بضمان ثروته وممتلكاته ليواجه ما قد يؤديه من خدمات أو عمليات تجارية ، وهكذا امتد النشاط التجارى فى كل حقل ، فإذا رغب شخص فى شراء شىء ما حرر للبائع صكا (شيك) بقيمة البضائع ويستطيع هذا بدوره أن يحوله إلى آخر ، ولن يتيسر هذا إلا فى دولة انتشر فيها الأمن وتوافرت الثقة بين أهلها ، وحيث لا يبذل مجهود فى غير موضعه . ولم يكن إنشاء بنك انجلترا فى العقد الأخير من القرن السابع عشر وليد الصدفة وهو حجر الأساس فى هذه الثقة الشامخة وليس مركز لندن المالى مجرد صدفة عارضة وقد انفردت بكونها سوق الذهب فى العالم أجمع، حيث يسهل الحصول على الذهب فى أسواقها نظير صك يكتبه الإنسان على نفسه معترفا فيه بهـذا الدين(١) . لقد أصبحت لندن وستظل قلب التجارة العالمية لأن التجارة فيها تجرى فى أمن يقتضى نفقات تقل كثيراً عن غيرها من الأماكن(٢) .

وهكذا نظمت التجارة على نطاق واسع فى بداية القرن الثامن عشر حين أصبحت بريطانيا دولة بحـــرية . « وفضيحة البحار الجنوبية » التى حدثت فى عام ١٧٢٠ دليل على ازدهار الظروف السائدة وقتئذ وتظهر أن كان فى البلاد تجمع عظيم من فائض الثروة اى رأس المال ، كما تظهر من ناحية أخرى بدء تنظيم استغلال رؤوس الأموال فيها على نطاق واسع — تم كل هذا بفضل توطيد الأمن والسلام فى البـلاد ، فقد تـكونت فى عام ١٧١١ شركة البحار الجنوبية قبل انتهاء الحرب الدائرة حينئذ ويرجع تـكوينها إلى أن الحـكومة رغبت فى تخفيض سعر الفائدة التى كانت تدفعها عن الديون التى تقترضها ، ثم بذلت فى عام ١٧١٩ محاولة أخرى لإجراء تخفيض جديد فى سعر الفائدة مما لفت أنظار الشعب إلى طرائق أخرى لاستغلال أموالهم . وتمخض الأمر بعدئذ عن سراب خادع

(١) هذا بعد استيفاء الشروط الأخرى طبعا .

(٢) الذهب عند بعض الناس يزيد فى قيمته على أوراق النقد لأن قيمته المصطنعة يعترف بها على نطاق أوسع من قيمته الذاتية وليس للذهب ولا لأوراق النقد طاقة فى حد ذاتها ولـكنهما مجرد رموز لطاقة معينة .

أو فقاعة خاوية لا لأن الثقة الكافية لم تتوافر للشركة ، بل بالعكس لم تهبط قيمة السهم الواحد من أسهمها عن ١٧٥ جنيهاً وفى حين أن قيمته الإسمية كانت ١٠٠ جنيه ولكن عنصر الثقة والاطمئنان وإن اعتمد على سيادة البحار إلا أنه تجاوز حده دون مبرر وتناول أشياء هى أبعد ماتكون عن السيطرة البحرية(١) .

ولم يخل القرن الثامن عشر من تحدى الدول الأخرى لسيادة بريطانيا على البحار ولتفوقها التجارى ، وكانت بريطانيا تخرج دائماً من كل صراع وهى أكثر اتساعاً فى مستعمراتها وأعظم رواجاً وازدهاراً فى تجارتها ولم تلحقها خسارة خطيرة إلا فى حرب الاستقلال الأمريكية .

فقد اشتبكت بريطانيا فى حروب مباشرة أو غير مباشرة مع فرنسا وأسبانيا فى فترتين الأولى من عام ١٧٣٩ إلى ١٧٤٨ والثانية من عام ١٧٥٦ إلى ١٧٦٣ وذلك بسبب اتساع التجارة البريطانية وفى كل من هذه الحروب كانت هاتان الدولتان مشتبكتين فى منازعات القارة الأوربية . وفى كل مرة حالفت بريطانيا أعداءهما وزودتهم بالأموال التى تجمعت لديها من أرباحها التجارية فاستنفدت الحرب البرية موارد الأعداء فى الوقت الذى تفتحت فيه أبواب جديدة للتجارة البريطانية وكلما ازدهرت التجارة كان لبريطانيا منها أكبر نصيب .

حقاً نمت التجارة الفرنسية فى الهند بإشراف شركة الهند الشرقية الفرنسية وكذلك فى كندا وفى جزائر الهند الغربية ولكنها تركت دون أسطول يحميها

---

(١) تتخلص قصة هذه الفضيحة فيما يلى : Soult Sea Bubble فضيحة البحار الجنوبية هى مضاربة مالية أدت بالبلاد إلى خسارة فادحة فقد أسس بعض الماليين شركة منحت امتيازات جمة فى التجارة فى البحار الجنوبية نظير شروط خاصة لاقراض الحكومة قرضا بشروط أكثر سخاء مما ألفه الجمهور . وفى عام ١٧٢٠ اقترحت الشركة أن يحول إليها الدين الوطنى العام الذى يبلغ مقداره ٣١ مليون جنيه وقتئذ بفائدة قدرها ٥ ٪ ووعدت الشركة أن تدفع لمساهميها ربحا قد يصل إلى ٦٠ ٪ من قيمة أسهمهم ثم اتضح استحالة الوفاء بهذه الوعود . فلم يلبث أن حل الإفلاس المؤكد بها بعد بضعة شهور . وحل بحلوله القضاء على آلاف من صغار الممولين وقدم المديرون للمحاكمة بتهمة النصب والتزوير . وتناول التحقيق والاتهام وزير المالية وآخرين من ذوى المراكز العالية — المترجم .

وسرعان ما سقطت فى أيدى البريطانيين أو وقعت فى نطاق نفوذهم فتحولت تجارتها إلى أيديهم .

لقد كانت الممتلكات البريطانية خارج الجزائر البريطانية حتى ذلك الوقت مجرد محطات تجارية أو قواعد بحرية للأسطول . وكان المثل الأعلى عند البريطانيين فى تكوين إمبراطوريتهم أقرب إلى مثل الفينيقيين منهم إلى الرومان . هدفهم الأول التجارة لا الفتح أو الغزو . غير أن مستعمرات حقيقية نشأت تدريجياً حيث هاجرت إليها جماعات من أصل بريطانى واستقرت فيها ولم تفكر فى العودة ثانياً إلى موطنها الأول فأسست على الساحل الشرقى من أمريكا الشمالية ولايات انجلترا الجديدة (نيو انجلند) حيث تواجه البلاد المحيط الأطلنطى مباشرة وحيث المناخ هنا أكثر اعتدالا من الأجزاء الأخرى للساحل الشرقى الأمريكى (نوفاسكوشيا) واستقروا بها وامتد الاستعمار البريطانى غرباً وجنوباً من قاعدته الأولى فى مستعمرة نيويورك ومن المستعمرة القديمة فى فرجينيا إلى المستعمرات الحديثة فى كارولينا وجورجيا — وبلغ تعداد سكان هذه المستعمرات نحو مليون نسمة وبدت حاجتهم ماسة إلى التوسع فكان طبيعياً أن يشتبكوا فى صراع مع الفرنسيين الذين دخلوا القارة الأمريكية عن طريق النهرين العظيمين وهما السنت لورنس والمسيسبى ، ولو أن عدد الفرنسيين كان ضئيلا لا يصل إلى ١/٢٠ من عدد البريطانيين إلا أنهم كانوا يعملون على فرض سيطرتهم على جميع المساحات الشاسعة التى تصل إليها هذه الطرق المائية العظيمة ، غير أن الأسطول البريطانى قطع الصلة بينهم وبين فرنسا فسقطت كندا وأضحت من نصيب الاستعمار البريطانى .

أما فى الهند فقد سارت المنافسة التجارية جنباً إلى جنب مع المنافسة فى الغزو والفتح ، غير أن أطماع الفرنسيين كان نصيبها الفشل أيضاً لأنها لم تلق تأييداً من أسطول بحرى — ففى نهاية حرب السبع سنوات سمح لفرنسا بأن تحتفظ ببعض المحطات التجارية فقط بينما أضيفت كل ممتلكاتها فى الهند إلى بريطانيا — ثم ضعفت أهمية هذه المحطات التجارية لأن نسبة كبرى من التجارة ذهبت بطبيعة الحال إلى

الموانىء البريطانية المجاورة . وهكذا نرى فى عام ١٧٦٣ أن بريطانيا أضحت ذات ممتلكات واسعة نمت أما سلماً بشكل مستعمرات أى سكنها مهاجرون بريطانيون وأما استولت عليها بريطانيا حربا ، وهكذا تحولت ممتلكات بريطانيا العظمى إلى الأمبراطورية البريطانية فعلا وظلت التجارة البريطانية تتابع نموها وازدهارها .

ولم يخل الحـــال من أخطاء ارتكبتها بريطانيا فى إدارة دفة الحكم فى المستعمرات ، كما حدثت أخطاء حينما لاقت التجارة رواجا فجائيا أيام فضيحة البحار الجنوبية فإن هذه المستعمرات بحكم ظروفها تحتاج إلى استيراد الكثير من البضائع البريطانية أكثر مما تستطيع تصديره إلى بريطانيا فكان ميزانها التجارى دائما فى غير مصلحتها وبعبارة أخرى كانت مواردها تتسرب منها — وكان على أهاليها أن يعوضوا هذا العجز بوسائل أخرى منها التجارة غير المشروعة مع المستعمرات الأسبانية فى الجنوب وأمدادها بالكثير من المنتجات التى تشعر بحاجتها الماسة إليها ولا تستطيع زراعتها .

وبدأ هـذا التوتر بتدخل السلطات فى الأمر عند ما حرمت التجارة غير المشروعة ونفذ هذا التحريم بالاستعانة بالأسطول الحربى ، كما اشتد عندما طلبت بريطانيا إلى هذه المستعمرات المساهمة فى الضرائب التى لم يكن يسهل عليها دفعها للخزانة البريطانية — وعلى الرغم من أن حادثة جباية الضرائب أصبحت بتطور الحوادث هى محك الاختبار غير أن وقف التجارة هو المسئول الأول عن بدء هذه المتاعب .

وقد أدركت فرنسا قبل ذلك الأوان أن مشروعات توسعها الاستعمارية كانت تفشل دائما بسبب تدخل بريطانيا بقوتها البحرية فبدت لها الفرصة سانحة لمنازلة بريطانيا مرة أخرى وهى فى موقف تستنزف فيه مواردها فى حرب برية فى القارة الأمريكية . وفضلا عن ذلك أدركت فرنسا أن قوة بريطانيا هى قوة بحرية فى جوهرها وعزفت هى عن الانغماس فى الحروب التى كانت بريطانيا تعمل على إشعال نيرانها فى القارة الأوربية ولهذا أخذت انجلترا على غرة وكان موقفها سيئا — فإن بريطانيا فى أيام السلم الماضية كانت تعتبر كل بنس لا يصرف على أغراض التجارة

مالا ضائما، ولهذا كان الأسطول البريطانى عندما أعلنت الحرب أقل من الأساطيل الفرنسية والأسبانيـة مجتمعة إلا أن بريطانيا خرجت من الحرب ولم تفقد إلا مستعمراتها الأمريكية ، لأن للتاريخ الماضى حكمه والتاريخ كما نعلم تسيره الجغرافيا، فقـد استقرت فى الأسطول البريطانى تقاليد بحرية عميقة الجذور وليدة سلسلة من الانتصارات ، بينما سادت الأسطول الآخر روح من عدم الألفة مع البحر ، حقا ارتـكب الطرفان أخطاء ، غير أن الحليفتين ارتـكبتا أخطاء أكثر جمقاً مما كان لها أبعد الأثر فى سير الحرب حتى أنه عند ما عقد الصلح فى عام ١٧٨٣ حصلت بريطانيا على شروط ملائمة لها جدا بينما ظلت فرنسا تعانى الاجهاد المالى .

ولم يقتصر الأمر أن أصبح للأسطول البريطانى تقاليد بحرية عريقة فى ماضيه بل أصبحت له تقاليد التفوق فى استخدام قدرته فى البحر وتوفير طاقته، فقد خبر البحارة البريطانيون فنون القتال فى البحر أكثر من أعدائهم ، وفى الأيام الأولى حين كان القتال يجرى وجها لوجه وذراعا لذراع وكانت هذه هى الوسيلة الوحيدة لمنازلة الاعداء كذلك كان الحال فى الحرب البحرية كبير الشبه بالحرب البرية — فـكانت تتجه الأساطيل المتعادية راسا إلى قلب سفن الأعداء وتسير السفن متقاربة جنبا إلى جنب وهى تحمل على ظهورها عددا كبيرا من المقاتلين فتهيئ لهم فرصة الهجوم على الأعداء الذين قد تشيع فى صفوفهم الفوضى والاضطراب ، مثلهم فى ذلك كمثل الفيالق الإغريقية المتراصة متتبعين أساليبها حين كانت تشق طريقها إلى قلب جيوش أعدائها . وأهم الصفات الواجب توافرها فيمن يقاتلون قتالا بحريا هى ألفتهم للبحار وإلمامهم بأحوالها وقدرتهم على تسيير دفة السفن فيها، فإذا نشب قتال بحرى بين رجال بحر ورجال بر كان التفوق حتما من نصيب رجال البحر لأنهم يعرفون كيف يديرون دفة سفنهم فيه ، وقد رأينا كيف فقد الأسبان ، وهم لم يكونوا بحق رجال بحر ، السيطرة البحرية وانتزعها منهم الهولنديون ثم الانجليز .

وفى أبان الستين سنة التى تلت عم ١٦٥٣ ظهر مبدأ جديد فى القتال البحرى يوائم الظروف السائدة حينئذ وبمقتضاه أصبحت الـكفة الراجحة من نصيب أولئك الذين يستخدمون قواتهم المقاتلة استخداما يتجلى فيه الاقتصاد التام .

فالسفينة بطبيعة تكوينها تزيد كثيرا فى طولها عن عرضها — وفى الأيام السابقة كانت السفن تسلح بعدد وفير من المدافع الصغيرة ومن الميسور توجيه أكبر عدد من المدافع فى آن واحد من أحد جانبى السفينة لتصب نيرانها على هدفها أكثر مما يمكن توجيهه من مدافع المقدمة أو المؤخرة ، ولهذا كان هجوم السفن أشد تأثيرا لو أنها تمكنت من إطلاق نيرانها الجانبية ، ولكى يضمن أسطول أحسن النتائج فى حربه ، يجب أن تخلو صفوف الأعداء من وجود سفينة صديقة له فيما بينها ، ومن ثم تحتاج السفن المقاتلة أبان اشتراكها فى المعركة إلى الحركة فى خط يتقاطع تقاطعا عموديا مع اتجاه خط القتال — ويجب أن يكون ذلك الخط قويا فى جميع مواضعه بل ومتساوى القوة فى جميع وحداته ولهذا وجب أن يتكون من سفن ذات قوة معينة . وهى عادة السفن الحربية الضخمة من المدرعات Line of Battle ships والتى تحمل أكبر قوة من المدافع وهكذا اختلف القتال عما كان مألوفا من قبل ولم يعد مجرد الاندفاع فى خطوط الأعداء . واقتضى الأمر لتطبيق الخطة الجديدة دراسة أحوال الرياح والعناية بها عن ذى قبل . فإذا كان سير الأسطول نحو سفن الأعداء يتفق واتجاه الرياح توفرت له ميزة البادأة وأصبح فى يده حرية اختيار الاشتباك فى المعركة أو عدم الاشتباك فيها . فإن اختار الهجوم فهو قمين بأن تصادفه بعض المعاكسات منها أنه مضطر إلى أن يبحر راسا نحو سفن الأعداء فيقل فى هذه الحالة عدد المدافع التى يمكن إطلاقها عليهم وقد لا تجد مدفعه كلها فرصة العمل ألا تدريجيا وقد تصاب السفن الأولى التى تسير فى المقدمة بأضرار جسيمة . وإن دارت عليه الدائرة ولحقته الهزيمة ضاقت معه فرص الهروب وأما إن تجنب اتجاه الريح لم يجد الفرصة سانحة للهجوم — وإن زادت مع هذا فرصة الهروب والنجاة لو خانه الحظ — بل وقد يستطيع أن يوقع بالعدو خسارة فادحة لو اختار العدو مهاجمته وهو فى هذا الوضع .

ومما له مغزى هام أنه حتى فى حرب الاستقلال الأمريكية حين كانت فرنسا تهاجم الأساطيل البريطانية كانت الأساطيل البريطانية تختار عادة فرصة اتجاه الرياح نحو العدو — بينما كان الأسطول الفرنسى يختار الوضع المعاكس لهذا دائما

وليس هذا الاختلاف الذى اتصف به الفريقان فى أسلوب العمل وليد الصدفة فهو راجع فى واقع الأمر إلى أن رجال البحر البريطانيين بحكم أنهم أكثر خبرة وتجربة كانوا أكثر دراية بالحروب البحرية وأسسها ، فاختاروا مواضع عسكرية هامة لأنها عظيمة الفائدة فى كلا الدفاع والهجوم وهذا طبعاً وليد البيئة المحلية — وقد سبق لنا أن رأينا أن بلاداً كمصر والكلدان حمتها الطبيعة فأحاطتها بالصحارى أو المستنقعات كما قامت مدن كروما وباريس فى مواقع يسرت لها رد العدوان دون كبير مشقة . ولكن البحر تتساوى مواقعه فلا يمتاز فى الدفاع موقع على موقع بل وإن اتخذنا فيه التعبير العسكرى الصحيح لقلنا إنه ليس فيه مركز استراتيجى وقد تعلم البريطانيون هذا الدرس نتيجة لتجاربهم العظيمة — كما تعلموا من قبل سواء عن قصد أم عن غير قصد — ونتيجة لإلمامهم بهذه الدروس — تعلموا أن الهجوم هو خير وسيلة للدفاع وأن الهجوم يجب أن يوجه لا إلى شواطىء الأعداء بل إلى أساطيلهم حيثما وجدت، لأنها هى الوسيلة الوحيدة التى يمكن أن تغزى بها بريطانيا . كما تعلموا أن النفقات العظيمة فى بادئ الأمر توفر عليهم الكثير فيما بعد ، بينما مال الفرنسيون إلى اتباع سياسة أكثر حذراً فاحتفظوا بأساطيلهم مخبأة فى موانئها إذا لم يعوزهم الأمر فعلا إلى استخدامها ، بل ولا يستخدمونها فى الهجوم إلا إذا وثقوا من الانتصار — وهكذا حاولت بريطانيا جهدها فى أن تزيد فى القوة الكامنة بالصرف عليها ورعايتها واستخدامها بينما مالت فرنسا إلى اختزان ما فى حوزتها . ووجدت بريطانيا أن الخطة الأولى تعود عليها بأحسن الثمرات فى التجارة والحرب معاً .

كما هيأ تفوق البريطانيين فى البحر وخبرتهم العملية فرصة أكبر لاكتشاف الأساليب التى تجعل الهجوم يأتى بأفضل النتائج وكيف أن قوة صغيرة قد تهزم قوة كبيرة بالإفادة من الرياح ومن قوة تحرك السفن فى سيرها .

لقد وضعت حرب الاستقلال الأمريكية أوزارها الآن موارد فرنسا — أى مواردها المختزنة — قد أصابها الإفلاس ولم يكن هذا طارئاً عليها . وقد رأيناها تستنزف مواردها باستمرار مدى قرن من الزمان دون أن تستطيع تعويضها بالقدر

المناسب — فإن الحكومة الفرنسية المستقرة فى باريس احتفظت بمظاهر الفخفخة مغتصبة المواد الضرورية من الكادحين المنتشرين فى الأراضى الزراعية مما جعلهم يزدادون فقراً على فقرهم وعجزاً عن استخلاص خيرات أرضهم ، وقاست معهم الطبقات الفقيرة فى المدن لأنها لم تجد بالطبع حاجتها من الطعام ومن ثم أدت هذه الحالة إلى الثورة التى أطاحت بالملكية . وعلى الرغم من أن الجمعية التأسيسية تحولت إلى الجمعية الوطنية وفقدت ظاهرياً السلطات التى تجمعت لها إلا أن سلطة باريس المركزية وهى أساس سلطة الملك من قبل قد أحدثت فى الحكومة تطوراً جديداً فتجمع لباريس نفوذ مطلق فى طول البلاد وعرضها ، ولم تتهيأ فرصة النجاح لأية ثورة نشبت سواء تلك التى نشبت فى وادى الرون أم فى بوردو أم فى بريتانى وسواء قامت ضد مبادىء الجمهورية ذاتها أم ضد الحكومة القائمة على السلطة فى ذلك الوقت — فكل ثورة قامت عُزلت وحيل بينها وبين الاتصال بباقى مراكز الثورات وقضت عليها حكومة باريس قضاء مبرماً .

ثم تحكمت الجبهة البرية الشرقية فى سياسة فرنسا الخارجية مرة أخرى إذ لم تتجه رغبة الحكومة الجديدة فى بادىء الأمر إلى امتلاك الأراضى بقدر ما اتجهت إلى نشر الآراء الجديدة عن الحرية والمساواة والإخاء . ولكن سرعان ما ضاع الهدف فى سبيل الوسيلة ، فان التوسع فى فتح الأراضى كان فى أول الأمر وسيلة لتحقيق نشر الأفكار الجديدة ثم أضحى غاية فى حد ذاته . فقد قررت الدوائر الحكومية الفرنسية تطبيق النظام الفرنسى على جميع البلاد التى تحتلها الجيوش الفرنسية وسرعان ماضاعت فكرة نشر النظام الفرنسى فى محاولة احتلال البلاد المختلفة — وفى هذه المحاولة عادت الظروف القديمة سيرتها الأولى لأن الأقاليم التى يسهل غزوها واحتلالها هى تلك التى تقع فيما وراء جبهة فرنسا الشرقية .

وقد كادت فرنسا تخضع القارة جميعاً لسيطرتها بفضل الحماس الجارف الذى أظهره الشعب الفرنسى ثم بفضل القيادة البارعة لأعظم قائد أنجبه التاريخ الحديث ولولا وجود قوة بحرية عظيمة لتحكمت فرنسا بشكل تأكيد فى مصير

العالم أجمع لعدة سنين ، ولكن قوة بريطانيا البحرية وقفت لها بالمرصاد فكثيراً ما واجهتها وكبحت جماحها . فقد حدت بريطانيا من التوسع الفرنسى باستخدام أسطولها وباتباعها طريقتها القديمة فى تقديم الإعانات المالية لحلفائها وهى التى تيسر لها جمع ثروتها بفضل تجارتها ، ولما آلت الأمور إلى نابليون اتضح له جلياً أن بريطانيا وتجارتها الزاهرة هى عدوه الألد .

ويمكننا تمييز أربع مراحل محددة فيما ولى ذلك من صراع بين الأمتين وتبين كل مرحلة أهمية التجارة البريطانية فيما وراء البحار وهى بالتالى إحدى نتائج قوتها فى المحيطات .

١ — المرحلة الأولى : ظن نابليون فى أول الأمر أن الهند هى سر تفوق بريطانيا التجارى ومصدر ثروتها وعماد مقاومتها ، ولهذا استلهم عبقريته الخارقة فى السياسة والحرب ، وقام فى الفترة ما بين ١٧٩٥ إلى ١٩٩٧ بإخضاع عدد من الدويلات الصغيرة المتناثرة فى إيطاليا وعلى شواطئ البحر الإدرياتى ، كلا على حدة ، ومؤسسا بها جمهوريات صغيرة على نمط الجمهورية الفرنسية ثم قام بحملته على مصر بما تبقى له من السفن الحربية الفرنسية ، وقد تم له إخضاع تلك البلاد العريقة فى تاريخها وأخذ فى تنظيمها بل وحاول أن يفتتح بلاد الكلدان التى تماثلها فى عراقة حضارتها ، وقد داعبه الأمل فى أن يتخذ من هذه الفتوحات قواعد يقفز منها إلى الهند . أما بريطانيا فى هذا الوقت فإنها — كما يبدو بل وفى الواقع أيضاً — فقدت كثيراً من جراء الفتوحات الفرنسية فى شواطئ أوربا الجنوبية بحرمانها من قواعد لأساطيلها ، إلا أنه على الرغم من ذلك أرسلت أسطولا بقيادة نلسون وقد أخذ هذا يبحث عن صيده فى شرق البحر الأبيض بأجمعه ، واستغرق بحثه ستة أسابيع متوالية وهو يجهل جهلا تاما مشروعات نابليون وحركاته حتى رأى الأسطول الفرنسى راسيا فى خليج أبو قير ، وبعد قتال لم يستغرق أكثر من ساعة أو ساعتين انقطع نابليون تماما عن أوربا حتى أنه لم يتسلم رسالة واحدة فى الفترة التى انقضت من ٩ سبتمبر سنة ١٧٩٨ إلى ٥ فبراير سنة ١٧٩٩ وذهبت مشروعاته فى غزو الشرق هباء إذ لم يستطع أن يترك عكا خلفه دون إخضاع

وهى التى وقفت تقاوم هجماته فى عناد ولا يساعدها سوى سفينتان مدرعتان حتى أن نابليون هرب شخصيا فى السر إلى فرنسا وترك جيشه بعيدا عن مسرح الحركات الحربية فى أوربا وبقى هذا الجيش حتى سمح له بمغادرة البلاد قبيل الصلح المؤقت الذى عقد فى عام ١٨٠١ .

٢ — المرحلة الثانية : حاول نابليون فى المرحلة الثانية أن يوجه ضرباته إلى التجارة البريطانية فى شمال أوربا وكانت التجارة بطبيعة الحال موقوفة بريطانيا وهولندا وأراضى الراين ، وبقيت الأنهار الواقعة إلى الشرق من الراين كالويزر والإلب وبحر البلطيق مفتوحة أمام التجارة البريطانية ، لأن الدول التى تستخدم هذه الطرق المائية عزفت عن فرنسا وبقيت على الحياد . فكانت سفنها آمنة على نفسها فى حيادها وفضل التجار لهذا السبب نقل بضائعهم على ظهور هذه السفن .

ولما حاولت بريطانيا منع فرنسا من اختزان الموارد وجمعها طالبت إلى الدول المحايدة الامتناع عن مساعدة فرنسا بالتوقف عن نقل التجارة الفرنسية على سفن هذه الدول ، وأن تمتنع عن تزويد فرنسا بالمواد التى تمكنها من إنشاء أساطيل لها كالأخشاب وأقمشة قلوع المراكب التى كانت تستوردها فرنسا عادة من بلاد البلطيق فأثار هذا الطلب امتعاض الدول المحايدة وسخطها . فلما رجع نابليون من مصر وهزم بخططه الحربية البارعة جيوش دول وسط أوربا التى تجمعت لمحاربته عمل على استثارة دول شمال أوربا ضد بريطانيا كبروسيا والدنمرك والروسيا والسويد حتى أفلح فى ديسمبر من عام ١٨٠٠ أن تتحد هذه جميعا فى حياد مسلح وأعلنت استعدادها لمقاومة ادعاءات بريطانيا بالقوة إذا اقتضى الأمر ، وهكذا تركت بريطانيا من بين دول أوربا وحيدة فى مواجهة فرنسا ، غير أن الحياد المسلح لم يدم طويلا إذ انفرط عقده على أثر تدمير الأسطول الدنمركى فى كوبنهاجن وعلى أثر مقتل القيصر الروسى بسبب القيود المفروضة على التجارة الروسية ، ورأت كل دولة منها إنها تستطيع أن تخدم مصالحها فى هذه الظروف القائمة ، على الرغم من القيود المفروضة عليها وإنها تستطيع أن تجنى أرباحا لها لو أنها ضالمت المطالب البريطانية واستمرت تزاول نشاطها التجارى . فلم يكد ينتهى عام ١٨٠١ حتى عادت إلى بريطانيا صداقتها مع كل دول أوربا عدا فرنسا .

ثم دفع نابليون بجيوشه إلى جنوب إيطاليا فى محاولة أخرى ليصل إلى مصر. ولكن جهوده ذهبت ادراج الرياح ، لأن بريطانيا مازالت قابضة على ناصية السيادة البحرية وتاق نابليون إلى عقد الصلح فأمضيت الشروط الأولى فى اكتوبر سنة ١٨٠١ ووقعت معاهدة أمين فى مارس سنة ١٨٠٢ غير أن نابليون ظل مقتنعاً بأن إنجلترا وحدها لاتستطيع مقاومة فرنسا ووضحت نيته فى تجاهل شروط المعاهدة مما أدى إلى تجدد الحرب فى عام ١٨٠٣ .

٣ — المرحلة الثالثة : ولما فشلت هجمات نابليون على مصر وفشلت أيضاً محاولاته لخنق التجارة البريطانية فى الشمال صمم على أن يوجه ضرباته إلى قلب بريطانيا واعتقد أن هذا الهجوم هو الضربة القاضية فعلا إن أمكن القيام به — فأخذ يقوم بإعداد المعدات اللازمة لغزوها وظل يتبع الأساليب القديمة فى الهجوم فدفع بجيوشه إلى جنوب إيطاليا وكان هذا عبثاً لاطائل تحته لأن بريطانيا مازالت مسيطرة على البحار — واحتل نابليون بجيوشه مقاطعة هانوفر وأغلق مصبات أنهار الإمز والويزر والإلب حتى ميناء كوكسهافن واحتلها بجيوشه ليحكم إغلاق الإلب فى وجه التجارة البريطانية ، وقد قام بهذه الأعمال دون أن يستشير الدول صاحبة الشأن أو تسمح لجيوشه باختراق أراضيها واحتلالها ، ونابليون مدرك فى هذه الآونة أن بريطانيا هى عدوه الأوحد وليس للدول الباقية وزن ما وكانت قوة بريطانيا تكمن فى حقيقة واضحة وهى أن نابليون فى محاولته الوصول إليها اضطر إلى أن يخلق من شعوب الدول الأخرى أعداء له .

وكان عليه أن يرتب الخطط لينقل جيشاً عظيما قوامه مائة ألف رجل ليغزو بريطانيا ومن الطبيعى أن تعجز وسائل النقل العادية عن القيام بهذه المهمة . فلم تدخل فى نطاق تفكيره لأنها غير كافية فى جميع أنحاء فرنسا — وقد أصاب تجارة فرنسا الكساد وتعذر عليه بناء مثل هذه الأساطيل اللازمة حيث توقف ورود الخشب وأن تيسر له بناؤها فليس فى موانىء فرنسا متسع لمأواها وإن أمكن بناؤها واستعمالها فإن انزال الجيوش منها على الشواطىء البريطانية لا بد وأن يكون بطيئاً — وهكذا تحتم على هذه الحملة المدبرة تدبيراً تعسفياً أن تكون

فى عدد هائل من القوارب الصغيرة التى يمكن انزالها إلى البحر فى سرعة كبيرة وتستطيع معها القوات الغازية النزول منها إلى البر فى الحال بأعداد وفيرة للتغلب على أى جيش يقف فى مواجهتها . قد تستطيع هذه القوات التحرك مستترة بالضباب وفى هدوء البحر حين تعجز السفن الحربية عن الحركة — وقد اهتم نابليون بتأكيد هذه الحقيقة ، وظن أن النجاح فى هذه الحالة أكثر احتمالا لو أن الفرنسيين دان لهم زمام الأمر فى البواغيز ولو لبضع ساعات — وقد أدرك نابليون فى دخيلة نفسه ضرورة وجود أسطول قوى يزود عن القوات الغازية ويعدها بتأييده وحمايته .

غير أن هذه المحاولة للقضاء على بريطانيا لم تتمخض عن شىء ما ، لأن هذه الوحدات المختلفة من الأسطول الفرنسى الجديد والتى أمكن بناؤها بجهد بالغ فى موانىء فرنسا المتعددة فى ظل حماية قوية لم تتح لها الفرصة قط لأن تلم شملها وتتجمع فتكون أسطولا مركزاً تكفى قوته لحماية الأسراب العديدة من القوارب الخفيفة التى جمعت فى بولونيا بتجشم كثير من المشاق . ذلك لأن بريطانيا فى هذه الآونة أحرزت تقدماً جديداً فى فنون الحرب البحرية ، واكتشفت أن خير دفاع عن شواطئها وتجارتها بل أن أقل أنواع الدفاع كلفة هو الحيلولة دون خروج الأساطيل الفرنسية من موانئها حيث خبأها الفرنسيون على طريقتهم فى اختزانها ، وإن يمنع الفرنسيون من أن يألفوا البحر ويعتادوه ، وفى هذه الأثناء قلما ترك رجال البحر البريطانيون سفنهم لمدة سنوات فصلب عودهم وخشنت نفوسهم وتدربوا على إدارة سفنهم — حتى أن نلسن نفسه لم يترك السفينة التى عقد عليها لواؤه لمدة عامين كاملين فلما جد الجد وتطلب الأمر خبرتهم فى تسيير السفن إبان المعارك البحرية ظهر تفوقهم على أعدائهم فى وضوح .

وهكذا حوصرت الموانىء الفرنسية منذ بداية الحرب فى عام ١٨٠٣ — وقد أفلتت بعض القطع البحرية ولكن مثل هذه الفلتات لا يمكن إحكام زمامها فلم تتجمع منها قط مجموعات فى أعداد كافية لكى تسود المضايق الإنجليزية ولم تتوافر لها سرية الحركات فتتجنب مراقبة السفن البريطانية التى سرعان ما كانت تتبعها

وتطاردها — وكان مفتاح الموقف كله فى ميناء برست حيث تجمع فيه الجزء الرئيسى من أسطول نابليون ووقف له الأميرال كورنواليس بالمرصاد ، ولم يهيىء له لحظة واحدة للإفلات من مكمنه . ومن وجهة النظر الحربية تتوقف مزايا مثل هذا الحصار المضروب على الموانىء الفرنسية على اختلاف بيّن بين البحر والبر — فالناس يعيشون فى كل مكان تقريباً على اليابس فيما عدا الصحارى التى يتعذر اختراقها ويستحيل على جيش ما أن يتحرك لأية مسافة دون أن تعلم حركاته وتعرف أمكنة وجوده بينما يسهل على الأسطول أن يبحر لمسافات بعيدة وعلى الأخص فى المحيطات دون أن تنكشف حركاته وأهدافه — ولنا فى هذا مثل بارز حينما أبحر نابليون إلى مصر عبر البحر المتوسط . وقد وقع الاختيار فى بادىء الأمر على جزر الهند الغربية بسبب وقوعها على بعد سحيق فى المحيط لتكون مركزاً لتجمع وحدات الأسطول الفرنسى المتفرقة — غير أن هذه الوحدات ظلت مختبئة فى موانئها مما اضطر معه نابليون إلى أن يحاول جمعها فى خليج بسكاى ، ولو تجمعت هناك لسهل على الأسطول البريطانى معرفة أخبار تجمعها واتخاذ الأهبة لملاقاتها — حقاً أفلت القائد الفرنسى ڤيلينيڤ من طولون بجزء من وحداته — ووصل إلى جزائر الهند الغربية ولم يلحق به أى قسم آخر بل على العكس من ذلك تتبعه نلسن وطارده .

وأدرك نلسن تماماً ماذا تتركه هذه المطاردة من أثر حتى أنه تنبأ بعودة ڤيلينيڤ فى الحال بل وتنبأ بالطريق الذى سيسلكه فى عودته . فاختار نلسن طريقاً آخر مستخدماً لأقصى حد الرياح الغربية فوصل إلى المياه الأوروبية وبقى فيها منتظراً عودة الإسطول الفرنسى — وأخيراً بذل فيلينيف محاولة يائسة لينضم إلى الأساطيل الراسية فى برست غير أن شجاعته خانته ففضل الإبحار جنوبياً إلى قادس وحينئذ فقط اقتنع نابليون بعقم فكرة غزو بريطانيا ونقل جيوشه المعسكرة فى بولونى بعد أن طال عليها أمد الانتظار .

والواقع أن معركة الطرف الأغر لم تجر وقائعها إلا بعد أن زال عملياً خطر الغزو بثلاثة شهور — وجرى القتال فيها بسبب فشل ڤيلينيڤ السابق إذ صدرت

له الأوامر بعزله وعلم هو بأمر هذا العزل قبل أن يصل إليه خلفه الذى كان من واجبه أن يعود بالأسطول إلى البحر المتوسط — غير أن نلسن كان فى انتظاره هناك فدمر جزءاً كبيراً من الأسطول الفرنسى وحال بذلك دون تجدد تهديد الغزو مرة أخرى .

وهكذا استخدمت بريطانيا البحر كوسيلة للدفاع ، وأحسن استخدامه أولئك الذين عرفوه حق المعرفة ضد أناس من أمثال نابليون ممن عجزوا أن يدركوا المميزات الخاصة بالقتال البحرى وهكذا أمنت بريطانيا بلادها ضد الغزو والعدوان لمدى قرن من الزمان .

٤ — المرحلة الرابعة : فلما عجز نابليون عن نقل جيشه عبر القنال الإنجليزى لم يجد بداً من محاولة السيطرة على المحيط عن طريق البر . ولأن يحقق هذا الهدف كان عليه أن يجمع كل أجزاء الدنيا الهامة فى محالفة ضد بريطانيا فنصب من نفسه دكتاتوراً تخضع أوروبا لإرادته . بل إنه فى الوقت الذى جرت فيه موقعة الطرف الأغر كانت جيوشه قد وصلت لى قلب أوروبا وبعد بضعة أيام خرت النمسا خاضعة تحت قدميه ، ثم استسلمت له بروسيا فى نهاية عام ١٨٠٦ .

وهكذا تحول الصراع إلى صراع موارد وطاقة مدخرة ، فحاول نابليون أن يعزل بريطانيا ويحرمها كل كسب لها فى أسواق القارة بل صادر كل سفينة تأتى من بريطانيا ولو كانت غير بريطانية وحاولت بريطانيا بدورها أن تعزل فرنسا وفتوحاتها عن كل نقل بحرى ما لم تكن البضائع مصدرة من ميناء بريطانى ودفعت عنها الإتاوة لخزانتها ، وفى عام ١٨٠٧ كان الحصار البحرى قد أصاب نجاحاً باهراً لأن نابليون كان مشغولا فى محاولته أن يجعل روسيا تساير سياسة الدول الأوربية الأخرى ، ولم يستطع الاستغناء عن جيوش فرنسية لتنفيذ أوامره لمنع التجارة — كما انسحبت الأساطيل الدنمركية والبرتغالية من جانبه تحت إغراء انجلترا قبل أن تفترسها الجيوش الفرنسية نهائياً .

فلما سيطر نابليون على كل أوربا باستثناء السويد وتركيا بدا موقف بريطانيا داعياً إلى اليأس غير أنها أعلنت أن كل تجارة خارجية يجب أن تمر بالموانئ

البريطانية وأن تدفع لها الرسوم المقررة ونفذت هذا الوعيد بقوة أسطولها ، وهكذا ازدادت بريطانيا قوة بحصولها على نسبة مئوية عن جميع تجـارة أوربا الخارجية وأضعف ذلك نابليون بطريقتين — الأولى أن أهالى شمال أوروبا كان من صالحهم الاتجـار مع بريطانيا على الرغم من القيود البريطانية المفروضة على تجارتهم — فجرى التعامل بين الطرفين كما استثار نابليون سخطهم حين حاول استخدام القوة فى إيقاف هـذه التجارة غير المشروعة (فى نظره) . والثانية أنه شعر بضرورة الحيلولة دون وصول التجارة البريطانية إلى شمال أوروبا فاضطر إلى أن يبعثر جيوشه على طول الشواطئ الأوربية فى نطاق عرضه خمسون ميلا مما حال بينه وبين إرسال قوات كافية يصد بها الهجوم الانجليزى فى شبه جزيرة إيبريا .

وهكذا ذرت الأزمة قرنها فلو أنه سحب قواته من شمال أوروبا ليقاوم بها البريطانيين فى أسبانيا لأفادت بريطانيا من ذلك وانتعشت مواردها بالاتجار مع دول الشمال ولو أنه احتفظ بجيوشه فى الشمال — كما فعل — لعجز أن يرسل إلى البرتغال جيوشاً تطرد البريطانيين منها . فتبعثرت موارده من الرجال وضعف أثرها وازدادت فرنسا فقراً على فقر وارتفعت أسعار الحاجيات كلما اقتربنا من حدود فرنسا وعلى العكس كان يسهل استيراد البضائع ويزداد ثمنهـا رخصاً كلما بعدت الشقة عن فرنسا .

بل أن تلك الحملة العسكرية التى كانت السبب المباشر فى سقوط نابليون ترجع فى علتها إلى السياسة التى اضطر نابليون إلى اتباعها بحكم أن بريطانيا جزيرة محمية ، منافذها مفتوحة للمحيط فقط . ذلك أن روسياً على الرغم من بعـدها عن فرنسا وعلى الرغم من أنها وافقت نابليون على استبعاد السفن البريطانية إلا أنها لم توافقه على استبعاد البضائع البريطانية التى تحملها سفن أخرى وكاد هذا الرأى يقلب مشروعات نابليون رأساً على عقب — فنشب بينهما خلاف شديد ممـا استتبع حملة نابليون على روسيا فتشجعت حكومتا بروسيا والنمسا مؤيدتين من الشعب كله وهبتا للوقوف ضد نابليون — واستمر نابليون يفقـد فتوحاته شيئاً فشيئاً لأن موارده المادية والبشرية قد نضبت حتى دخل الحلفاء باريس وانتهى الصراع بعد أن أثبتت القوة البحرية المحيطية أنها قوة لا تقهر .

الفصل الثانى عشر

الغـــابات

أولا — روسيا

رأينا فى الفصلين السابقين كيف بعث كشف المحيط بالنشاط الذهنى إلى عقول الأقوام التى سكنت حافة أوربا الخارجية ، وكيف أمكن لهذه الشعوب أن تفيد من المزايا التى هيأها لها ذلك الكشف البحرى فاكتسبت الوحدات الطبيعية التى تحف بالمحيط أهمية بالغة . وكان لهذا النشاط الذهنى أثر بعيد فى هذه الوحدات عن أحد طريقين إما لأنها قد بدأت فى تبلورها ونضوجها ، وإما لأنها أسرعت فى تطورها ، وقد جاء بطبيعة الحال كشف المحيطات الذى قامت به الأمم الغربية بكل ما استتبعه من نتائج جاء على أثر اتصالها بقبائل السهول من جهة وبالعرب والأقوام التى دخلت فى الإسلام من جهة أخرى .

وقبل أن نستطرد فى متابعة هذه القصة ينبغى أن نلقى بنظرة إلى الوراء لنرى كيف أن دولا أوربية أخرى أخذت تحتل مكانتها بين الدول العظمى ، ولكى ندرك هذه الحقيقة يجب أن ندرس ظاهرة جغرافية أخرى لا تقل فى أهميتها عن غيرها من الظواهر ، ألا وهى ظاهرة الغابات وخصائصها :

والغابات أنواع متعددة ولكنها تشبه بعضها بعضا من نواح عدة :

أولا : أنها صعبة الإختراق . نعم قد يسهل اختراقها على الجماعات الصغيرة والأفراد دون الجماعات الكبيرة العدد وقد يسهل السير فيها للسائر على القدمين أكثر مما يتيسر للفارس على صهوة جواده ، وهكذا تتناقض الغابات مع المراعى

تناقضاً أساسيا حيث نرى الحركة ميسورة فى جميع الاتجاهات وحيث للحياة فى جماعات كبيرة العدد مزايا واضحة سواء فى الحل أم فى الترحال .

ثانيا : أنه قد يمكن اجتثاث بعض أجزاء الغابات فيستقر فيها بعض السكان تحميهم الأجزاء الكثيفة من حولهم ، غير أنه فى مثل هذه الظروف البدائية لا ينتشر العمران بسرعة إذ يعجز عن أن يمتد إلى مناطق واسعة ، وما دامت الغابات تزود سكانها بالثمار الطبيعية البرية فليس هناك ما يغرى على الاستقرار فى مكان واحد بعينه أو ما يستثير شهوة الإنسان فى جمع الممتلكات وإحرازها .

ثالثا : إن الجماعات التى تستقر فى مناطق الغابات تفضل احتراف الزراعة على الرعى لأن وجود الغابات دليل على أن الإقليم يخلو فى مناخه من فترة جفاف طويلة أثناء السنة وهكذا يمكن زراعة بعض المحاصيل والإفادة من التربة بدرجة أكبر منها فى بيئات المراعى الجافة .

رابعا : وينتج مما سبق أن مناطق الغابات قليلة السكان يعيشون مبعثرين فى أرجائها وإن وجدت بها جماعات زراعية فإنها تميل إلى اتباع نظام القبيلة ولا تثق بالغرباء أو الدخلاء عليها .

وهكذا تختلف ظروف الحياة فى الغابات عن أى نوع سبق لنا دراسته حتى الآن ، فلم تتصف البلاد العريقة فى مدنيتها بغزارة الأمطار ولم تبلغ بها الأشجار حداً من الكثافة يؤثر فى انتقال الإنسان لدرجة كبيرة أو يكفل الحماية المجتمعات التى تستقر فيما بينها .

وعلى الرغم من أن السهل العظيم فى العالم القديم يبدو على خريطة تضاريسية وكأنه سهل واحد إلا أنه فى الحقيقة ينقسم قسمين تبعا لوجود الغابات وانعدامها فإن الجزء الشمالى والشمالى الغربى منه — بسبب وقوعه تحت تأثير الرياح الغربية — أصبح أكثر رطوبة من القسم الجنوبى والجنوبى الشرقى من السهل . فهو ألطف جوا فى الصيف الأمر الذى تقل معه كمية البخر . وهكذا اقتصر إنتاج القسم الجنوبى والشرقى من السهل على الأعشاب والحشائش على حين أصبح الشمالى والغربى

منه منطقة غابات كست فيها أشجار الصنوبر المساحات ذات الشتاء البارد الجاف . وسادت الأشجار النفضية القسم الغربي الأكثر اعتدالا الواقع إلى الجنوب من بحر البلطيق وإلى الجنوب الغربي منه . وهنا نجد مساحة واسعة يصعب عبورها كما يصعب حكمها بل ويصعب توحيدها في دولة واحدة يسودها الانسجام والتجانس ، وهكذا تأخرت روسيا نسبيا في ظهورها على مسرح التاريخ قبل أن تصبح دولة ذات أهمية .

وقد سبق أن لاحظنا أن السلاف كانوا من بين القبائل التي ظهرت حركاتها وقت انهيار الإمبراطورية الرومانية الغربية ، وكانت تنقلاتهم — شأنها كشأن القبائل الجرمانية — مبعثها الضغط الواقع عليهم من الشرق أكثر من صدورها عن رغبة في نفوسهم تدفعهم إلى التحرك والانتقال أو عن حافز طارئ عليهم من فعل بيئتهم التي تحيط بهم ، ومن ثم لم يذهبوا بعيدا في اندفاعهم وتحركهم .

ومهما كان الأمر ، فإنهم استقروا أخيرا في المنطقة الواقعة بين بحر البلطيق في الشمال وبلاد البلقان في الجنوب وقد سكن بعضهم السهول كما سكن بعضهم المرتفعات . ومن ثم انقسموا فريقين بعد هجرة الرعاة الذين جاءوا من الشرق وظلوا يتتبعون في هجرتهم مناطق الرعي الوسطى . وقد تكلمنا فيما سبق عن السلاف الجنوبيين الذين سكنوا شعاب الجبال ، وسنحصر كلامنا الآن في السلاف الشماليين .

في هذه الغابات التي احتلها الشماليون وجدت الجماعات الرعوية المتنقلة ظروفاً مغايرة لم تكن تألفها ولم تعرف كيف توائم حياتها تبعاً لها ، فلم تصل قط جماعات الآفار وغيرهم من الرعاة إلى هذه المناطق ووجد السلاف الشماليون بعض الحماية في استقرارهم حيث اجتثوا الأشجار الصنوبرية وعاشت جماعاتهم في وحشة وعزلة وقد نأت بها مواطنها إلى الشمال فبعدت عن المؤثرات الحضارية التي أضاء نورها حول البحر المتوسط ، ولذا استغرقت قبائل السلاف بطبيعة الحال زمناً طويلا قبل أن تتمكن من احتلال مكانتها في العالم المتحضر وجاءت إليهـــا أولى مؤثرات الحضارة — كما هو منتظر — عن طريق البحر .

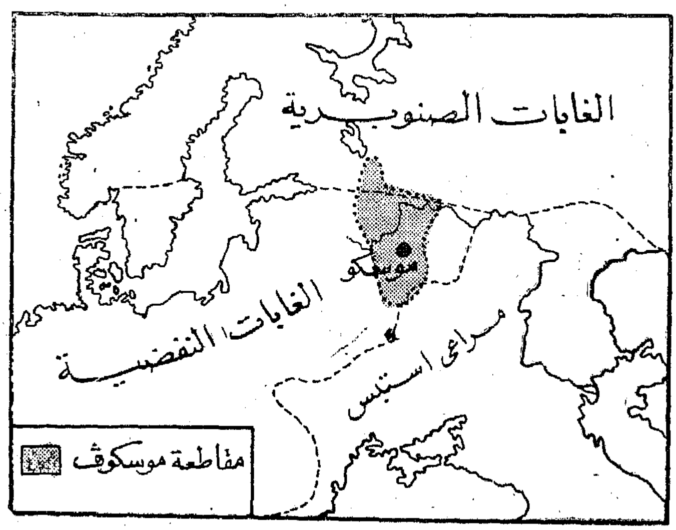
وقد حدث حوالى عام ٨٠٠ م نتيجة لامتداد الإمبراطورية الألمانية العظمى التى سنلمح إليها فيما بعد — أن نشط سكان الدانيمارك واسكندناوه الحاليتين ولفتت فتوحات شارلمان فى البلاد السكسونية أنظار الشعوب الشمالية إلى ما كان يجرى فى الجنوب منهم فالتهبت نفوسهم رغبة فى السلب والنهب وداعبتهم أحلام فى تكوين ممالك فى المناطق الشمالية القليلة السكان والتى تبعثرت فيها جماعات مختلفة يرجع صغر عددها وانعزالها إلى صعوبة الحصول على كميات وافرة من الغذاء فى مكان واحد بعينه ، فشب الشباب منهم وهم يألفون هجرة ذويهم ويألفون ارتكاب المشاق والأخطار فى سبيل الحصول على ضرورات الحياة من البر والبحر — وقد تعودوا الاستقلال فى التفكير والعمل بأنفسهم بمساعدة عدد قليل منهم — فتوافرت صفات الزعامة بين الكثيرين وقل بالتالى عدد من ينقادون منهم لغيرهم — ولهذا انتشروا فى مدى قرنين من الزمان فى كل جهة تقريباً ، فرأينا من بين النورسمن أو النورمانديين من قاموا بارتياد المناطق المجهولة أو من خاضوا المعارك أو أسسوا المستعمرات .

وآل الحكم فى إنجلترا وفى غيرها من البلاد إلى أسر عديدة منهم ، وإذا كان طابعهم فى بادئ الأمر مخرباً مدمراً حيثما أغاروا على البلاد العريقة فى مدنيتها إلا أنهم كانوا أيضاً ومن أول الأمر معمرين منشئين فى البلاد التى تقل عنهم حضارة ورقياً كالمناطق التى سكنها السلاف الشماليون مثلا ، فبرزت مدينة نوفجورد Novgord حيث كان من أيسر الأمور على هؤلاء البحارة الوصول إليها وبذت جميع مستعمراتهم الأخرى فى هذه الغابات . واتسعت تدريجياً المنطقة التى تدين بالولاء لحاكم نوفورد حتى امتدت روسيا جنوباً إلى منطقة الانتقال بين الغابات والمراعى أو ما يسمى منطقة المراعى الغنية الممتدة على حافة نطاق الغابات ولم تمتد إلى أبعد من هذا ولكنها مع ذلك اتصلت بالحضارة البيزنطية وبالكنيسة اليونانية وتأثر أهلها بكليهما .

والانقسام الداخلى أمر طبيعى فى أقاليم الغابات حيث يتعذر الاتصال بين الوحدات المختلفة فكان هذا سبباً فى انقسام الدولة الروسية فى إبان القرن الحادى

عشر . وتناوبت الوحدات الصغيرة أو الكبيرة الظهور على المسرح التاريخى . فكانت تبرز هذه الوحدة آنا وتبرز تلك آنا آخر . وظلت الروابط التى تربط بينها واهية متقطعة الأسباب كما هو منتظر ، ثم وحد بينها فيما بعد نوع من الارتباط تحت حكم المغول — وحتى هذا الشعب الرهيب على الرغم من أن أفراده كانوا من خيرة الفرسان الذين يجيدون ركوب الخيل إلا أنهم عجزوا عن التوغل فى تلك النواة العتيدة فى نوفجرود — هنا فى قلب الغابات احتفظت الأمة الروسية بنواتها سليمة ، كما ظلت نواة أسبانيا مختبئة فى شعاب جبال البرانس فى بيئة لم يألفها فرسان المسلمين .

الخريطة رقم ٣٧



موقع مقاطعة موسكوف واتساعها
يتضح من الخريطة موقع مقاطعة موسكوف ومدى اتساعها
فى القرن الرابع عشر وعلاقتها بمنطقة الغابات

وحين انهار الحكم المغولى قامت ولاية المسكوف تتخذ من مدينة موسكو مركزاً تبنى حوله ، إذ نشأت بالقرب من حافة الغابات وإن ظلت فى داخلها وازدهرت بفضل تأييد الجزء الشمالى من روسيا الذى لم يتناوله الغزو والفتح — وقامت بدور الوسيط بين المغول فى الخارج والروس فى الداخل بعد أن اضطرتهم الأحداث الخارجية إلى الاتحاد والتضامن وفى نهاية القرن الخامس عشر نزعت

ولاية موسكوف عن نفسها قيود الحكم المغولى وأصبحت موسكو نواة روسيا فنشأت دولة ذات حكومة مركزية مستقلة استقلالا فعلياً .

وبعد أن تأسست الحكومة المركزية لم تستغرق وقتاً طويلا لتدرك سر قوة سكان المراعى ولتعرف أن قوتهم كامنة فى اتحادهم وسهولة انتقالهم — بل وإن حركتهم قد تكون فى نفس الوقت مصدر ضعفهم لعدم وجود مركز ثابت يرجعون إليه . فلو تمكنت حكومة مركزية مستقرة من تنظيم قوة ميزتها سرعة الحركة تواجه بها أولئك الرعاة لانتصرت وفرضت سلطانها عليهم، وقد تم ذلك فعلا لروسيا فلم تمض خمسون عاماً على قيامها إلا وقد امتد الحكم الروسى إلى الجزء الأكبر من مراعى الاستبس فى جنوبها ، وقبل نهاية القرن السابع عشر امتد حكم روسيا إلى سهول آسيا الوسطى الفسيحة الأرجاء التى كانت حتى ذلك الأوان مصدر خطر يتهدد جميع المدنيات التى تحف بجميع نواحى السهل المترامى الأطراف الواقع فى وسط آسيا وهكذا قضى نهائياً على عناصر الاضطراب التى ظلت تقلق بال المدنية والحضارة طوال عصور التاريخ ثم تناولها الروس بالتنظيم فأصبحت مصدراً للقوة والتعمير لا وسيلة للتخريب والتدمير .

وهكذا أشرفت روسيا على تنظيم السهل بأجمعه ابتداء من نطاق الغابات فى الشمال وأخذت تعمل على نشر العمران تدريجياً فى تلك المساحات التى اكتسحها الرعاة من قبل وتركوها قاعاً صفصفاً ، وأمكنها بفضل استخدام وسائل الرى زراعة أراض فسيحة كانت جحافل الرعاة لا تجد فيها غير الأعشاب الفقيرة لقطعانها — وشيد الروس الطرق الحديدية عبر أراضى خلت من الأحجار وتعذر فيها تعبيد الطرق — وأصبحت موسكو لا بطرسبرج المركز العصبى لحياة عدد كبير من الشعوب المتنوعة .

وروسيا بهذا الوضع — أى باحتلالها الجزء الأوسط من أوراسيا تلك القارة العظيمة — بعيدة عن المحيطات فيما عدا المحيط المتجمد الشمالى العديم الفائدة ولهذا أضحت سياستها الخارجية لمدى قرنين من الزمان هى محاولة للوصول إلى البحار الدافئة المفتوحة تارة عن طريق خليج فنلندة وبحر البلطيق ، وتارة عن طريق البوسفور

والبحر المتوسط ، وتارة عبر افغانستان وإيران ، وتارة بالتوســـع جنوبا على حدودها الشرقية البعيدة المطلة على المحيط الهادى — غير أنها حتى الوقت الحاضر لم توفق توفيقاً كبيراً — لأن الدول الغربية قدسبقتها إلىالنضوج والتبلور وأصبحت قوة ثابتة ، كما يقع إلى الجنوب وإلى الشرق من روسيا ذلك الحاجز الجبلى الذى يكاد يتعذر اجتيازه .

غير أن لروسيا ميزتها الخاصة فهى تحتل مساحة واسعة لا تزال مخلخلة السكان وتـكفل الحيـاة لعدد عظيم من البشر . وقد شمل إقاليمها تنظيم بارع ومازالت تتدرج فى مدارج الرقى حتى تبلغ درجة عظيمة من الاكتفاء الذاتى أو الاستقلال الاقتصادى كما تمتاز باحتلالها قلب العالم القديم واكتسب شعبها ميزة الشجاعة ومتانة البنية والقدرة على تحمل قسوة المناخ . هذه البقاع المتوسطة فى موقعها والتى تتـكون منها روسيا — مهما حدث لها من انقسام — هى وحدة طبيعية واحدة فى أساسها ولم تبلغ بعد الحد الأقصى فى استغلال مواردها .

ثانيا ــ ألمانيا

تتبقى بعد ذلك، المساحة الوسطى الشمالية من شبه جزيرة أوربا إلا وهى ألمانيا على وجه التقريب — وهنا تتعقد الظروف الجغرافية تعقيداً عظيما وليس تاريخها بطبيعة الحال بأقل تعقيداً .

أولا — لعل أوضح الحقائق الجغرافية أن البلاد الألمانية ذات موقع متوسط ولا نقول متوسطاً بالمعنى الذى نقصد به توسط السهل الأعظم فالسهل الأعظم يحيط به اليابس من كل ناحية ماعدا الشمال — وتحول المرتفعات دون اتصاله بجميع البلاد المجاورة الهامة سواء فى الشرق أو فى الغرب — وأن لم تمنع هـذا الحاجز قبائل السهول من أن تنفذ إلى الاطار المحيط به من حين إلى آخر . وفى واقـع الأمر لم يحدث هجوم مضاد لحركات القبائل حتى ظهرت روسيا فى الغابات الغربية. وحتى روسيا نفسها تأثرت فى الجزء الأكبر من تاريخها بثلاثة مؤثرات خارجية . النورسمن من الشمال الغربى ، والحضارة البيزنطية والـكنيسة البيزنطية من الجنوب

الغربى والقبائل المغيرة من الجنوب الشرقى . أما قلب شمال أوربا فقد تأثر بمؤثرات عدة جاءت إليه من نواحى مختلفة .

(ا) فقد تأثر قلب أوربا بالمؤثرات المختلفة التى نشأت فى البلاد المتحضرة فى غرب أوربا وجنوبها منذ عصر الأمبراطورية الرومانية فصاعدا .

(ب) وتأثر مراراً وبطرق مختلفة بجميع المؤثرات التى كانت تصل إليه من البحر فى الشمال ومن المحيط فيما وراءه .

(حـ) كما تأثر بالمؤثرات التى وردت عليه من الشرق — لا من جراء هجرة القبائل التى جاءت من السهل فحسب ، بل ومن جراء غارات الأقوام الهمجية التى وصلت إلى أوربا عن طريق آسيا الصغرى . ولم يقتصر تأثير هذه العوامل على مجرد حدوثها مرة واحدة أو مرتين كما هو الحال فى روسيا بل ظل قلب أوربا واقعاً تحت تأثيرها على الدوام منذ العهد الرومانى وظلت هذه العوامل ذاتها فى تطور مستمر .

ثانياً — أن تضاريس وسط أوربا معقدة جداً فالطرف الغربى للسهل يصل إلى البحر المكشوف مباشرة ، وإلى الجنوب من ذلك اللسان السهلى ترتفع الأراضى وإن لم تخل من انخفاض مساحات كبيرة عن المستوى العام وقد تضيق بعض المنخفضات فتصبح ودياناً ضيقة نسبياً ، وقد يتسع بعضها حتى تصبح سهولا ، كالسهل الذى يمتد من مدينة بال حتى شمال فرنكفورت ويستمر فى امتداده على طول الجزء الأكبر من مجرى الراين — وعلى العكس من ذلك نجد مرتفعات تزيد أو تقل فى اتساعها وفى ارتفاعها كالغابة السوداء أو كتلك المرتفعات التى تحيط ببوهيمياً — وتختلف هذه الوحدات التضاريسية اختلافاً بيناً فى أحجامها — فليست كلها صغيرة كوحدات اليونان التضاريسية ولكنها سواء باتساعها أو بصغر حجمها — تخلق تنوعاً فى أساليب الحياة لا يمهد بتاتاً إلى قيام وحدة كاملة .

ثالثاً — وليس تنوع الحياة هو كل شىء فقد امتازت إيطاليا بالتنوع ولكن مرتفعاتها ومنخفضاتها تناسقت فجعلت من روما مركزاً طبيعياً لها ، أما قلب

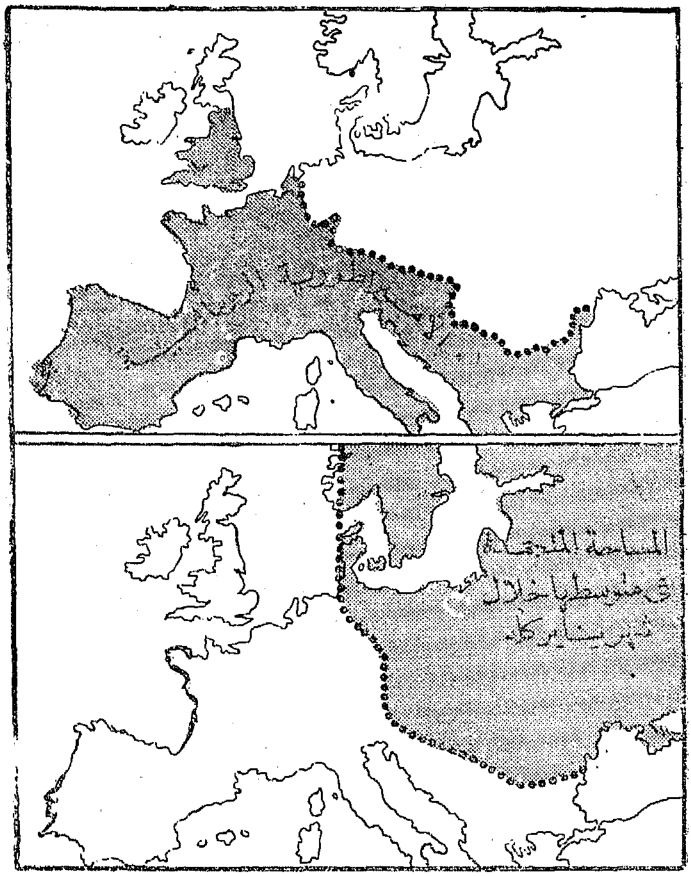
شمال أوربا فليس فيه مركز واحد يمكن أن يقارن بروما بالنسبة لموقعها فى شبه جزيرة إيطاليا وهى ذات الحدود الواضحة بل ولا بباريس أو بلندن . وقد لا تكون روما عاصمة مثالية بالنسبة لإيطاليا الحديثة غير أن إيطاليا تخلو من مدينة أخرى تقف نداً لها . أما ألمانيا فقد حوت عدة مراكز لم يبرز منها مركز واحد ليفضل المراكز الأخرى فى جميع الأحوال ، وكلما اختلفت الظروف القائمة وكلما اختلفت المؤثرات التى تعرضت لها البلاد قام مركز أو آخر وازداد فى ظهوره على المراكز الأخرى ، غير أنه لم تتوافر له علو المكانة الدائمة أو ارتفاع الشأن حتى يكسبه قوة دافعة تضمن له الاحتفاظ بتفوقه فى الظروف الجديدة . فقامت مراكز عدة احتل كل منها مكانته عهداً من العهود كمدينة فرنكفورت فى الشمال الغربى ، وميونخ فى الجنوب الغربى وفينا فى الجنوب الشرقى ، وبرلين فى الشمال الشرقى .

رابعاً — وفى العصور الغابرة كانت الغابات التى نشأت روسيا فى أحضانها تكسو السهل الشمالى وجزءاً كبيراً من المرتفعات فى الجنوب منه ، وقد ساعدت على عزل المجتمعات المختلفة التى عاشت بين ظهرانيها وشدت من أزر العوامل الأخرى التى دعت إلى التفرقة والانقسام مثلها كمثل العوامل الجغرافية الأخرى التى تكلمنا عنها آنفاً وقد تُركت هذه الغابات على حالها الطبيعية تقريباً فى الشرق أكثر منها فى الغرب واستمرت إلى عهود متأخرة مما نتج عنه سبق غرب ألمانيا فى تحضره لشرقها بزمان طويل .

خامساً — وألمانيا عامة يشتد بردها فى الشتاء عن أى إقليم آخر باستثناء السهل الذى تكلمنا عنه — ولقد عرفت بلاد أخرى زمهرير الشتاء ولكن البرد القارس المستمر فيها أمر شاذ غير عادى ، غير أن ألمانيا وعلى الأخص شرقها تبقى فيها الأراضى متجمدة فترة طويلة من العام .

وهكذا خضعت ألمانيا لعوامل مختلفة — فلم تعرف لها عاصمة واحدة معينة وقد أحاطت بالبلاد شعوب ذات أهمية بالغة وامتازت أجزاؤها بخصائص مختلفة وسكنها أقوام اختلفت وجهات نظرهم إلى الحياة وتعرضت لمؤثرات خارجية دخلت عليها من جميع الاتجاهات وتركت طابعاً مختلفاً فى كل وحدة من الوحدات

(الخريطة رقم ٣٨)



الامبراطورية الرومانية ومنطقة البرد القارس
لقد تجنب الرومان البرد القارس

ومن ثم لم يتحد قلب أوربا فى ظل حكومة واحدة إلا إذا كانت هذه الحكومة على شىء كبير من العزة والمنعة .

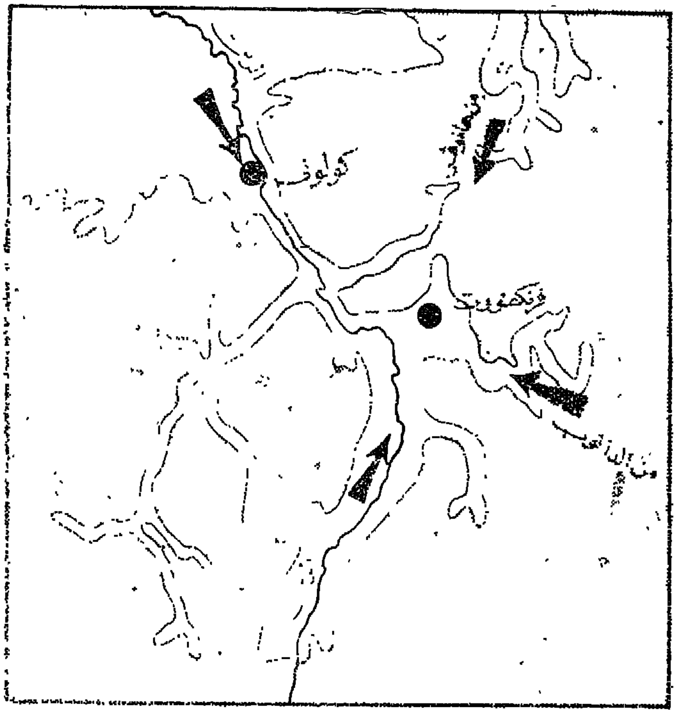
وقد ظلت البلاد الألمانية خارجة عن نطاق الامبراطورية الرومانية ، لأن الغابات من جهة كانت عسيرة فى اختراقها على الجيوش، عسيرة فى حكمها على الحكومات، ولأن البلاد من جهة أخرى تقاسى من البرد القارس إبان الشتاء أشد مما ألفه أهالى جنوب أوربا — غير أن هذه الجماعات الألمانية تأثرت لمدى قرون عديدة بالامبراطورية الرومانية وبالآراء التى تسربت منها وعم تأثيرها جميع القبائل سواء

التيوتينية فى الغرب أو السلافية فى الشرق على الرغم من عزلتها فى وسط غاباتها فى الأماكن التى اجتثت منها الأشجار . وليس بأقل هذه الآراء أهمية فكرة الحكومة المركزية إلى جانب غيرها من مظاهر الحضارة التى نقلت من الامبراطورية الرومانية كاستخدام الأسلحة والملابس .

ولما ضعفت القوة الرومانية كانت الجماعات التيوتونية أول من اندفع إلى بلاد تعترف بالسيادة الرومانية ، أما لأنها اضطرت إلى ذلك اضطراراً تحت ضغط قبائل السهول وأما لأنها ضعفت أمام إغراء الرخاء والغنى الذى تمتعت به البلاد الرومانية فى ظل السلام الرومانى . فعبر السكسون البحر إلى بريطانيا وازداد نفوذ الفرنجة فى بلاد الغال دون أن يهجروا وطنهم الأول حول مدينة فرنكفورت الحديثة — وهاجر البرجنديون إلى وادى الرون بينما اكتسح القوط والواندال واللمبارد أجزاء مختلفة من سواحل البحر المتوسط . وقد اندمجت هذه القبائل الأخيرة فى الشعوب التى غزتها وسادتها فترة من الزمان — غير أن الفرنجة الذين لم يتركوا جميعاً وطنهم الأول واستمروا خاضعين للظروف التى ألفوها من قبل واستطاعوا — رغم ما اكتسبوه من جوارهم للامبراطورية — أن يحتفظوا بالكثير من عاداتهم وتقاليدهم القديمة . انظر إلى موقع الفرنجة فى وطنهم الأول تجدهم يسكنون ذلك الجزء من وادى الراين الذى يحيط بمدينتى ماينز وفرنكفورت — وهو منطقة من الأراضى الخصيبة دافئة نوعاًما وبها من المنخفضات أو السهول ما يجعل الانتقال فيها ميسوراً فى أربع اتجاهات رئيسية ، فهى تتصل من ناحية الشمال الغربى عن طريق خانق نهر الرين بالسهول المفتوحة فى واديه الأدنى ودلتاه ؛ وتتصل من ناحية الشمال الشرقى عن طريق ڤيتراو بمدينة هانوڤر الحديثة أو بسكسونيا القديمة ، وتتصل من ناحية الشرق عن طريق وادى المين بالدانوب وبافاريا ، وتصل من الجنوب عن طريق أعالى نهر الراين بمقاطعة سوابيا ، وليس من قبيل الصدفة أن يكون الفرنجة — وبعضهم داخل الامبراطورية وبعضهم خارجها — أول الشعوب التيوتونية فى أخذها بتنظيم تلك الأراضى التى لم تكن قد اكتسبت أهميتها الكاملة بعد . فقد انتشروا عن طريق الراين الأدنى نحو

المدنية الرومانية فى بلاد الغال ثم مدوا نفوذهم فى اتجاهات مختلفة فسادوا الشعوب التيوتونية الأخرى التى لم يتهيأ لها موقع مركزى ممتاز كالذى تهيأ للفرنجة .

(الخريطة رقم ٣٩)



موقع فرنكفورت
(تتجه أربعة طرق كبرى إلى فرنكفورت)

وقد أسس الفرنجة الشرقيون دولتهم مرتين وكان بعض أجزائها فى بلاد الغال وبعضها فى ألمانيا فقامت أولا تحت حكم كاوفس على أنقاض القوة الرومانية المتهدمة ثم أعيد تأسيسها بعد اضمحلالها من الجزء الشرقى فقط على يد پپن وشارل مارتل وپپن الثانى وشارل العظيم أو شارلمان وأقاموا بنيانها على أسس أمتن من الأسس الأولى ثم اعتنقوا المسيحية على مذهب الكنيسة الرومانية وقاموا بقيادة شارل مارتل برد العرب على أعقابهم فى هجومهم على أوربا الغربية فأصبحوا أبطال الدفاع عن المسيحية واعترف لهم البابا بهذه الصفة وهو الوريث لما تبقى من سلطان

روما . وهكذا أقام الفرنجة إمبراطورية أخرى تدين بمعظم سلطانها إلى هـذا الاعتراف البابوى — وقد وطد شارلمان أركان امبراطوريته ومد فى حدودها جنوبا حتى شملت البرانس وسهل لمبارديا كما وسع حدودها إلى الشرق وإلى الجنوب الشرقى — غير أن هـذا التوسع والامتداد حوى فى طياته بذور الضعف وكانت أولى نتائجه اتصال قوات الفرنجة اتصالا مباشراً بأهل اسكندناوة وأوجد هذا الاتصال فيهم حافزاً إلى الهجرة من أوطانهم، كما بعث بالنورسمن الوثنيين يهاجمون جميع شواطئ شبه جزيرة أوروبا ، وهكذا تعرضت المسيحية لفترة من الزمان إلى هجوم الأعداء عليها من جميع النواحى — وطالما كان الفرنجة فى وادى الراين وهى البلاد الهامة الوحيدة خارج الإمبراطورية الرومانية الغربية كانت دولتهم بحكم قوتها وفتوتها قمينة بأن تتولى الزعامة ، ولـكن لما دخلت البلاد الأخرى بظروفها المختلفة فى زمرة العالم المتمدن أضيف عامل جديد يعمل على تكوين دويلات صغرى .

وقد برز ذلك الاتجاه الطبيعى إلى الانقسام بين الغال وبلاد الفرنجة حتى قبل عهد شارلمان — حقاً بقيت بلاد الفرنجة كتلة واحـدة إبان حكم شارلمان وبعد موته بوقت قصير ثم تفرقت أجزاء بعـد بضع سنين ، فانقسمت أولا إلى ثلاثة أقسام ثم إلى أربعة . قسمان منها كانا بمثابة النواة لـكل من فرنسا والمانيا الحديثتين وإن لم تتطابق حدودها تماماً . والقسمان الآخران هما إقليما برجنديا وسهل لمبارديا فى شمال إيطاليا . ثم اتحدت برجنديا ولمبارديا مرة أخرى ضمن الأراضى الألمانية التى انطوت تحت لواء الأمبراطورية فى أحد أطوارها فيما بعـد ، غير أن الجزء الأساسى من برجنـديا أى وادى الرون والساؤن اندمج بمضى الزمن فى فرنسا وبقى شمال إيطاليا طويلا ضمن الإمبراطورية يقاسى معها افتقارها الى مركزية الحكم .

ثم أضحت عوامل التفرقة والانقسام الطبيعية بين الوحدات المختلفة أكثر ظهوراً داخـل الـكتلة الجرمانية تبرزها الفوارق الجغرافية والتاريخية وقد احتفظت بلقب الإمبراطورية لأنها حوت فيما حوته مقر الحـكم الفرنجى أو الجرمانى .

أولا — لما انقطعت سلالة الـكارولنجيين عجزت أية قوة بمفردها عن أن تحل محل الفرنجة وتفرض سيطرتها على الولايات الباقية — ثم وفقت هـذه الولايات

أخيراً إلى الحل الوسط إذ ترك أمر اختيار الامبراطور فى أيدى عـدد من الحـكام الناخبين . ولعل تأخير تنظيم المانيا فى وحدة واحدة عهداً طويلا مرجعه رجحان كفة عوامل الانقسام والتفرقة، إذ أضيف عنصر جديد مرجعه إلى العناصر الجغرافية والتاريخية ، مما أدى إلى قيام هذه الحالة التى اقتضت بدورها قيام هؤلاء الناخبين ، فهو من ناحية اعتراف بحاجة المانيا إلى الوحدة — وهو من ناحية أخرى تأكيد بأن نوعا من الانقسام المنظم ضرورى ليربط بين أجزائها ، وأن امبراطوراً ينتخب بإرادة حكام الولايات سواء كانت هذه الولايات مساوية لولايته أو تفوقها أهمية لهو امبراطور بالاسم فقط ، يحكم بإذنهم ، ولما ضعفت المنظمة المركزية بهذا الشكل أضحت سلطة الإمبراطورية فى أغلب أجزائها سلطة اسمية بحتة . نعم قد يستطيع رجل أو أسرة أن تخضع الولاة الباقين فيحصل على أصواتهم بالحزم والشدة ، غير أن هـذه القدرة على الحـكم لا تقوم فى أساسها على أنه امبراطور بالاسم بقدر ما تعتمد على ما يتوافر له من قوة كحاكم مستقل وعلى مدى نجاحه فى إظهار قوته حتى يصل إلى انتخابه ، وقد ظل مجمع الناخبين قائماً خـلال العصور التالية وكان بعضهم من رجال الدين الذين يمثلون السلطات القديمة فى تطورها لتلائم مقتضيات الظروف الجديدة ، وبعضهم من رجال السلطان الدنيوى أى من غير رجال الدين ، فـكانوا يمثلون لدرجة ما الوحـدات الطبيعية الـكبرى وكان هؤلاء وهؤلاء يتقاسمون السلطة الفعلية فيما بينهم تاركين ظلا من السلطان فقط للسلطة الاسمية .

ثم جاء السكسون بعد الفرنجة ، وبعدهم جاءت أسرة هوهنشتوفن أو أسرة سوابيا ثم مرت فترة لم ينتخب فيها أى امبراطور ، سادت بعدها أسرة هابسبرج أو الأسرة النمساوية فى النصف الأول من القرن الخـامس عشر واحتفظت هذه الأسرة بسيادتها إلى قرب أوائل القرن التـاسع عشر [1] إلى أن آلت أخيراً مقاليد الزعامة إلى بروسيا .

---

(١) تنازل الامبراطور نهائيا فى عام ١٨٠٦ عن لقب امبراطور الدولة الرومانية المقدسة فى معاهدة الصلح التى عقدها مع نابليون . المترجم

وقد كان كل امبراطور يباشر حكمه من مقره الأصلى وهو مقر أجداده وينشر نفوذه منه إلى الحد الذى يمتد إليه سلطانه ، وسبق لنا أن تبينا أن المانيا تخلو من وجود مركز طبيعى يمكن أن يقارن بلندن أو بباريس ، فلم يباشر أباطرة ألمانيا حكمهم من مقر معين كما اضطر إلى ذلك ملوك انجلترا مثلا . فقد توالت على تاريخ انجلترا وفرنسا أسر مختلفة غير أن مقر الحكم لم يعتره تغيير ما منذ أن حلت لندن محل ونشستر ومنذ أن قامت باريس مقام لاون — وقد اضطر الملك جيمس أن يهجر اسكتلندا إلى لندن على بعد الشقة بينهما ليكون ملكا على انجلترا ووقفت لندن وباريس ووراءها تقاليد متأصلة عميقة الجذور . وليس الأمر مقصوراً فى المانيا على انعدام المقر الطبيعى فحسب، بل أن مجرد مباشرة الحكم من مراكز مختلفة ينطوى على فكرة عدم تأصل التقاليد فى أى منها ، ومع ذلك فقد ادعى كل مركز من من مراكزها دعواه التاريخية بأحقيته فى اعتباره مقر الحكم فى المانيا .

ثانياً : ومما زاد الطين بلة أن الأساليب الذى اتبعها الامبراطور ليجعل حكمه نافذا كانت تتشكل طبقا لعوامل التفرقة من جهة أو تزيدها تأكيدا وظهورا من جهة أخرى ، ولم تجب الحكومة الإمبراطورية أية ضرائب لتنشىء بها جيشاً امبراطوريا ينفذ إرادة الإمبراطور فى داخل الإمبراطورية أو فى خارجها ، بل نما النظام الإقطاعى فى هذه البلاد ووصل حدا لم يبلغه فى البلاد الأخرى . ويتوقف نجاح هذا النظام على التقسيم وتوالى التقسيم إلى أقسام صغرى ، وكان على ملاك الأرض الكبار من الناحية النظرية — ومن بينهم الناخبون — أن يقدموا القوات اللازمة لخدمة الإمبراطور ولكنهم استخدموا هذه القوات لتحقيق أغراضهم الخاصة حتى ولو كانت تتعارض مع أغراض الإمبراطور . وهكذا لم يزد هذا النظام من سلطان امبراطور ضعف سلطانه .

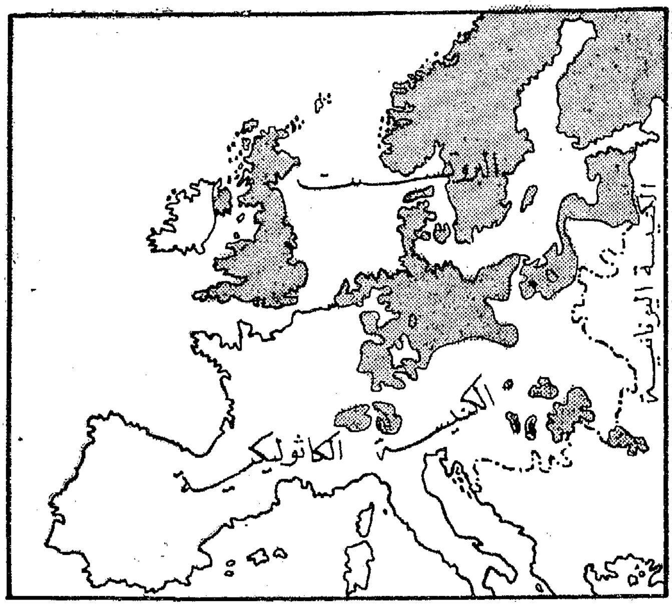
وأن أى حاكم يؤيد الإمبراطور تأييداً اسميا ، ويصدر فى تأييده هذا عن ضعف ، لقمين بأن ينكص العهد فى تأييده فى اللحظات الحرجة ، ولن يقتصر الضر على الإمبراطور وحده ، فإن النبلاء العظام اعتمدوا بدورهم فى جمع الجنود على من يلونهم من صغار النبلاء الذين يدينون بالولاء لهم ، واقتدى هؤلاء بمتبوعيهم

فى نكوصهم عن أداء واجباتهم نحو الإمبراطور ، فلم يؤدوا هم واجباتهم نحو أسيادهم ، واختلاف مدى نجاح التقسيم إلى وحدات صغرى باختلاف الزمان والمكان والظروف القائمة وباختلاف أخلاق الحكام وشخصياتهم ، وكانت النتيجة النهائية لهذه الحالة أن أصبحت الإمبراطورية التى قامت أبان العصور الوسطى مكونة فى الواقع من دويلات مستقلة استقلالا فعليا وتتراوح فى أحجامها من مدينة واحدة إلى أقاليم شاسعة يحكمها سيد ذو بأس وقوة .

ثالثاً : وفى مبدأ الأمر أى منذ القرن العاشر حتى أواسط القرن الثالث عشر لم تبرز عوامل التفرقة والانقسام بروزا واضحا ، وكانت الإمبراطورية قوية متماسكة تحت قيادة الأباطرة الأشداء من السكسون أو من أسرة هوهنشتوفن ، ولعل سبباً واحداً كان مسئولا عن هذه الحالة وهو قيام سلطة البابا ونفوذ الكنيسة فقد كانت تعمل فى أول أمرها على الوحدة وجمع الشمل ولكنها عادت بمضى الزمن تبذر بذور الفرقة والانقسام ، ولقد رأينا أن ملوك الفرنجة أصبحوا أباطرة بفضل اعتراف البابا بهم كأبطال المسيحية ، ويرجع الفضل إلى البابا وإلى استمرار اعترافه بهم فى احتفاظ هؤلاء الأباطرة بسلطانهم سواء كانوا من الفرنجة أو من السكسون أو من أسرة سوابيا — ولما تجرأ هنرى السكسونى وفردريك من آل هوهنشتوفن على تحدى البابا ، لم يستطيعا الاحتفاظ بسلطانهما لأن الجماهير كانت تؤمن بالبابا ، ولن تتوافر سلطة لمن لا يعترف به البابا أيا كان ، وأخيراً لما اشتد ساعد القوى العاملة على التفكك والانقسام جاء الإصلاح الدينى فوجد الإمبراطورية ممزقة شر ممزق ، وخلت البلاد من سلطة مركزية عليا تتولى زمام الأمر وتشكل النتيجة النهائية المحتومة كما حدث فى انجلترا وفرنسا فتركت البلاد وشأنها ، بعضها يتبع لوثر فى مذهبه البروتستانتى وبعضها يتبع المذهب الكاثوليكى الرومانى ، مما زاد فى الخلافات القائمة والميول السائدة نحو التفرقة والانقسام .

رابعا : وثمة سبب رابع يدعو إلى الانقسام نتج عن الطريقة التى تشكلت بها الامبراطورية فإن أى اتساع يطرأ عليها بفضل جهود الحكام أو الأفراد لا يعتبر امتدادا للامبراطورية ولا يزيد فى حدودها لأن هذه البلاد

الخريطة رقم ٤٠



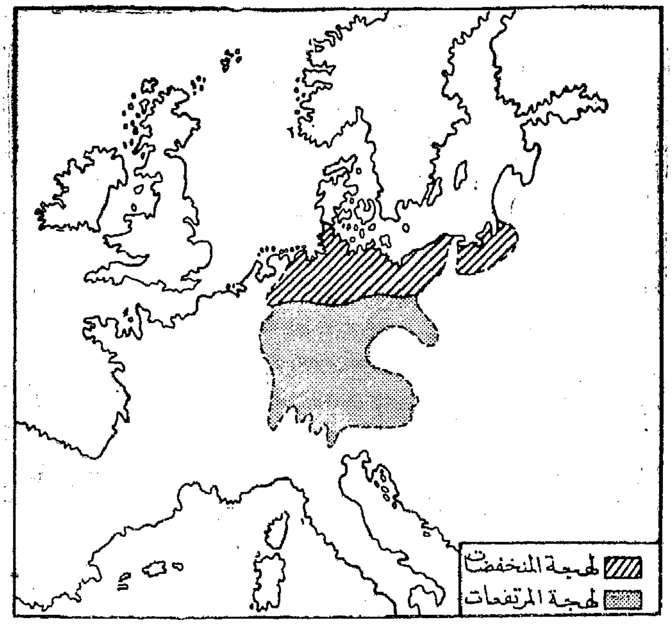
أوربا : توزيع المذاهب المسيحية
الجزآن الشمالى والغربى من ألمانيا يسودهما المذهب البروتستانى
والجزءان الجنوبى والشرقى منها يسودهما المذهب الكاثوليكى

الجديدة كانت تخص حكام الولايات أو الأفراد الذين آلت إليهم مقاليد الأمور فيها ، ولنضرب لذلك مثلا الفرسان التيوتون فى تنظيمهم لبروسيا الشرقية فقد بقيت خارجة عن نطاق الامبراطورية ولا علاقة لها إلا بدوقية براندبرج فتضفى على ناخبها أهمية على أهميته ، وقد استرد دوق النمسا مثلا المجر من الأتراك ونصب نفسه ملكا عليها وهو بوصفه ملك المجر لا يدين بالولاء للامبراطور ، وحدث بعد ذلك أن آل ملك بريطانيا إلى ناخب هانوڤر ولكن بريطانيا لم تدخل فى نطاق الامبراطورية وهكذا أدى استحواذ هؤلاء الحكام على أقاليم تخرج عن نطاق الامبراطورية إلى زيادة استقلالهم عن الامبراطور وبالطبع ازدادت الحالة ميلا إلى التفرقة والانقسام فى أول الأمر ، ولكن يجدر بنا أن نلاحظ أن بذور وحدة ألمانيا كمنت فى هذه الحقيقة التى ذكرناها الآن .

ومما لا شك فيه أن تلك الحالة أدت إلى خسارة مؤكدة فى الطاقة بسبب افتقار البلاد إلى حكومة قوية، وهذا فى حد ذاته نتيجة للظروف الجغرافية ، إلا أن البلاد أصابت تقدماً محسوساً فى الإفادة من الطاقة واستغلالها وقد بدا هذا التقدم واضحاً منذ عهد الفرنجة حين أخذت البلاد التيوتونية بأسباب التحضر والرق ولو اننا استعرنا التعبير الذى استعملناه من قبل لقلنا أن مساحات واسعة دخلت ضمن نطاق البلاد التى يحسب لها وزن واعتبار وأصبحت الأراضى الواقعة على الحدود الشرقية دولا وقواعد تشع منها أضواء الحضارة وتعمل شيئاً فشيئاً على تحضير البلاد التى تليها شرقاً . وكان الفرنجة يجـــدون حكم تلك البلاد سهلا إلى حد ما طالما كانوا هم الشعب الممتـاز . وكان السكسون والسوابيون فى مركز يشبه بعض الشبه مركز الفرنجة ولا يطاولهم فيه أحـد ، وبات من الطبيعى أن يزداد الاتجاه نحو اللامركزية ظهوراً كلما أضحت البلاد الواقعة على الحدود قادرة على الاستقلال بذاتها ، وكلما عمرت بعدد وفير من السكان الذين التأم شملهم ولم يعودوا يعيشون فى جماعات منعزلة مبعثرة فى أنحاء البلاد ، كما كانو من قبل ، فـكونوا ولايات تناظر الولايات الغربية التى استقوا منها حضارتهم ، وهكذا كان من نتائج تقدم البلاد وتحضرها ازدياد الميل نحو اللامركزية فى الحـكم .

ثم تردد فى المانيا شعور صادق ينادى بوحدتها — يرجع فى بعض أسبابه إلى وجود لغة مشتركة وفى بعض أسبابه الأخرى إلى الإيمان بالفـكرة الأمبراطورية أو إلى وجود كنيسة واحدة مشتركة فى القرون الأولى كما رأينا . وإلى هذين العاملين الأخيرين يرجع الفضل فى انتشار شعور الوحدة فيما وراء حدود الأمبراطورية . وتخلل جميع أنحاء العالم المسيحى الذى انحصر بين المطرقة والسندان أى بين المسلمين والنورسمن الوثنيين الذين كان لفتوحاتهم فى الحقيقة الفضل فى تـكتل المسيحيين وتضامنهم ، وقد عبر العالم المسيحى عن هذا الشعور بالتأييد الحماسى الذى أظهره للحملات الصليبية كما عبر عنه بنمو الجامعات العديدة وبتوطيد علاقات الصداقة فيما بينها — ويبدو الشعور الألمانى الحق نحو الوحدة فى نشأة المدن التجارية واتحادها . وقد كان التقسيم فى البلاد الألمانية تقسيماً حكومياً فقط إذ أن

الخريطة رقم ٤١

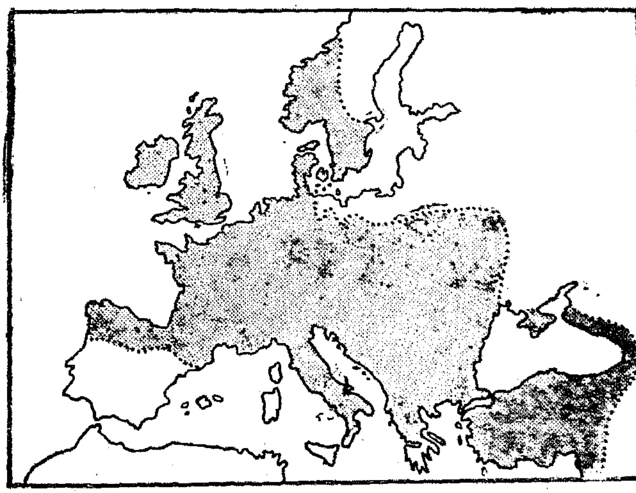


ألمانيا : توزيع اللغة
يتكلم أهل ألمانيا جميعاً لغة واحدة غير أن هناك
فروقاً بين لغة أهل الشمال ولغة أهل الجنوب

الولاية الواحدة كانت تنقسم أجزاء بين أبناء الحاكم المتوفى كما تتحد أقاليم بزواج أمير من وراثة إقليم آخر — وبطبيعة الحال كان هناك إسراف فى الطاقة بسبب افتقار الناس إلى الأمن والطمأنينة اللذين يكفلهما وجود حكومة قوية ، غير أن الأمر لم يصل إلى حد الفوضى الضاربة فقد تعلم الناس تدريجاً كيف يفيدون من جهودهم على خير وجه وأخذوا يجمعون الثروات ، ومن الآثار الواضحة لتلك الاتجاهات التى تبعث على التفرقة والانقسام نشأة مدن الهنسا واستقلالها فى السهل الشمالى بعيدة عن المركز الاسمى للحكومة الأمبراطورية ، وقامت مبعثرة فى أنحاء المانيا مثل برونزيك ومجد بورج فى الداخل ومثل همبرج ولوبك وستتن من بين الموانئ الواقعة على الساحل ومثل وسبى وبرجن فيما وراء البحار فكانت بمثابة المعامل الأولى للوحدة — إذ يتضح أن هذه المدن أحست بمزايا الوحدة فكونت فيما بينها اتحاداً. ومن بوادر التقدم أن يدرك قوم أنه لا يمكن مزاولة تجارة ما دون موارد ودون طاقة مختزنة ودون معرفة بأساليب اختزانها .

والآن فلننظر كيف اصبحت المانيا أكثر تقدما وأمعن اقتصاداً فى طاقتها وأبعـــد نجاحاً فى تنظيمها السياسى ، لم تتوافر لها الفرص المواتية فى أول الأمر لتوسع فى رقعة أرضها بل أن هذه الفرص كانت تتناقص بالتدريج بسبب الأسلوب الذى جرى عليه الحكم الأمبرطورى وقد أعوزته القوة العسكرية الأمبرطورية فلم يتيسر للاقاليم الجديدة أن تتخذ لها وضعاً فى داخل الدولة ، ولـكن بعـد أن استقرت الإمبراطورية فى أوضاعها ظلت المسيحية فى انتشارها نحو الجنوب الشرقى بين الأقوام الوثنية التى جاءت ولا دين لها من مراعى آسيا السحيقة، كما انتشرت المسيحية إلى الشرق بين سكان الغابات الأوربية غير أن البلاد التى تحف بالشواطئ الجنوبية لبحر البلطيق والذى تناثرت خلالها البحيرات المختلفة كانت منيعة أمام التقدم المسيحى ، وبقى أهلهـا كفرة قروناً متوالية وهكذا وقفت ثلاثة أقاليم مختلفة تفصل بين الإمبراطورية الرومانية ذات المذهب الـكاثوليكى فى الغرب وبين الـكنيسة البيزيطية ذات الحضارة اليونانية فى الشرق ، أولها المجر وهى تقع أحضان جبال الـكربات وقد سكنها شعب اختلطت دماؤه من جراء تزاوج جميع الشعوب الرعوية التى سبق لها تهديد حضارة

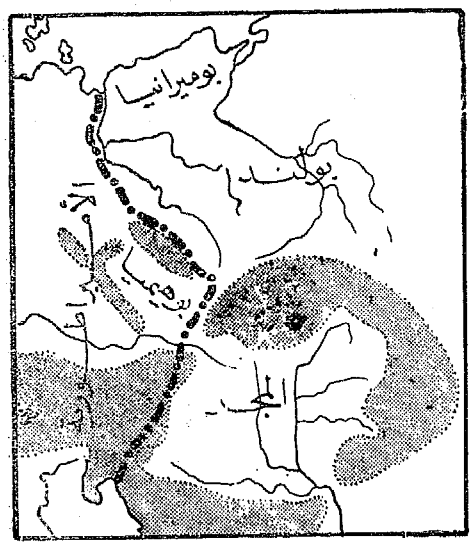
الخريطة رقم ٤٢



الأراضى التى وصلتها المسيحية حوالى عام ١٠٠٠ للميلاد
كانت الشعوب التى تسكن شواطئ البلطيق لا تزال وثنية

أوروبا ، ثم اقتبس الشعب المجرى الديانة المسيحية من روما وارتبط بالحضارة الغربية بحكم هذا الاتصال . وثانيها بولندا وقد تركزت فى وارسو غير أنها عديمة الحدود الطبيعية وقد سكنتها القبائل الصقلبية داخل الغابات — واتحدت قبائلها بعامل الخوف من الهجوم من الغرب ثم بفضل اعتناقها الدين المسيحى الذى نشرته بين البولنديين البعثات التبشيرية التى وجهتها الكنيسة الغربية إليهم ، وأخيراً إقليم بومرانيا ولتوانيا — وهى الأراضى التى ظلت وثنية فى الشرق وفى الشمال .

الخريطة رقم ٤٣



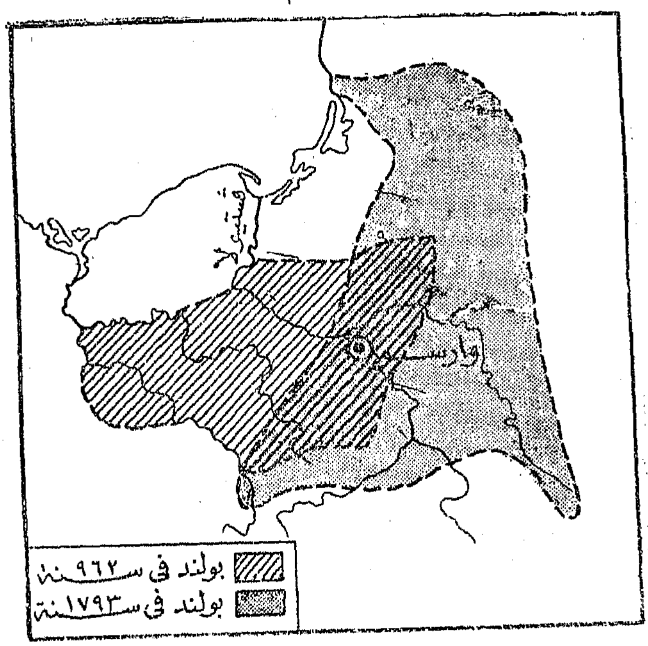
الأقاليم الطبيعية الثلاثة الواقعة إلى
الشرق من الامبراطورية

وكلما طال بقاء هذه الأقاليم خارج نطاق الإمبراطورية كلما صعب ضمها إليها فقد سهل ضم بوهيميا مثلا إلى الامبراطورية ، وهى إقليم طبيعى يسهل حكمه من براغ وتسكنه شعوب صقلبية ، ولما كانت بولنده تقع أكثر ايغالا فى الشرق وأبعد منالا فإنها نظمت فى الوقت المناسب تنظيما حال دون انضمامها فى نطاق الإمبراطورية على الرغم من المحاولات الكبيرة التى بذلت لاعتبار بولنده اقطاعا بل وقد أصبح الجزء الغربى من الدولة البولندية الأولى جزءا تابعا لألمانيا .

بقيت هذه الأقاليم إذن خطرا دائما على الحدود الشرقية وكان خطرها يتأرجح

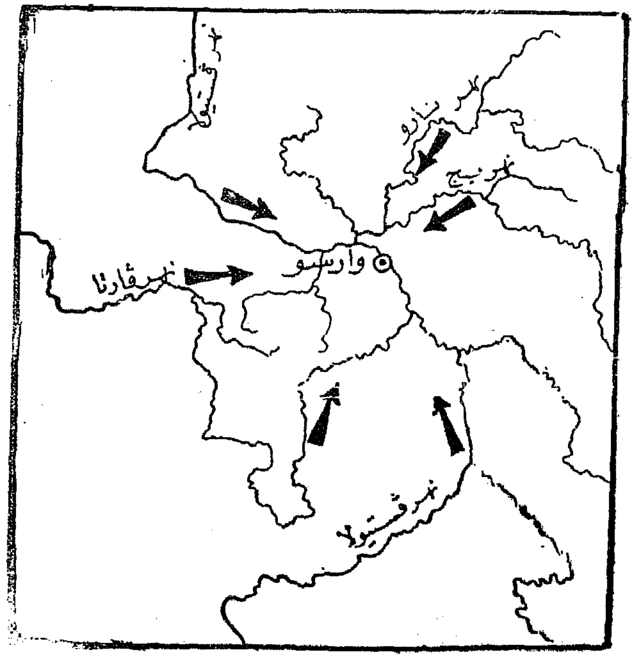
زيادة ونقصانا ، ومن جهة أخرى هيأ ذلك الخطر الفرصة للتوسع نحو الشرق إذا ما تم غزو أراضيه لا من قبل الامبراطورية ، بل من قبل الولايات الداخلة فى نطاقها ، وليس من قبيل الصدفة العارضة أن تقوم المراكز الألمانية الأولى فى الغرب بينما تنشأ الدول الأحدث عهدا فى الشرق ، فالخطر الشرقى أما أنه حال دون الانقسام أو أنه دفع بالاتحاد لمواجهته ، وقد انتهز حكام هذه الولايات الفرصة السانحة فوسعوا حدودهم شرقا وازدادت ولاياتهم اتساعا فضمنوها بلادا تخرج عن نطاق الامبراطورية ، ثم علا تدريجيا شأن دولتين على وجه الخصوص هما بروسيا والنمسا ، وقد قامت الأولى فى السهل الشمالى والثانية فى مرتفعات الجنوب،ونمت الدولة الأخيرة فى بادئ الأمر وحاول الامبراطور شارل الخامس تنظيم قلب شبه جزيرة أوربا ، غير أن محاولته باءت بالفشل بعد أن داعبها النجاح . أما لدولة الأولى فقد استغرقت زمنا طويلا فى نضوجها وإن حققت لألمانيا وحدتها فى آخر الأمر وهى الوحدة التى طال عليها الأمد قبل أن تتذوقها ، ومع ذلك فلا تزال دولة النمسا حتى الآن خارجة عن هذا المنظمة السياسية .

الخريطة رقم ٤٤



المساحة الوحيدة المشتركة بين بولندة القديمة وبولندة الحديثة هى الإقليم المحيط بوارسو

الخريطة رقم ٤٥



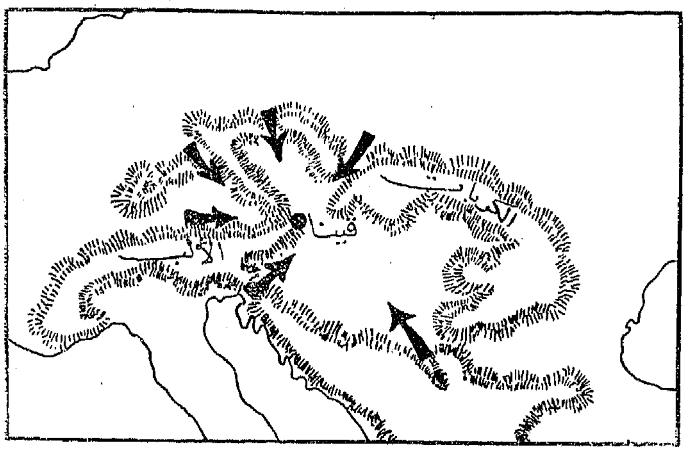
علاقة وارسو بمجموعة الأنهار
بولندة هى مساحة تتركز أساساً حول وارسو
وقبل أن تنشأ الطرق كانت للأنهار أهمية بالغة
إذ أن الطرق المائية فى بولنده تتجه كلها نحو وارسو

النمسا

تظهر خريطة أوربا كيف يمتد نطاق من المرتفعات عبر القارة مكونا من مجموعتى الألب والكربات وهو نطاق متصل غير منقطع إلا مسافة قصيرة فى بقعة واحدة حيث تتقارب المجموعتان واحدة من الأخرى . ولهذا صعب اجتياز ذلك الحاجز الجبلى إلا فى ذلك الموضع السهل فاضطر إلى المجئ إلى هذا الممر كل من رغب فى عبور تلك المرتفعات من سفح إلى سفح ، حربا أم سلما، ولذلك انحنت جميع الطرق لتمر بفيينا والأراضى المحيطة بها وأمكن من هذا الموقع صد فرسان المراعى فى زحفهم من الجنوب الشرقى ومنه أمكن التوسع بعد أن تم إخضاعهم ، وفيينا تبين لأول وهلة الحد الطبيعى المناسب للامبراطورية ، ومن ثم أصبحت ذات

أهمية بالغة ، ومن الطبيعى أن تتحد هذه المنطقة والأراضى التى تمتد وراءها إلى الشمال الغربى كى تواجه الخطر المشترك ، وقدر لحاكمها أن يكون رجلا مهما من بين رجال الامبراطورية ، فلا عجب بعدئذ أن يحتفظ بيت هابسبرج وهو الأسرة النمساوية فى جدارة واستحقاق بالتاج الإمبراطورى قرونا متوالية ، ثم أضاف الجالس على عرش النمسا إلى حكمه بلاد المجر بعضها بطريق الميراث والزواج وأغلبها بحق الفتح والغزو مما أضفى سلطاناً جديداً على سلطانه . وقد أصبح بمقتضى الزواج وريثاً لعرش المجر — ولما قضى الأتراك فى آخر الأمر على الإمبراطورية الرومانية الشرقية واستولوا على المجر قام آل هابسبرج بردهم على أعقابهـم واستعادوا تلك الأراضى إلى حظيرة العالم المسيحى وجعلوها ملـكا خاصاً لهم ، ولما أطاح نابليون أخيراً بالإمبراطورية الرومانية المقدسة بقيت دولة النمسا والمجر ملتفة حول ڤينا وهى عاصمة يسهل إدارة دفة الحـكم منها بحيث يصل إلى أجزاء عديدة مختلفة .

الخريطة رقم ٤٦



موقع ڤينا

وقد نضجت النمسا مبكرة من بين الولايات الشرقية الألمانية لأن الخطر المطل عليها من الجنوب الشرقى كان أكثر وضوحاً وإلحاحاً عن أى خطر يصدر من أى اتجاه آخر ولهذا سببان ، فإن وجود الإمبراطورية الرومانية الشرقية وقوة الدفع

التى سارت بها المدنية فى الجنوب الشرقى كان له أكبر الأثر فى خلق جماعات منتظمة داخل القوس الكرباتى وفى مرتفعات البلقان . أضف إلى ذلك أن الأراضى التى عاشت فيها تلك الجماعات ما زالت شبه رعوية فظلت معرضة لهجوم جحافل الرعاة من الشرق حتى برزت روسيا من غمار غاباتها وسدت الطرق فى وجوههم ، وقبل قيام روسيا كثيراً ما تجددت الغزوات من الجنوب وازداد خطرها كلما أصبحت أدق تنظيما وفاقت كل خطر يصدر من أى جانب آخر ، فلا غرو بعدئذ أن تقوم هنا دولة تقاوم ذلك الهجوم .

روسيا

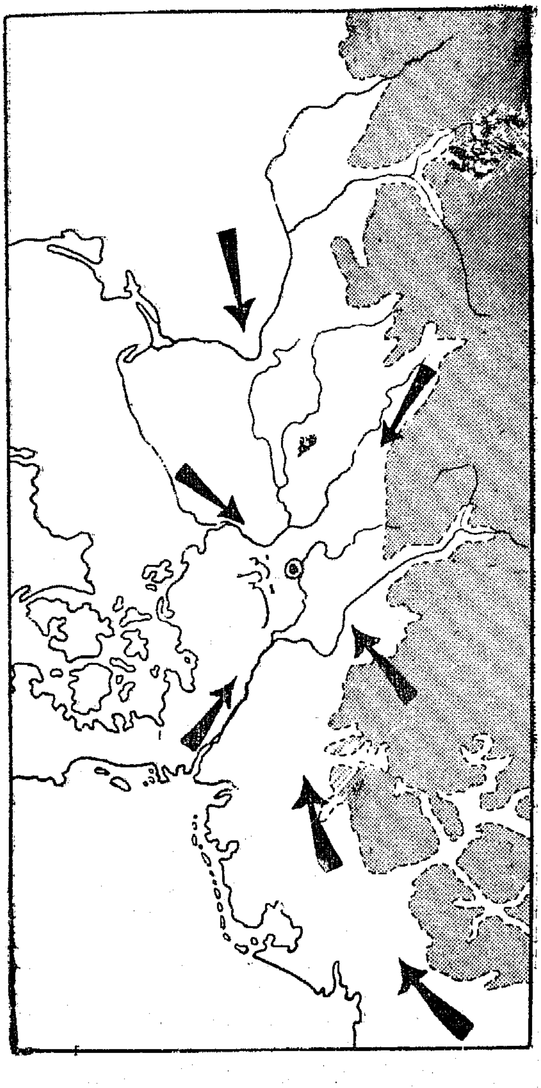
أما التهديد الذى كان مصدره الغابات والمستنقعات الواقعة بين جبال الكربات وبحر البلطيق فلم يكن خطيراً قط لأن الانتقال فى هذه المناطق كان عسيراً بقدر ما هو يسير فى بلاد الاستبس والمراعى ، ولهذا لم تك ثمة حاجة تدعو إلى الدفاع عن الحدود الشمالية الشرقية والاحتفاظ فيها بقوات كبيرة ، وبمعنى آخر فإن الخطر الصادر من الجنوب الشرقى هو الذى أضفى فى واقع الأمر بعض الأهمية على الجبهة الشمالية الشرقية لأن هجوم المجريين أثار شهوة الفتح عند هنرى السكسونى وابنه أوتو الأكبر وبقية السكسون من بعده ، إذ وجدوا بين أيديهم قوات يتصرفون فيها كيفما شاءوا ، وقد خبروا تنظيم الجيوش والحكومات فحاولوا أن يفيدوا من خبرتهم وتجاربهم فى جهات أخرى ، ولهذا نظموا الإقطاعيات الشمالية حوالى عام ٩٣٠ وأسسوا أسقفية براندنبرج فى منتصف القرن العاشر ، وفى ختام ذلك القرن حاولوا نشر المسيحية بين أهل بروسيا الوثنيين الضاربين إلى الشرق منهم ، غير أن محاولتهم باءت بالفشل ولم يحرزوا تقدماً فى هذا المضمار إلا بعد أن سرت فكرة الحروب الصليبية خلال العالم المسيحى ، وحوالى عام ١٢٠٠ للميلاد ارتاد المستعمرون والمبشرون بروسيا الشرقية ، غير أن نتائج جولاتهم لم تكن مرضية فاستعانوا بالفرسان التوتونيين الذين خفوا يمدون لهم يد المساعدة ، ونظموا البلاد

وحولوا أهلها إلى الدين المسيحى واستقر الألمان فى ظل حكمهم ، بيد أنهم ظلوا يعترفون بسيادة بولنده لا بسيادة الإمبراطورية وحتى بعد أن بدأ القرن السادس عشر ظلت الولاية دوقية منفصلة تحت زعامة أمير من أسرة هوهنزلورن وهو القائد الأعظم للواء الفرسان .

واستمرت الحال على هذا المنوال ، ولم يك أميرها حاكما مستقلا حتى بعد أن آلت دوقيه بروسيا إلى ناخب براندنبرج بعد قرن من الزمان ، ولم يك بد من أن تتعرض لهجوم خطير من ناحية الشمال الشرقى حتى تتماسك الولاية بعضها ببعض ، وقد جاء ذلك الهجوم من السويد وخرجت بروسيا من هذا الصراع دولة مستقلة كما ضعفت بولندا وفقدت سكسونيا أهميتها نهائياً ومما هو جدير بالذكر أن ناخبها كان ملك بولنده فى نفس الوقت .

وفى أثناء ذلك بدأت حركة الإصلاح الدينى والبلاد لا تزال مفرقة أيدى سبأ ، وقد اعتنقت النمسا تحت قيادة آل هابسبرج المذهب الكاثوليكى العتيد لأنها ترتبط بروما بروابط تاريخية وجغرافية ، بينما أصبح السهل الشمالى بروتستانتيا ، وظل كذلك لأنه أقرب إلى الوحدة بطبيعته من مرتفعات الجنوب بالرغم من أنه لم تضمه قط وحدة قوية ناجحة حتى ذلك الحين ، وهو بهذا الوضع أكثر استعداداً لتقبل المساعدة التى قد تأتيه من الخارج ، وهكذا زادت الفروق بين الشمال والجنوب حدة على حدتها ، وحلت المنافسة السياسية محل الحماس الدينى ووقفت النمسا وبروسيا موقف العداوة السافرة ، وتبع ذلك بطبيعة الحال قيام صراع بينهما ، كانت تكسب فيه بروسيا ما تخسره النمسا حتى بلغت الأزمة ذروتها فى عام ١٨٧٠ بعد هزيمة النمسا بأربعة أعوام ، فتمكنت بروسيا من السيطرة على السهل الشمالى ووحدت ألمانيا وأنف فرنسا راغم ، وظهرت الإمبراطورية الألمانية فى شكلها الحديث تحت قيادة بروسيا ، تضم كل البلاد التى تتكلم الألمانية عدا النمسا والبلاد الواقعة فى مصبات الراين والتى أحرزت استقلالها بعد اكتشاف تجارة المحيطات (هولنده) .

هذه هى ألمانيا — دولة حديثة تحتل موقعاً متوسطاً فى أوربا تستمتع بمزاياه طالما كانت تتمتع بحكم قوى حقاً .



الخريطة رقم ١٧

موقع برلين

تقع برلين فى السهل عند تقابل الطرق البرية الطبيعية الكبرى

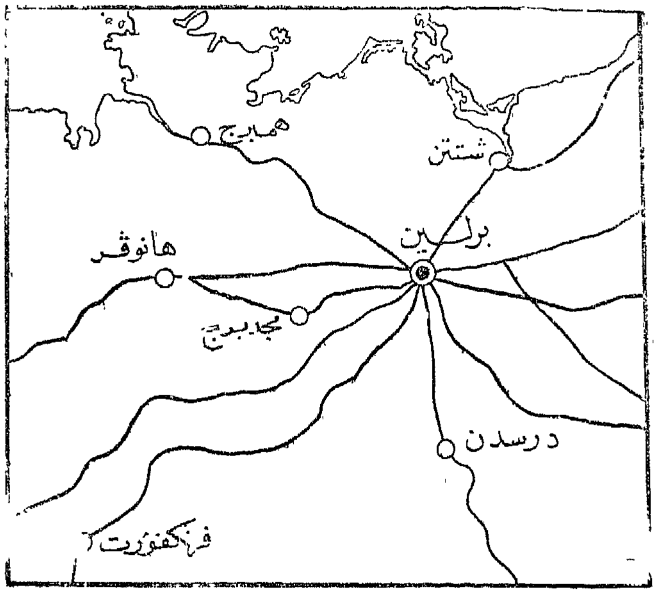
وهكذا تكونت الدولة الألمانية مركزة فى برلين بمقاطعة برندنبرج عند تقاطع الطرق التى تجرى بمحاذاة وديان الأودر والإلب وحيث تتقابل الطرق الطبيعية المتجهة شرقا وغربا فى السهل الشمالى مع الطريق القديم الذى يجرى بين مصب الأودر وقاعدة الفرنجة القديمة — ثم جرى تنظيم الدولة الألمانية فيما بعد على أساليب حديثة وقلت بالتــالى النظم البالية التى يجب التخلص منها كما كان الحال فى إيطاليا أو فرنسا أو أسبانيا بل وفى بريطانيا أيضاً ، بل ولعل خير مزاياها

أنها قطعت الشك باليقين فاعتقدت بأن النظم القديمة يجب أن تزول ، وسيطر عليها حكام أدركوا أن ألمانيا وحدة واحدة ولا بد أن يجعلوا شعبها يدرك هذه الحقيقة .

ولما كانت ألمانيا قد بدأت تسير فى مصيرها المقدور والانقلاب الصناعى يؤتى ثمراته فقد أخذت تنشىء الطرق الحديثة متجمعة فى برلين وتشع منها إلى جميع الاتجاهات دون تحيز ، مما جعلها قطب ألمانيا الجغرافى بلا منازع كما هى لندن بالنسبة لبريطانيا أو باريس بالنسبة لفرنسا، وهكذا أرغمت البلاد بالقوة لكى تصبح وحدة حربية واقتصادية . وقد نظمت صناعتها كى يسهل اقتصاد الطاقة واستغلالها، ووجه التعليم فيها بحيث يؤدى إلى تدريب الناس كيف يستغلون الطاقة على خير وجه وكيف يبحثون عن الأساليب الفنية الجديدة للافادة منها، فتمت أعمال عظيمة بفضل الطاقة المستخرجة من مناجم فحمها ، وتمت الأعمال الكبرى بأقل مجهود بشرى وبأحسن النتائج . وانقلبت الآية فبعد أن كانت لفظة « صناعة ألمانية » تقال من قبيل الذم أو القدح صارت شعاراً يحتذى وتنقش بحروف ضخمة على جوانب السفن الألمانية العظيمة وهى تمخر عباب البحر وتتهادى فى مياه سوثهمبتن بعد عودتها من رحلتها عبر المحيط الأطلسى .

وقد أعدت ألمانيا لنفسها جيشاً قويا يكفل الدفاع عن أرضها ضد أى هجوم يأتيها من البر وخضعت دون شك للحكومة المركزية وسلطانها ، ولأول مرة منذ أيام شارل الأكبر (شارلمان) حكمت ألمانيا من براندنبرج فى بروسيا وبعبارة أخرى أديرت دفة شئونها لأول مرة فى تاريخها من بلاد تتصل بالبحار أى بلاد العصبة الهنسية التى كانت قاعدة انجلوسكسونية فى سابق الأيام — وقد بحثت ألمانيا عن نصيبها فى عالم المحيطات أما اضطراراً وأما اختياراً فأنشأت قوة بحرية واستخدمت الأسطول والجيش فى وقت معاً محتذية المثل الذى ضربته روما ومقدونيا من قبل .

الخريطة رقم ٤٨



عكن تشبه السكك الحديدية فى تقابلها فى برلين
كما لو كانت بيتاً للعنكبوت

قد أحرزت ألمانيا تقدما دون شك وهو بكل تأكيد وليد تحكم عوامل معقدة بعضها جغرافى وبعضها تاريخى ؛ واستهوت الكفاية المادية عقول الألمان فجرت منهم مجرى العقيدة والإيمان وكانت سببا فى اشعال نار الحرب العظمى واستنفدت العبقرية الألمانية جهود العالم أجمع لاخضاعها ، وعلى الرغم من أن ذلك الصراع انتهى على ما انتهى عليه إلا آن ذلك لن يغير من وضع ألمانيا الجغرافى أو الخصائص التى امتاز بها الشعب الألمانى .

الفصل الثالث عشر

أرض الأنهار — الصين

يبدو طبيعياً أن يجرى التاريخ الذى بدأ بعصر على النحو الذى جرى به، كما يبدو طبيعياً أيضاً أن ينشئ الإنسان فى أوربا طراز الحضارة الذى نسميه الحضارة الغربية بعد أن عرف كيف يسيطر على الطاقة التى أتاحتها له الظروف الطبيعية فيها .

ولنتجه الآن فى دراستنا نحو الشرق ولنبـدأ بالشرق الأقصى أولا — أى بالصين — هنا نرى أن تاريخ الصين مسير بجغرافيتها بقدر ما كان تاريخ أوربا نتيجة لتحكم جغرافيتها ، ونرى تاريخ الصين مختلفاً أشد الإختلاف عن تاريخ أوربا لأن الجغرافية فى كل من الإقليمين تختلف اختلافا بينا ، وبموازنة الفروق بين التاريخين يتضح كيف كانت جغرافية كل إقليم ذات أهمية بالغة ، ولهذا ينبغى أن نلحظ السمات المشتركة فى التـاريخ والجغرافية فى كل من الإقليمين وأى الظواهر تبرز فى تاريخ أوروبا وجغرافيتها وتنعدم فى تاريخ الصين وجغرافيتها وأى الظواهر تحضر فى تاريخ الصين وجغرافيتها ولـكنها تنعدم فى أوربا .

* * *

وتظهر خرائط الشرق الأقصى الحقائق الآتية :

أولا — تقع الصين فى الجبهة الشرقية لقارة أوراسيا العظيمة بين خطى عرض ٢٠و٤٠ شمالا فهى خاضعة للنظام الموسمى برياحه وأمطاره ، وهى فى حجم أوربا تقريباً باستثناء روسيا أى ما يوازى نصف مساحة الولايات المتحدة [١] .

ثانياً — أن الصين تحيط بها مساحات عظيمة من المرتفعات من ناحية اليابس وتحف بها هضبة التبت من الجنوب وهى أعلى هضاب الدنيا .

(١) تظهر بعض الخرائط السياسية الصين متضمنة جزءاً كبيراً من آسيا الوسطى، غير أن منغوليا قد تخلصت منذ زمن من سيادة الجمهورية الصينية

ثالثاً — أن البحر يحيط بالصين على شكل قوس عظيم على هيئة ربع دائرة تقريباً ، ولا يقع فيما وراء البحر أى أرض من أراضى آسيا بل ولا نجد بلاداً ذات بال قبل أن نصل إلى الشاطئ الآخر من المحيط الهادى[1] . أضف إلى ذلك أنها خلت من وجود بحر داخلى كالبحر المتوسط .

رابعاً — ان الصين خلت من أشباه الجزر باستثناء شبه جزيرة شانتونج وهى تمتد فى اتجاه شمالى شرقى .

خامساً — ان الصين تخترقها ثلاثة أنهار عظمى تنبع من الهضاب الداخلية وتجرى نحو البحر . أبعدها شمالا هو نهرالهوانج هو وهو يجرى فى أكثر أجزاء جهات الهضبة انخفاضاً من جهة الشمال .

أما نهر اليانجتسى والسيكيانج فهما ينبعان من هضبة التبت العظيمة الارتفاع، وحينما ينحدر اليانج تسى فلا يمتاز فقط من بين الأنهار الثلاثة بأنه أعظمها طولا ولكن ميزته الكبرى فى أنه يظل يجرى فى بلاد مرتفعة فى الجزء الأكبر من مجراه، بعد انحداره من الهضبة، أما نهر السكيانج فيجرى فى واد يحف به من الجنوب نطاق من الجبال المرتفعة .

وكان لهذه الحقائق الطبيعية جميعاً أثرها فى مختلف العهود فى أسلوب يماثل تمام المماثلة الأسلوب الذى أثرت به الحقائق المشابهة لها فى التاريخ الأوربى .

وإنا لا نعلم كيف ظهرت تباشير الحضارة فى الصين ، بل ولا نعلم على وجه التدقيق متى بدأت ، وعلى أية حال فمن الثابت أن تاريخ الصين بدأ متأخراً جداً عن تاريخ مصر ومتأخراً بعض الشئ عن بدء تاريخ بابل ، وليس عسيراً تعليل هذا التأخير فليس فى الوجود مكان كفلت له الطبيعة المثل الأعلى من الحماية كما كفلتها لمصر ، وليس فى الصين صحراء تولت حماية واد حماية كاملة كما فعلت الصحراء فى حمايتها لوادى النيل ، ومع ذلك فإن مبادئ الحضارة الصينية تشبه مبادئ الحضارة الغربية بالقدر الذى سمحت به الظروف الجغرافية .

---

(١) تقع بيكين على محور أرضى تكاد تناظرها تماما قلبا ريزو فى امريكا الجنوبية ، وهذا يعنى ان المحيط الهادى يشغل نحو نصف عرض الكرة الارضية

لقد سبق أن ذكرنا أن سهلا عظيما مثلث الشكل يحتل جزءاً عظيما من أواسط قارة أوراسيا وتحف بأراضيه المنخفضة من جميع النواحى مجموعات من المرتفعات باستثناء الجانب الشمالى منها وتتسع هـذه المرتفعات فى القطاع الشرقى من آسيا فتغدو أكثر من نطاق يحيط بالسهل ، فترى هضبه مثلثة متسعة الأرجاء تواجه الجنوب الشرقى والشمال الشرقى — وهى على ثلاثة مستويات مختلفة ، هضبة التبت وهى أكثر ارتفاعا فى الجنوب ويتراوح علوها من ميلين إلى ثلاثة أميال وثانى هذه المستويات المنطقة الممتدة حول بحيرة بيكال وتتراوح فى ارتفاعها من نصف الميل إلى ثلاثة أرباعه ، ثم باقى الهضبة ويبلغ من الارتفاع حداً يقل عن نصف الميل — وكل هضبة من هذه الهضاب تحف بها سلاسل جبلية . أما هضبة التبت فهى لا تصلح للسكنى دائماً عدا بقاع معينة منهـا وذلك بسبب عظم ارتفاعها وما يستتبعه من برد وجفاف .

وأكثر هذه القطاعات الثلاثة انخفاضاً تحف بها سلاسـل الجبال من كل جانب مما يجمل جزءاً عظيما من الرطوبة التى تحملها الرياح فى هبوبهـا على داخل القارة — يتكاثف قبل أن يصل إلى البلاد الداخلية — وأصبح سطح هذه المنطقة كسطح السهول الواقعة إلى الغرب منها — بعضه صحراء وبعضه تغطيه الأعشاب وليس فيه من المياه ما يكفى حاجته إلا عند سفوح الجبال حيث تنحدر المجارى المائية إلى الأراضى الأكثر انخفاضاً ، وهكذا نرى الصين تحوى فى النصف الجنوبى من حدودها الغربية مساحة واسعة من الأراضى يتعذر اختراقها تماماً . والنصف الشمالى من هذه الحـدود هو شبه صحراوى ليس عسير الاختراق حقاً بدرجة تجعله حصناً حصيناً فى الدفاع عن الصين ولـكنه يكفل لها حماية أقوى على أية حال . هـذه الحصون الطبيعية فى كلا الشمال والجنوب تمتد امتداداً بعيداً نحو الغرب .

ولو أننا دققنا النظر فى خريطة الصين لرأينا أن نهر الهوانج هو حين يهبط من من مرتفعات منابعه إلى السهل ، يتصل برافد من روافده هو نهر وى أو « النهر الصافى » وقد حفر واديه عميقاً فى الهضبة المحيطة به ، هذا الوادى هو مهد الحضارة

الصينية حيث استخدم قدماء الصينيين الفؤوس لأول مرة كما فعل إخوانهم أهل مصر والكلدان من قبل، ولم يقتصر استخدامهم إياها على عزق التربة بل واستعملوها فى حفر الترع والخنادق .

هنا تكفلت الطبيعة بتزويد البلاد بقسط موفور من الحماية وأحاطتها بأراضى شبه صحراوية وفى هذا الركن من العالم كما هى الحال فى مصر وبابل تبدو الفوارق الفعلية بين الشتاء والصيف أبرز ما تكون وفوارق الحرارة والبرودة أبرز وضوحا عنها فى مصر وبلاد الكلدان إلا أنها لا تصل حداً من التطرف يبعث بالملل والإرهاق، والماء هنا ليس وفيراً حتى يوحى بالإسراف فى استعماله . وهكذا توافرت الحماية الطبيعية واقترنت بحافز خاص يدفع الإنسان إلى إعمال الفكر حتى يفيد أكبر فائدة من الظروف المحيطة به فهو فى بلاد مواردها الطبيعية ليست بالوفرة التى تقتل النشاط والتفكير وليست بالقلة بحيث يتعذر استغلالها ، وليس من قبيل الصدفة إذن أن تظهر الحضارة لأول مرة فيما بين خطى عرض ٣٠ ، ٣٥ شمالا على سطح الأرض فى مناطق مبعثره بعدت الشقة بينها بعداً سحيقاً .

هذا ومع أن تباشير الحضارة الصينية كانت لدرجة ما من طبيعة بوادر الحضارة الغربية وخضعت لظروف تشبه تلك الظروف التى تحكمت فى سير الحضارة الغربية إلا أنها ذات خصائص وصفات مختلفة ، ومن ثم تطورت تطوراً مختلفا ، وقد نكون أصدق قولا لو قلنا أن الحضارة الصينية ظلت تنمو طوال تاريخها على سننها الأولى بينما تأثرت الحضارة الغربية كما رأينا بعوامل مختلفة فتأثرت بهذا العامل تارة وبذاك العامل تارة أخرى .

واختلاف الموقع مسئول عن هذا التطور لدرجة عظيمة ، لأن الأراضى الصالحة للسكنى والاستقرار فى مصر صغيرة المساحة ومحددة تحديدا واضحا لا لبس فيه ، كما أن الأراضى التى تحف بنهرى دجلة والفرات ليست واسعة المدى وإن صلحت لتكون دولة صغيرة تفوق مصر فى حجمها ، وربما كان فى هذه الأوضاع مزايا لسكنى جنس بدائى من البشر أما فى الصين فإن وادى نهر وى وامتداده فى

الوادى الأوسط من نهر الهوانج هو يؤديان إلى سهل دلتوى من أخصب سهول الدنيا قاطبة ، وهنا يتسع المجال للراغبين فى الاستيطان والاستقرار كما تسنح الفرصة لهم بعد أن يستقروا فيدرجون فى سلم الحضارة والرقى إن ضاق بهم المجال فى بلادهم الأولى . وإذا انتقلوا من الوادى إلى السهل فليس هناك ثمة داع يدعوهم لتغيير مهنتهم أو صناعتهم ، وليس هناك من بلاد أخرى يتبادلون معها التجارة وبالتالى ليس ثمة ضرورة لوجود « طريق تجارى » يمكن أن يكون سبباً فى خلق ظروف أخرى وحضارات أخرى . والدلتا تتطلب نوعا واحدا من الحضارة فحسب ، وإن تناوله قليل من التحوير حتى يمكن الإفادة على خير وجه من بلاد تكثر فيها المستنقعات وتمر خلالها مجارى طبيعية تحمل الماء إلى البحر وهى دائمة التقلب فى مجاريها ولا تثبت على حال .

هذه هى الصين الأولى . وربما سكنها الإنسان الأول فى عصر ما قبل التاريخ ، وقبل أن تظهر بها تباشير المدنية التى نتحدث عنها الآن ، وعاش فى هذه البقعة — وربما إلى الجنوب منها — أناس لا يزال أحفادهم يعيشون فى المناطق الجبلية المنيعة الممتدة إلى الجنوب الغربى ، هجروا أوطانهم الأولى تحت ضغط الهجمات التى شنها عليهم جنس يفوقهم رقيا وحضارة .

الخريطة رقم ٤٩

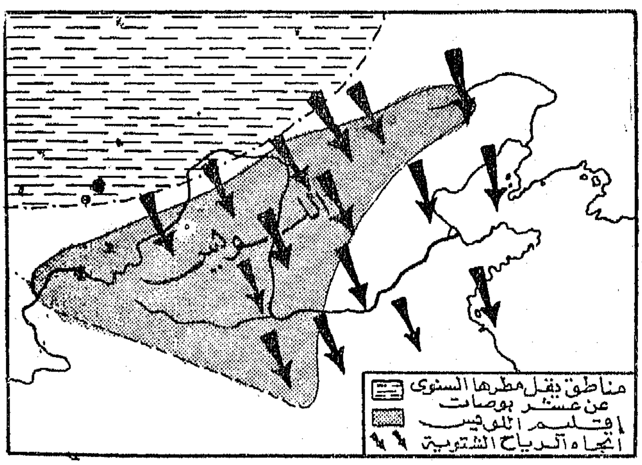


وادى نهر وى وسهل الصين العظيم

وربما كانت هذه الجماعات هم العنصر الأول الذى توالد منه الصينيون الحاليون، ذلك العنصر الذى تأثر أيضاً فى طبائعه وخصائصه بفروع جنسية أخرى عديدة اتصلت به .

وقد اقتصرت الحضارة الصينية حتى القرن الثانى للميلاد على نموها فى البقعة الأصلية من الصين أى البلاد الصفراء — الصفراء بتربة اللويس المستمدة من منطقة المراعى القريبة — يرويها النهر الأصفر ، وقد أصفر ماؤه بطميه الأصفر قاذفا بحمله من الرواسب إلى البحر الأصفر — وقد علته صفرة ترجع إلى نفس السبب — وقد استغرقت حضارة الصين فى نموها مدى ألفين أو ثلاثة آلاف عام وهى ترقى فى بطء شديد بالوسائل البدائية للحرث والرى وهما لا يزالان إلى اليوم أهم مميزات الجنس الصينى .

الخريطة رقم ٥٠



اقليم اللويس

اللويس هو ذرات التراب الدقيقة التى تحملها الرياح الموسمية الشتوية الجافة من الأقاليم الوسطى المجدبة ثم تتجمع على حافة الهضبة .

ولكن لماذا اقتصر الصينيون فى سكناهم على شمال المنطقة التى نطلق عليها الآن اسم بلاد الصين ؟ لابد أن البحر وقف أمامهم حاجزاً قبل بدء عهد المحيطات . وهو أمر طبيعى جدا ، ولا بد أن الهضاب بوحشتها قد صدتهم عنها فلم تغرهم

باستيطانها ، أما المناطق الشمالية الممتدة بين الجبال والبحار فلم تكن بأكثر جاذبية من الهضبة وإغراء . ويسهل الوصول إليها عن طريق شريط ضيق من الأراضى المنخفضة بين الجبال والبحر وهو فى الزمن الغابر أضيق منه فى الوقت الحاضر . ومع ذلك فلنتساءل لماذا لم يذهب الصينيون جنوبا ؟ وقد يبدو السبب بينا فى أن بلاد الصين الوسطى والجنوبية أى حوض اليانج تسكيانج والسيكيانج يختلفان فى طبيعتهما عن حوض نهر الهوانج هو ، وتظهر الخريطة أن أحواضهما تكثر بها التلال وبعض أجزائهما جبال عالية ، وينبغى أن نلحظ أن سلسلة جبال تسن لنج تقع إلى الجنوب مباشرة من مصب نهروى ومن المجرى الأوسط لنهر هوانج هو ، هذه السلسلة وامتدادها إلى الشرق كانتا تغطيهما الغابات عصورا مديدة فلم تجذب إليها الفلاح الصينى إلى أن اكتظ السهل بسكانه ووصل إلى الحد الأقصى من قدرته على استيعاب السكان — ولم يكن الأمر مقصورا على الجبال بما يغطيها من غابات بل أن جميع الأراضى الممتدة إلى الجنوب بفضل دفء مناخها ورطوبتها تكاثفت النباتات فيها حتى وصلت حد الغابات واقتضى الأمر اجتثاثها شيئا فشيئا قبل أن يتيسر للانسان الإقامة بها إقامة مستقرة .

الخريطة رقم ٥١



حدود الصين القديمة ---- أعلى من ٥٠٠٠ قدم أعلى من ٦٠٠ قدم

الحد الجنوبى لدولة الصين القديمة
وكانت تمتد الغابات والأحراش جنوبى هذا الحد

ولم تبذل محاولات جدية لتوسيع نطاق الحكم الصينى حتى يشمل هذه البقاع

الاقرب نهاية القرن الثالث قبل الميلاد — على الرغم من أن المهاجرين الصينيين ظلوا طويلا ينشرون الحضارة الصينية فى بطء نحو الجهات الجنوبية ولو أن عملية نشرها لم تتم نضوجا إلا بعد قرن أو قرنين من الزمان ، ومما هو جدير بالذكر أن أول محاولة بذلها الصينيون ليحكموا الجنوب حكما ناجحا قامت بها أسرة « تسن » التى لم تعمر طويلا ومن اسمها اشتقت كلمة الصين التى نطلقها الآن على البلاد . وقد تركت هذه المحاولة ناقصة لتتمها فعلا أسرة « هان » التى حكمت الصين مدى أربعة قرون — قرنان قبل ميلاد المسيح وقرنان بعده — ولا يزال الصينيون يسمون أنفسهم « شعب هان » اشتقاقا من اسم هذه الأسرة .

وقد نتسائل مرة أخرى إذا كان جنوب الصين يختلف اختلافا بينا عن الشمال فلماذا استطاعت حضارة الشمال غزو الجنوب ولو فى بطء شديد ؟ . وكيف استطاعت توحيد الشمال والجنوب حتى خلقت منهما دولة واحدة وأن كان ذلك تم فى بطء؟ وبعبارة أخرى كيف كانت الصين وكيف لا تزال أمة واحدة متجانسة العناصر ؟ — نجد الجواب فيما يلى : —

على الرغم من أن الجنوب بلاد جبلية إلا أنه احتوى عدداً من الأنهار والوديان — أنهار دائمة الجريان وإن اختلفت كمية ما تحمله من مياه تبعا لاختلاف الأمطار الموسمية ، ومشاكل الرى والزراعة فى الجنوب — وإن كانت أكثر تعقيداً — لا تختلف فى طبيعتها عنها فى الشمال والزراعة على سفوح الجبال فى الجنوب ميسورة وإن وصلت إلى ارتفاع يزيد بطبيعة الحال عما تصل إليه فى الشمال وهكذا أصبح فى الإمكان قيام حضارة واحدة فى الشمال والجنوب — والصينيون قوم تأصلت فيهم خبرتهم بالزراعة والرى منذ أكثر من ثلاثة آلاف عام واستندوا إليها فى إنماء حضارتهم فأصبح القصور الذاتى الجغرافى الذى تسير به حضارة الصين الشمالية قوة دافعة تجرف فى طريقها بسهولة كل ما قد يقف أمامها من عقبات جدية .

ولو أن شعوبا أخرى ذات مثل وأخلاق مختلفة كالرومان مثلا وهبت فرصة الحياة فى جنوب الصين لسارت فى بناء حضارتها سيراً آخر إلا أن الصينيين ساروا بها فى الجنوب على النهج الذى اتبعوه فى الشمال فاذا ما تغلبوا على الصعاب

الأساسية وجدوا كل بقعة من أرض الصين تصلح لأن تنمو فيها بذور الحضارة الصينية الخالصة وليس من قبيل الصدفة أن يذكر اسم أول حاكم لأقليم تشوان بعد ضمها للامبراطورية الشمالية — فقرن باسمه أعمال الرى العظمى التى أنشأها ولا تذكر له مشروعات الغزو والفتح التى قام بها ، كما فاقه ابنه وخليفته من بعده فى شهرته لنفس الأسباب فاستحق أن يقام له معبد من أفخم معابد الصين تمجيداً لذكراه .

وقد كانت أسرة هان تتربع على عرش الصين فى العهد الذى ازدهرت فيه الامبراطورية الرومانية وبلغت أوج عظمتها — وقد واجهت الامبراطوريتان مشاكل متشابهة على الرغم من أختلافهما من عدة وجوه . ففى كلا الحالين نرى امبراطورية متسعة الأرجاء يتطلب حكمها من وسائل الاتصال ما يربط أجزاءها ببعضها ، وقد رأينا كيف كانت الطرق اختراعا رومانيا ، أما أهل الصين فقد تعودوا الملاحة فى الأنهار ، ومن الطبيعى أن يتجه تفكيرهم إلى نهر اليانج تسى العظيم بروافده باعتباره مجموعة من أعظم الطرق المائية فى العالم — الأمر الذى ساعد على ربط كيان الامبراطورية الصينية ببعضها وبدونه لتفتتت أجزاء متفرقة — حقا نوجد وحدات صغرى على طول أحواض الأنهار الصغيرة والكبيرة ولكنها جميعا تتطلع إلى النهر الأعظم الذى يربطها جميعا ربطا محكما — ويلعب نهر السكيانج فى الجنوب دوراً مماثلا لدور اليانج تسى وإن لم يصل إلى مرتبته فى الأهمية .

ولهذه الظاهرة نتيجة مزدوجة — إذ نجد الأحواض الصغرى للأنهار تكون الأقسام السياسية الصغرى وهى ظاهرة تبدو دائماً طوال التاريخ الصينى ، كما تكون أحواض الانهار الكبرى الأقاليم الريفية الكبرى التى تظهر وتختفى ثم تعاود الظهور بأسماء مختلفة ، كلما تناولها التنظيم على فترات متعاقبة . ومن ناحية أخرى نجد أهل الصين ينظرون إلى الأنهار على أنها الوسيلة الطبيعية الوحيدة لنقل التجارة — وقد سيطرت فكرة الانتقال بالطرق المائية على عقولهم لأن بعض أنهار الصين كان المثل الأعلى فى صلاحيته للملاحة ، فأخذ الصينيون يبذلون جهوداً

متوالية لا تنتهي بقصد اخضاع الأنهار الصغرى وجعلها تساير أغراض الملاحة على الرغم من أنها لم تكن تلائم مثل هذا النقل ، ولا يخلو من مغزى خاص أن الصينيين يسمون الطرق البرية — هذا إن وجدت — « بالطرق الجافة » وهو استطراد طبيعي لفكرتهم في أن الطريق هو في الأصل طريق مائي أو بعبارة أخرى هو نهر من الأنهار .

ويتضح من هذا أن الصين هي أرض الأنهار لا من حيث أن الانهار تجرى خلالها ، بل بمعنى أن الانهار هي الظاهرة المسيطرة التي تركت في تاريخها أثراً عميقاً كما سبق لنا أن رأينا ظاهرات أخرى سيطرت على بلاد أخرى فوجهت تاريخها توجيها خاصاً

ومما له دلالة خاصة أنه لما انهار حكم أسرة « هان » في عام ٢٠ الميلاد انقسمت الصين أجزاء ، كما انقسمت الأمبراطورية الرومانية الغربية في القرن الخامس ولكن الصين لم تتفتت إلى وحدات تكاد لا تقع تحت حصر ، بل اقتصرت في انقسامها على ثلاث وحدات فقط .

١ — الصين الأصلية في الشمال .

٢ — وادى نهر اليانج تسى الأدنى .

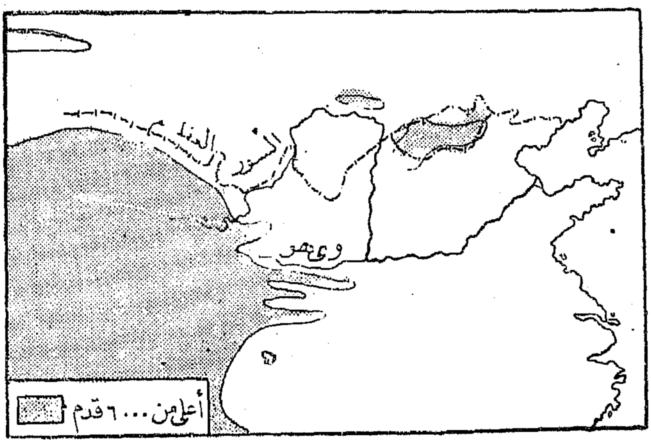
٣ — ولاية ستشوان وهي التي تفصلها عن وادى اليانج تسى الأدنى سلسلة كبيرة من المساقط عند مدينة اتشانج الحديثة .

ومما له دلالته أيضا أن هذا الانقسام لم يعمر طويلا فلم يطل أجله إلى أكثر من جيل واحد . غير أن الصين لا ترتبط اجزاؤها بفضل وجود سلطة حاكمة تنشر حكمها من مقر لها ، ولكنها ترتبط ببعضها بفضل وحدة سكانها الذين اتفقت أفكارهم ومثلهم في الحياة وتآلفت مشاربهم وعاداتهم ، وما ذلك إلا لأن الحقائق الجغرافية كانت في أساسها واحدة أو أنها وجهت لتعمل على تحقيق وحدتهم .

ثم أن ظروف الصين كانت شبيهة بظروف روما على نحو آخر فقد انهارت روما تحت ضغط الهجوم الذى شن عليها من السهل بطريق مباشرة وغير

مباشرة — ودافعت روما عن نفسها باتخاذها نهرى الرين والطونة خطوط دفاع لها وبانشاء الحصون لتحول بالقوة الحربية دون استقرار القبائل المغيرة فى ربوعها.
كذلك تعرضت الصين لظروف مماثلة فاضطرت حتى فى زمن يرجع إلى أسرة « تسن » أن تبنى جداراً هائلا على طول جبهتها الشمالية الغربية لتذود عن حدودها الوحيدة المفتوحة هجوم القبائل المتنقلة الضاربة فى الهضاب الجافة التى تشبه الصحراوات .

الخريطة رقم ٥٢



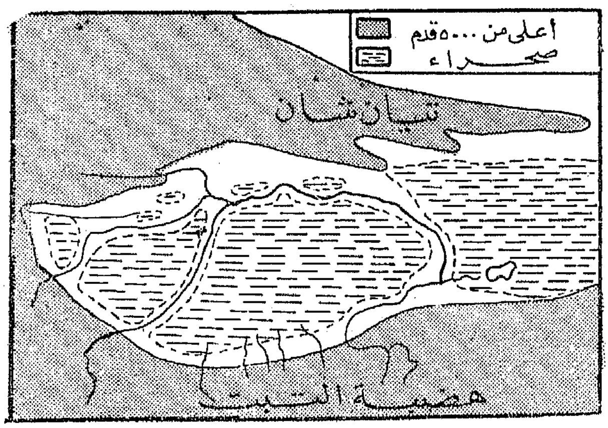
سور الصين العظيم
بنى السور العظيم ليحمى البلاد فقط من ناحية الشمال
وقصد منه أن يحرس الطريق المؤدى إليها من الغرب
عن طريق وادى وى

ومن ناحية أخرى تزيد هذه الدلالات فى أهميتها فتكشف عن المسلك العقلى للصينيين فترى أنهم لم يثقوا فى نهر الهوانج هو فى واديه الأعلى باعتباره خطاً للدفاع عن الغرب فهو فى هذا الجزء لا يصلح تماما الملاحة والرى ولكنهم وثقوا كل الثقة فى السور الذى بنوه .

ولندرس الآن أثر النهضة فى تاريخ الصين فى شىء من التفصيل . فالهضبة فى قسمها الشمالى ليست صحراء جدباء كالصحراء الكبرى ولكنها أقرب إلى أرض المراعى وقد تخللتها صحارى واسعة امتدت امتداداً عظيما . وبطبيعة الحال

عاشت القبائل الرحل فى البقاع التى تقل جدباً — ومنذ بدء التاريخ أخذت تتسلل إلى سهل الصين متبعة الطريق الوحيد المؤدى إليها أى طريق وادىّ وى وهوانج هو وقد رأينا من الشعوب الرحل أمثلة فى دولة أشور القديمة أو فى البلاد التى اكتسحها المسلمون فى غزواتهم أو فى أراضى روسيا الحديثة ، ورأيناهم يتصفون بجرأة نادرة ويتحلون بمقدرة على تحمل المشاق، وهما صفتان أصيلتان فيهم وليدتان لحياتهما الرعوية التى تجعلهم قديرين بصفة عامة على فتح البلاد الزراعية وحكمها .

الخريطة رقم ٥٣



حوض تاريم

أن حوض تاريم محمى بطبيعته وتتوافر فيه المياه على جوانبه

حقاً نستطيع أن نتبع أصول الحضارة الصينية حتى نصل إلى الأيام التى نبتت فيها بذورها فى وادى نهروى ، فارتفعت بسكانه قليلا عن مرتبة الهمجية . وينبغى أن نلاحظ إن الركن الشمالى الغربى من هضبة التبت العالية تحيط به جبال عظيمة ، تستدير فى قوس كبير نحو سلسلة تيان شان ، تضم فيما بينها قطاعاً من اليابس أقل ارتفاعاً عنها وتعزله المرتفعات عما يجاوره من ناحية الشمال الغربى ومن الجنوب . كما تحف به من الشرق صحراء — وتستدير الجبال العظيمة الارتفاع المحيطة بهذا القطاع بعض الرطوبة من الهواء الجاف ، ولهذا ترى عند سفوحها السفلى سلسلة من الواحات تمتـــاز بخصبها — فإذا كانت الحماية

الطبيعية ميزة فيجب أن نتوقع أن يكون مثل هـذا الموقع مهداً لأصول حضارة عريقة — وليس هذا جائراً فحسب ، بل هو يعدو مرحلة الاحتمال إذ أن مبادئ الحضارة الصينية بمميزاتها تدين بفضل وجودها إلى هؤلاء الذين اتخذوا طريقهم من هذا الوادي السحيق مستظلين بالستار الجبلي الذي يحف بشمال هضبة التبت نازحين إلى الوادي الحبيب إلى نفوسهم — وادي نهروي .

ولـكن هذه الهجرة لم تـكن المرة الوحيدة طبعا التي انحدر فيها سكان الهضبة إلى السهل ، وليست صدفة عارضة أيضا ؛ فإن من جاء بعدهم من الغزاة كانوا رعاة رحل أكثر منهم زراعا مستقرين في أراضيهم . ولهذا شعر الصينيون بأن هؤلاء المغيرين خطر داهم يهدد حياتهم ، كما يبدو ذلك في وجود السور الذي بنوه ليحتموا وراءه ، وفي نفس الوقت لم يخل اختلاط مثل هذه الأجناس الشديدة البأس من مزايا . فمن الملحوظ أن سكان وادي الهوانج هو هم أمتن بنيانا من سكان الجنوب ولا ترجع قوة أجسامهم إلى مناخ هذا الإقليم وحده وكونه أشد بردا ، فهم الذين تحملوا وطأة هجوم الغزاة وهم الذين أفادوا إلى أكبر حد من امتزاج دماء جديدة بدمائهم . ومن الجائز أن مثل هذا الاختلاط قد حدث في بادئ الأمر أبان الحروب وحدث بعضه الآخر أبان السلم ، ومع كل فإن تلك القبائل النازحة من الهضاب والتي دخلت البلاد فاتحة منتصرة ذابت جميعاً وامتصتها كتلة الشعب الصيني .

وحوالي عام ١٠٠ ق . م أي قبل الميلاد بحوالي قرن واحد أدرك الصينيون أن الهجوم هو خير وسيلة للدفاع ، فنجحوا أولا في توسيع رقعة حكمهم ولو لفترة قصيرة فأخضعوا سكان الهضبة ، وقد رأينا أن البلاد انقسمت أجزاء عند انهيار أسرة « هان » وبطبيعة الحال فقدت الصين سيطرتها على الهضبة — فلما استقر الأمر أخيراً واتحدت البلاد بعد عام ٦٠٠ للميلاد تحت حكم أسرة « تانج » القوية كان من الطبيعي أن تبذل محاولة أخرى لمد حدودها وتوسيع رقعتها — وفي كلا المحاولتين نرى أن الهدف الأول لاتساع الصين كان حوض تاريم . وفي كلا المرتين حالت المسافة الشاسعة التي تفصل بين الصين وحوض تاريم — وهي صحراء جرداء منيعة يصعب اختراعها — حالت دون نجاح الحـكم الصيني في هذا الوادي فـكان حكما اسميا لم يدم طويلا .

وعلى أية حال فكلا الحالتين جديرة بالذكر ، لأنهما مهدتا للصينيين فرصة الاتصال بالأمم الغربية ، مهما بدا هذا الاتصال تافها ، وعلى الرغم مما وقف بينهما من حوائل كالهضبة ذات العرض الشاسع والسهل العظيم الامتداد . وأشد هذه العقبات مناعة عداوة الشعوب التي تعيش في ربوعها .

وقبل أن نبدأ في دراسة أحدث آثار هذه الهضبة وإن كان أعظمها أهمية من بعض النواحي يجب علينا أن ندرس ظاهرة أخرى وثيقة الصلة . فقد رأينا في أوربا أن وجود مركز للحضارة خليق بأن يثير الحماس في نفوس سكان المناطق المجاورة التي تقل عنه مدنية ، وإن كانوا أشد قوة ، فيدفعهم إلى العمل ، وعلينا الآن أن نلحظ نفس الحقيقة في الصين ، فإن منشوريا تقع إلى الشمال من الصين ويفصلها عنها خليج بتشيلي العميق وهو يتوغل في اليابس حتى أنه لا يترك إلا عنقا صغيرا من الأرض يمتد بين ساحله الغربي وحافة الهضبة . ومنشوريا بحكم وقوعها في شمال الصين أشد بردا وأقل جاذبية لأن تقوم بها حضارة عريقة ، ومهما يكن من شيء فقد أقام بها سكانها ، وبمضي الزمن أوحت إليهم الحضارة المجاورة حماسا إلى العمل ، وإن فصلتها الظروف الجغرافية عن الصين فصلا بعث في نفوس أهلها الشعور بالاستقلال بل وممارسة هذا الإستقلال فعلا . وقد قامت قبيلة من هؤلاء المانشو من تتر « كيتان » فدت حكمها جنوبا ، وما وافى عام ٩٠٠ للميلاد حتى وجدنا فيها حكما شبه أجنبي في مظهره يسيطر على شمال الصين في ذلك الوقت . غير أن حكم هؤلاء التتار لم يمتد قط إلى معظم بلاد الصين ، ولكنهم أثاروا خيال الرحالة القلائل الذين أتوا من الغرب فكتبوا عنها كثيراً حتى أطلقوا على بلاد الصين إبان العصور الوسطى اسم — كاثاى — المشتق من أسم هؤلاء التتار — كيتان .

لقد كانت نهضة منشوريا هذه حدثاً جديداً في تاريخ الصين وتبرز جدته في اقترانه بتأسيس مدينة بكين في هذه الآونة وقبل هذا الزمان كانت عاصمة الصين تتأرجح هنا وهناك في وادى نهروى أو في الجزء الأوسط من وادى هوانج هو . وظلت بكين منذ ذلك الوقت مقر الحكم في الصين باستثناء فترة قصيرة . وينبغى أن نلاحظ المعنى الذى ينطوى عليه موقعها في داخل السهل

الشمالى ، وبقرب حافته فقط ، عند مبدأ الطريق الضيق من منشوريا المحصور بين مرتفعات الغرب وخليج بتشيلى فى الشرق . وقدقامت بكين كقاعدة منشورية يصدر عنها تنظيم البلاد كما قامت فينا فاتخذها النمساويون مركزاً لتنظيم المجر وكما كانت لندن المركز الذى أنشأه الغزاة الأوروبيون لحكم إنجلترا وكما اتخذت أدنبره عاصمة لتنظيم اسكتلندا من قبل الفاتحين الذين جاءوا إليها من إنجلترا وكما قامت دبلن لتكون مركز حكم ارلندة ، يشرف منها على النظام هؤلاء الحكام الذين جاءوا إليها من الجزائر الإنجليزية . وقد تابعت منشوريا الناهضة إرسال الجحافل تلو الجحافل لتزيد نصيبها من أراضى الصين مما اضطر السلطة الصينية الخالصة أن تتراجع إلى الجنوب شيئاً فشيئاً حتى اقتصر حكمها على حوض اليانج تسى والسيكيانج أى على الأقاليم الجبلية فقط .

وأخيراً غمرت أهل الهضاب الخارجية موجة من الحماس إلى العمل ربما يكون مرجعها الأول أثر الحضارة الصينية فيهم وقد يكون مرجعها انتشار الإسلام بينهم إذ سيطر على الهضبة برمتها فى أول الأمر جنكيز خان وساد شعوبها جميعاً من موطنه فى جبال التاى ثم هبط بجحافله المغولية من الهضبة إلى السهول المحيطة بها شرقاً وغرباً . وتابع ابنه وحفيده من بعده الغزو والفتح حتى أخضعا أهل الصين والتتار على السواء ، ولما كان المغول أجانب عن البلاد لم يعيروا اهتماماً للحدود السابقة التى كانت تفصل البلاد عن بعضها فظلوا يتابعون الفتح والاستعمار فيما وراءها وصادفوا نجاحاً ملحوظاً فى فتوحاتهم البرية ، ومما يجدر ملاحظته أن هذه الإمبراطورية فى جيلها الثالث بقيادة كبلاى خان بذلت محاولات بحرية لإخضاع اليابان غير أن مثل هذه المحاولة كان مآلها للفشل فقد رد اليابانيون العدوان عن بلادهم . وإنا لنرى مرة أخرى كيف أن إمبراطورية عظمى تسكن قوتها فى رجالها البريين يقابلها رجال البحر الأشداء ويفسدون عليها خطتها فى بوغاز تسو شيما كما ردا جزرسيس من قبل على أعقابه فى موقعة تبعد بضعة أميال عن مثل هذه البواغيز .

لقد كان هذا الغزو الذى قام به المغول مجرد فتح حربى شأنه شأن الفتوحات الأخرى التى تمت على أيدى أقوام أقل حضارة من الشعوب المغلوبة على أمرها —

وكمنت قوتهم فى صلابة عودهم وفى جرأتهم وإقدامهم ثم انتهى الأمر إلى أن انغمس الفاتحون فى صنوف الترف وفقدوا سلطانهم ثم ذابت عناصرهم فى محيط الشعوب المغلوبة .

والصين بحكم ظروفها الجغرافية محاطة ببلاد لم تصل شعوبها إلى درجة من المدنية توازى مدنية الشعب الصينى نفسه وأن فاقته فى جرأتها وبسالتها البدنية ، ولهذا لم يكن من نصيب الصين قط فى غضون تاريخها الطويل أن دخلها غزاة أرفع من أهلها مدنية وحضارة . وتمثل الشعب الصينى دائماً جميع الغزاة والفاتحين ، وليس الغزو المغولى للصين فى القرن الثالث عشر بأقلها شأناً فهو يحدد مرحلة أخرى من التقدم الملحوظ ، إذ اضاف المغول إلى ملكهم باسم الصين أقاليم واسعة وبقيت فتوحاتهم فى يد الصين حتى بعد أن اندثر الغزاة إلى الأبد .

وبعد أن تم للشعب الصينى امتصاص المغول وهضمهم وتمثيلهم ، نصل بحق إلى الفترة الثالثة المجيدة من تاريخ الحكم الصينى الخالص تحت أسرة « منج » الذى استمر من القرن الرابع عشر حتى السابع عشر ، وقد بذلت فى هذا العهد محاولة لجعل مدينة نانكين مقر الحكم ، وهى ذات موقع أكثر توسطاً من وادى نهر وى أو المدخل الشمالى للبلاد ، غير أن نانكين لم تدم عاصمة للبلاد إلا لبضعة اعوام وسرعان ما تنحت عن مكانتها لبكين مرة أخرى ، على أن اختيار مثل هذا الموقع ليكون مقراً للحكم لايخلو من دلالة على تطور الأفكار فى الصين ، لقد نشأت بكين فى موقعها لتكون أقرب ما يكون للمداخل المعرضة للغزو من الشمال ، وكان منشؤها له ما يبرر بعد نظرهم ، لأن تتار منشوريا فى القرن السابع عشر حاولوا للمرة الثالثة والأخيرة فتح جميع بلاد الصين وأصابوا نجاحاً فى هذه المرة ، ولم يأت هذا الغزو فجأة لأنه مر جيلان منذ أن ازدادت أهمية أسرة « تسنج » فى جبال منشوريا الشرقية حتى أصبحت قادرة على الاستيلاء على بكين ، كما مر جيل آخر قبل أن تدين لها الصين جميعاً . وكان إقليم فوكين فى الجنوب الشرقى آخر إقاليم الصين الأصلية فى الاعتراف بالولاء لها ، وكما أخذ المانشو ينشرون الحكم الصينى ويوسعون رقعته كما نشره المغول من قبل وظلوا يتابعون فتوحاتهم فيما وراء

حدود الصين الأصلية يغزون منغوليا ويوطدون سلطانهم فيها ثم مدوا نفوذهم إلى ماوراء هضبة التبت في عهد متأخر جداً أي في السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر بل وقد امتد سلطانهم عبر جبال الهملايا وبقى أهل نيبال يعترفون بسلطانهم حتى بدء القرن العشرين .

وعلينا الآن أن نطبق ما سبق لنا بحثه قبل أن نستطرد في بحث المجموعة الأخيرة من الحقائق الجغرافية الكبرى التي تحكمت في تاريخ الصين فنخلص إلى النتائج العامة التالية ومنها أن الصين يقطنها شعب واحد متجانس بفضل وجود الأنهار الثلاثة الكبرى وهي أثر من آثار العوامل الجغرافيـة الأعمق جذوراً أي التضاريس والمناخ ، ويدعم وحدة الشعب في أساسها وجود هضبة ذات عرض شاسع في الغرب من الصين . هاتان الظاهرتان ، أي مجموعة الأنهار والهضبه هما أهم العوامل التي تحكمت في تاريخ الصين .

وهناك ظروف جغرافية أخرى أدت إلى نفس النتيجة فإن موقع الصين في مواجهة المحيط الواسع حيث لا يؤدي الطريق البحري إلى إقليم ما ، بالإضافة إلى عدم وجود بحر داخلي في الصين كالبحر المتوسط ، كل هذه الحقائق كانت في ذاتها عوامل جبارة صامتة تقوم بدور سلبي وتعمل بدرجة عظيمة لتؤكد للصينيين أخلاقهم وعاداتهم كشعب بري وتمنعهم من أن يكونوا شعباً بحرياً ، ولم يضطر الصينيون إلى ركوب البحر كما اضطر النورسمن تحت ضغط الفاقة والبرد وجدب أوطانهم ولم يقعوا تحت ضغط شديد من ورائهم كما حدث للسكسون ، ذلك أن الصين بلاد شاسعة ، ولو حدث وتعرضت لموجات الهجرة الصادرة من الهضبة أو من منشوريا لانتشرت موجات المهاجرين وتوزعت قبل أن تصل إلى ساحل البحر وقلما شعرت الأجزاء الجنوبية بهذه الموجات ، وقد خلت بلاد الصين من طريق بري عظيم يؤدي إلى البحر كالطريق الذي امتازت به فينيقيا ، وساحل الصين هو قوس عظيم مستدير يخلو من أشباه الجزر التي تغري بركوب البحر كما هو الحال في بلاد اليونان ، ولهذا لم تكن الصين دولة بحرية قط فليس بها ما يغري أهلها لأن يكونوا شعباً غير بري ، اعتمادهم الأول على الزراعة يتصفون بنفس العادات

وطرائق التفكير التى سرت فى دمائهم خلال أربعين قرناً ، وكثيراً ما مرت بالصين أزمات مستحكمة ولكنها ظلت تحتفظ بوحدتها ولم تتفتت إلى أجزاء لاحصر لها — كالإمبراطورية الرومانية — حين تعرضت لهجوم قبائل الرحل النازلة إلى سهولها من سفوح الهضبة على الرغم مما أصاب الصين من مذابح دامية أودت بحياة الملايين من السكان . وظل تجانس الشعب الصينى حقيقة بارزة وهذا فى حد ذاته نتيجة لظروف جغرافية إلى حد كبير (١) .

لقد خلق كشف المحيطات الذى قامت به الحضارة الغربية بالتدريج عاملا جديداً هاما أثر فى تاريخ الصين ، فحتى ذلك الأوان كان اليابانيون هم الشعب البحرى الوحيد الذى يتصل به أهل الصين . وحضارة اليابانيين مقتبسة فى أصولها من حضارة الصين ، ولم يكن اتصالهم بهم اتصالا وديا لأن اليابانيين الأوائل — الذين سمعنا عنهم — كانوا قد اقتصروا فى زياراتهم الشواطئ الصينية على الإغارة عليها كما اعتاد النورسمن الإغارة على شواطئ أوروبا وكانت آخر سلسلة من هذه الغارات التى شنوها وربما أهمها تلك التى حدثت فى أوائل القرن السادس عشر أى قبل أن يدرك الصينيون النتائج الأولى الهامة التى تمخض عنها كشف الأمم الغربية للمحيطات ، واقتصر أثر هذه الغارات فى تلك العهود على طرد السكان من البحر إلى الداخل فالبحر هو المجال الوحيد الذى ينفرد فيه البحارة بشعور الأمن والطمأنينة . ومن الحقائق ذات المغزى أن الصينيين لم يسمعوا قط بوجود جزيرة فرموزا حتى القرن الثالث عشر مع أنها لاتبعد عن شواطئ البلاد الأصلية بأكثر من سبعين ميلا بل ولم يستولوا عليها إلا فى عام ١٦٨٢ بعد أن أسس بها البرتغاليون الأوائل والهولنديون محطات تجارية ، وحتى فى هذه الآونة كان السبب الأول فى الاستيلاء عليها ارتقاء أسرة جديدة أجنبية عرش البلاد وقد راودها الطموح

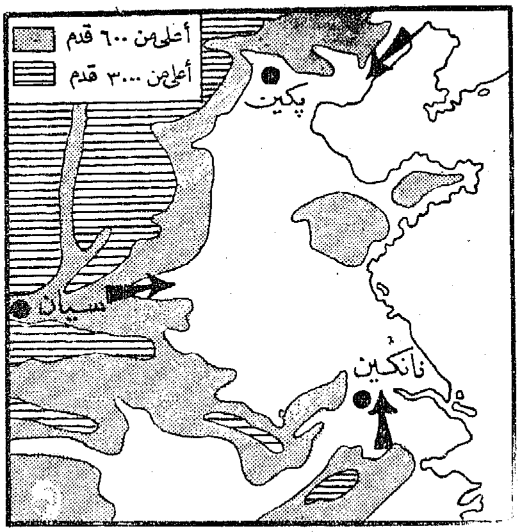
(١) لايمكننا أن نتجاهل أثر وجود الكتابة التصويرية (الرمزية) فهى التى مكنت أهل الصين من أن يفهم بعضهم بعضا فى جميع نواحى البلاد ولها دون شك أثر عميق ، ولكن ينبغى الا يغيب عن الذهن أن وحدة اللغة بل ووحدة اللهجة ايضا لم تمنع المانيا وايطاليا من الانقسام الى ولايات مستقلة كما لم تمنع النرويج والدانمرك من أن تنفصلا ولم تحل دون استقلال الولايات المتحدة الامريكية عن بريطانيا . فإن العومل الجغرافية كانت دائما أقوى أثرا من وحدة اللغة .

إلى غزو ممتلكات أخرى ، فلما تم لها فتح فورموزا لم تقدر حكومات الصين المتعاقبة أهميتها حق قدرها طوال المائتي عام التي احتفظت الصين خلالها بالجزيرة .

وكلما ضعفت قبضة حكام المانشو بازدياد انغماسهم في الترف والملذات وكلما ازداد اندماج اتباعهم في طبقات الشعب كلما تُركت الصين شيئاً فشيئاً تتنازعها قوتان متعارضتان . قوة مصدرها اليابس كتلك التي تعرضت لها من قبل وقوة مصدرها المحيط وقد جاءت إلى التاريخ الصيني بعناصر جديدة . ولا بد للقوى الأوربية الأصل الآتية عن طريق البحر من ان تقرب بلاد الصين من الجنوب فقامت لذلك ظروف وأحوال جديدة ، وحتى ذلك الأوان كانت المواقع ذات الأهمية الاستراتيجية متجمعة في السهل الشمالي وكانت العواصم تقع عادة في إحدى زوايا ثلاث تكون مثلثاً ، إما في بكين لتحرس مداخل البلاد من ناحية الشمال حول خليج بتشيلي وأما في مدينة سيان لتحرس المداخل الغربية عن طريق وادي وى وإما أنها على حافة السهل الصيني ولكنها على اتصال بمجموعة الأنهار الجنوبية كما هو الحال في نانكين . فلما تسرب إلى البلاد نفوذ الدول البحرية وجاء إليها من الجنوب اكتسبت الموانى الجنوبية الصينية أهميتها ولذا كانت الموانى التي فتحت للتجارة بمقتضى معاهدة ١٨٤٢ جميعها من موانى الجنوب الجبلي اثنتان منها في مقاطعة فوكين والثالثة تقع وراء حدودها الجنوبية مباشرة ومن ثم أصبحت مداخل الصين هي كانتون وشنغهاى وليست بكين أو سيان .

غير أن سيان وبكين مازالتا مفاتيح البلاد ، حقاً قد اختفى المانشو من ظهر الأرض ، وفقد المغول جسارتهم القديمة بعد أن روضتهم الديانة البوذية ، غير أن السهل الأعظم لا زال قائماً وراء الصين بكل ماينطوى عليه من إمكانيات ، وتصل القوى الصادرة عنه إلى منشوريا عن أقصر طريق عبر الهضبة وكانت روسيا قاب قوسين أو أدنى من دخول الصين من بوابتها القديمة حول خليج بتشيلي ، وقد أحكم إغلاق هذا الطريق في الوقت الحاضر ، وقد لا يدوم إغلاقه ولا يزال هناك الطريق القديم الآخر المار بسيان خلال ممر زنجاريا بين جبال التاى وتيان شان في ظل الجبال ، غير أن هناك طريقاً آخر مطروقا عبر الأراضي الرعوية الممتدة من بيكال

الخريطة رقم ٥٤



عواصم الصين
هذه المدن الثلاث تقوم فى الأركان الثلاثة للسهل
المثلث الشكل

إلى بكين رأساً متخللا الممرات الجبلية السهلة فى الشمال — من هـذا يتبين أن الموقف السياسى فى الصين دقيق للغاية وقصة الصين لم تتم فصولا والزمن وحـده كفيل بإظهار ما ستتمخض عنه هذه الحقائق .

ومهما يحدث ، فلن نعدو الصواب أن قلنا أن الشعب الصينى لايزال حياً مهما كانت الصفات التى اتصف بها حكامه من المانشو أو من غيرهم ، ومن ناحية أخرى فإن التاريخ الصينى تسيره عوامل جغرافية وقوى تأتى إليها من البر والبحر وخصوصاً وأن تفاعلها سوف يؤدى إلى ازدياد الميل نحو توحيد البلاد وجعلها أكثر انسجاماً من أى عهد مضى وأن القاطرة الحديدية والباخرة وهما قوى حديثة لعبور الفيافى والبحار كل منهما تـكمل الأخرى ، وتعملان على توحيد البلاد وهما على وشك تحقيق هذا الهدف .

وسوف يكون للصين خط حديدى رئيسى لا يوجد مثله فى دولة أخرى يجرى من بكين إلى هانكو وكانتون أى من عاصمة الشمال إلى عاصمة الجنوب يغذيه البحر

فى كلا الطرفين كما تغذيه فى الوسط الملاحة النهرية فى اليانج تسى . وليس مدخل الصين عن طريق سيان بأقل خطراً فلا بد أن ينشأ خط حديدى عبر الهضبة ماراً بسيان ومر زنجاريا ليتصل بالخط الرئيسى فى الصين ويغذيه من جهة اليابس .

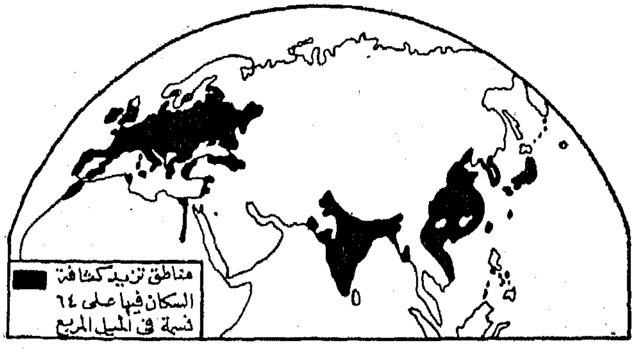
هذه الخطوط الرئيسية وما يتفرع عنها من خطوط إضافية يجب أن تمد لتكمل مجموعة المواصلات المائية ولا بد وأن تؤدى فى النهاية إلى اتحاد الصين وحفظ وحدتها — وسوف يهدف اتحادها إلى زيادة استقرارها حتى يتوافر أهلها على التحكم فيما بين أيديهم من موارد الطاقة واستغلالها على خير وجه .

الفصل الرابع عشر

الأرض الدفيئة — الهند

لو أننا استعرضنا مادرسناه حتى الآن — تمهيداً لما يلي من بحوث — لتبين لنا أننا تتبعنا نمو حضارتين مختلفتين أثرت كل منهما في ربع سكان العالم . نشأت إحداها في أوربا والأخرى في الصين واتخذت إحداهما مظاهر عدة لأنها تأثرت بعوامل جغرافية مختلفة ، من عـدة نواح ، أما الأخرى فظلت تنمو نمواً متصلا وهي تسير على نهج واحد لأنها خضعت لمجموعة واحدة من العوامل ذات الأثر البالغ . وتأثرت كلتا الحضارتين بما نشأ من ثقافات رعوية في المنطقة الشاسعة الواقعة في قلب العالم القـديم . ويبدو أن نشأتهما كانت تتوقف على توافر الظروف التي سمحت بتطور البذور الأولى للحضارة وهيأت الفرصة لنموها فيما بعد بأن كفلت لها الحماية اللازمة للمجتمعات الصغيرة فيسرت لها أن تقتصد في موارد طاقتها .

الخريطة رقم ٥٥



المساحات الثلاثة المزدحمة بسكانها
في العالم القديم

ولو أننا نظرنا إلى المساحة الثالثة من العالم القديم التي تزدحم بعدد غفير من السكان ألا وهي الهند لراعنا وجود حضارة من نوع خاص يجوز لنا أن نطلق

عليها لفظ الحضارة الهندية . غير أننا نرى من جهة أن الهند لم تنتظمها وحـدة شاملة نشأت فيها نشأة داخلية كما انتظمت الصين وحدتها لعدة قرون . ومن جهة أخرى لم تنجح حضارة الهند فى الانتشار حول العـالم كما نجحت الحضارة الأوربية . هذا وقد تعددت مظاهر الحضارة الهندية تعـدداً فاق مظاهر الحضارة الصينية والأوربية أيضاً — أضف إلى هـذا أننا نرى أن الحضارة فى أوربا تبدو متصلة الحلقات نمت من بذورها الأولى فى مصر وبابل ونرى حضارة الصين تنمو نمواً طبيعياً من أصولها الأولى فى وادى نهر وى غير أننا نعجز عن استقصاء بوادر الحضارة الهندية ولا نستطيع أن نعود بها إلى أبسط عناصرها الأولى ونجد للهند تاريخاً تتحكم فيه عوامل خارجية عدة وتؤثر فيه تأثيراً عظيما .

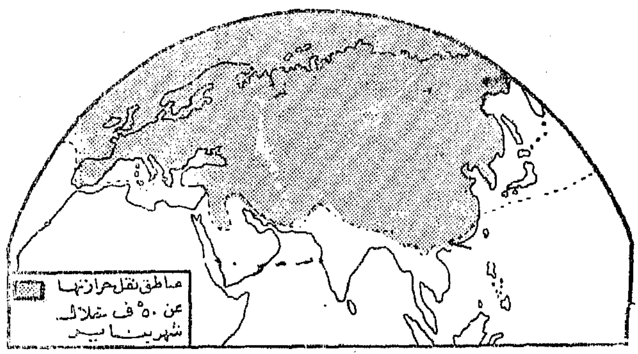
ولنقف الآن قليلا عند الحقائق الجغرافية .

إن الهند مثلها كمثل الصين وعلى النقيض من أوربا ، بلاد تخلو من وجود بحر داخلى كالبحر المتوسط ، ولم تتجمع بالقرب من شواطئها جزر عديدة ، كما امتازت أرضها بدفء المناخ ووفرة الانتاج عموما فليس بها ثمة ما يغرى أهلها بركوب البحار كسكان شواطئ البحر المتوسط — وليست الهند على درجة من الفاقة كأرض اسكندناوة حتى يضطر أهلها لأن يولوا وجوههم شطر البحار يخاطرون بركوبها — فبقى أهل الهند قوماً لم يتعدوا المرحـلة الأولى من سكنى اليابس وشعبها لم يعرف ركوب البحار .

كما جمعت الهند بين السهل والجبل أو بين المرتفع والمنخفض فترينا الخريطة أن جبال الهملايا العظيمة الارتفاع إلى الشمال والشمال الغربى تستند إلى هضبة التبت ثم تستمر فى اتجاهها نحو الشرق ونحو الجنوب الشرقى على شكل سلاسل جبلية متعددة تفصلها عن بعضها وديان شديدة الانحدار كثيفة الغابات — أما الهملايا فى ناحيتها الغربية فهى تنتشر على شكل مروحة وتأخذ فى الانخفاض حتى تصل إلى مستوى هضبة إيران — ونرى فى شبه جزيرة الدكن هضبة أخرى أكثر انخفاضاً وأوسع عرضاً — شديدة الانحدار فى حافتها الغربية بينما تنحدر انحداراً هيناً نحو الشرق وقد مزقتها الأنهار إلى حد كبير واتخذت هذه مجاريها نحو الشرق تبعاً لانحدار

الهضبة العام — وهناك سهل ضيق على الشاطئ الغربى وآخر أوسع منه نوعا ما على الساحل الشرقى — ويقع بين الجبال الشمالية والهضبة الجنوبية سهل فيضى عظيم يمتد نحو ألفى ميل من مصب نهر الـكنج حتى مصب السند — وقد خلا سطحه من الأحجار والصخور باستثناء الجهات القريبة من مقدمات سفوح الجبال وهو يرتفع ارتفاعا هينا بمعدل قدم واحد فى كل ميل لدرجة لا تلاحظها العين المجردة ، فلا نجد فى هـذا الإقليم تنوع التضاريس الذى نراه فى إيطاليا أو فى البلقان — ولا نجد شيئاً من المركزية الجغرافية التى خلقت دولة فرنسا .

الخريطة رقم ٥٦



أوراسيا : توزيع دراجات الحرارة
أن الهند أدفأ فى الشتاء من كل من الصين أو أوربا

بل أننا إذا أدخلنا الأحوال المناخية فى اعتبارنا لرأينا ثمة تماثلا يتجلى فى حياة أهل الهند . حقاً قد يقال أنها تجمع بين كل نوع من أنواع المناخ على الرغم من أن هناك بعض المواضع الجبلية المنعزلة فى طول الهند وعرضها تستمتع بجو بديع فى معظم أيام السنة أو فى فصل من فصولها فقط ، غير أنه تبقى حقيقة واضحة وهى أن هـذه المواضع هى استثناء تشذ عن المناخ العام الذى يسود الهند ، فالبلاد فى عمومها حارة لا فى الصيف وحده بل وفى الشتاء أيضاً — و نجـد الهند بوجه عام أكثر دفئاً فى الشتاء من أى جزء من أجزاء الصين وأدفأ طبعاً من أية بقعة فى أوربا وهذا فارق عظيم بين الهند والمساحتين الأخريين اللتين تزدحمان بالسكان ،

وهو فارق يفسر لنا إلى حد بعيد اختلاف التاريخ فى كل منها ، فهنا فى الهند قلت الضرورة التى تدعو إلى توفير الطاقة البدنية بارتداء الملابس فى أى فصل من فصول السنة .

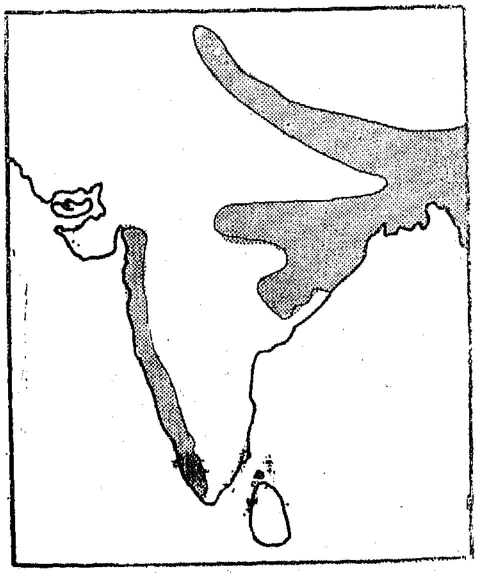
هذا القول العام يقتضى بعض التفسير ، ذلك أن الحدود الشمالية الغربية هى أبرد أجزاء الهند . وفى الشتاء نجد إقليم البنجاب هو أبرد أجزاء الهند على حين نجد السند ومرتفعات بلوخستان فى الغرب رغم شدة حرارتها فى الصيف وبخاصة أثناء النهار تتعرض للصقيع فى الليل بل حتى فى بعض ليالى الخريف . وهكذا يجب أن نتوقع هنا تعديلا فى طراز الحياة الهندية الذى يسود هذه المنطقة .

وإذا درسنا سقوط الأمطار وأثر كمياتها إلى جانب أثر الحرارة فى الحياة النباتية لرأينا المدخل الشرقى للسهل تغمره الأمطار الغزيرة وهو لا يرتفع فى مستواه كثيراً عن سطح البحر فتجد مياه الأمطار صعوبة فى الجريان فوق أراضيه وتنتشر على سطحه مكونة مستنقعات تغطيها الأحراش . وكلما اتجهنا غرباً تغيرت الأحوال الجغرافية تغيراً غير محسوس فتقل الأمطار وتتهيأ للمياه فرصة التسرب من السطح إلى باطن الأرض وإذا ما واصلنا السير غرباً حتى مسافة ألف ميل من البحر رأينا موارد المياه تعجز عن أن تفى بحاجات الحياة ويشتد جفاف الأرض حتى إذا ما اقتربنا من مصب نهر السند وجدنا المنطقة الأخيرة أى فى حدود الأربعمائة ميل الأخيرة من البلاد مراعى فقيرة بل وصحراء جرداء .

أما السفوح الغربية للهضبة الجنوبية والسفوح الجنوبية لجبال همالايا والمرتفعات التى تقع فى شمال شرق خليج بنغاله فكلها تسقط عليها الأمطار الغزيرة صيفاً وتحتفظ بكميات من الرطوبة تسمح بنمو الغابات فيها وهذه تصبح أدغالا فى الأجزاء المنخفضة الشديدة الرطوبة — هذا وتهب الرياح الجنوبية الغربية الموسمية فتغمر جبال غاته الغربية بطوفان من الأمطار ثم توالى هبوبها صاعدة فوق الواديين المستقيمين لنهرى ناربادا وتابتى وتحمل معها المطر الغزير فتتعمق به فى داخل البلاد أكثر منها فى أى جزء آخر — وإلى الشرق تتقابل التيارات الهوائية الآتية من الغرب بتلك الآتية مباشرة من خليج بنغالة وبسبب تقابلها سقوط أمطار غزيرة

فيما بين منابع هذين النهرين حتى السواحل الواقعة فى جنوب مصب نهر الكنج ، وهنا نجد تربة البلاد مكونة من طمى أسود ، كما نجد نطاقاً خصيباً يمتد عبر الجزء الشمالى من شبه الجزيرة يبدأ من جوجارات و ينتهى عند دلتا نهر ماهاندى ، بعضه غابات و بعضه أحراش و بعضه الآن أراضى مزروعة .

الخريطة رقم ٥٧



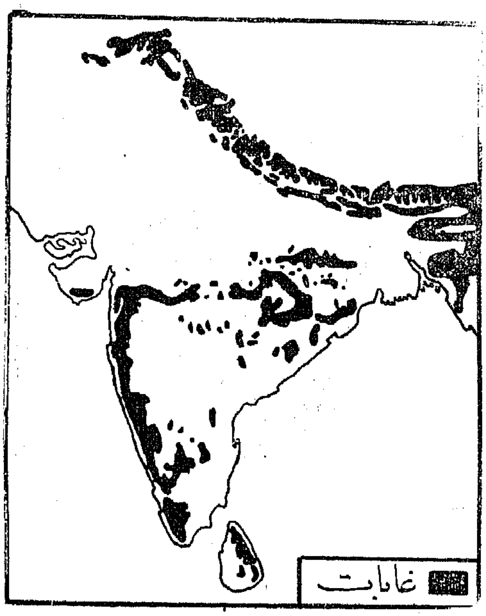
توزيع الأمطار فى الهند
يسقط معظم المطر صيفاً

وإلى الجنوب من هذا النطاق نجد البلاد جافة ، فى أغلبها مراع ولا يشذ عن ذلك سوى وديان الأنهار والسهول الساحلية .

وهكذا تمتد الظروف الجغرافية بعينها فتشمل مساحة شاسعة من الأراضى مما يجعل البلاد بهذا الوضع عسيرة الحكم والتنظيم وإن نظمت فقد يتعذر الاحتفاظ بهذا التنظيم ، وليست الصعوبة ناجمة عن أن البلاد كتلة ضخمة تعجز الحكومات عن إدارتها من مركز واحد باعتبارها وحدة واحدة وعلى الأخص لو تولى الحكم فيها أناس لم يألفوا تنظيم الحكومات ، ولو أن شيئاً من هذا حدث لم يكن أمره عجيباً ، فأوروبا حتى اليوم رغم أنها متقدمة فى نظمها إلا أنها لا تنتظمها حكومة

واحدة — ولكن السبب الأول فى الهند هو أنها تضم أقساماً طبيعية كبيرة وليس بها من مهد واحد يصلح لنمو الحضارة كما هو الحال فى مصر وبابل أو فى واد نهر وى حيث الحياة ميسورة نوعاً وحيث كل قطر فى حد ذاته يمثل وحدة صغيرة تمكن الشعوب القاطنة فيه من أن تتعلم أساليب الحكم والتنظيم ما دامت الحاجة تدعوا إلى التفكير فى المستقبل وتدبير أموره .

الخريطة رقم ٥٨



توزيع الغابات فى الهند

فى الهند ثلاث مناطق من الغابات

(ا) نطاق الهمالايا (ب) نطاق الهند الوسطى (ح) نطاق غربى الدكن

وبينما تجتمع الحرارة والرطوبة فتتعاونان على تشكيل الطاقة الشمسية وتقدماتها للانسان بشكل واضح ينفعه فى أغراض حياته ، غير أنهما على هذا النحو يقللان من ظهور الحافز الذى يدفع بالأفراد أو الجماعات إلى اقتصاد هذه الطاقة وتقل مقدرة المجتمعات على الاحتفاظ بما تقتصده منها ، وهكذا ظلت المدنية الهندية دائماً متأخرة عن المدنيات الخارجية فى عبقرية التنظيم — وأصاب المهاجرين الذين

جاؤا إلى الهند فى الحرب أو السلم قسطا من النجاح قل أو كبر فى السيطرة على الجماعات التى سكنوا بينها وتولوا تنظيمها .

ولكن من أين جاء هؤلاء المهاجرون ؟ .

ولكى نفهم الجواب يجب أن نذكر حقيقة واضحة وهى أن الهند شبه جزيرة أشبه ما تكون بقارة فى ذاتها، وأنها أقرب من أوربا ومن الصين إلى قلب القارة الأسيوية موطن الرعاة — وإنها مفتوحة لمن يريد الوصول إليها من جهة المحيط هذا على الرغم من أنه ليس بها ما يغرى الوطنيين الهنود إلى احتراف الملاحة البحرية أو ما يضطرهم إليها اضطرارا فلم يصبحوا قط أمة بحرية ، وقد دخلت الهند أعداد وفيرة من المهاجرين الذين جاؤا إليها من البلاد الواقعة فيما وراء البحار أو فيما وراء جهتها الشمالية الشرقية أو الشمالية الغربية .

وقد جاء إلى الهند مهاجرون من وراء جهتها الشمالية الشرقية ودخلو أدغالها أزواجا ووحدانا وليس لدى هؤلاء أى قدرة على التنظيم فلم ينشئوا دولة ما — وقد سبق لنا أن رأينا الغابات تقف حجر عثرة فى سبيل الهجرات المنظمة فى كل عهد من العهود — فإذا ما كانت الغابات تنمو على سفوح وديان اشتد انحدار جوانبها وتتابعت واحدا بعد الآخر لم يكن عجبا أن نرى أن المدخل الشمالى الشرقى للهند قليل الأثر فى تاريخها إذ أعرض عنه المهاجرون .

وتختلف الحال فى المدخل الشمالى الغربى اختلافا كبيراً ، وهو كما رأيناه جافا فى مناخه ولا تعترضه الغابات وتتصل الهند عن طريقه بحضارتين فتيتين إذ يمتد الطريق منه فيما وراء الجبال إلى السهل الأعظم بسكانه من الشعوب الرعوية مخترقا سلاسل جبلية شديدة الإرتفاع على ضيق عرضها تنتشر كالمروحة من الطرف الغربى لجبال الهيمالايا .

هذا وتحف بهضبة إيران من الشمال والجنوب سلاسل جبلية تنحدر منها مجارى مائية ومن ثم تتبعها طرق تؤدى إلى بلاد ذات حضارات عريقة كفارس وبابل وآشور . فإذا ما جاءت الشعوب الجبلية ، وأطلت على سهول الهند فى شمالها

الغربى وقعت تحت سحر السهول وإغرائها ، يجذبها ذلك النسيم العليل الذى يهب من سهول الهند فيذكر تلك الجحافل بما ألفته فى أوطانها الأولى ويصادف هوى فى نفوس أفرادها فيتقبلونه قبولا حسنا .

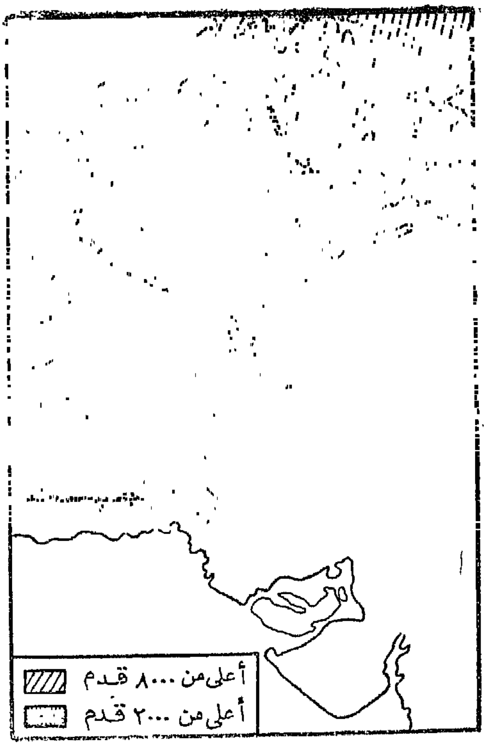
وهكذا أخذ فيض المهاجرين من الشمال الغربى ينهمر إلى الهند الشمالية يأتون إليها زرافات ووحداناً وآلافاً ومئات الآلاف، تجاراً وظاعنين ،غزاة ولاجئين — وقد وقف بعضهم عند عتبة البلاد ، وقديماً جاء إليها قدماء الأشوريين والأغريق فى عهد سابق لفتوحات الأسكندر ووصلوا إلى الديار الهندية ولكنهم لم يوغلوا فيها — وقد قاد الأسكندر جيوشه إلى قلب بلاد البنجاب،ولكن جنوده أشفقوا من التوغل فى بلاد يجهلونها فشقوا عصا الطاعة واضطر هو إلى أن يعود بهم أدراجه وقدجاء آخرون قبل الاسكندر وبعده من الجهة الشمالية الغربية وانتشروا فى أرض الهند بدرجات متفاوتة .

والبحر أيضاً طريق مفتوح لكل من ألف ركوبه — فنجد شبه جزيرة الدكن قد تأثر بالشعوب البحرية منذ أقدم العصور التى نستطيع الرجوع إليها. فقدجاء إليها فى العهود السحيقة أقوام من البلاد الجافة الغربية التى سبقت أهل الدكن فى الحضارة كما جاءت إليها عناصر متأخرة من شرق الهند الغزير الأمطار — وفى الأزمنة الحديثة وصلت إلى الهند من وراء البحار عناصر امتازت بعبقريتها فى التنظيم فجاء إليها الأوربيون أولا من الجنوب بعد دورانهم حول رأس الرجاء الصالح ثم جاءوا إليها أخيراً من الغرب بعد فتح قناة السويس .

وقد عرفنا أن اقواما وفدت على الهند من الشمال ومن الغرب ثم من البحر واقترن مجيئهم بادخال مدنيات أرقى شأواً من المدنية القائمة وقتئذ وكانوا أميل إلى القضاء على الحضارة التى وجدوها كما رغبوا فى إجلاء سكان الهند الأوائل عن الأراضى التى كانوا يسكنونها .

ومن ثم لجأ السكان الأصليون بطبيعة الحال إلى الغابات الجبلية وإلى الاحراش الممتدة فى الجزء الشمالى من هضبة الدكن حيث يجدون فيها ما يحميهم

الخريطة رقم ٥٩



مداخل الهند من الشمال الغربى

من غارات المهاجرين الجدد وحيث يجدون من الغذاء ما يقيم أودهم ويحفظ عليهم حياتهم .

وتشبه هـــذه الغابات غابات أوربا فى كونها تكفل الحماية لمن يلوذ بها ولكنها تختلف عنها فى أن الغابات الأوروبية تمكن الناس من متابعة حياتهم لو أنهم أعملوا فكرهم فى أمور مستقبلهم وتحملوا بعض المشاق فى جهادهم فتجود لهم الأرض بأحسن الثمرات إذا ما اجتثوا بعض غاباتها واستقروا فى جنباتها ، بعكس الأحراش الهندية فهى تزود ساكنيها بالحاجات الضرورية للحيـاة ولا تحفزهم إلى التقدم وبناء الحضارة .

وقد ظل فيضان الأجناس البشرية يتدفق على الهند من الشمال الغربى حتى

قبل بزوغ فجر التاريخ فيسبب للسكان الأصليين قلقاً واضطرابا ولا نعلم أن كانوا قد جاءوا إلى الهند من السهل الأعظم أم من هضبة إيران .

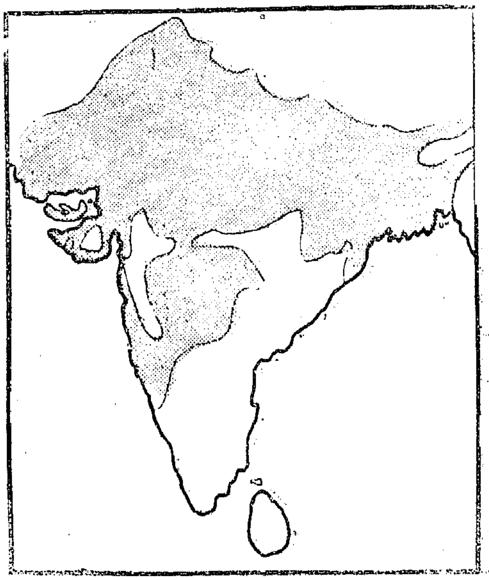
أما المهاجرون الأوائل فقد انساق جزء منهم إلى الجنوب الشرقى ثم ذابت بقيتهم فى غمار الموجات المتتابعة من الأجناس البشرية المختلفة التى جاءت إلى الهند من شمالها فى أثناء ثلاثة الآلاف عام التى تلت سنة ٢٥٠٠ قبل الميلاد وقد استقرت الأجناس المهاجرة تدريجياً فى السهول الشمالية للهند وكانت نهاية زحفها مجموعة الغابات الممتدة عبر الجزء الشمالى لهضبة الدكن وتركت الجزء الجنوبى منها للسكان الأصليين الذين سبقوهم إليها — وهكذا عُززت الفوارق الطبيعية بين السهل الشمالى والهضبة الجنوبية بعد أن اختلف السكان فى كل منهما وامتازت كل جماعة بميزتها الخاصة .

ثم أخذ كل من هذه الشعوب بقسط من المدنية وكان الشماليون أوفر حظاً حيث أقاموا ممالك عمرت نحواً من ثلاثة قرون — وكان الجنوبيون أقل نجاحاً وعلى العموم فإن معلوماتنا عن هذه الفترة ناقصة نقصاً ملحوظاً ، وفى هذا دليل على عدم استمرار المدنية فى مكان واحد تزدهر فيه . ويتضح نوعا ما أن مجموعات من الناس تنتمى إلى أجناس مختلفة وتتميز بخصائص مختلفة رتبت حياتها وعاشت كل منها فى مجتمع مختلف وأن الفوارق بينها تقوم فى أصلها على أسس جغرافية — فإن السهل الشمالى ليس سهلا واحداً بذاته لأن البنغال فى الجنوب الشرقى غزيرة الأمطار تغطيها أحراش الغابات بينما امتازت البنجاب فى الشمال الغربى بجفافها ومقاطعة السند بالقرب منها أشد جفافا حتى أن نهر السند فيها قريب الشبه بنهر النيل إذ لا تتصل به أية روافد فى مجراه الأدنى — وتقع بين هذين النقيضين مساحة كانت قديماً فى النطاق الذى أطلق عليه « الأراضى الوسطى» ولكنها الآن تدخل ضمن « المقاطعات الشمالية الغربية »[1] — وهذه يكفى مطرها حاجات السكان فيها دون اسراف أو تبذير . هذه هى المناطق التى يزدحم فيها أكبر عدد من السكان سواء كان ذلك فى المدن أم فى القرى .

---

(١) هذه الإصلاحات كانت شائعة الاستعمال أيام الحكم البريطانى .

الخريطة رقم ٦٠



توزيع السكان الهندوس فى الهند
أن غالبية السكان فى الهند من الهندوس
ويبدو بجلاء أثر الغابات فى صد الزحف إلى الجنوب

وما وافى عام ٦٠٠ الميلاد حتى رأينا هذه المناطق الثلاثة مسكونة بشعوب ثلاثة وقد اختلف نصيب كل شعب من التقدم — وعلى الرغم من وجود هذه المناطق الثلاثة ومن اختلافها اختلافاً واضحاً إلا أنها تتداخل فى بعضها بشكل غير محسوس فلا نجد بينها حدوداً فاصلة طبيعية ولا تعتبر الأنهار فى عرف السكان حدوداً تفصل بينها بقدر ما نعتبر طرقاً تصل بينها، وموارد للماء تفيض بالخيرات .

ولهذا كان الاحتكاك بينها يكاد يكون أمراً محتوماً لا يمكن تجنبه إلا إذا انتظمت البلاد جميعاً حكومة مركزية مستقرة — ولكن لم تظهر الحكومة القوية الدعمة وظلت هجرات الرعاة المستمرة تبعث القلق والاضطراب فى المجتمعات القائمة فجاء إليها الهون والتتار الاسكوذيون Scythians الذين عرفهم الشرق الأقصى أيضاً وأشاعوا فيه الفوضى والاضطراب بطريق مباشر وغير مباشر . وقد اتحد الأهالى لفترة من الزمان ليواجهوا الخطر المشترك غير أن روابط اتحادهم كانت واهية الوشائج فلم تدم طويلا .

وهناك منطقة رابعة هى إقليم راجبوتانا بوجه عام وقد بلغ حداً لا بأس به من الرقى والتنظيم — ويقع إلى الشرق من نهر السند ويمتد محاذياً له — ويصل فى عرضه إلى المائتى ميل ويتراوح فى طوله من ٥٠٠ إلى ٦٠٠ ميل — ويمكن إطلاق لفظ صحراء عليه ، يقع جزؤه الشمالى الشرقى كأسفين يفصل بين البنجاب والبلاد الوسطى — ويمتد بين هذه الصحراء ونطاق الغابات فى شمال شبه جزيرة الدكن مساحة ترتفع فى مستواها عن مستوى السهل الشمالى ولكن تحميها الطبيعة شر العدوان عليها من الشمال الغربى ومن الجنوب — وهى أقل فى خيراتها من الأراضى الوسطى فقلت جاذبيتها فى إغراء الغزاة إليها ممن جاءوا يبتغون السلب والنهب — فأصابت قسطاً من الرقى مكنها من مقاومة الهجمات التى شنت عليها مدى بضعة قرون .

أما السهول الواقعة فى أقصى الجنوب الشرقى لشبه جزيرة الدكن فقد بعدت عن منافذ الهجرات التى تعرض لها السهل الشمالى — كفل لها البحر قسطاً من الحماية فأمكن لسكانها الأوائل أن يقيموا دولة عمرت لأكثر من ألف عام واتخذت لها أشكالا عدة ، وكانت نموذجاً ينسج على منواله أهل سيلان فيما وراء البحر وأهل وادى كوفرى الأعلى والأدنى — فبقيت هذه المقاطعات دولا مستقلة عدة مئات من السنين ، والحياة فيها بوجه عام سهلة ميسورة ،وأن ضعف الحافز الذى يدفع بسكانها إلى الاستزادة من التقدم فاكتفوا بما وصلوا إليه من تنظيم مكنهم من مقاومة الضغط الواقع عليهم من الشمال — فلم يصلوا فى تقدمهم إلى الحد الذى وصلت إليه أوربا مثلا — لقد فكروا فى حل ما واجههم من مشاكل ليعيشوا عيشة راضية فإذا ما قابلوا حضارة أرقى من حضارتهم عجزوا عن مقاومتها ، هذا بفرض تساوى الظروف بين الفريقين .

وتقرب معلوماتنا حد اليقين بظهور حضارة من طراز آخر وبظهور أقوام تعنى بتسجيل تاريخها — فقد انتشر الإسلام غربا نحو اوربا كما انتشر شرقاً نحو الهند . وحل الدين الإسلامى محل اشكال عدة من الوثنية إذ يمتاز عليها امتيازاً واضحاً — وكان للذين أدخلوا الدين الإسلامى إلى البلاد فضل فى تنظيم النظم الواهية والحكومات الضعيفة .

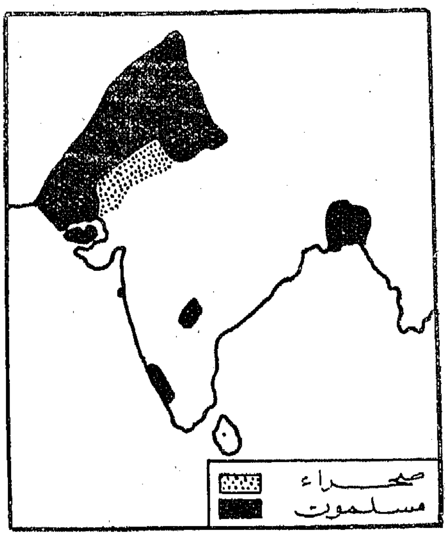
لقد بينا فى الفصول السابقة لماذا قاومت أوربا هجوم الإسلام عليها ، وقد تعرضت الهند لهذا الهجوم بعينه وبنفس مظهره — وتبين النتائج التى تمخضت عن هذا الهجوم الفروق الواضحة بين أوربا والهند . فقد خضعت الهند فى النهاية للمسلمين بدرجة ما وحكمها المسلمون ، غير أن الإسلام لم يتغلغل فى نفوس أهلها ولولا أحفاد الغزاة الذين جاءوا إلى الهند وهم يعتنقون الإسلام لما وجدنا بالهند إلا عددا ضئيلا ممن يؤمنون حقاً بالدين الإسلامى .

ولسنا فى مقام يبيح لنا أكثر من التلميح — بأن هذه النتيجة لا تثير الدهشة إطلاقاً ، فقد جاء الدين الإسلامى بعد الديانات السماوية الكبرى ووجد الديانات الأخرى قد تغلغلت فى النفوس وآمنت بها بلاد أوربا والهند والصين — فإذا تساوت الظروف فمن الطبيعى أن يظل الدين القائم باقياً ولا يبدو أن الديانة الهندوكية بما تنطوى عليه من خرافات متشعبة «وجنة وشياطين وآلهة وأنصاف آلهة — منها آلهة للمنازل وأخرى للقبائل وثالثة للأقاليم ورابعة للأكوان» يبدو أن هذه الديانة لا تسمو لتكون قرينة للاسلام والمسيحية . ولكن الهندى الذى يقطن بلادا حارة رطبة فى أغلب أجزائها عجز عن أن يرى الحقيقة الكامنة وراء المظاهر الخارجية . وليس الدين فى نظره وجود إله أزلى — قادر — سرمدى هذه القوة العظيمة التى أدرك كنهها البدوى المتجول فى فيافى الصحراء — ولكن الدين عند الهندى هو تلك المظاهر الجبارة التى تتخذها الحياة فى تطورها . فليست هناك وحدة للوجود يسعى العقل إلى إدراكها . ولما كانت الهند بطبيعتها تميل إلى الانقسام ورغبتها فى الانقسام مؤكدة ، خلت مما يشيع الوحدة فيها كما أشاعتها الحروب الصليبية فى أوربا ، فتهيأت الفرص للشعب الفاتح فى أن يزيد الفوارق حدة حتى يفوز بالسيادة على أجزائها . والدين الإسلامى من ناحية أخرى لم يقدم فى نظر الهندى التفسير المقبول عنده لمعنى الحياة — وهكذا لم يتقبله الهنود كدين لهم .

وأخذت الشعوب الإسلامية تتتابع على الهند من القرن السابع حتى القرن السادس عشر ، وطبيعى أن يأتى العرب أولا بطريق البر على طول الساحل ،

ثم بطريق البحر بحذاء شواطئه غير أنهم لم يتركوا أثرا دائما — ثم جاء بعدهم الأتراك قبل نهاية القرن العاشر بقليل عن طريق هضبة إيران مخترقين بلاد الأفغان ، فلم يكد يمضى قرن من الزمان حتى اعترف السهل الشمالى بأكمله بالحكم الإسلامى وذلك بسبب المنازعات الشديدة التى استعرت بين الحكام الهنود .

الخريطة رقم ٦١

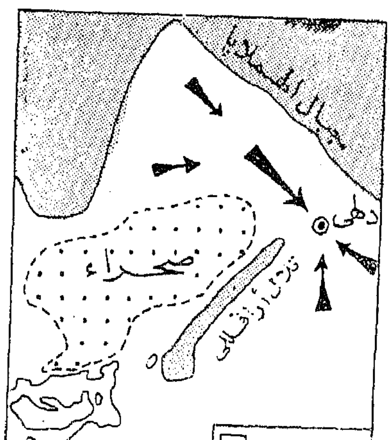


توزيع العناصر الأسلامية فى الهند
تسكن العناصر الأسلامية .
(ا) فى وادى السند غربى الصحراء
(ب) فى المدخل الواقع بين الحافة الشمالية للصحراء ومنحدرات الهيمالايا

ومن ثم انتشر الدين الإسلامى فى مقاطعة البنجاب الجافة وظلت تعتنقه إلى الآن وأصبحت معقل هذا الدين القيم — وقد ظل الناس على دينهم القديم على الرغم من اعترافهم بالحكم الإسلامى ؛ فيما عدا البنجاب التى ظلت تعتنق الإسلام، وفى بادئ الأمر كان الحكام الجدد يمارسون الحكم فى الأجزاء الخاضعة لهم من مراكز فى أفغانستان ، فلما فتح السهل الشمالى فى بدء القرن الثالث عشر أصبحت دلهى مقر السلطة الحقيقية . ولنلق الآن بنظرة إلى دلهى وموقعها . فنرى أن أقليم

السند وواديه ، ومقاطعة البنجاب ليست سوى مدخل من مداخل بلاد الهند ، ومن كلمة Indus أى السند اشتق اسم البلاد كلها ، ويؤدى إلى هذا المدخل ممر ضيق يصل فى عرضه إلى ١٥٠ ميلا يقع محصورا بين الصحراء الهندية وجبال هيمالايا — وتقوم دلهى عند مخرج هذا الدهليز حيث تصل أراضى السهل إلى أضيق عنق لها ، وتمتد على طول الحافة الشرقية للصحراء تلال آرافاليس وهى سلسلة من أقدم السلاسل الجبلية فى العالم ، وقد تآكلت كغيرها من السلاسل الجبلية القديمة ومزقتها عوامل التحات شر ممزق ، وجنوبها هو أكثر أجزائها ارتفاعا وتظل فى اتجاهها حتى مدينة دلهى تقريبا — وهكذا تقف دلهى كحارسة للباب الواقع بين التلال فى الجنوب وجبال هيمالايا فى الشمال — وقد وقفت وراءها الأراضى الإسلامية كما ترامت أمامها بلاد لم تصبح يوما ما إسلامية — وكان على الحكام المسلمين أن يمارسوا الحكم فيها ولهذا اتجهت الطرق المختلفة الآتية من الجانبين لتلتقى فى دلهى — وموقعها هو الموضع الطبيعى لعاصمة هندية تقع شمال منطقة الغابات — فلما تم للمسلمين تنظيم الشمال أولا كثيرا ما اختاروا عاصمتهم المرة بعد المرة فى مواضع تبعد بضعة أميال عن دلهى

الخريطة رقم ٦٢



موقع دلهى

تقع دلهى عند مخرج الطرق
بين الصحراء وجبال هيمالايا

الحديثة لتكون مقراً لهم ومركزا ينظمون منه البلاد وكانوا يطلقون عليها أيضا اسم دلهى .

واختيرت مرة مدينة أجرا كمقر للحكم وهى تقع إلى الشمال قليلا من دلهى فى داخل السهل ، ولكن القوم سرعان ما عادوا يعترفون بمزايا دلهى على غيرها من المراكز الأخرى .

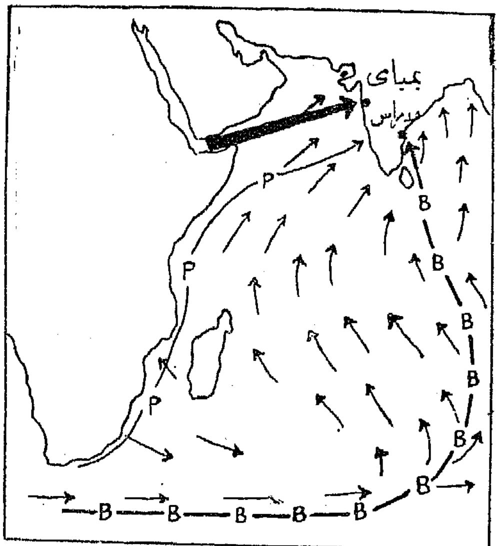
وكيفما كان الأمر ، فقد ظلت دلهى طويلا وهى عاصمة الشمال فقط ، ولم يبذل المسلمون أية محاولة قبل القرن الرابع عشر للسيطرة على الأجزاء الهندية جنوبى نطاق الغابات حين بذلوا أولى محاولاتهم لإخضاعها للحكم الإسلامى — فسيروا جيوشهم فى طول شبه الجزيرة وعرضها وحققوا هدفهم فترة من الزمان ، ولكن المجهود كان يفوق حد طاقتهم وقاموا به فى الوقت الذى بدأت الموجة الثالثة من الشعوب الإسلامية تطرق منافذ الهند وتقلب الأوضاع القائمة وتثير الاضطراب فيها ، فلم تمض بضعة أعوام حتى انتهزت المقاطعات البعيدة الفرصة وألقت عنها قيود الولاء لمدينة دلهى — إذ توالت على السلطة المركزية المصائب وناء أهلها بالمهام الملقاة على عاتقهم فكان على السلطات فى مدينة دلهى أن تكافح العوامل الطبيعية التى تدعو إلى التفرقة والانقسام وأن تصارع صعاب الحكم بين رعايا تختلف نظرتهم إلى الحياة عن نظرة حكامهم ، وكان على الحكومة أيضا أن تتغلب على العقبات الناشئة عن وجود الفوارق الطبيعية بين أقاليم البنغال والدكن ومقاطعات الشمال الغربى — أضف إلى هذا ما سببته الهجرات الجديدة من ضعف الحكومة وقد أخذ سيل المهاجرين التتار يتدفق من الشمال الغربى جاؤا من أراضى المراعى فى أواسط آسيا . ومنذ عام ١٢٥٠ فصاعدا أخذت جموعهم المتتابعة تدخل أقاليم البنجاب وتضيف إلى المسلمين فى الهند عدداً جديداً ، ولكنها كانت تزيد فى الحكومة القائمة ضعفا على ضعف ، حتى انهارت الحكومة المركزية فى دلهى ، وقضى عليها فى نهاية القرن الرابع عشر على أثر الخراب والتدمير الذى أشاعته فى البلاد غزوة تيمورلنك .

وقد عاد تيمورلنك إلى سمرقند بعد أن تم له غزو الهند غير أنه تركها فوضى منقسمة على نفسها ، تقوم فيها ولايات مستقلة فى أحراش البنغال أو فى سهول البنجاب الجافة ، وفى مراعى الدكن وفى السهول الواقعة فى أقصى الجنوب، بعضها يخضع لأمير مسلم ، وبعضها يخضع لأمير هندى .

ولم تقم سلطة مركزية فى الهند لمدة قرن ونصف من الزمان إلى أن جاءت إليها موجة جديدة من المغول وهم سلالة من سلالات تيمورلنك — وبعد أن قاموا بمغامرات متنوعة بدأوا فى عام ١٥٥٦ يؤسسون حكماً مركزياً ويتخذون من دلهى عاصمة للبلاد وقد تسنم الحكم الملك أكبر بين عامى ١٥٥٦ — ١٦٠٥ — وهو من أعظم المعاصرين للملكة اليصابات فى انجلترا — ونجح فى توطيد أركان حكم متين بقى قائماً حتى أفلت زمامه تدريجياً إلى أيدى البريطانيين وقد نجح خطوة خطوة فى إعاده تنظيم البلاد الهندية شمال نطاق الغابات على أسس اقتصادية سليمة -- أصح مما قامت عايه الحياة من قبل . ولكن نجاحه كان محدوداً فى الميادين الأخرى والسر فى قوته يرجع إلى أنه استطاع على الرغم من أنه مسلم أن يوحد تحت لوائه جماعات الهندوس الفتية القاطنة فى البلاد الوعرة الواقعة فى الشمال وفى الغرب ، وأن يكبح جماح العناصر الأخرى التى تعمل على التفرقة والانقسام وبعد خمسين عاماً اعتلى العرش حفيده أورانجزيب وطال عهده حتى بلغ خمسين عاماً حالفه النجاح خلالها فى إخضاع جنوب الهند لسلطانه وامتد نفوذه فملا إلى مساحات من الهند لم يصل إليها خلفاؤه من بعده . غير أن التاريخ يعيد نفسه إذ عاودت الفوارق والخلافات الظهور على المسرح . وفى عام ١٧٣٩ اجتاحت الهند جحافل جديدة دخلتها من الشمال ووطئت بأقدامها السهول الشمالية وقضت على الحكومة المركزية وعاثت فى الأرض سلباً ونهباً .

وفى هذه الأثناء قويت شوكة المستعمرين الأوروبيين الذين جاءوا إلى الهند من وراء البحار . وقد حل الفرنسيون والبريطانيون محل البرتغاليين والهولانديين وبدأ البريطانيون عندئذ يسيطرون على الولايات المتنازعة ليجعلوا منها دولة الهند الموحدة — ولما كانوا يجيئون إلى الهند من وراء البحار مسخرين الرياح الموسمية الصيفية .

الخريطة رقم ٦٣

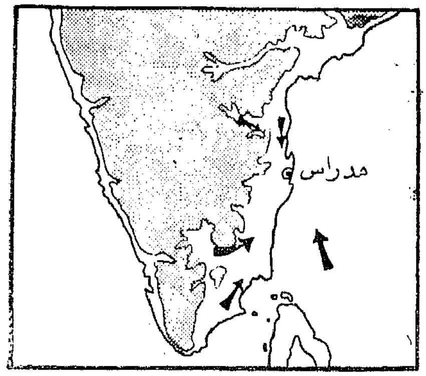


P طريق الملاحة البرتغالى
B « « البريطانى إلى مدراس ومنها إلى كلكتا
« التجار الشمالى إلى بمباى

الرياح الموسمية فى هبوبها على الهند
(١) طريق البرتغاليين الذى يحتضن ساحل أفريقيا الشرقى
(ب) طريق البريطانيين الشراعى وهو يؤدى أولا إلى كلكتا
(حـ) الخط الشمالى الذى تتبعه البواخر فى السفر إلى بمباى

لتدفع بسفنهم الشراعية، كان من الطبيعى أن يصلوا إلى البلاد من جنوبها وجنوبها الشرقى فجاءوا أولا إلى السهول الكارناتية وسهول البنغال وهى أبعد ما تكون عن مصادر الإضطراب فى الشمال الغربى ومراكز الحكم الشمالية. فاتخذ الحكم البريطانى قواعده فى كلكتا ومدراس. وانتشر منهما نحو الشمال الغربى عبر السهول ونحو الغرب خلال هضبة الدكن. كما وصل البريطانيون إلى الهند من غربها أيضاً حين جاءوا إليها فى أول الأمر وهم يلتزمون السير بحذاء السواحل الأفريقية. ثم طرقوا الباب الغربى مرة أخرى بعد افتتاح قناة السويس فدخلوها عن طريق ميناء سوارت وهو أقدم المحطات البريطانية فى الهند وعن طريق بومباى وهى أقدم الممتلكات البريطانية فيها.

الخريطة رقم ٦٤



موقع مدراس

وظلت بومباى أجيالا طويلا وهى تقل أهمية عن مدراس وكلكتا ولكنها اليوم تفوق مدراس وتساوى كلكتا فى عدد السكان . وقبل افتتاح قناة السويس كان هذا المنفذ إلى الهند أقل أثراً من غيره من المنافذ حتى أنه فى غضون الفوضى التى تبعت انهيار الحكم المغولى أخذ البريطانيون فى إعادة تنظيم البلاد تحت سلطانهم واتخذوا من كلكتا ومدراس مراكز لإدارة شئون البلاد أكثر من اعتمادهم على بومباى . فتهيأت الفرصة للاتحادات الوطنية أن تنمو وتتشكل فى الأقاليم الغربية والشمالية الغربية البعيدة ، فنشأت ولايات المهراتا فى الهضبة الجافة إلى الشرق من بومباى وولايات السيخ فى أراضى البنجاب الجافة .

ولولا تدخل البريطانيين فى المسرح الهندى لكان من الجائز أن تنهض ولاية أو أخرى من هذه الولايات وتحاول فرض سلطانها على الهند بأسرها . وعلى أية حال ، كانت هذه الاتحادات هى اللقمة العسيرة التى واجهها البريطانيون وتطلب إخضاعها قوة وكفاية أكثر مما تتطلبه إخضاع غيرها من الولايات .

ولما كانت البنجاب بعيدة عن المنافذ البحرية البريطانية أى كلكتا ومدراس استغرق البريطانيون أكثر من نصف قرن لوضعها تحت الحكم البريطانى المباشر . ومنذ ذلك العهد كثيراً ما ضم البريطانيون مساحات إلى حكمهم إما بسبب فساد الحكم

الوطنى وإما بسبب عدم وجود من يرث الحكم المطلق فى هذه الولايات — غير أنهم لم يستخدموا القوة العسكرية قط فى توسيع رقعة سلطانهم إلى الأقاليم المختلفة.

هذه هى الهند . أغلب أجزائها خاضع للحكم الأجنبى كما كان الشأن دائماً فى أية مساحة هندية كبيرة . تدار شئونها من كلكتا لأنها المنفذ إلى السهل من المحيط وستصبح دلهى فى مستقبل الأيام عاصمة البلاد لأنها الوحيدة من بين المدن الهندية التى تستطيع أن تدعى بحق أنها كانت مركز الحكم وتدار منها دفة البلاد . والجزء الباقى من الهند ولايات وطنية وإن كانت لا ترجع فى تاريخها إلى عهد أقدم من الحكم البريطانى فى الهند وأغلبها يحكمه حكما مطلقا أمراء وراجات أجانب عن رعاياهم كأى حاكم بريطانى — والهند تعول عدداً عظيما من السكان الذين يعتمدون فى سد حاجاتهم الحيوية على الطاقة المكتسبة من منتجات أرضها بفضل حرارتها ورطوبتها — إلا أنها لم تكن قادرة على أن تحكم نفسها بنفسها أو أن تقوم بها حكومة منظمة دائمة (١) .

وقد ساد فيها الأمن الداخلى ، وتحرص الحكومة فيها على عدم تسرب ما تختزنه البلاد من طاقة أكثر من أى عهد مضى منذ انتهاء عهد الفوضى ومنذ أن أغلق المنفذ الشمالى الغربى فى وجه أى خطر قد يأتى من أفغانستان أو ماوراءها ويهدف إلى اشاعة الاضطراب فيها أو يبغى السيطرة عليها وقد تم تحصين هذا المدخل تحصيناً قوياً لأن الوصول إليه أصبح ميسوراً لا من كلكتا فحسب بل وبطريق السكك الحديدية الممتدة على طول وادى السند .

لقد أصابت الهند رقياً ونجاحا رغم أن الحكام البريطانيين يعيشون فيها كحكام فقط ولا يفكرون قط فى الاستقرار بها بسبب اختلاف ظروف الحياة فيها عنها فى بريطانيا . عاشوا وكأنهم ينفون أنفسهم زمنا ثم يعودون إلى أوطانهم إذا ما انتهت مهامهم — ولكن لا يقر قرارهم فى دلهى كما قر قرار الغزاة المسلمون، وإذا استقروا فلا بد أن تمتصهم جموع الشعوب الهندية كما تمثلت غيرهم من المهاجرين — أضف إلى ذلك أنه على الرغم من أن الشعوب الرعوية الضاربة فى السهل الأعظم فيما وراء أفغانستان قد نظمت وتمدنت حقاً ، إلا أن الطريق إلى

(١) هذه هى أفكار الانجليز قبل أن يتحقق للهند استقلالها . المترجم

الهند لا يزال مؤديا إليها كما كان دائماً ولن يستطيع أحد أن يتنبأ أيها أشد خطراً. هجوم منظم أم غزو تقوم به جماعات لا تربطها ببعضها سوى روابط واهية .

وعلى كل فالعوامل الجغرافية ما زالت باقية — والهند شبه جزيرة أشبه بقارة فى حد ذاتها وهى ذات مناخ حار مطير - ولا تزال معرضة للغزو من البحر ومن الشمال الغربى — يأتى إليها الأوربيون من وراء البحار وهم الذين ترعرعوا فى البلاد الشمالية وواجهوا ظروفها الجغرافية القاسية المنوعة — وقد عرفوا كيف يحلون مشكلات أشد تعقيداً مما يقابله الهنود . وعرفوا أيضاً كيف يأتون إلى الهند وكيف يحكمونها ولكنهم لا يألفون أساليب الحياة فيها ، بينما الأهالى فى الهند قادرون على الحصول على الطاقة الجسمانية بسهولة ويزدادون عدداً كل يوم ويجدون الحياة فى أوطانهم سهلة تخلو من حافز يدفعهم إلى التحكم فى الطاقة واقتصادها على نطاق واسع — وهكذا نجد الأوربى راغباً عن الاستقرار فى الهند ونجد الهندى عاجزاً للآن عن أن يحكم البلاد بنجاح كما يحكمها الأوربى [1] .

---

(١) لقد أثبت الاستقلال عدم صحة ذلك الادعاء . المترجم

الفصل الخامس عشر

المراعى الأفريقية — مناطق النفوذ

أراضى السڤانا الأفريقية

لقد اتضح الآن كيف كانت العوامل الجغرافية تتحكم فى مجرى تاريخ أوربا وآسيا بوجه عام ، وعرفنا بوجه خاص كيف نشأت ثلاثة ألوان من الحضارة على هامش السهل الأعظم — وفى سياق هذه القصة لم تتناول من أفريقيا إلا نطاقا ضيقا يمتد على طول ساحل البحر المتوسط ، ولم يكن ثمة داع لذكر شيء عن باقى القارة إلا بالقدر الذى لزم لبيان كيف أن كشف الطريق البحرى إلى جزائر الهند حول رأس الرجاء الصالح ، كان حدثا بارزا من أحداث التاريخ .

وهنا نجد مجموعة من الحقائق الواضحة تبدو عجيبة شاذة عن المألوف ، فبينما يبدأ التاريخ فى مصر(١) ويتخذ من شواطئ أفريقيا الشمالية مسرحا لكثير من الأحداث نرى أن باقى القارة يظل مجهولا للعالم المتحضر حتى خمسة القرون الأخيرة وليس هذا فحسب ، بل أنه على الرغم من أن الطريق إلى الهند حول شواطئ أفريقيا قد اكتشف قبل أن يعبر كولمبس بسفنه المحيط الأطلسى ، إلا أن أفريقيا بقيت القارة المظلمة حتى النصف الأخير من القرن الماضى — هذا فى الوقت الذى افتتح فيه البرتغاليون والأسبان الأمريكتين وأصبحت أمريكا الشمالية مقرا لمدنية عظيمة تناظر لدرجة كبيرة مدنية أوربا .

---

(١) يجب ألا ينسى القارئ أن الإنسان قد استغرق آلافا من السنين قبل — بدء التاريخ المصرى — وهو يتقدم فى معرفة كيفية استخدام الطاقة واقتصادها خلال الظروف المختلفة التى تهيأت للحياة البشرية على ظهر الأرض ، فقد بذلت محاولات عدة ليكون المؤرخون فكرة عن الزمن الذى استغرقه الإنسان فى التدرج فى مشقة فى سلم الحضارة شيئاً فشيئاً ويختلف تقدير طول هذه الفترة بين عشرات الآلاف من الأعوام إلى مئات الآلاف .

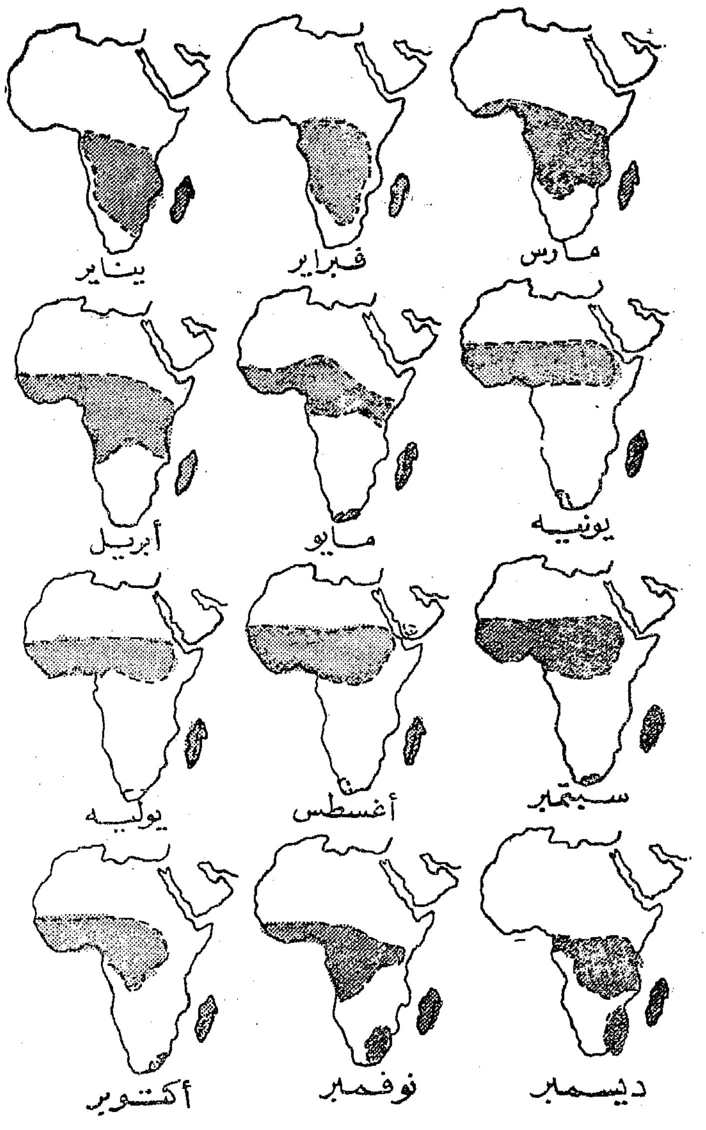
وكيفما كان الأمر فان معلوماتنا عنها قليلة لا تعدو أن تكون فروضاً لا تحتمل المناقشة ، والواقع أن نمو الحضارة فى مصر هو فصل بارز يبدأ به تاريخ الإنسان .

لقد تكلمنا فى الفصل الثانى عن انعدام الحافز الذى يدفع الأجناس التوطنة فى أفريقيا الاستوائية لأن تستغل مواردها الطبيعية ولأن تقتصد فى الطاقة المتوفرة لديها ولنزد الآن هذه الحقائق تفصيلا ولنر أن كانت تفتح لنا مغاليق هذا التاريخ غير العادى .

تظهر خرائط التضاريس أن أفريقيا فى عمومها هضبة ترتفع كثيراً فوق مستوى البحر وأن حافاتها تنحدر انحداراً فجائياً إلى أعماق بحرية سحيقة — وتظهر خرائط توزيع الحرارة طول العام أنها تخلو من وجود أى جزء فيها فى مستوى سطح البحر ذى مناخ بارد على مدار السنة — وجل أراضيها فى معظم فصول العام ذات مناخ دافىء ، بل ومساحات كبيرة منها حارة ، وعلى أى الأحوال فإن منطقة الحرارة الشديدة فيها ليست ثابتة دائماً ، بل أنها تتأرجح تأرجحاً يتفق وحركة الشمس الظاهرية إلى شمال خط الاستواء وإلى جنوبه فلو أن حزمة معينة من أشعة الشمس سلطت عمودية على سطح من اليابس لانتشرت الحرارة الناتجة عنها فى مساحة تقل عما لو سقطت هذه الحزمة بعينها على هذا السطح وهو فى أى زاوية كانت ، وبعبارة أخرى تزيد كمية الحرارة التى تستقبلها مساحة من اليابس لو اسقطت عليها أشعة الشمس عمودية عما لو استقبلتها وهى فى أية زاوية أخرى ، ولهذا تضافرت الأسباب التى تجعل الجزء الشمالى من أفريقيا أشد حرارة من جنوبها فإن أعلى درجات الحرارة موجودة فى الشمال ، لأن أراضى شمال أفريقيا أقل ارتفاعاً فى المتوسط ولأن كمية اليابس فى الشمال أكثر اتساعاً فلا تقتصر فى امتدادها على قارة أفريقيا وحدها بل تتعداها إلى ما وراء شمالها وشمالها الشرقى وبطبيعة الحال يرتبط بهذا التأرجح فى نطاق الحرارة الشديدة تأرجح آخر واضح المعالم فى مناطق المطر إلى الشمال وإلى الجنوب حسب ما تظهره الخرائط المرافقة .

والمطر يحدث عادة بسبب برودة الهواء الذى يضطر إلى الارتفاع إلى طبقات جوية عالية فينتشر ويتمدد وبهذا تقل درجة حرارته ، وقد يحدث ارتفاع الهواء نتيجة اعتراض عقبات أرضية فى الطريق كسفوح الجبال مثلا فيتحتم على الهواء عندئذ ارتقاء هذه العقبات ، ولهذا كانت الحافة الغربية لهضبة الدكن غزيرة الأمطار

الخريطة رقم ٦٥



توزيع المطر فى أفريقيا طوال العام

تبين المساحة المظللة الأماكن التى يزيد معدل سقوط المطر فيها على ٤ بوصات

وهى تتأرجح الى الشمال فى الصيف الشمالى وإلى الجنوب فى الصيف الجنوبى.

فى الصيف لأن الرياح الجنوبية الغربية فى هبوبها عليها تضطر إلى الارتفاع فتبرد بتمددها — كذلك الأمر فى بريطانيا فإن مرتفعاتها الغربية غزيرة الأمطار إذ تواجه الرياح العكسية بينما تقع بعض مرتفعات بريطانيا الأخرى إلى الشرق من هذه وتوازيها ارتفاعاً إلا أنها تقل عنها رطوبة وتزداد جفافا . وما ذلك إلا لأنه ليس هناك ما يوجب ارتفاع الرياح ارتفاعاً جديداً فوق هذه المرتفعات ، وعلى أية حال ليس اليابس وحده هو السبب فى ارتفاع الهواء ، فلو اندفع تيار من الهواء الثقيل تحت آخر خفيف لسبب هذا الاندفاع ارتفاع التيار الأخير الذى يبرد بدوره من جراء هذه الحركة ، هذا التداخل فى التيارات هو السبب الوحيد الذى يفسر سقوط الأمطار فوق المحيطات أو فوق الأراضى المسطحة التى لا يضطر الهواء فى هبوبه عليها إلى الارتفاع فوقها -- وقد يكون أيضاً عاملا مساعداً فى سقوط الأمطار فوق المنحدرات ، وكيفما كان الوضع ، فقد يكون هذا علة سقوط الأمطار على نحو ما فوق الأجزاء الحارة من قارة أفريقيا ، فإن الهواء فى المنطقة الاستوائية لا يلبث أن ترتفع درجة حرارته فتهب على المنطقة من الشمال ومن الجنوب رياح أقل حرارة وتأخذ طريقها تحت ذلك الهواء الساخن وعيل هذه التيارات لأن تحتفظ باتجاهاتها الأصلية فى الفضاء ومن ثم تنحرف فتأخذ اتجاهاً شرقياً بعض الشىء — ومما لا شك فيه أن الظروف الجغرافية ليست بهذه البساطة التى نذكرها الآن، فمن ناحية هناك من الشواهد ما يدل على أن الهواء فى المناطق الاستوائية يرتفع وينخفض فى شرائح رقيقة أكثر منه فى كتل كبيرة ، ومن ناحية أخرى تدل الأبحاث التى أجريت فى الطبقات العليا على أن كثيراً من الآراء والمعتقدات التى تبحث فى علاقة الضغط بالرياح والأمطار والتى بنيت على معلومات مستقاة من محطات الأرصاد المبثوثة على سطح الأرض ، كلها فى حاجة إلى المراجعة والتمحيص على ضوء المعلومات الجديدة التى هى أكمل وأدق .

ومهما كان سبب هذا الاختلاف فليس هناك من شك فى أن تأرجحاً يحدث فى مناطق المطر والجفاف أى فى المناطق المناخية، يدفع بها إلى الشمال وإلى الجنوب وينتج عن ذلك وجود سبعة أقاليم مناخية على امتداد الشاطئ الغربى لأفريقيا ،

فهناك شريط ضيق على طول سواحل البحر المتوسط يمتاز بسقوط معظم المطر شتاء، وتليه منطقة أكثر اتساعاً هى الصحراء الكبرى حيث يندر سقوط المطر وهى تمتد شرقاً وغرباً عبر القارة وتتخذ من مدار السرطان محوراً لها، ثم تليها منطقة المناخ السودانى وهى أضيق عرضا وتمتاز بصيف مطير وشتاء جاف — ثم الأقاليم الاستوائية بمطرها الدائم الذى يبلغ أقصاه عندما تبلغ الشمس سمت السماء فى منتصف النهار — ثم تتكرر هذه المناطق فى جنوب خط الاستواء — غير أنه يجب ألا يغيب عن الذهن أن الصيف فى الشمال يقابله شتاء فى النصف الجنوبى من القارة وأن هذه المناطق فى الجنوب تشغل حيزاً من خطوط الطول أقل مما تشغله فى الشمال لأن مساحة اليابس أقل اتساعا ولأن محيطاً يقع إلى الشرق منها. وعلى أية حال فإن لفظى « شتاء » « ومنطقة » فى هذا الصدد قد يؤديان إلى الخطأ فإن المساحة الجافة فى الجنوب أى صحراء كلها رى تصيب من الأمطار نصيباً أوفر مما تصيبه الصحراء الكبرى — وأن المساحة التى تسقط عليها أمطار « الشتاء » فى الجنوب أن هى إلا إقليم صغير يقع فى أقصى الجنوب الغربى. أما فى شرق القارة إلى الشمال من خط الاستواء فات الكتلة اليابسة الكبرى التى تمتد إلى الشرق منها ذات أثر بالغ حتى أن مناطق الشاطىء الغربى تمتد تميزاتها عبر القارة الأفريقية — أما فى جنوب خط الاستواء فإن الساحل الشرقى يستمتع بقسط وفير من المطر الصيفى.

والأثر الذى يتركه هذا التوزيع للمطر هو أثر يلفت النظر حقاً، فقد نمت غابات كثيفة على جانبى خط الاستواء من جراء اجتماع الأمطار الغزيرة إلى الحرارة الشديدة — وتشغل هذه الغابات جزءاً عظيما من حوض الكنغو وشواطىء خليج غانة — كما امتدت غابات مشابهة لها وإن قلت عنها كثافة على طول سواحل المحيط الهندى من جزيرة زنزبار جنوباً — هذا وتمتد الصحراء الكبرى حيثما تندر الأمطار حتى يصبح سقوطها أمراً شاذاً.

أما فيما عدا ذلك فتمتد مناطق شاسعة من الأعشاب بسبب انعدام الأمطار فى بعض فصول السنة وهى تتدرج من مناطق المراعى الجيدة فى بعض أجزائها

إلى أن تصبح قفراً يباباً فى بعض أجزائها — هذه البقاع الشاسعة بطبيعتها توفر الغـذاء لآكلة العشب من الحيوانات، أو على الأخص الماشية والغزلان من جميع الأنواع وهى حيوانات تتحمل درجات عالية من الحرارة — وتمتد هذه الأراضى المشبية من السودان الغربى فى الشمال على طول القارة الأفريقية جنوباً حتى تقترب من رأس الرجاء الصالح وتشغل معظم القارة تقريباً جنوبى الغابات الاستوائية .

هذه هى العوامل الجغرافية الكبرى التى شملت بتأثيرها الإنسان سواء كان متحضراً أم آخذاً فى التحضر أم همجياً متأخراً وليست الغابات الاستوائية العظمى بالمكان الذى يصلح لنمو الحضارة أو المدنية، ويجب أن نذكر أن الغابات تعوق حركات الجماعات المنظمة من البشر سواء جاؤا إليها حرباً أم سلماً .

وقد رأينا كيف عرف الإنسان فى مصر وسائل التحكم فى الطاقة وتسخيرها على نطاق واسع لتحقيق أغراضه ، لأن مصر احتمت بصحرائها الممتدة على كلا جانبى واديها واستمتعت بنهر له موردان من الماء ، أحدهما من المنطقة الاستوائية ذات المطر الدائم والآخر من هضبة الحبشة بأمطارها الصيفية — وقد استطاعت الجماعات البشرية الافريقية أن تسرح فى طول القارة وعرضها وأن تجوب المساحات الشاسعة من الأراضى المشبية المسطحة ، كما تجولت جماعات الرعاة فى مناطق الاستبس فى أوربا وأسيا .

ولا بد أن تؤدى الظروف المتشابهة إلى ظاهرات متشابهة ، كما يؤدى اختلافها إلى فروق جوهرية . فليس فى أفريقيا مكان واحد يشتد فيه البرد حتى يحتاج الإنسان إلى اعداد خاص لمقاومته . فالملابس مثلا ضرورة من ضرورات الحياة لسكان مراعى الاستبس ولا غنى لهم عنها، إلا أنها ليست ضرورة أساسية لسكان المراعى الأفريقية فتقل بالتالى حاجتهم إلى اقتصاد الطاقة واستغلالها — هـذا وأن أراضى المراعى الأفريقية باستثناء المناطق التى تحف بالصحراء ليست فى جفافها كمراعى الاستبس الأسيوية — وهى ليست متكتلة فى مساحات واسعة مثلها ويتبع ذلك نتيجتان : —

الأولى — امكان زراعة هذه الأراضى فتقل حاجة الأهالى إلى مزاولة حياة رعوية خالصة .

والثانية — أن جماعة الرعاة الخلص أميل إلى التحكم فى الجماعات الزراعية كما تحكمت قبائل العرب الرحل فى سكان الواحات وكما سيطر رعاة آسيا الوسطى على فلاحى الأراضى التى تحف بمراعيهم حتى بضعة قرون مضت — وليس ثمة حاجة تدعوهم لأن يكونوا أهل جد ونشاط ، أهل سعى ودأب . بل أن الاحتمال يزيد حتى يصل إلى درجة اليقين بأن القبائل الرعوية القوية تعمد بسبب جهالتها وهمجيتها وبحكم أنها أقل مدنية — إلى منع الجماعات التى تقع تحت سلطانها من أن تربى فى نفوس أفرادها عادات استغلال الطاقة واقتصادها .

والواقع أن تاريخ أفريقيا جنوب الصحراء الكبرى — هذا أن قيل أن لهذا الجزء تاريخ ما — هذا التاريخ فى الحقيقة أن هو إلا قصة تروى انتقال القبائل الرعوية المختلفة فى حركاتها البطيئة فوق الأراضى العشبية ، تستقر حيناً من الدهر فى بقاع خاصة وتتخذ الزراعة الخفيفة حرفة لها وتكون لها قوة عسكرية تمكنها من فرض الجزية وجبايتها من القبائل الخاضعة لها ، وقد تتهيأ لها الفرصة فتعمل على إبادتها وفنائها ولكن هذه القبائل فى عمومها لم تنجح قط فى تأسيس دولة يمكن أن نصفها بالتحضر . ومع ذلك فقيام الحضارات العريقة فى الشمال واتصال الشعوب بهذه المدنيات وعلى الأخص بالشعوب القاطنة على شاطىء البحر الأحمر — كان له دائماً فيما يبدو بعض الأثر ، لأن حركات هذه القبائل الرعوية على بطئها كان مصدرها الأول فى جميع الأحوال تقريباً الجزء الشمالى الشرقى من القارة أى الأراضى التى تتصل اتصالا مباشرا بالمدنيات الشمالية واتخذت هذه الحركات طريقين رئيسيين لها : الأول غربا خلال إقليم السودان والثانى جنوبا عبر الهضبة العالية وكانت الأقوام المهاجرة تسوق أمامها السكان القدامى فى تلك البقاع كالبشمن والهوتنتوت وتدفع بهم جنوبا نحو منطقة رأس الرجاء الصالح وإلى داخل الغابات حيث وجدهم الأوربيون أخيراً وقد سميت بأسمائهم الأقاليم التى سكنوها — فقد

هاجرت شعوب الزولو والمتابلى والمشوتا والمساى جميعاً نحو الجنوب فى خلال الألف سنة الماضية تقريباً وسكنوا الإقاليم التى تسمى بأسمائهم الآن .

غير أن الظروف الجغرافية فى السودان تختلف بعض الاختلاف لأن السكان هنا أكثر اتصالا وتأثراً بسكان الشواطىء الجنوبية للبحر المتوسط وقد سلك هؤلاء دروب الصحراء فى جماعات صغيرة العدد سواء كان ذلك قبل انتشار الإسلام أو بعده كما اختلطوا بالزنوج من السكان ونقلوا إليهم الأفكار عن استغلال الطاقة وتوفيرها بوسائل مختلفة ، وزرعوا القطن فى البلاد الرطبة التى تشبه البساتين فى نباتاتها واستعملوا النيلة فى صباغته ، كما بنيت فيها المساكن الحجرية والمدن المسورة التى تضم آلافا من السكان . وهنا نجح المولدون من سلالات العناصر الشمالية المهاجرة فى تأسيس دول عمرت قروناً أحياناً — وهذا هو أكثر ما يمكن أن يقال عن تاريخ افريقيا . وكان هذا الطراز من الحضارة فى أحسن صورة أقل نجاحا بالطبع من الحضارة الشمالية التى أوحت به — وعلى الشاطىء الشرقى كان نفوذ العرب محسوساً فى العصور التاريخية فقامت دول ولكنها لم توجه همها إلى استغلال الطاقة بقدر ما وجهته إلى الاسراف فى استعمالها .

وقد حدث أن هاجرت القبائل — بعد أن تأثرت بالحضارات الشمالية — إلى داخل الغابات لعلها واجدة لها ملجأ تلوذ به واستقرت فى مواضع لم تبلغ بها الأشجار حداً من الكثافة يقتل النشاط الذهنى وان كفلت لها فى الوقت عينه قدراً من الحماية يحول دون وصول القبائل الرعوية إليهــا ثم أخذت فى تنمية وسائلها الخاصة فى الحياة ، بيد أن هذه لم تكن إلا حالات شاذة — وفى أغلب الأحيان لم تصب القبائل الافريقية تقدما يذكر .

من هذا يتضح جلياً أن العناصر الوطنية فى افريقيا لا ينتظر منها شىء كبير ، بل ينبغى أن ندرك لماذا بقيت افريقيا كل هذه الاحقاب الطويلة وهى قارة مجهولة من العالم المتحضر ، وقد كانت العلة مزدوجة ، فهناك عقبات إيجابية من ناحية وقفت فى سبيل كشفها وحالت دون الاستقرار فيها ، وافتقرت من ناحية أخرى إلى الاغراء الذى يجتذب إليها الأقوام المتحضرة ، أما العقبات فهى واضحة فإن

القادم إليها من البحر يقابل على طول الشواطىء الغربية الصحارى الجرداء والغابات الكثيفة ابتداء من مراكش حتى جنوب نهر الكنغو فيما عدا الجزء الذى يصل إليه المناخ السودانى فى سنغمبيا . وهنا فعلا بذلت محاولات فى أزمنة مبكرة للاستقرار — أما إلى جنوب الكنغو فيحف بالشاطىء أشد أجزاء صحراء كلهارى جدبا وجفافا ، وعلى العكس من ذلك تمتد على الشاطىء الشرقى بلاد تكسوها الغابات ، فكان المكتشفون يأتون إلى افريقيا من وراء البحار فى قواربهم باحثين عن مصبات الأنهار على أمل أن يجدوا لهم فيها منفذا إلى داخل القارة ، غير أن افريقيا تحيط بها مياه عميقة تتأثر تأثراً طفيفاً بموجات المد والجزر ،وحيث تكثرالامطار تجد الأنهار تقذفإلى البحر بمياهها ورواسبها مكونة دالات يصعب اختراقها ، والأنهار ذاتها لا تصلح فى أغلب أجزائها للملاحة فهى إما سيول جارفة وإما سلاسل من العيون والآبار هذا باستثناء منطقة المطر الدائم ، وحتى إن صلحت الأنهار للملاحة فهى لا تصل إلى دالاتها إلا بعد أن تنحدر من هضابها الداخلية فوق شلالات ومسافط متعددة ، والأراضى فى ذاتها شديدة الحرارة موبوءة بالحمى فى كثير من بقاعها ، بيئة لا يألفها الجنس الأبيض ولا تشبه مواطنه ولا تروقه سكناها ، بل ولا يساوره أى حافز يغريه بارتياد مجاهلها ، فقد خلت افريقيا من أساطير الذهب المخزون والثروة والتوابل كالهند مثلا — فمر الناس بهذه الشواطىء المقفرة المنفرة وتابعوا رحلاتهم إلى الأراضى التى اشتهرت بثرواتها .

ومع هذا فقد تحكمت الظروف الجغرافية حتى فى تقدم الإنسان الأبيض إلى مجاهلها ، فحددت له أماكن لاستقراره دون غيرها وامتدت مستعمراته فى بعض الاتجاهات دون غيرها ، وتراوحت الأسباب التى دعت إلى هذا الاستقرار فكان بعضها محليا وبعضها متصل بطبائع بلاد أخرى ، فقد نشأت مستعمرات فى أول الأمر بالقرب من السنغال وغمبيا لأن الإنسان الأبيض بكر فى الوصول إليهما ولأنهما بأحوالها الجغرافية أكثر ملاءمة لسكناه بوقوعهما بين الصحراء والغابات

كذلك كان الأمر على الشاطئ الجنوبى عند ساحل أنجولا ، فقد بكر البرتغاليون فى احتلاله حيث أنه شبيه بمنطقة غمبيا والسنغال .

أما فى منطقة الرأس فبدت خالية من المميزات التى تغرى بسكناها وخلت من التوابل والبهارات ، ومن الكنوز ومن الرقيق ، قليلة الخيرات لمن يسكنها ولهذا فضل البرتغاليون احتلال الشواطئ التى تقع إلى الشمال الشرقى ، وتزيد قربا من الهند ، وهى الغاية الأسمى التى كان يستهدفها الرحالة البرتغاليون ، وهكذا تركت منطقة الرأس لقمة سائغة للاستعمار الهولندى .

ثم انتقل زمام الأمر إلى بريطانيا فى بداية القرن التاسع عشر حين خضعت كل أوربا تحت أقدام نابليون إذ وجدت بريطانيا أن الضرورة تحتم عليها أن تستولى وتحافظ على المناطق المتطرفة التى قد يستخدمها الفرنسيون كقواعد للهجوم ، وأدرك البريطانيون أن منطقة الرأس لا تختلف كثير فى مناخها عن بريطانيا كما أنها أفضل المحطات ملاءمة فى الطريق الذى يتبعه البريطانيون إلى الهند ، وهو يختلف عن الطريق البرتغالى الذى كان يسير محاذياً للساحل الأفريقى كلما أمكن ، هذا لأن البريطانيين بينهم وبين البحر ود متصل فكانوا يطلقون لسفنهم العنان مطمئنين إلى الرياح الغربية والتجارية ، ولم يضيعوا الوقت سدى فى محاولات للأبحار عكس اتجاهات الرياح بل عمدوا على الإفادة منها ما أمكنهم واتخذوا الاتجاه المبين فى الخريطة فى صفحة ٢٣٦ والذى لم يقترب بهم من اليابس إلا عند جنوب أفريقيا . وهكذا تضامنت الجغرافيا والتاريخ فى هذه الحالة كما تضامنتا دائما فى توجيه اختيار الإنسان لأماكن استقراره وسكناه — وكل تقدم بلى ذلك تتحكم فيه الظروف القائمة وما يسبقها من أحداث — فإن تدهور البرتغال من منزلتها كدولة عظمى ساعد على الحيلولة دون نمو المستعمرات البرتغالية ، كما أن شرق أفريقيا البرتغالى بساحله الموبوء بطبيعته تحف به كما رأينا الغابات الرطبة ولم يغر بالتوسع فى الاستعمار ، وتقدم الفرنسيون من السنغال شرقا حتى وصلوا إلى أعالى النيجر فسيطروا على إقليم متكتل ساعد على تماسك ممتلكاتهم فى شمال أفريقيا . غير أن أنجح أنواع التقدم هو ما تم على أيدى الإنجليز متبدئين من مدينة الرأس نحو الشمال فوق أعلى أجزاء الهضبة الأفريقية ارتفاعا وأكثرها اعتدالا

فى المناخ وأسهلها اختراقا ، فهى بهذه الصفات أكثر أجزاء القارة الأفريقية ملاءمة لسكنى أناس ألفوا مثل هذه الظروف كما ألفوها فى أوربا . هكذا نرى أن البرتغاليين لم ينزلوا إلى البر قط فى منطقة الرأس بينما احتفظ بها الهولنديون كمحطة فى طريقهم إلى الهند ، حيث الحصول على الثروة أمر ميسور ، وهم الذين اشتهروا بحرصهم على جمع المال ، ولم تتملكهم غريزة الاستعمار ولان الوطن الهولندى فى حاجة إلى أيدى ابنائه ، ومن جاء منهم فعلا إلى منطقة الرأس كان يتطلع دائما إلى العودة إلى الوطن . غير أن البريطانيين كانوا أوسع منهم أفقا ، وفقد بنوا المستعمرات من بادئ الأمر ثم توسعوا فيها فاصطدموا بالأهالى من الوطنيين من البوشمن ثم اتصلوا بالأجناس التى جاءت إلى الجنوب أخيرا كشعوب الزولو والمتابلى وأجبروهم على الحياة فى هدوء وسكينة ، وأخيرا أخضعوا أحفاد العناصر الهولندية الأصلية ، وأجبروهم على طاعة حكومة واحدة ، وهم الذين كانوا هاجروا إلى الشمال كلما تقدم البريطانيون لأنهم لم يألفوا الخضوع لحكومة مركزية ، وأخذ الحلم البريطانى بامتداد السيطرة البريطانية من شمال القارة إلى جنوبها يقترب من التحقيق تدريجا كلما اتسع نفوذهم وشمل أراضى تلائم فى كثير أو قليل سكنى الجنس الأبيض — وحدث مرة أن قوبل هذا التوسع بتحدى من جانب فرنسا عندما حاولت تحقيق حلمها فى بناء أمبراطورية تمتد بعرض القارة — حتى حانت الأزمة فى فاشودة والأحرى أن نقول أن حلها قد تقرر فى بحر المانش حيث السيادة معقودة للأسطول البريطانى — فتقرر حينئذ أن تبقى مياه النيل تحت سلطة واحدة سواء كان الوصول إليها من الإسكندرية أم من الشاطئ الشرقى — ثم واجه النفوذ الانجليزى تحديا جديدا فقد بذلت ألمانيا لفترة من الزمان محاولة جديدة لامتلاك جزء من المستعمرات الأفريقية ووصلت إليها من الساحل الشرقى بموازاة الممتلكات البلجيكية ، وهكذا انفصلت المستعمرات البريطانية فى الجنوب عن تلك التى تقع فى الشمال ، غير أن هذا الفصل لم يقض على فكرة ربط القاهرة بمدينة الرأس بخط حديدى يمر فوق الهضبة ، ولكن سيادة المحيطات وما تهيئه من حرية النقل فيما وراء المحيطات قررت مصير شرق أفريقيا ووضعته تحت السيطرة البريطانية .

أما على طول سواحل غينيا فقد احتفظت دول مختلفة بقلاع وحصون ومحطات، منذ عهد الاكتشافات الأولى، ولكنها جميعا لم تود إلى توغل ناجح للإنسان الأبيض والحضارة الحديثة إلى داخل القارة لأن العقبات الطبيعية على طول هذه السواحل وقفت عقبة كؤودا تحول دون توغلها كما امتدت الغابات وراءها كثيفة عسيرة الاختراق، وزاد الطين بلة انتشار الحميات ووجود الأجناس المتأخرة، فلم يتمكن الإنسان المتمدن من اختراق هذه الغابات إلا حديثا، وهكذا سيطر على مناطق الزنوج وقد وصل الأوربيون إلى هذه المناطق بأقل الطرق الطبيعية عسرا أي عن طريق النهر العظيم الوحيد إلا وهو نهر النيجر، فتناولوه بالتهذيب والتنظيم وربطوا الداخل بالشاطئ بواسطة السكك الحديدية. وهكذا دخلت منطقة النيجر في الميدان العالمي كقطر ينتج القطن ويزود مصانع أوربا بما تحتاج إليه من منتجاته بينما ظلت أقاليم الغابات في دلتاه مجهولة تقريبا.

كذلك اكتسبت أهميتها الأراضي الممتدة في جنوب خط الاستواء وهي التي تقابل الأقليم السوداني في السنغال والنيجر الأعلى والأوسط، وكلما مست يد التنظيم والاستغلال الأراضي الواقعة إلى الشمال من ساحل أفريقيا الجنوبي كلما وجد أنه من العبث والإسراف أن تظل المواصلات تعتمد على خط حديدي واحد يربطها جميعا بأقصى الجنوب، بينما الطريق إلى الهضبة من الشرق أيسر من الطريق إليها من الغرب حيث يفصلها عن الساحل الغربي صحراء كلها ري القفرة. لهذا أخذت الموانئ التي تقع على الساحل الشرقي في شمال مدينة الرأس تزداد أهميتها بالتدريج وإن ازدادت بعداً عن أوربا، وقد يأتي الوقت الذي يصبح فيه إقليم الزمبيزي الأعلى أوثق اتصالا بأوربا من الشاطئ الغربي، الأمر الذي حاول البرتغاليون تحقيقه منذ قرون خلت.

هكذا نرى أن أفريقيا التي طالما اقتصرت سكناها على شعوب همجية متأخرة وظلت مجهولة زماناً طويلا بسبب ظروفها الجغرافية، نرى هذه القارة قسمت أخيراً بين الشعوب الراقية، وفاز بنصيب الأسد من كانت له الكلمة العليا في عملية التقسيم، بيد أنه لا تزال هناك العناصر الأصلية التي يشتغل أغلبها بالرعي ولا تزال أساليب حكمها مشكلة معقدة تنتظر الحل.

الفصل السادس عشر

العالم الجديد — تاريخه قبل كولمبس

أمريكا الأسبانية

لقد قصرنا النظر حتى الآن قصراً يكاد يكون تاماً على دراسة العالم القديم وحده فرأينا كيف أن ثلاثة ألوان من الحضارة نشأت على الإطار الخارجي للسهل المتوسط الأعظم الذى أثر فيها جميعاً . وقد عرفنا أن أهل أوربا اتصلوا اتصالا مباشراً بألوان الحضارة الأخرى أثناء محاولاتهم الحصول على قدر أعظم من الطاقة واستغلاله — ومن ثم جاء عرضاً كشفهم لأمريكا — وقد يتبادر إلى الذهن السؤال التالى وهو لماذا كان الأوربيون أسبق فى كشف أمريكا ؟ وقبل أن يقوم الأمريكيون بكشف أوروبا . وقد نضع السؤال فى صيغة أخرى فنقول — لماذا كان أهل أمريكا الوطنيون عازفين أو بالأخرى عاجزين عن التحكم فى الطاقة خارج بلادهم ؟

لو بحثنا الحقائق الجغرافية لتكفلت بالجواب عن هذا السؤال ولرأينا أن الظروف الجغرافية كانت ولا تزال تختلف اختلافاً بيناً بين القارتين ومن البديهى أن يختلف التاريخان .

فما هى إذن هذه الحقائق الجغرافية التى كان لها ذلك الأثر الهام ؟ هناك حقيقة هامة إن لم تكن أهم الحقائق جميعاً ، وهى واضحة كل الوضوح — تلك هى أن العالم الجديد أصغر حجماً من العالم القديم وبوجه خاص فإن مساحات اليابس الواقعة فى نطاق الصحراوات فيه هى مساحات صغيرة جداً .

والظروف السائدة هنا شبيهة بالظروف السائدة فى أفريقيا الجنوبية لصغر مساحة اليابس فى كليهما وعدم وجود أراض إلى الشرق منهما وبذا نقصت مساحة الأراضى الصحراوية فيهما ولم يوجد المهد الذى يصلح لإنماء حضارة عريقة إذ أن

وجود الصحراوات فى شمال العالم القديم التى نمت فى أحضانها الحضارات العريقة مرجعة فى بعض أسبابه وجود كتلة عظيمة متصلة من اليابس — ومن الطبيعى أن يكون قلب هذه المنطقة الكبيرة من اليابس أجف نسبياً من الحافات . وقد يكون بعض السبب راجعاً إلى وجود منطقة واسعة من اليابس فى شمال أفريقيا واقعة فى مهب الرياح التجارية وقد قدر لها موقعها الجغرافى أن يكون قلب آسيا اليابس إلى الشمال الشرقى منها .

وقد خلا العالم الجديد منه وجود كتلة عظيمة متصلة من اليابس يمكن أن يقارن حجمها بيابس العالم القديم ذلك أن كلتا المنطقتين اللتين تقعان فى عروض الصحراوات تمتدان امتداداً ضئيلا إلى الشرق وإلى الغرب . فالمنطقة الشمالية تقع فى أضيق جزء للقارة أما الجنوبية فتبلغ تقريباً نفس اتساع منطقة جنوب أفريقيا على نفس خط العرض، وأهم من ذلك كله عدم وجود اليابس إلى الشرق من المنطقتين ، وبدلا من أن تكون الجهات الشرقية منهما جافة أصبحت فى الواقع مطيرة رطبة لأنها تقع فى مهب الرياح التجارية وتصطدم بها عند أول هبوبها على القارة .

وهكذا تصبح المناطق الجرداء حقاً ، صغيرة ، فالصحراء فى أمريكا الجنوبية تشغل شريطاً ضيقاً على طول الساحل الغربى وكذلك الحال فى أمريكا الشمالية وإن لم تكن المناطق الجافة بهذا الضيق فى عرضها إلا أنها صغيرة نسبياً — وساعدت التضاريس فى كلا الحالين على تحديد مدى اتساع الصحراوات كما حدت من اتساع الأنواع الأخرى من الأقاليم الطبيعية .

والمظهر العام لتضاريس اليابس فى العالم الجديد بسيط جداً بوجه عام، إلا أننا لكى ندرك كيف تحكمت التضاريس لابد من أن نتناولها بالدراسة فى شىء من التفصيل.

وفى كل من القارتين توجد ثلاثة مرتفعات عظمى تفصل بينها منخفضات ، وتمتد سلسلة الكوردليرا بحذاء الساحل الغربى وهى أوسع عرضاً فى أمريكا الشمالية وعلى الأخص فى جزئها الأوسط وتزداد ضيقاً وارتفاعاً فى أمريكا الجنوبية . ويحدها فى كلتا الحالتين سلاسل أكثر ارتفاعاً . وما جبال روكى سوى مجموعة

السلاسل التى تحدد بوضوح الحافة الشرقية للجزء الأوسط العريض من جبال الكوردليرا فى أمريكا الشمالية .

وتقع إلى الشرق من الكوردليرا فى كلتا القارتين مجموعتان من المرتفعات أقدم منها عمراً وقد عملت فيهما عوامل التعرية حتى انخفض مستواهما — فنجد فى أمريكا الجنوبية هضاب غيانة والبرازيل ، وفى أمريكا الشمالية مرتفعات الأبلاش والسهل التحاتى اللورنسى العظيم وهو فى الحقيقة منخفض فى مستواه إلى حد أن خليج هدسن يشغل قلبه بعد أن طغت عليه مياه البحر ، بل ولا نستطيع أن نطلق على السهل لفظ هضبة إلا إذا عدونا الحقيقة واستلهمنا الخيال . وفى الواقع أن جبال الكوردليرا قد التوت عند حافة الكتل الصخرية العتيدة القديمة التى تحف بها من الشرق ، وحيث لا توجد هذه الكتل القديمة كما هو الحال فى إقليم جزائر الهند الغربية تنتشر هذه المجموعة من الجبال مكونة سلاسل منفصلة بعضها عن بعض — وقد تنخفض أحياناً فى بعض أجزائها حتى لا تكاد تظهر فوق سطح البحر كما فى أمريكا الوسطى وأحياناً تبقى قممها فقط نقطاً بارزة فوق الماء كما هى الحال فى قوس جزائر الهند الغربية وأحياناً أخرى تختفى تماماً تحت سطح الماء .

ونجد فى كل من القارتين سهولاً تمتد بين هذه المرتفعات فى ثلاثة اتجاهات وهى أكبر امتداداً فى أمريكا الشمالية فى السهل الواقع بين جبال روكى وجبال الأبلاش وأكثر مواضعه انخفاضاً هو ذلك المحور الممتد من الشمال إلى الجنوب والذى يجرى فيه نهر المسيسبى ، ثم يرتفع السهل تدريجياً نحو الشرق ونحو الغرب ارتفاعاً غير محسوس لا تدركه العين المجردة ويظل متابعاً ارتفاعه حتى إذا ما وصل إلى حافة الجبال الغربية التى ترتفع عندئذ ارتفاعاً فجائياً بلغ ارتفاع سطحه نحو ميل واحد .

وتمتد بين النطاق اللورنسى بصخوره القديمة الصلبة من ناحية وبين جبال الأبلاش وسلاسل الكوردليرا من ناحية أخرى منخفضات ضيقة نسبياً ، يجرى

فيها نهر السنت لورنس نحو المحيط الأطلسى كما يجرى نهر الما كنزى نحو المحيط المتجمد الشمالى .

أما فى أمريكا الجنوبية فيقع المنخفض العظيم على جانبى خط الاستواء ويقوم نهر الأمازون وروافده بصرف مياهه وله عنق ضيق يتجه إلى الشرق بين هضبتى غيانة والبرازيل — ونحو الجنوب يمتد سهل فى محاذاة جبال الأنديز من الغرب وهضبة البرازيل من الشرق ، على حين أنه فى الشمال نجد سهلا أصغر كثيراً من هذه السهول يمتد بين جبال الأنديز حيث تنحنى نحو الشمال الشرقى وبين هضبة غيانة ويجرى فيه نهر الأورنوكو .

ولهذا كان للتضـاريس أثر فى تحديد مدى اتساع الأقاليم المناخيـة فى أمريكا الجنوبية نتج عنه نتائج عدة نلخصها فيما يلى :

ذلك أن الغابات الاستوائية التى تغطى سهل الأمازون الحار الرطب تشـغل مساحة واسعة عبر القارة وتمتـد حتى السفوح الشرقية لجبال الأنديز . هذا من ومن ناحية أخرى أصبحت منطقة الصحراء فى أمريكا الجنوبية ضيقة جداً بطبيعة الحال بعد أن تحدد امتدادها بين جبـال الأنديز والبحر ، أما الأقليم الذى يقابل الأقليم السودانى فهو أرض السفانا فى حوض الأورينوكو وهى صغيرة نسبياً فى مساحتها ويختلف مناخهـا عن مناخ السودان الأفريقى من عدة نواحى هامة . بنطبق هذا القول أيضا على مناطق السفانا فى المرتفعات الداخلية للبرازيل وهى إلى جانب ذلك مكونة من صخور قديمة صلبة إذا ما سقطت عليها الأمطار فسرعان ما تنصرف عنها .

أما فى أمريكا الشمالية فإن أشد الأقاليم جفافا يقع على المرتفعات الممتـدة إلى إلى الغرب من القسم الجنوبى من جبال روكى — ولهذا كانت الأنهار التى تسيل غربا وتنبع من هـذه المرتفعات الجافة ضيقة وعميقة فى مجاريها وتنخفض كثيراً عن المستوى العام للأراضى المحيطة بها وهى بهذا تساعد على جعلها أكثر جفافاً عما لو لم يقدر لهـا أن تجرى على هذا النحو . وإلى الجنوب من هـذه الصحراء تضيق الـكتلة اليابسة برمتها وتقترب حافتا الجبال من بعضهما حتى تتلاقيـا فى

القمة العالية لجبل أورزابا ، وتستقبل الحافة الشرقية أمطار الرياح التجارية فتصبح رطبة كثيفة الغابات على حين تظل الهضبة المكسيكية فيما بين حافتى الجبال جافة نسبياً وأمطارها الشتوية قليلة جداً ومقصورة على بضعة شهور فقط .

وهناك أيضاً اقليم جاف وهو السهول المرتفعة الممتدة إلى الشرق من جبال روكى وتكسو سطحها الأعشاب وهى تقابل مناطق الأستبس فى آسيا . ومن البديهى أنها لا تضارعها أتساعا ، لأن الغابات كانت تغطى البلاد الواقعة إلى الشمال وإلى الشرق منها وهى غابات صنوبرية فى الشمال ، معتدلة بالقرب من المحيط الأطلسى وشبه مدارية على طول ساحل خليج المكسيك . إما فى أمريكا الجنوبية فالى الاقليم الوحيد الذى يمكن أن نقول عنه أنه يقابل مناطق الأستبس فهو الأراضى التى تمتد إلى الشرق من جبال الأنديز حيث تقوم الآن جمهورية الارجنتين .

وهكذا نجد أن الإقليم التى تناظرها فى العالم القديم دفعت بسكانها منذ البداية لأن يبذلوا الجهود طواعية أو اضطراراً حتى يحصلوا على مقومات الحياة بينما خلا العالم الجديد من أمثال هذه الدوافع التى تخلق مهاداً للحضارات كوجود نهر عظيم يخترق صحراء شاسعة يفيض بالماء الوفير فى فصل من فصول السنة ويوفر الماء اللازم لنمو المحاصيل ، ثم يغيض ماؤه فى فصل آخر فتذبل النباتات وتصبح هشيما . كذلك خلا العالم الجديد من بلاد تستمتع بالدفء فتسهل فيها الحياة نسبياً ويجد الناس فيها حافزاً قوياً يدفعهم إلى التفكير فى أمر مستقبلهم وفى اختزان القوت وغيره من موارد الثروة الطبيعية وحيث تكفلت الطبيعة بحمايتها وحالت دون وصول أمواج الطامعين فى اغتصاب مخزون ثرواتها .

وحتى أراضى الأستبس هنا أصبحت صغيرة المدى ، كما خلا المسرح من سكان المراعى الذين تميزت بهم مناطق الأستبس فى العالم القديم ، وهذا يرجع فى بعض أسبابه إلى نقص آخر يقاسيه العالم الجديد على عكس العالم القديم ، فلم يستوطن أمريكا الشمالية أو الجنوبية حيوان واحد من الحيونات آكلة العشب التى استأنسها الإنسان فى أوربا وآسيا وأفريقيا . ولم توجد هنا الجمال أو الخيول

أو الحمير أو الأغنام أو الماعز ، وأهم من ذلك كله أن أمريكا خلت من الماشية قبل أن يستقدمها الإنسان من أوربا — مع أن الماشية تمثل مظهراً من أقدم مظاهر اختزان الطاقة . ولم تكن هناك دواب للحمل قط توفر على الإنسان جهوده بدلامن أن يسرف في بذلها في نقل الأشياء من مكان إلى آخر — كما غاب عنهم اللبن وجميع الأغذية التي تصنع منه . وقد يحتاج هذا القول إلى بيان ولكنه بديهي ، إذ أن الجاموس البرى كان يمرح في طول المراعي وعرضها في قطعان لاحصر لها ، ولا يبدو هناك سبب عويص يحول دون استئناسه إلا أنه يقال أحيانا أنه حيوان لا يستأنس بطبعه ، وسواء كان هذا صدقا أم كذبا تبقى حقيقة راهنة وهي أن الجاموس البرى لم يستأنس قط . والحيوانات المستأنسة وحدها هي التي تسمح بوجود الشعوب الرحل الرعوية التي تمتاز بقوة احتمالها وصبرها على المشقات وهذه الشعوب حين تنتقل تؤثر في سكان المناطق البعيدة المتناثرة على حافات أراضي الاستبس ، ومع هذا الانتشار الواسع فإنها تحتفظ دائماً بقوة كامنة بفضل امتلاكها تلك الطاقة المخزونة من رأس المال المقتصد . أما رعاة العالم الجديد فتحتم عليهم الضرورة الانتقال خفافا وقد تهيىء لهم خفتهم سرعة الحركة ولكنها لم تزودهم بقوة قاهرة لا تقاوم ، فلا ينتظر بعدئذ أن نرى في تاريخ العالم الجديد هجرات بشرية عظيمة تكتسح ما يعترض سبيلها كما رأينا في هجرات العالم القديم — أضف إلى ذلك أن طراز الحضارة الذي ابتدعه الزنوج في أفريقيا وقام على أساس الماشية كان قيامه مستحيلا في أمريكا الجنوبية لأنها خلت حتى من الجاموس البرى .

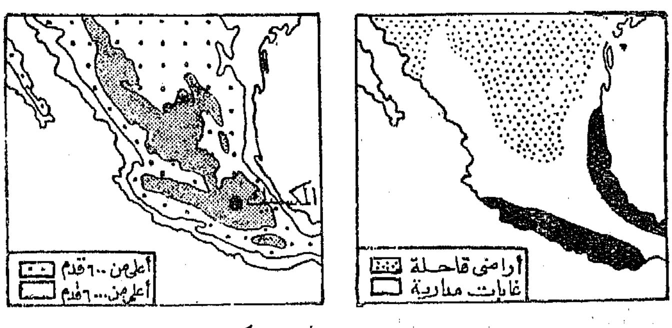
ومن ذلك يتضح أن العالم الجديد افتقر إلى الظروف المناسبة التي ساعدت على سرعة نمو الحضارات القديمة العريقة على النحو الذي بدأ في العالم القديم .

ففي أمريكا الشمالية تقع أكثر الأراضي جفافاً وأقربها إلى جدب الصحراء بالتقريب من الشمالى الغربي لخليج المكسيك إلى ما وراء رأس خليج كاليفورنيا . والإقليم هنا دفىء في جميع فصول السنة وإن كان حاراً حقاً في فصل الصيف ، غير أنه يسمح للحياة أن تقوم في سهولة ويسر متى كان قيامها في بقعة من البقاع

ممكناً وميسوراً — وعلى الرغم من أن الأنهار عموماً فى هذا الإقليم تجرى فى مستوى ينخفض كثيراً عن المستوى العام للبلاد إلا أن جماعات صغيرة من السكان قد نجحت فى استخدامها لأغراض الرى فى بعض البقاع المتناثرة هنا وهناك ، وترتفع هضبة المكسيك فى الجنوب وهى جافة نسبياً ، يصعب الوصول إليها عبر الأراضى الجافة فى شمالها كما يصعب الاتصال بها من خلال الغابات الكثيفة التى تغطى السفوح السفلى للهضبة من الشرق ومن الجنوب ، فالبلاد بهذا الوضع دافئة فى مناخها تستمد ماءها من المجارى المنحدرة إليها من المرتفعات والتى تكمل كميات الأمطار التى تسقط عليها بغزارة نوعاً ما صيفاً وتقل شتاء ، وقد تهيأ لها قدر من الحماية الطبيعية — وفى المنطقة الصحراوية الواقعة إلى شمالها لا تكفل موارد الماء فيها الحياة إلا لعدد محدود من السكان ينتشرون انتشاراً واسعاً — غير أنه فى الهضبة المكسيكية يحتمل أن تتصل ببعضها الجماعات الصغيرة التى تعيش على سفوحها فى مناطق متباعدة ، وهكذا يبدو أنه لم يتوافر لهذه البلاد الأخيرة القدر من الحماية الذى توافر لمصر ولا الأسس التى تصلح لتعول عدداً كثيفاً من السكان كما هو الحال فى مصر .

وكيفما كان الأمر فهذه المنطقة هى أقرب الأقاليم شبهاً بمصر من بين أقاليم العالم الجديد الواقعة فى شمال خط الاستواء .

الخريطة رقم ٦٦



التضاريس والنباتات فى المكسيك

ويتبين مما نعلمه عن تاريخ المكسيك أن الصحراء والغابات لم تكونا بحال من الأحوال

حاجزين منيعين — وعلى الرغم من ضآلة معلوماتنا عن تاريخ المكسيك إلا أنه يبدو أن شعوباً محاربة جاءت إليها من الشمال الجاف فى موجات متتالية ، وكل منها تدمر فى أول الأمر تدميراً جزئياً كل ما تجده من مظاهر الحضارة التى تفوق حضارة الغزاة ثم يجعلون من أنفسهم ورثة لها — ومن الجائز أن تكون بعض هذه الموجات ممن جاءوا كصيادين رحل انتقلوا إلى المكسيك من السهول الجافة المترامية فى شرق جبال روكى أو ممن جاءوا من الأراضى الصحراوية ونقلوا معهم بعض ألوان المعرفة فى فنون اقتصاد الطاقة واستغلالها ، والتى سبق لهم كسب خبرتها فى مجتمعاتهم الصغيرة المنعزلة كبناء المنازل من الطوب اللبن وكزراعة الأذرة ليتخذوا منها غذاءهم أو كزراعة القطن لنسج ملابسهم من شعيراته ، وعلى أى الأحوال فإنا نجد فى المكسيك جماعات صغيرة قوامها القبيلة يعيش أفرادها معيشة جماعية فى مستعمرات دائمة أو فى مساكن ريفية مبنية من الحجر ، ويتخذون من القطن كساء لهم ويعتمدون فى غذائهم على الحبوب التى كانوا يختزنونها فى مخازن أو أهراء[1] خاصة فى محلاتهم ، فإذا تحالف أهالى محلتين أو ثلاث سيطروا لفترة من الزمان على من يقطنون بالقرب منهم ويفرضون عليهم جزية من الحبوب والقطن ، وقد يضطر هؤلاء بدورهم إلى الاعتراف بسيادة اتحادات أقوى وهكذا .

وهنا نرى تقدما محسوسا من ناحية ، إذ لا يمكن اختزان الطاقة واستغلالها بطريقة تختلف عن تربية الماشية إلا بالحياة المستقرة الثابتة . ولما استقرت هذه الأقوام أخذت تجمع ألواناً من الطاقة الغذائية وأنواعاً من الطعام مما يسهل حفظها مدداً أطول عن غيرها حتى فى تلك الأيام — وإن كان ذلك يتطلب جهداً كبيراً فى إعدادها — فإن الثمار التى يأكلها الرجل الهمجى لا تتطلب منه مجهوداً أكثر من جمعها والتقاطها واستهلاكها فى نفس اللحظة . غير أن الإنسان الهمجى يصيب تقدما لو أنه حفر الأرض بحثاً عن جذور النباتات ومعظمها يتطلب جهداً لمعالجتها حتى تصبح صالحة لتناولها . كذلك البذور من أنواع

(١) شون .

الحبوب الغذائية تتطلب جهوداً مختلفة قبل أن تصبح طعاماً سائغاً ، فقد تمر أجيال بعد أجيال والفلاحون يفتنون فى انتخاب أنواعها وتحسين نتاجها حتى تجود بأوفر محصول بل ولا يقتصر إعدادها على العناية بها أثناء نموها حتى تأتى بأفضل المحاصيل ، بل تتطلب بعد حصادها معالجة طويلة حتى تصبح فى أحسن أحوالها صلاحية للغذاء — ولنفكر قليلا فى عدد العمليات التى يمر بها القمح قبل أن يؤكل ولنقارنها بعد ذلك بالخطوات اللازمة للتفاح أو الموز أو اللفت أو البطاطس حتى تصبح صالحة للطعام — هذا ولم يعرف سكان العالم الجديد شيئاً عن القمح ، ولكنهم عرفوا الذرة الهندية وهى الغلة الرئيسية فى العالم الجديد ، ومن مميزاتها أنها تتطلب مجهوداً أقل فى زراعتها وفى إعدادها ، وقد عرفت بجميع أنواعها فى أنحاء القارة ، ومن الجائز أن قامت بزراعتها قبائل استقرت فى مكان ما حينا من الدهر بعدأن تمكنت من قطع الغابات وزراعة أرضها حبوبا — ثم تعود إليها حين يتم نضج المحصول فتحصد ما زرعته وتستهلكه . وليس فى هذه الحالة اقتصاد كبير فى الطاقة . وعلى أية حال فقد تزرع الذرة أيضا فى الأراضى الجافة بالاستعانة بوسائل الرى فيقتصد منها بعض المحصول — وكان هذا أسلوب أهل المكسيك القدماء ولم يقتصروا على اختزان جزء من مواردهم من الأيام السمان لاستفاده فى الأيام العجاف ولكنهم استطاعوا أيضاً حماية أنفسهم بفضل ما جمعوه من ألوان الطاقة الغذائية — فإن هذه المحلات التى أنشأوها كانت فى واقع الأمر حصوناً يلجأ إليها جميع السكان إذا ما تعرضوا لهجوم عليهم معتمدين على ما اختزنوا من مؤن وأغذية مما يهيىء لهم الفرصة لأن يقاوموا الهجوم أطول مدة من الزمان . ولما كانت مطالب الحياة الأساسية لا تستغرق منهم كل وقتهم ونشاطهم بقى لديهم بعض الفراغ والنشاط يفيدون منه فى اقتناء بعض كماليات الحياة وفى القيام بأعمال الحفر البسيطة واقتناء التحف الذهبية والفضية التى كانوا يصنعونها .

غير أن هذا التقدم الذى أصابه أهل المكسيك فى السيطرة على الطاقة لم يكن تقدما من الطراز الأول فإن الظروف الجغرافية التى عاشوا فيها والأحوال التاريخية التى سادت زمانهم جعلت الوحدة الاجتماعية الصغيرة ذات أهمية كبرى فلم يك ثمة

داع للتكتل فى اتحادات كبرى وإن سيطرت مجموعة من القرى على مجموعة أخرى فإن سيطرتها كانت مجرد سيطرة حكومية أو ملكية ليس التوسع من أغراضها بل أن مقصدها الأول هو اغتصاب الجزية اغتصاباً تتبع فيه ألوان من التهديد والتشهير.

ولم يقم الفاتحون نظير هذا الابتزاز بواجب الدفاع عن الأراضى المفتوحة حتى يمكن توفير قسط أكبر من الطاقة — ولم تظهر عندهم أية فكرة للقومية كما لم يكن حكمهم مجرد استبداد عسكرى فى أبسط معانيه كما كان الحال إبان الحكم الأشورى بل احتفظت القـــرى الحاكمة بسيطرتها طالما بقيت القرى الأخرى مستضعفة تسودها الفرقة والانقسام ،وكانت تدفع الجزية لمجرد الخوف من استئصال شأفتها إن هى منعت الجزية عن الفاتحين ، ومما أضفى على المكسيك أهمية خاصة أنها كانت المهد الذى تطورت فيه وسائل اختزان الطاقة فى المجتمعات الصغيرة فبلغت حداً من الكفاية لم تبلغه فى أى مكان آخر ، ولأن النظم الاجتماعية أو الحكومية لم تتعد فى غيرها حد الطور البدائى . فلم يقتصر الأمر على أننا نرى تغييراً مستمراً فى القرى الحاكمة فحسب بل ولم تبذل محاولة تذكر للاتحاد فى وجه عدو مشترك يغير عليهم من خارج حدودهم وذهبوا فى تصرفاتهم إلى النقيض من ذلك، وكان الأزتك هم العنصر الوحيد الذين وجدهم الأسبان يسيطرون آنئذ على المنطقة سيطرة حديثة لا يرجع بها العهد إلى أكثر من بضعة أجيال فقط وهذا يفسر لنا السهولة التى سيطر بها الأسبان عليهم بعدد قليل من الرجال كما يفسر السرعة التى فرضوا بها سلطانهم على جميع هذه البلاد .

وقد ازدهر هذا الطراز من الحضارة المكسيكية فى منطقة أخرى ، ومن الممكن حقاً أن يقوم بعض الاتصال بين المنطقتين ، إذ لا نعلم فى الوقت الحاضر إلا القليل عن الجماعات التى سكنت شبه جزيرة يقطان المنخفضة الواقعة إلى الشرق من المكسيك والتى تفصلها عن بعضها غابات كثيرة وقد بلغ سكان هـذه المنطقة درجة من الرقى لم يصل إليها أى شعب من شعوب هذه القارة ، كما أن مناخ يقطان يشذ عن مناخ بقية سواحل الخليج بغزارة أمطاره فى شهور الصيف فقط على حين نجد المنطقة الباقية بأسرها تسقط عليها أمطار غزيرة على مدار السنة ، ولهـــذا

اكتست بالغابات بينما أصبح شبه جزيرة يقطان أراض عشبية وللماء فيها شأن كبير .

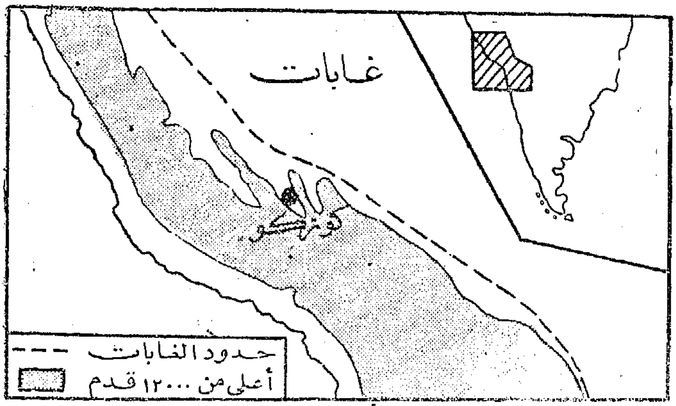
والظروف الجغرافية فى المكسيك ويقطان لا تختلف اختلافا كلياً عما يسود مواطن الحضارات العريقة فى العالم القديم ،غير أنه يجب أن نلاحظ أنه على الرغم من وجود هذا التشابه الملحوظ فيما يسود العالمين فى الظاهرات الأساسية إلا أنهما يختلفان اختلافا بينا فى أحوالها الظاهرة .

ففى أمريكا الشمالية نجد الأراضى العشبية صغيرة المساحة إذا قورنت بالأراضى العشبية فى أوربا وآسيا وكان الجاموس البرى فى أمريكا الشمالية هو الحيوان الوحيد الذى كان يجوز أن يستأنسه الإنسان — وإن لم يستأنس قط — فخلت البلاد من شعوب تماثل القبائل الرعوية الرحل فى العالم القديم . أما أمريكا الجنوبية فقد حوت مساحة أصغر من الأعشاب المعتدلة — بينما اتسعت رقعة أعشابها المدارية اتساعا عظيما ورأيناها تخلو من أى حيوان يصلح للاستئناس حتى من الجاموس البرى الذى كان لم يستوطن هذه القارة قط ، كما أن مساحة الصحراوات فيها ضئيلة المدى ، فبقى معظم القارة تغطيه الغابات الاستوائية الكثيفة ، ولا غرو بعدئذ ألا نجد سبباً واحداً معقولا يبعث على تقدم المدنية فى أمريكا على النحو الذى سارت عليه فى العالم القديم .

غير أن أمريكا الجنوبية تنفرد بمجموعة من الظروف لا توجد فى مكان آخر على ظهر الكرة الأرضية ، إذ ترتفع هضبة الأنديز ارتفاعا فجائياً فى غرب سهل الأمازون العظيم الذى تكسوه الغابات — ويتراوح عرض الهضبة بين مائتى وثلاثمائة ميل وتصل فى إرتفاعها إلى نحو الميلين وتزيد حافتها الجبلية فى ارتفاعها عن مستوى الهضبة بنحو الميل تقريباً .

وتغطى الغابات حافتها الشرقية وتطل من الغرب على سهل جاف مترب أما الأجزاء المنخفضة من الهضبة الوسطى فهى جافة دافئة نوعاً وتميل لياليها إلى البرودة — وهذا الطراز من المناخ هو نتيجة طبيعية لارتفاع التضاريس بالقرب من خط الاستواء ، وكلما ابتعدنا عن خط الاستواء اشتد برد الأراضى التى تصل

الخريطة رقم ٦٧



تقسم المرتفعات الغربية فى أمريكا الجنوبية

إلى نفس هذا المستوى من الارتفاع وحتى فى هذه العروض فإن البلاد التى يعلو سطحها عن ذلك كالحافات الجبلية يشتد بردها لدرجة لا يحتملها الأقوام البدائية ، وليست الهضبة الوسطى بهضبة واحدة متصلة الأوصال فالجبال الواقعة على حافتها تعمل على تقسيم الأراضى الصالحة للسكنى إلى أحواض مختلفة يمكن الاتصال بينها ولو أنه عسير إلى حد ما وأرض كل حوض منها ليست مستوية إطلاقا ولكنها عبارة عن مجموعة من الجبال والوديان تتعاقب على التوالى .

هنا إذن منطقة أخرى ، وإن لم يوجد غيرها فى أمريكا الجنوبية حيث يتيسر النمو لحضارة من طراز أكثر تقدما وأرفع شأناً ، وهنا وجد الأسبان قبائل الأنكا كما وجدوا قبائل الإزتك فى المكسيك وهم شعب نجح فى فرض سيطرته حديثا على البلاد برمتها وورثوا تراثا تضافرت على بنائه أجيال مختلفة لعدة قرون مضت ، ومما لا شك فيه أنه قد اعترته فترات من التأخر .

ولكنهم فى الحقيقة تناولوا بالتنظيم أمور الدولة جميعا ، الأمر الذى لم يحاوله الأزتك ، وكانوا أسبق زمانا من الأزتك فى بناء محلاتهم وقراهم . ومن الجائز أن يكون هذا التطور قد اتخذ مجراه فى أبسط أشكاله ، واستغرق زمنا طويلا ، خصوصا وإن هذه المنطقة برمتها معروفة بتعرضها للتغيرات السريعة فى مستوى ارتفاعها . ومن الجائز إنها كانت فى تلك العهود السحيقة تقل فى مستوى

ارتفاعها ببضعة آلاف من الأقدام عنها فى الوقت الحاضر وإن الحياة كانت ميسورة فى بعض بقاعها التى يشتد فيها البرد الآن ، ولم تعد تصلح لنمو الحبوب ونضجها .

وهكذا نجحت جماعات فى اكتشاف طرق استغلال الطاقة وتحسين وسائل هذا الاستغلال ، وعاشت فى الأحواض المختلفة المبعثرة بين شعاب الهضبة ، وقد وفرت لها الطبيعة درجة ما من الحماية بما أحاطتها به من حافات جبلية غير مأهولة امتازت ببردها وبارتفاعها إلى جانب غيرها من المرتفعات التى تتداخل فى بعضها فتزيدها تحصينا ، وقد استمد الأهالى المياه اللازمة لرى هذه الأراضى الخصيبة من الجبال ذات المناخ البارد ، وزرعوا البطاطس والذرة واختزنوها ، وكانت الأولى نباتاً أصيلا من نباتات المنطقة ذاتها ، أما الأخيرة فقد أدخلها بدون شك إلى البلاد الغزاة الذين جاءوا إليها من الشرق ، والذين طعموا العناصر الأصلية من السكان بدماء جديدة رغم أنهم ربما اتجهوا فى بادئ الأمر نحو التدمير — ولكنهم استطاعوا أن يفيدوا من الطاقة واستغلالها بعدة أساليب لم تتيسر لغيرهم من الجماعات ، وذلك باستخدامهم اللاما ، وهو الحيوان الوحيد فى العالم الجديد الذى نجحت فى استئناسه شعوب لم تتخذ الصيد حرفة لها . واللاما حيوان من نوع الجمل يقطن كنظيره المناطق الجافة ، ولكنه يختلف عنه فى أنه يتخذ موطنه على سفوح الهضاب العالية ، وفى أنه ذو طبائع خاصة ، فهو وإن كان دابة من دواب الحمل إلا أنه لا يصلح لجر الأثقال ، وهو وإن كان مصدراً للغذاء إلا أنه ليس حيواناً لبونا — وهو فى الوقت عينه مصدر من مصادر الكساء — كل هذا جعله صاحب الفضل الأول فى نمو الحضارة الأنديزية ، وبعد أن أتمت قبائل الأنكا تنظيم الاقليم الطبيعى الذى تتوسطه عاصمتهم كوزكو ، تناولوا بالتنظيم المؤسسات الاجتماعية المختلفة التى تطورت فى الأحواض المتشابهة الواقعة إلى الشمال وإلى الجنوب منهم وخلقوا منها وحدة كبرى ، ولا غرو فهم لم يكونوا مجرد إرهابيين مقصدهم السلب والنهب كقبائل الآزتك ، وكانوا أكثر نجاحا حين نزلوا إلى الساحل الصحراوى الواقع إلى الغرب منهم وفرضوا سيطرتهم على المجتمعات العديدة المنعزلة التى وجدوها تستخدم مياه الأنهار التى تنبع من المرتفعات وتنحدر إلى السهول ،

كما رووا وزرعوا الأراضى الممتدة إلى جوار أنهارهم وهكذا سيطروا على الطاقة ، وكان أسلوبهم فى هذا العمل يقرب من أسلوب قدماء المصريين ، ومع هذا فإن هذه المجتمعات كانت أكثر تعرضا للغزو الخارجى من المجتمعات التى نشأت فى مصر ، وكانت أيضاً أكثر عزلة عن بعضها اتتحد فى دفاعها عن نفسها ضد الغزاة الذين جاءوا إليها بقوات منظمة .

وقد يبدو عجيباً أن الشعوب التى قطنت سلاسل جزائر الهند الغربية لم تبن حضارة من طراز الحضارة الأغريقية ، ذلك أن ظروف البيئة البحرية كما هو المتوقع دائما ليست عديمة الأثر تماما ، غير أن هذه الجزائر كان يسكنها عنصران على الأقل انتقلا إليها فى سهوله من جزيرة إلى أخرى واستمر سيل تدفق العنصر الكاريبى متصلا حتى أوقفه الأسبان عند وصولهم وقد سمى باسمهم البحر الذى تناثرت فيه هذه الجزائر ، غير أن هذه المنطقة ينقصها شرطان أساسيان كى تقوم بها حضارة على طراز الحضارة الأغريقية فمن ناحية جاء السكان هنا من إقليم حضارته من نوع بدائى منحط وهم أصلا من ساكنى الغابات الممتدة بين الأورينوكو والأمازون أو ما بعدها إلى الجنوب ، وما أغراهم باحتلال هذه الجزائر خطوة خطوة سوى أن الجزيرة الأولى إلا وهى ترنداد تقع على مدى البصر من مصب نهر الأورنوكو ، وقد عرف الأهالى إلى حد ما الملاحة فى النهر — ومن ناحية أخرى — فإن شواطئ بحر الكاريبى سواء منها سواحل القارة أم سواحل الجزائر كلها بلاد مطيرة تغطيها الغابات فى أغلب أجزائها أى تسودها ظروف لا تبعث على التقدم إلا قليلا ، على حين أن الأمر جد مختلف فى بلاد الأغريق لأن الاراضى التى تقع حول البحر المتوسط فى معظمها أوطان لأقوام تعلمت كيف تعيش عيشة راضية ، وأيا كان العنصر الذى انحدر منه الأغريق فقد جاءوا من عناصر أصابت تقدما فى الماضى ، وربما يبدو من حديثنا عن الحضارة المصرية إنها نشأت وتطورت حتى نضجت وهى فى موطنها ، ولكن يجب ألا يغيب عن الذهن أن وراء المصريين عصورا طويلة من النمو والتقدم .

أما أهالى جزائر الهند الغربية فقد جاءوا إليها من بلاد أبعد من أن تكون

موطن حضارة عريقة ، ولم تصب حضارتهم إلا تطوراً ضئيلا عندما أغرتهم الظروف بعبور البحر ، كما أن الجزر اليونانية لم تكن جافة مشمسة فحسب وتسودها ظروف تحفز على التقدم بل أن شواطئ الحوض الشرقى للبحر المتوسط كانت كلها مواطن أقوام تقدموا فى وسائل معيشتهم ، وقد اختلفت ظروف بيئاتها ، فأنى سافر اليونانيون كانوا يرون شعوبا تؤدى أعمالا مختلفة بأساليب تختلف عن أساليبهم .

أما الشعب الكاريبي وأسلافهم فقد تعرضوا فى جزائر الهند الغربية لظروف تشبه كثيراً الظروف السائدة فى القارة التى جاءوا منها ، باستثناء ماخبروه فى بيئتهم البحرية التى كان لها بعض الأثر ، وكان الجديد عليهم ضئيلا فى رحلاتهم التى قاموا بها ومن ذلك يتبين أن جزائر الهند الغربية لم تصب تقدما يستحق الذكر .

وعلى ذلك لم يكن بالعالم الجديد إلا منطقتان فقط لهما أشباه ونظائر فى العالم القديم ، تحضر الناس فيهما فجاوزوا مرحلة الهمجية والوحشية ذلك أن الشواهد تظهر أن الحياة فيهما كانت سهلة نسبياً كما أن مجتمعاتهما الصغيرة كانت محمية من هجوم الجماعات المتبربرة وتهيأ لها الحافز الذى يدفعها إلى استغلال الطاقة واقتصادها — وبعبارة أخرى نستطيع أن نقول أن البلاد التى أصابت تقدما فى العالم الجديد كانت شبيهة بنظائرها فى العالم القديم فى كونها دفيئة نوعا ما ، جافة نسبياً ولكن الظروف مجتمعة لم تكن مواتية تماما حتى تجعل التقدم سريع الخطى .

ومن الطبيعى إذن أن يستكشف شعوب العالم القديم شعوب العالم الجديد لا العكس — لأن الأجناس التى سكنت الهضاب المرتفعة وهى الشعوب الوحيدة التى تقدمت فتجاوزت حد الهمجية لم تكن على اتصال بالمحيط . ولقد عاشت فى بيئة لم تعمل على الازدهار المبكر للحضارة كما عملت البيئة المصرية ، فضلا عن أنها تبدو أقل ملاءمة لأى نوع من أنواع التوسع فإن الانتقال عسير فى الهضاب العالية فى المكسيك والأنديز بين الأقاليم المرتفعة العديدة المتقاربة وأشد عسراً بينها وبين الجهات المنخفضة على كلا الجانبين ، وبينها وبين البحر وراءها — فجرت التجارة بمقادير ضئيلة ، هذا إن وجدت إطلاقا — ولم يفكر القوم فى شكل الكرة الأرضية ولا يحتمل البتة

إن كان المسألة عندهم أى قيمة عملية أو أنهم ظنوا أن هناك بلاد أخرى يمكن الوصول إليها عبر المحيط بأى طريق كان وأنها تحتوى على ثروات عظيمة .

ولم يصل المحيط فى ذهنهم إلى المرحلة التى يخشى فيها القوم خطره، إذ لم يكد يدخل فى نطاق معرفتهم . وهكذا ظلت هذه المرتفعات فى عزلتها وصعوبة الاتصال بها — حتى فى العصور الحديثة — وطناً لأقوام عدمت الحافز الذى يدفعها إلى البحث عن طرق مختلفة تؤدى بها إلى بلاد أخرى تجهل وجودها كل الجهل حتى وأن توافرت فى إجزاء أخرى من القارة ظروف مواتية لكى تكون مهاداً لحضارة متقدمة إلا أنها فقدت الحافز الأول الذى دفع بأوربا إلى أحراز قصب السبق فى المدنية . فلو أننا أخذنا موضع الاعتبار تلك الجهود السحيقة التى استغرقها الإنسان فى تقدمه ووزنا مساوىء العالم الجديد بمقارنتها بمساوىء العالم القديم لم يدهشنا أن المدنية فى العالم الجديد كانت متخلفة عنها فى العالم القديم بقدر ما يدهشنا الآن أن الفارق بينهما ليس كبيراً . فإن الظروف التى سادت العالم الجديد لم تسمح بتطور أى مدنية راقية ولكن هذه الظروف بعينها كانت من الأهمية بمكان سواء بصفة مباشرة أو غير مباشرة فى تحديد نمو المظاهر المختلفة للحضارة التى نبتت بذورها الأولى فى أوربا ثم نقلت إلى تربة العالم الجديد ،وكان أثرها مباشراً فى أن ظروف البيئة من تضاريس ومناخ حددت للمهاجرين طرق الانتقال بأقل مجهود ممكن — وأما أثرها غير المباشر فيتمثل فى ذلك التراث التاريخى الذى فرض على الشعوب المهاجرة تصرفات معينة دون غيرها ، وقد لاحظنا حتى الآن كيف تم اكتشاف العالم الجديد تحت رعاية أسبانيا وكيف كانت جزائر الهند الغربية أول أجزائه اكتشافاً دون غيرها من الأراضى الممتدة الواقعة إلى شمالها وذلك بفضل وقوعها على نفس خطوط العرض التى تقع عليها البلاد المصدرة للبهارات والتوابل وإليها تتجه الرياح التجارية فى هبوبها من شمال إفريقيا .

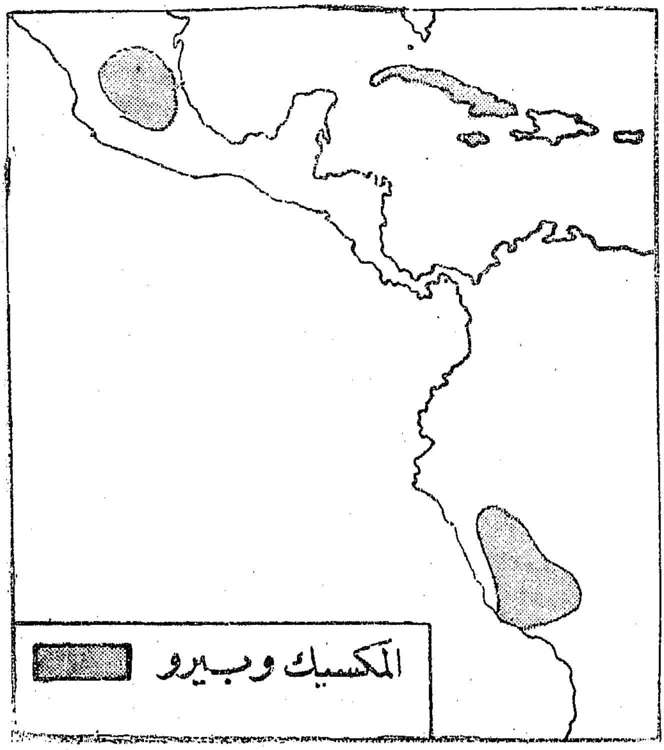
وهناك فارق كبير بين جزائر الهند الغربية التى جاء إليها الأسبان وبين جزائر الهند الشرقية التى ظنوا أنفسهم وصلوا إليها ، وكان الوصول إليها من حظ البرتغاليين،

فإن الجزائر الشرقية يقطنها أقوام ذو مجتمعات منظمة وإن لم تصل فى رقيها إلى المدى وصل إليه أهل أوربا — وكانت مورداً لسلع تجارية ثمينة فى حد ذاتها أو ظنها الناس كذلك — فحصل البرتغاليون فى الحال على ما جاءوا يبحثون عنه ونقلوه إلى أوطانهم فى سفنهم ، وعلى العكس من ذلك كانت جزائر الهند الغربية تسكنها عناصر ذات مستوى منحط فى حضارتها ، وقد خلت من الموارد التى تغرى المكتشفين بارتيادها وقد سارت محاولات الأسبان الأولى فى استعمارها سيراً وئيدا ، وربما كانوا يتابعون تقدمهم فى بطء شديد وربما كان الفشل نصيبهم فى استعمارهم لولا أنهم وجدوا المجتمعات التى ذكرناها آنفاً والتى كانت أكثر تحضراً من باقى مجتمعات أمريكا والتى تعيش فى هضبة المكسيك وسهول يقطان وهضاب الأنديز والمنخفضات الصحراوية التى تقع إلى الغرب منها — وفى كل حالة من هذه الحالات كان استكشاف الحضارة القائمة فى المنخفضات يؤدى بعد ذلك إلى التعرف على الحضارات القائمة فى الهضاب ، وقد أسرع الأسبان إلى فرض سلطانهم على مساحات من الأراضى التى لو كانت مسكونة بقبائل همجية لاستغرق منهم تنظيمها سنين عديدة إن لم تكن قروناً . وقد تناول الاستعمار الأسبانى فى أساسه تلك الأراضى التى أصابت بعض التقدم فى مدنيتها على الرغم من خلوها من التوابل والبهارات وما إلى ذلك ، غير أنها احتوت على الذهب والفضة وهما من المغريات التى ظنها الأسبان خطأ موارد ثروة وغنى . وامتد الحكم إلى البقية الباقية من الأراضى فى أمريكا الوسطى وشمال أمريكا الجنوبية وجزائر الهند الغربية لأن هذه الأجزاء بطبيعتها مكملة للأجزاء الرئيسية التى سبق لهم استعمارها ، وبعد أن انتهى الأسبان من بحثهم السريع الجشع عن الذهب ظلوا يحتلون هذه الأقاليم احتلالا عسكرياً فقط بسبب وقوعها بين الأجزاء الهامة وتركوها فى معظم الأحيان على حالتها الفطرية أجيالا عديدة .

ولما انهارت القوة الأسبانية نفضت تلك البلاد عن نفسها قيود الحكم الأسبانى وتفتت أجزاء وإن بقيت تحمل طابعاً أسبانياً — أما فى جزائر الهند الغربية فلكونها خالية من الذهب وليست فى موقع تستلزمه السيطرة على البلاد ذات

الذهب المخزون لم يبذل الأسبان جهداً ليحتفظوا بأكثر من بضع جزائر فيها وسمحوا لغيرهم من الدول البحرية أن تفرض سيطرتها على الجزائر الأخرى وتستعمرها وتنظم شئونها .

الخريطة رقم ٦٨



بيرو والمكسيك
كانت بيرو والمكسيك أهم فتوح أسبانيا
أما باقى الأراضى فقد فرضوا سيطرتهم عليها وإن لم تعد عليهم بالمنفعة

وأما الهضاب فقد ظلت تسكنها شعوب من سلالة العناصر التى وجدها الأسبان فيها، وهى بطبيعتها صعبة الاتصال بغيرها فظلت منقسمة إلى وحدات ، ومن الغريب أنها احتفظت بأحوالها الماضية التى كانت تسودها قبل أن يأتى إليها الأسبان، فهى لا تزال بعيدة الصلة عن مؤثرات الحضارة الحديثة قليلة السكان على الرغم من اتساع مساحتها ، تنتابها الثورات من آن لآخر وتعكس الميول التى تنزع إلى الانقسام إلى وحدات أصغر . فالمكسيك ، وهى هضبة تحدها الصحراء من الشمال

والغابات من الجنوب هى وسهول يقظان الجافة التى تطل على البحر من جانبيها ، وهما أعظم المستعمرات الأسبانية تمثيلا للطابع الأسبانى . أما بيرو فقد اشتملت على المرتفعات التى أحاطت بعاصمة ألانكا الأصلية، وكذلك على الصحراء إلى الغرب منها والتى يتبع الرى فى زراعتها فلا يزال نصف سكانها من هنود ألانكا أما بوليفيا التى خضعت لحكم ألانكا أثناء تقدمهم نحو الجنوب وقد حرمت من السهول الساحلية ، فلا يزال ثلاثة أرباع سكانها من الهنود الحمر الخلص ومن بين هذه الوحدات اكوادور وقد خضعت بدورها لسيطرة ألانكا فى أثناء تقدمهم نحو الشمال قبل اكتشاف أمريكا بنحو نصف قرن فقط . ولا تزال أغلبية سكانها من الهنود — ونرى أن كولومبيا وهى التى لم تخضع قط لحكم الانكا — وأن سادتها حضارة من الطراز عينه — كانت أكثر تعرضاً للنفوذ الأسبانى البحرى السائد فى بحر الكاريبى — عن طريق واديى ماجدلينا وكوكا ، وقد أصبحت لهذا السبب تفوق فى صبغتها الأسبانية غيرها من دول أمريكا الجنوبية .

ولا تزال مدينة المكسيك عاصمة للدولة الحديثة ، وهى المدينة التى قامت إلى جوار بحيرة واعتبرها الآزتك حصناً منيعاً للدفاع عن قراهم ، ولا تزال كوزكو مركزاً كبيراً لدولة بيرو الحديثة وقد سبق أن اتخذها الأنكا مركزاً استراتيجياً هاماً يوجهون منه غزواتهم ،وعلى الرغم من أن الفاتحين الأسبان أنشأوا مدينة ليما فى الصحراء الغربية الجافة التى حكمتها بيرو فترة من الزمان إلا أن الوضع أصبح معكوساً لأنها أضحت هى العاصمة التى تحكم بلاد بيرو — وأما مدينتنا فيرا كوز وكالاو فتدينان بموقعهما إلى رغبة الغزاة الأسبان فى إنشاء ميناءين للاتصال بالبلاد الواقعة فيما وراء المحيط الذى لم يحلم السكان الأصليون قط بركوبه .

وأما دويلات أمريكا الوسطى التى تغطيها الغابات والتى لم تستعمر استعماراً حقيقياً ولم تكد تتناولها يد التنظيم ولم تستمع بوحدة صحيحة كاملة — هذه الدويلات أقل فى أهميتها من الدول القائمة على الهضاب ، ولولا أنها أكثر اتصالا بمياه المحيطين العظيمين اللذين يحفان بها — ولولا أن الضرورة تحتم أن تمر بها شعوب أكثر نشاطاً من الوطنيين أو المولدين وهى تسعى سعيها فى سبيل الحصول

على الطاقة بوسائل هى آخر ما وصل إليه العقل البشرى ، لولا هـذه الظروف لما كان لتلك البلاد الأهمية التى لها الآن .

وقد أخذت تنمو أهم دولتان جمهوريتا شيلى والأرجنتين فى أقصى الجنوب حيث لم يبذل الأسبان الأوائل جهوداً صادقة فى الاستعمار أى أنهم اتخذوا فيهما نفس موقفهم فى أمريكا الوسطى ، ولـكنهما تدينان بفضل وجودها إلى النشاط الأسبانى الحر وهما تتـكونان فى أساسهما من المنخفضات الممتدة على جانبى ذلك الحاجز المرتفع البارد الخالى من السكان ، وقد ضمتا أراضى شبيهة بنظائرها فى بلاد أوربا الغربية — هنا وجدت العناصر الأوربية المهاجرة نوعاً من المناخ تألفه من قبـل فاستفادت من جميع المزايا التاريخية التى هيأها لها ماضيها .

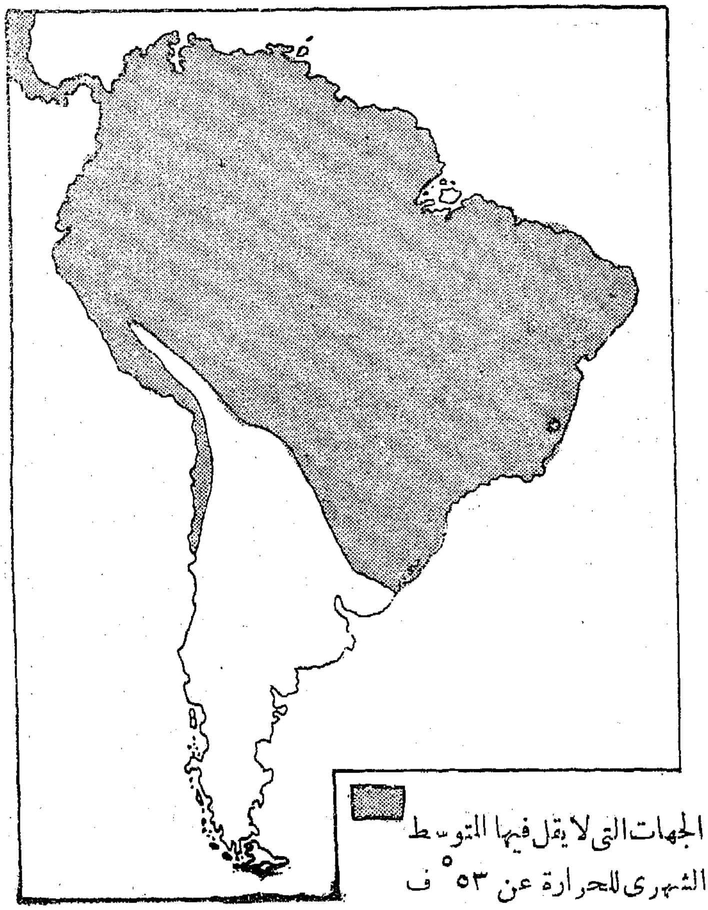
وأخذ المهاجرون يستعمرون الأراضى التى عجز الوطنيون عن استغلالها وهم فى حالتهم البدائية . وامتد تنظيم هذه البلاد من العاصمتين بونس إيرس وسانتياجو نحو الشمال ونحو الجنوب تدريجياً — وقد احتفظت نظم الحـكم فيهما بأ كثر من مجرد طابع أصلهما الأسبانى وأفاد البشر من احتلالها واستغلالها تدريجياً فى تزويد العالم الحديث بالمزيد من الطاقة — وقد جمعت هاتان الدولتان (شيلى والأرجنتين) مزايا الاتصال السهل بالعالم الخارجى ومزايا سكنى جماعات كانت أقدر على التحكم فى الطاقة بأحدث الوسائل اقتصاداً فى استغلال الموارد وهكذا زودت العالم بطاقة أ كبر فى أفيد أشكالها .

فمن الطبيعى إذن أن تفوقا فى أهميتهما بالإضافة إلى أرجواى دول الأنديز الواقعة إلى الشمال منهما .

كما يجب ألا ننسى أن البرتغاليين فى طريقهم إلى الهند وجزائر الهند الشرقية اكتشفوا جزءاً من أمريكا الجنوبية واقتسموا مع الأسبان الحقوق التى قررها البابا لهم بحكم إعلانه السابق وقد أنشأوا هنا وهناك محطات فى بعض أماكن متناثرة على طول سواحل البرازيل وعلى ضفاف نهر الأمازون العظيم ، واتسع ادعاؤهم حتى وسع مساحة كبيرة ظنها الناس ضئيلة القيمة فلم ينازع البرتغاليين فيها أى

منازع – وهكذا وضعت الأسس لدولة حديثة ذات إمكانيات عظيمة ولا يزال أكثر أجزائها أهمية هى المناطق الساحلية الشديدة الانحدار فى الجنوب الشرقى منها والتى تمتاز بسهولة اتصالها بالبحر وباعتدال مناخها نسبيا .

الخريطة رقم ٦٩



أمريكا الجنوبية وتوزيع الحرارة فيها

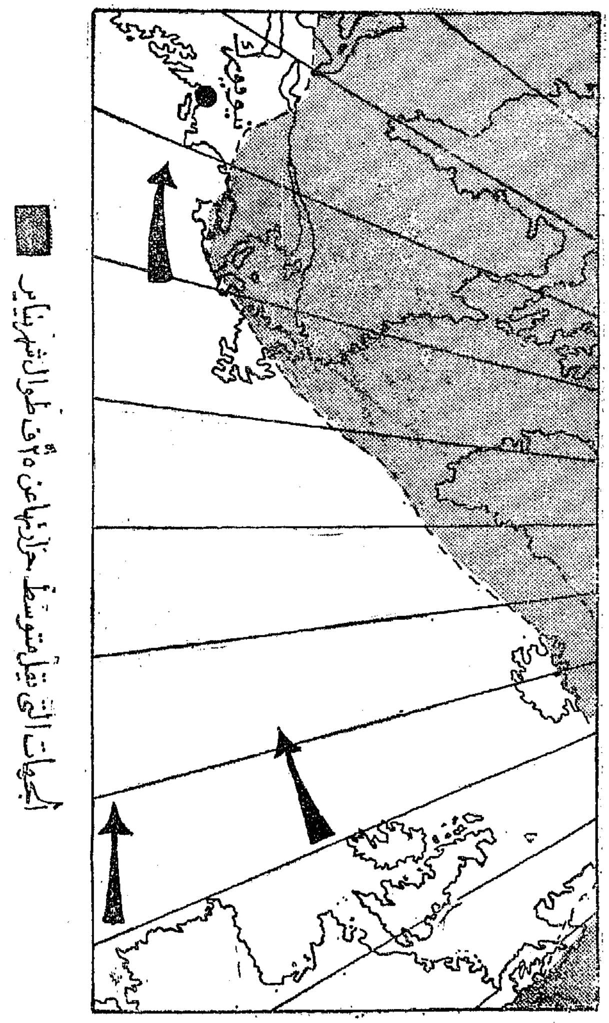
وهكذا نرى مرة أخرى كيف أن التاريخ فى مجراه والظروف الحديثة فى قيامها يضعان أسس تاريخ المستقبل ، وهى تخضع لأثر الجغرافيا التى تحفز الإنسان إلى العمل من ناحية ثم تحدد له من ناحية أخرى كيف وأيان يقوم بأعظم أعماله :

الفصل السابع عشر

الفحم — الولايات المتحدة

لم يكن العالم الجديد كالعالم القديم ملائما كل الملاءمة فى ظروفه لنمو حضارة مبكرة أصيلة فى مهدها ولم تظهر فيه بيئة شبيهة بمصر ، وعلى الرغم من ثبات العوامل الجغرافية إلا أن أساليب تحكمها فى التاريخ تختلف من عهد إلى عهد تبعاً لمقدرة الناس على الإفادة من الطاقة أو تبعاً لعجزهم عن استغلالها بطرق معينة . ولقد ظل المحيط أجيالا طويلة حاجزاً يمنع اتصال الناس القاطنين على جانبيه ثم أصبح طريقا مفتوحا يصل بينهم — ولهذا نرى على الجانب الأمريكى من المحيط الأطلسى منطقة لم تصلح لنمو حضارة قديمة ، ولكنها اليوم مقر دولة من أكبر دول العالم حضارة ، أمكنها استغلال موارد الطاقة بطريقة أكثر اقتصاداً بعد أن تيسر لسكانها فرصة التعرف على وسائل هذا الاستغلال . ولم تبشر المراحل التاريخية الأولى بأن هذه البلاد ستكون على مثل هذا القدر من الأهمية . فلم يقتصر النجاح فى عبور المحيط على الأسبان وحدهم إذ تتابع بعدهم الفرنسيون والهولنديون والبريطانيون كل منهم فى أعقاب الآخرين ، وكانوا مدفوعين فى محاولاتهم بأسباب تتصل بجغرافية العالم الجديد — واقتصر مجال نشاطهم الرئيسى على الشمال فقط ، وفى غالب الأحيان كان همهم الأول البحث عن الطريق البحرى إلى الهند — فسار الفرنسيون متتبعين مجارى نهرى السنت لورنس والمسيسبى وتعمقوا فى داخل البلاد وفرضوا نفوذهم على أقاليم واسعة عبر السهول العظيمة التى تصل إليها هذه المجموعة من الأنهار . واستقر الانجليز فى الأراضى الساحلية الشرقية قبل أن يُطرد منها الهولنديون ، وكذلك بعد طردهم منها — خاصة وقد انفصل هؤلاء عن قواعدهم فى أوربا ، بما جد عليهم من أحداث تاريخية فى القارة ذاتها .

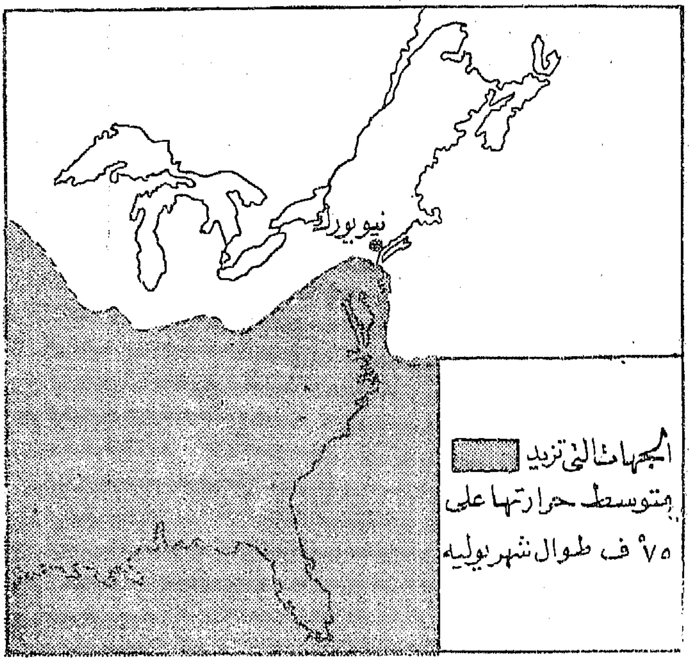
الخريطة رقم ٧٠



ثم وقفت أمام توسع الانجليز عقبات كؤود ، منها مرتفعات الابلاش ونيوانجلند بما يغطيها من غابات ، ومن ورائها امتدت السهول التى سيطر عليها الفرنسيون فى غرب هذه المرتفعات . فكانت هذه فى واقع الأمر عقبتين ، إحداهما سياسية والأخرى طبيعية أعاقتا امتداد المستعمرات الإنجليزية غربا ، ولم يدر بخلد أحد وقتئذ أن هذه المنطقة هى النواة المتواضعة لما ستتمخض عنه الأيام فى خلال

نقرن أو قرنين من الزمان فتصبح دولة من أعظم دول العالم . هذا النمو مرجعه الأول الظروف الجغرافية وبالأحرى العوامل الجغرافية التى تحكمت فى التاريخ الأوربى ، ثم ما جد بعد ذلك من اكتشاف فى وسائل الإفادة من الطاقة على خير وجه .

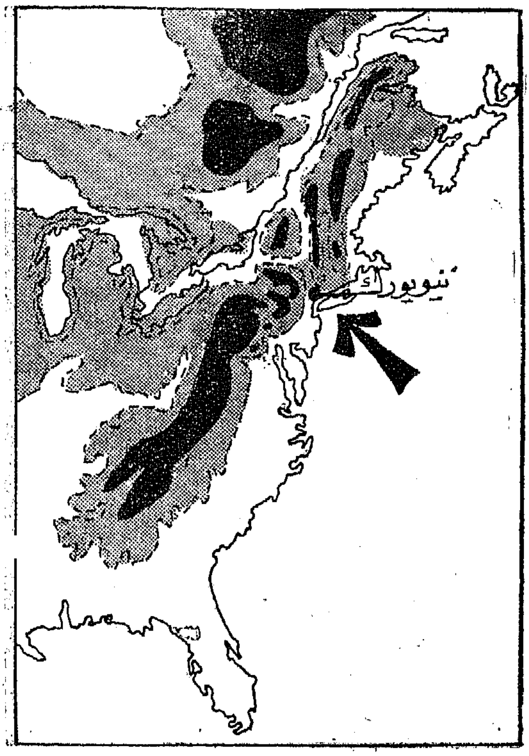
الخريطة رقم ٧١



توزيع الحرارة فى يوليه فى شمال شرق الولايات المتحدة

قامت هذه المستعمرات الانجليزية فى وسط يبعد بها عن نطاق البرد القارس فى الشتاء والحر القائظ فى الصيف . حقا ليس على شاطىء أمريكا الشرقى منطقة يمكن أن يقارن مناخها بمناخ بريطانيا. غير أن الأراضى التى استعمرت هنا فعلا كانت أقرب شبهاً بالموطن الانجليزى عما يمتد وراءها إلى الشمال أو إلى الجنوب. وأن الحقائق المناخية لتفسر لنا إلى حد كبير أهمية مواقع المدن الأمريكية العظيمة ، وعلى الأخص مدينة نيويورك .

الخريطة رقم ٧٢



موقع نيويورك بين نهر هدسون وموهوك

هكذا وقفت مرتفعات الابلاش بغاباتها عقبة فى سبيلهم ، وكان هذا خيراً وبركة فنمت مجتمعات صغيرة فى ولايات نيوانجلند وفرجينيا متصلة ببعضها، تغص بسكانها الذين فرضوا سيادتهم عليها فعلا بعكس ما حدث للمستعمرات الفرنسية فقد امتدت حتى شملت مساحات واسعة من مصب نهر المسيسبى حتى مصب نهر السنت لورنس وبقيت على حالتها الفطرية الأولى خاوية من السكان ، تبعثر فيها الفرنسيون حتى لنجد رحالة هنا وصياداً أو مبشراً هناك .

غير أنه يوجد عبر هذا الحاجز طريق سهل يتصل اتصالا مباشرا بأحد خلجان المحيط ، الذى تدخل فيه موجات المد فتتعمق إلى نحو مائة وخمسين ميلا . وهنا فى هذه المياه المأمونة أبحر هنرى هدسون ورجاله من أهل هولنده يبحثون

عن طريق بحرى يؤدى بهم إلى جزائر الهند الشرقية ثم اتبعوا الوادى الذى سمى باسم مكتشفه الأول ، وبمتابعة السير بحذاء رافده الموهوك وجد المستعمرون فى المناطق الشرقية طريقاً يؤدى بهم إلى السهول الغربية ، فلما آن الأوان أضحى المستعمرون البريطانيون قادرين على أن يضربوا ضربتهم وأن يحطموا الخط الفرنسى من داخله ، وأن يستعمروا بنجاح منطقة السهول الوسطى .

وليست هذه الحقائق وحدها سبب هزيمة الفرنسيين فربما اختلفت النتيجة لو أن فرنسا عززت قواتها فى السنت لورنس تعزيزاً قوياً . ولكن السياسة الاستعمارية الفرنسية كانت سياسة مضطربة — كما رأينا — متأثرة بالظروف الجغرافية فى فرنسا فعجزت عن الاحتفاظ بمستعمراتها ، وقد أفاد البريطانيون من انتصارهم فائدة كبرى ، وسرعان ما صبغوا البلاد بالصبغة البريطانية ولو أنه لا تزال إلى الآن على سواحل السنت لورنس الشمالية جالية تتكلم الفرنسية وتحتفظ بتقاليد وعادات تشف عن أصلها الفرنسى ، ولو أنها لا تدين بالولاء لفرنسا .

وقد اختلفت البلاد الواقعة على الشاطىء الشرقى لأمريكا الشمالية عن تلك التى افتتحها الأسبان بسبب اختلاف الظروف الجغرافية ، فكانت الوحدات السياسية فيها أكثر ثباتا واستقرارا . حقاً أفلح المستعمرون رجالا ونساء فى زراعة الأرض وامتازوا بحماسهم وغيرتهم على العمل — واستقروا واستثمروا خيرات البلاد بفضل ما بذلوا من جهود — وكانت أجناسهم فى أول الأمر عناصر أوربية خالصة ليس فيها مولدون ، ولم يقم بوضع نظم الحكم والتقاليد الاجتماعية فيها رجال عسكريون أو كهنة وقساوسة همهم الأول المجد والذهب أو نشر الدين — بل امتازوا بعبقرية الابتكار والابداع . وإن الاستعمار ليستغرق زمناً أطول مما يستغرقه الفتح ولكنه أفعل أثراً وأدوم نجاحا . فلما جاءت إليهم فيما بعد عناصر مختلفة تتكلم لغات مختلفة تمثلهم المجتمع الأول واحداً بعد واحد وأضافوا إلى المجموع قوة على قوة .

غير أن هذه المزايا نفسها لم تكن لتنتج آثاراً جليلة سريعة لولم توفق الإنسانية إلى كشف عظيم من بين ألوان الكشوف التى أصابها العالم ، كشف يقف نداً لند مع كشف المحيطات أو مع استخدام الحديد أو النار — وقد سبب ثورة شاملة لأنه كان كشفاً لأسلوب جديد من أساليب التحكم فى الطاقة — ذلك هو اكتشاف البخار

قد افترضنا قبلا أن الغذاء والكساء هما أهم حاجات الإنسان الأساسية لحفظ حياته ، فإن الطعام بعد تمثيله يتحول إلى طاقة تمكن الإنسان من القيام بأعماله . وفى الأقاليم التى نحن بصددها كان الكساء مساعداً كبيراً على الاقتصاد فى الطاقة الفردية — وفى العصور السحيقة مثلا أو بين الجماعات المتوحشة كان الحصول على الغذاء والكساء يتم بوسائل قد تختلف عما جرت عليه العادة خلال جميع العصور التاريخية وعند جميع الشعوب التى لها أهمية تذكر ، كان الحصول على الغذاء والكساء يجرى على نحوين اجتماعيين إما عن طريق استئناس الحيوان وإما بزراعة الأراضى . وكان من واجب كل فرد وكل أسرة وعلى الأكثر كل جماعة صغيرة من الناس — أن توفر لنفسها جميع ما تحتاجه من غذاء وكساء فاستقلت كل جماعة من هذه استقلالا عملياً عن باقى أفراد العالم باستثناء الأماكن التى تعرضت لألوان من التدخل الخارجى شنه عليها من طمعوا فى الاستيلاء بالقوة على ما اختزنته تلك الجماعات من غذاء أو كساء .

وبعبارة أخرى — كان الأفراد هم الذين يقومون باستغلال الطاقة يؤدون هم وحيواناتهم جميع الأعمال الآلية — وأصبحت كمية العمل محدودة بالقدر الذى يستطيع أداءه عدد ضئيل من الرجال أو الحيوانات، وشذ عن هذه القاعدة استثناء واحد أو استثناءان ولكن شذوذهما يؤكد عموم هذه القاعدة وهى أن الزراعة والرعى كانتا الحرفتين السائدتين وإن أقصى ما يستطيع الإنسان بذله من مجهود فهو دائماً محدود بقدرته على أداء عمله . أما الاستثناءان فهما أن الإنسان فى العصور الأخيرة سخر الماء والهواء فى إدارة الطواحين اللازمة لطحن الحبوب لإعداد الغذاء ، ونرى اليوم فى أنحاء الريف طاحونة هنا وأخرى

هناك وننظر إليها على أنها تحفة أثرية جميلة أكثر من اعتبارها آلة ذات قيمة بارزة — ولو رأيناها تدور وبهمة نشاط فآخر ما توحى به هذه الآلات العتيقة المتداعية أنها كانت وظلت مئات من الأعوام وهى أعظم الآلات التى توصل البشر إلى صنعها وقد أعطت أكبر قسط من الطاقة عرفه الإنسان — فالطاحونة على صغرها كانت الآلة الوحيدة التى تزود الإنسان بطاقة أكبر من طاقته الجسمانية ، وهى الآلة الوحيدة أيضاً التى سخرها الإنسان لخدمته وتعتمد على طاقة ليست مستمدة من طاقته الغذائية ولقد كانت ثورة أو انقلابا جامحاً عندما استغنى الإنسان بسببها عن عمله الشاق اليومى فى طحن ما يلزمه من حبوب ، فطحنت الجماعة الواحدة جميع الكميات اللازمة لأفرادها دفعة واحدة فى الطاحونة العامة وقد سخرت لإدارتها قوة قد تكون فى نظرنا ضعيفة بمقارنتها بما يقوم فى أذهاننا من أفكار عن القوى .

ولقد كان الطحان شخصية هامة فى تلك الأيام كما كانت الطاحونة مركزاً رئيسياً . وكم من مدينة وكم من قرية تدين فى أصل نشأتها إلى وجود طاحونة إلى جوار مجرى مائى — ولم تكن هذه الظاهرة قاصرة على بريطانيا فحسب ، ولكنها شملت جميع أنحاء العالم القديم وأجزاء من العالم الجديد التى استعمرت قبل هذا الأوان بأكثر من مائة عام .

وقد أعار الناس فى تلك الأيام أهمية بالغة لهذا الأسلوب الضعيف من أساليب استخدام القوى ، وهو يظهر لنا مدى ضآلة المنشئات الآلية الكبرى التى يمكن إقامتها — لقد أغنت الطاحونة الإنسان عن بعض عمله المنزلى اللازم لإعداد طعامه غير أن كل ما يتعلق بالكساء وهو ضرورى لحفظ الطاقة الحرارية فى جسم الإنسان ظل فى جميع مراحل صناعته عملا يدوياً خالصاً سواء كان ذلك فى سلخ الجلود أو جز الأصواف أو زراعة الكتان أو خياطة الملابس ذاتها فقام الأفراد بجميع هذه العمليات . وكان يقوم بها الفرد الذى يعد لنفسه جلباباً أو يقوم بإعداده له عضو من أعضاء أسرته .

وقد حدث تقدم عظيم حين ظهرت حرفة النساجة وكانت فى مرحلتها الأولى تعتمد على طاقة الإنسان بعد أن وفق إلى استخدام النول وهنا نرى لم اكتسبت نقابات النساجين فى القرون الوسطى فى شمال إيطاليا أهمية بالغة . . ولم اشتهرت بريطانيا كدولة تربى الأغنام . .

وقد كانت التجارة قليلة جداً ، لأن التجارة تنطوى على إمكان الحصول على بعض السلع بأثمان أكثر رخصاً ، بمعنى أنها اقل كلفة فيما تتطلبه من طاقة فى مكان عنها فى الآخر ، ثم أنها تنطوى على إمكان نقل السلع نقلا رخيصاً من مقر الانتاج إلى موطن الاستهلاك . وفى جميع العصور الوسطى بل وفى جميع العهود التى مرت بعد ذلك إلى منذ مائة عام قبل زماننا هذا كانت البضائع الكبيرة الحجم لا تنقل إلا فى ظروف استثنائية جداً لأن تكاليف نقل الأشياء الكبيرة الحجم أوالثقيلة الوزن أى الطاقة التى تلزم لنقلها إلى أية مسافة كانت بالإضافة إلى الطاقة اللازمة لانتاجها — كانت كبيرة بحيث تستنفد كل ربح منتظر مهما قلت تكاليف انتاجها فى موطنها الأول ، وحتى بعد أن عرف البرتغاليون الطريق البحرى إلى الهند كانت جميع التوابل المنقولة إلى أوربا على مدار السنة لا تزيد فى حجمها عما يملأ مقدمة سفينة حديثة من سفن البضائع الشاطئية . والتوابل هى السلع الوحيدة التى كان نقلها حينئذ يدر ربحاً ما .

وقد جرت هذه التجارة المصغرة استثناء من القاعدة السائدة وقتئذ وهى أن كل طاقة يسخرها الإنسان لخدمته كان مصـــدرها الوحيد قوته البدنية أو قوة الحيوانات التى استأنسها . فسخر الرياح لتدفع بأشرعة سفن ذلك العهد ، على صغرها وعدم رشاقة حركاتها فى عبور المحيطات — وبهذا كانت الرياح والقوى المائية هى الطاقة الوحيدة التى نجح الإنسان فى استغلالها على نطاق ضيق لطحن الغلال فى البر ولتسيير السفن فى البحر . كما خلت البلاد من وجود الطرق بالمعنى الذى نفهمه من كلمة طرق ، بعد أن انهار ما أنشأه الرومان منها واقتصر الأمر على بضعة مسالك ودروب معينة، ولهذا جرى معظم النقل التجارى المحلى فى ذلك العهد بطريق الملاحة النهرية لأن تسيير قارب على الماء أيسر جهداً من جر عربة على اليابس

أما المدن الجديرة بتسميتها مدنا فكانت تتصل اتصالا وثيقاً بالحكم والإدارة أو بالقدر الضئيل من التجارة الذى يجرى نقله . فلو اتخذنا مثلا أية وحدة سياسية لرأيناها تضم مدينة واحدة — واحدة فقط — هى العاصمة ومقر الحكم فيها حيث نمت نظمها وأصابت قدراً من النجاح كبيراً أو صغيراً فى الدفاع عن البلاد وهيأت للناس فرص الاشتغال بالزراعة والرعى وغيرها من الحرف التى أمكن مزاولتها فى أمن ودعة دون تدخل خارجى . كما قامت بضعة موانىء حيث كانت تسهيلات الشحن والتفريغ للسفن التى تزور الميناء تدر ربحاً ما ، ولا نجد فى الدولة بعد ذلك سوى قرى صغيرة ظلت على حالها عهداً طويلا دون أن تصيب ازدهاراً أو انحطاطاً فقد ظلت ليفربول مثلا قروناً عديدة وعدد سكانها لا يتجاوز كثيراً سبعمائة نسمة وفى هذا دليل أى دليل على جميع الظروف السائدة — وبقيت هذه المدن سنة بعد سنة وقرناً بعد قرن لا يطرأ عليها أى تغيير طفيف وظل الناس يولدون ويقضون وهم يعيشون فى عالم يعتمد فى أساسه على المهن الزراعية والرعوية — عالم يعير القوة الجسمانية للانسان أهمية كبرى لأن المرء بقوة عضلاته ، والقوى من يستطيع أداء ما يعجز عن أدائه شخص ضعيف بل وبأى وسيلة كانت .

ثم بدت بوادر الانقلاب الصناعى منذ أكثر من قرن مضى — فى عالم يقوم على الزراعة والرعى حيث اقتصر العمران فيه على بعض الموانى الصغيرة بأسواقها التجارية وعلى بعض المدن الكبيرة التى أضحت عواصم لوحداته السياسية ، وحتى ذلك الأوان كان استعمال الفحم قاصراً على الأغراض المنزلية ، ثم أمسى مستعملا فى إدارة الآلات التى تؤدى من الأعمال أكثر مما يستطيعه الإنسان أو الحيوان بل أكثر مما يستطيعه عدد منهم لو اجتمع بعضهم إلى بعض ظهيرا . وهكذا ذلل الإنسان لخدمته طاقة أخرى غير طاقته لتقوم بما كان يؤديه من قبل واستطاع أن يستخدمها على نطاق يتسع كثيراً عما مضى — فتغيرت الحال بعدئذ وأصبح فى الامكان استيراد المواد الأولية اللازمة للغذاء والكساء من أقصى بقاع الأرض ولم تقتصر التجارة على نقل الكماليات كالتوابل والشاى — ولكنها تناولت المواد الأساسية التى يتكون منها طعام الإنسان وملابسه ، ففى بريطانيا مثلا لا يزرع

من القمح إلا خمس ما تستهلكه ولم تعد الخضروات التى تلزم البريطانى فى غذائه تنمو فى الحقل المجاور لمنزله — وجاءت إلى البلاد أنواع من الفاكهة لم يسمع عنها أجداده من البريطانيين — كما لم تعد مواد الكساء تنتج انتاجاً هو الكفاف بعينه بل أصبحت تستورد فى كميات هائلة من القارات البعيدة فيما وراء البحار والمحيطات، ثم بات من الميسور إعداد الملابس الجاهزة إعداداً كاملا فقلت بالتالى عملية صنع الملابس فى المنزل — كما أمكن إعداد معظم الطعام ليوضع فوراً على المائدة ، وقلت بالتالى العمليات المنزلية اللازمة لإعداده وأمسى إعداد الطعام فى المدن العظمى صناعة زاهرة يمكن للمرء فى أى ساعة من ساعات الليل أو النهار أن يحصل على وجبة من الطعام تناسب ذوقه ومقدرته المالية .

هذا التطور الجديد كل الجدة الذى طرأ على الانتاج والتجارة ترك أثراً بعيداً فى نواحى الحياة الاجتماعية وهو قمين بأن يتناولها بالتغيير والتبديل فى مستقبل الأيام .

وسرعان ما استفادت بريطانيا من هذا الكشف . وكان طبيعياً أن يتم هذا الكشف فى بريطانيا وهى التى طالما استخدمت فحم نيوكاسل (الفحم البحرى) فى الأغراض المنزلية البحتة .

وهناك من القرائن ما يدل على أن فحم نيوكاسل كان ينقل إلى لندن فى عهد مبكر جداً يرجع إلى القرن الثالث عشر — وقد انفردت مناجم نيوكاسل من بين حقول الفحم فى العالم بقربها الشديد من البحر حتى بذت جميع الموانى الأخرى فى رخص نفقات الشحن فيها — وبدأ الأهالى فى استعماله فى حرق الجير أو فى كور الحداد أو فى صهر النحاس والرصاص وعمل الفخار وفى تخمير الجعة أى أن استعماله كان قاصراً على طاقته الحرارية المباشرة ولهذا كان طبيعياً جداً أن تبدأ فى بريطانيا لا فى غيرها الخطوات الأولى البسيطة التى أدت إلى اكتشاف طرق استخدامه فى إدارة الآلات — ومن الطبيعى أيضاً أن يكون لهذا التوفيق فيها — لا فى غيرها — هذه النتائج البعيدة الأثر فحيث يبدأ الناس اكتشافاتهم الأولى كان حرياً بهم أن يتابعوا بحوثهم وأن يحققوا نتائجها .

فلما استخدم الفحم فى توليد البخار نقلت أشياء كان من العسير نقلها قبلا وتحركت أشياء فى سرعة لم يحلم بها الناس من قبل — ولما خرجت بريطانيا ظافرة من الصراع الطويل الذى انتهى بهزيمة نابليون فى سبيل السيادة البحرية كانت أوضاعها مهيأه للافادة على أحسن وجه من مزايا هـذا الكشف الجديد الذى أخضع لها كميات هائلة متزايدة من الطاقة، بينما ظلت الدول الأوربية الأخرى تعانى ألوانا من الارتباك فى جميع مؤسساتهـا ومن ثم عجزت عن أن تجارى بريطانيا فى هذه المزايا، فازدادت أهمية بريطانيا كبلاد تتحكم فى مقادير هائلة من الطاقة. ولما كانت جميع الطرق تؤدى إلى لندن أنشئت أيضـاً خطوط السكك الحديدية لتنحنى فتتقابل فيها أيضاً. ونظراً لما كان للندن من مكانة مرموقة ولمـا لها من تراث ماضيها التاريخى ونظراً لما تجمع لها من قوة سيطرت بها على هـذه الطاقة الهائلة فضلا عن أنها فى الأصل العاصمة التجارية لبريطانيا، تضافر كل هذا فزاد مركزها توطيـداً وأصبحت المركز الرئيسى الذى يؤدى خدمات البنوك للعالم بأجمعه.

وتبع ذلك تقدم جديد، ذلك أن تنظيم تجارة السلع المختلفة التى يسهل نقلها فى اليابس والماء بالوسائل الحديثة قد ازداد يسراً وسهولة إذ أمكن للدولة التى تنتفع بخدمات البنوك فى لندن أن تقتصد فى طاقتها، وكانت بريطانيا بالطبع أكثر الدول انتفاعا بهذا كله.

ولقد قدر أن القوى التى يهيؤها استخدام الفحم فى المصانع الإنجليزية وحدها بعد استبعاد جميع نواحى استخدامه الأخرى تبلغ فى جملة طاقتها ١٧٥ مليون رجل (١) يعملون جديا وبأسلوب نافع يعز على البشر القيام به. وأن قوة اليونانيين التى أتاحت لهم بناء تلك الحضارة المجيدة فى جميع نواحى التقدم البشرى كانت تقوم فى أساسها على طبقة من الرقيق — إذ كان لـكل رجل أغريقى من الأحرار أى لـكل عائلة أغريقية خمسة من الرقيق، وقد يغيب عن أذهاننا دائماً تقدير أعمالهم عندما

(١) هذا فى وقت تأليف هذا الـكتاب أى فى عام ١٩٢٧.

تتناول الإغريق بالحديث مع العلم بأن هؤلاء الرقيق كانوا يقومون بأكبر قسط من الطاقة اليونانية .

وقد نقول أن لكل أسرة فى بريطانيا أكثر من عشرين رقيقاً يمدونها بالطاقة اللازمة لأعمالها — ولا تحتاج إلى إطعامهم وإعاشتهم ولا يشعرون بهموم حياة الذل والعبودية وبؤسها . فبى بريطانيا بسكانها البالغ عددهم ٤٥ مليون نسمة من رجال ونساء وأطفال تدور مصانعها بقوة ١٧٥ مليون رجل فضلا عن الطاقة التى تستعلمها السكك الحديدية والبواخر البريطانية والتى تصل قوتها إلى نحو ٩٠ مليون رجل .

ولو أننا وازنا بين القوة الجسمانية التى يملكها أقل من عشرين من الرجال والنساء وبين نفس القدر من القوة الآلية التى تتيحها الوسائل الميكانيكية المختلفة — لو أننا وازنا بين القوتين لاتضح لنا تفاهة القوة الإنسانية بالنسبة للقوة الآلية — ولقد أصبح الإنجليز أمة من المهندسين يضغطون بأصابعهم على أزرار مختلفة أو يحركون روافع آلية أو يعملون فى تشحيم الآلات وحفظها ، الأمر الذى يجعل الآلة الاجتماعية الكبرى تعمل فى سهولة ويسر بقدر الإمكان .

فأصبحت تلك القوى الآلية تقوم بطحن الغلال وصناعة الملابس ونقل الأطعمة من أقصى جهات الأرض وحمل المسافرين هنا وهناك وهم يسعون فى مناكبها يبغون لهوا أو عملا كما تقوم بنشر الأخبار وبطبع الكتب المملوءة بالحكمة والمعرفة وتأدية خدمات لا حصر لها ولم يحلم بها الإغريق قط .

ثم أخذ استغلال الفحم يمتد شيئاً فشيئاً إلى البلاد الأخرى ، خاصة وأن نطاق الفحم فى أوربا يمتد فى فرنسا وألمانيا والنمسا والروسيا حيث الأحوال الجغرافية فيها تختلف الآن عما كانت عليه منذ أحقاب مضت تقدر بمئات من ملايين السنين — فقد كانت شواطىء القارة القديمة بمناخها الحار الرطب تنخفض بالتدريج وكانت خير بيئة لنمو الأشجار الغابية السرخسية العظيمة فى كثرة وكثافة ملحوظتين ثم طمرت وظلت بقاياها محفوظة بين طبقات الطين والرمل التى أرسبتها

المحيطات أو جابتها الأنهار حتى لجأ الإنسان إلى هذه الطبقات حديثا لتزوده بالطاقة التى اختزنتها له الكيمياء العضوية واحتفظت له بها بين أنسجة الأشجار النامية . ولم يتكون الفحم فى كل مكان من هـذا النطاق ، وأن تكوّن ، فقد يحدث أن تكون عوامل التعرية والالتواء قد أزالته تماما خلال العصور الطويلة التى مرت به حتى وقتنا هذا . وفى مناطق أخرى من أوربا تكوّن الفحم فى عصور متأخرة ولكنه فى الغالب ضئيل القيمة قليل الكمية ردىء النوع .

ومن ثم استطاعت هذه الدول المختلفة تحت ظروف مختلفة أن تستغل الطاقة التى تيسرت لها بدرجات متفاوتة ، وفى فرنسا مثلا يوجد الفحم فى ركنها الشمالى الشرقى حيث ينحنى نطاق الفحم ويدور ليعبر مضيق دوفر وليتصل بحقل الفحم فى كنت بانجلترا وهو حقل طالما عرفه الناس وأن لم يستغل إلا أخيراً — حقا يوجد بعض الفحم فى المرتفعات الجنوبية فى فرنسا ولكنه فى كميات قليلة — وبينما تجنى فرنسا المزايا التى هيأتها لها معرفة أهلها وهم ذوو مهارة وذوق وخبرة بأحسن الأساليب الحديثة فضلا عن مقدرتهم على استيراد الفحم من البلاد الأخرى إلا أن فرنسا على الرغم من كل هذا بقيت دولة زراعية فى أساسها .

غير أن ألمانيا أسعد حظا نسبياً ولو أن نطاق الفحم فيها يجرى ملاصقا للحافة الجنوبية للسهل — وفى هـذا عيب بعده عن البحر — ويرجع أكبر الفضل فى تقدم ألمانيا الحديثة إلى وجود موارد عظيمة من الطاقة فى داخل حدودها — فلما بدأت إنشاء الطرق الحديدية رسمت سياستها بأن عمدت إلى جعل برلين مركز تقابلها لأنها أضحت عاصمة الدولة وقت إنشاء الخطوط الحديدية مما زاد فى أهمية مركزها كعاصمة للبلاد وحقق لها قسطا من الاستقرار رغم أن السكان يتجمعون فى مناطق الفحم البعيدة عن هذا المركز المتوسط .

وتتقاسم ألمانيا والنمسا حقول الفحم الموجودة فى أعالى نهر الأودر(١) ويضاف إلى ذلك ما تمتلكه النمسا من كميات صغيرة مبعثرة رديئة ، ولروسيا حقول واسعة من الفحم تمتد شمال البحر الأسود ، ولكنها كما يتضح من تاريخها الماضى لم تمض فى استغلالها شوطا بعيدا .

---

(١) هذا قبل أن تصبح النمسا دولة صغيرة .

الخريطة رقم ٧٣



حقول الفحم فى الولايات المتحدة

أما بلاد الهند والصين فإن ماضيهما التاريخى لم يهيئ لهما فرصة استغلال الفحم الموجود بهما استغلالا سريعا ، ولا تستحق كميات الفحم فى البقاع الأخرى من العالم أى اعتبار باستثناء أمريكا الشمالية فقط ، التى بذت جميع البلاد الأخرى فى مدى استفادتها من اكتشاف طاقة الفحم ، وقد قدرت موارد الفحم فى العالم بمقدار ٧,٣٩٧,٥٣٣ مليون طن ويقدر ما تمتلكه كندا منها بنحو ١,٢٣٤,٢٦٩ مليون طن ويقدر نصيب الولايات المتحدة من هذه الكمية نحو ٣,٢١٤,١٧٤ مليون طن ، وسواء صدق هذا الزعم أم لم يصدق فإنه من الجلى أن كميات الفحم الموجودة فى أمريكا الشمالية تمثل نسبة عالية غير عادية من جملة كمياته الموجودة فى العالم أجمع ، ولو إننا تناولنا بالبحث والتحليل مواضع حقول الفحم فى الولايات المتحدة لرأينا أن الفحم فيها يقع فى ثلاثة أرباع عدد الولايات التى تدخل فى نطاق الاتحاد تحت لواء الحكومة الاتحادية فى واشنجتن — على حين أن أكبر كمياته تقع مباشرة على طول الطريق الذى امتد فيه العمران الطبيعى بجزاء وادى الهدسن والموهوك .

وتختلف أمريكا الشمالية عن القارات الأخرى فى أن الجزء الأكبر منها درج فى حضارته من أول الأمر مستخدما الوسائل الحديثة ، وقد نما عدد سكان أمريكا الشمالية نموا كبيرا حتى ليمكن أن يقال أن سكان الجزء الواقع شمال المكسيك قد تضاعفوا مائة ضعف منذ بداية القرن التاسع عشر ، وقد سخرت الطاقة على

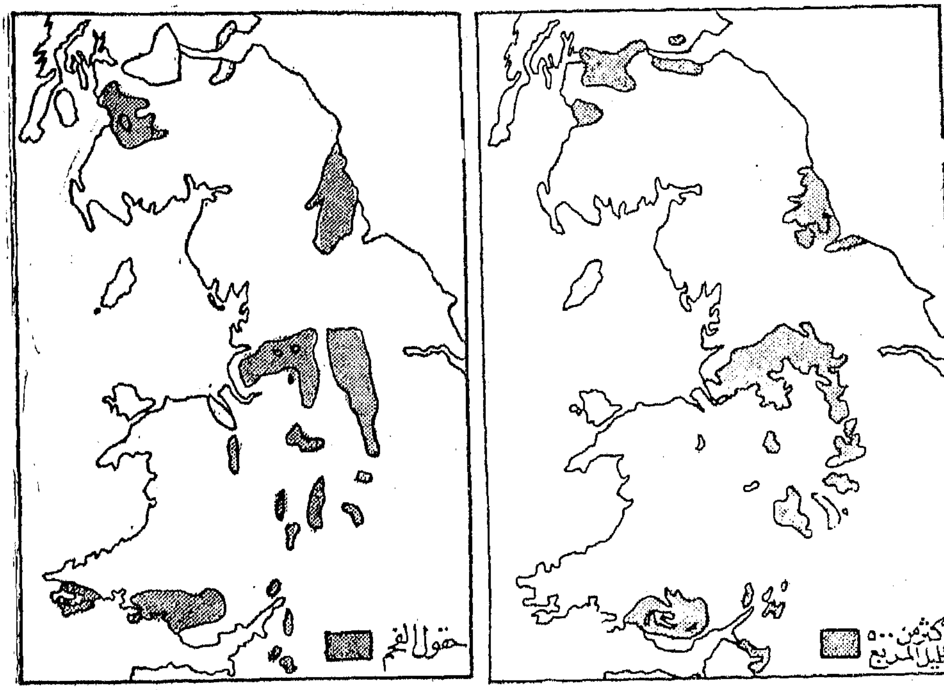
نطاق واسع جماعات ألفت الجد فى العمل ونفضت عن أنفسها قيودا كثيرة من التقاليد البالية وبدأت تعتنق أفكارا جديدة دون أن تتعصب لهذه أو لتلك . فليست المسألة إن سلالات أوربية أغرتها الهجرة إلى أراضى فيها كثير من الشبه بأوطانها الأولى وليست بذات قيظ لافح فى الصيف ولا بذات برد زمهرير فى الشتاء حتى يحولا دون العمل ، بل هى بلاد بلغت حدا من الحرارة يكفى لنمو النبات وبلغت من البرد حدا يحفز على إعمال التفكير . حقا لم تكن توائم نمو حضارات مبكرة ولكنها كانت الطراز المطلوب الذى يصلح لنمو حضارة يقيمها رجال من شمال أوربا بالإضافة إلى ما توافر لها من مزايا امتلاك كميات هائلة من طاقة الفحم .

* * *

وظلت عمليات الهجرة والاستيطان والتكتل تجرى مجراها على الساحل الشرقى خلال ثلاثة قرون ، فتم بذلك تشكيل الطابع العقلى والأخلاق للمجتمع الأمريكى كما تحددت لغته أيضا ، وقد بدأ الناس فيها يشعرون بقيمة الكشف الجديد (أى استخدام الفحم فى توليد البخار) فى نفس الوقت الذى توصلوا فيه إلى معرفة طريق الهدسن والموهوك وغيره من الطرق الجنوبية التى تصل الشرق بالسهول الوسطى ، وإن كانت تزيد فى وعورتها عن طريق الموهوك . وفى عام ١٨٠٧ أى قبل افتتاح قناة إيرى بثمانية عشر عاما أبحرت أول سفينة بخارية من نيويورك إلى ألبانى فقطعت مسافة ١٥٠ ميلا فى أربع وعشرين ساعة ، ومن السخف أن نتساءل ماذا يكون مصير الولايات المتحدة لو لم يدركها الانقلاب الصناعى ؟ والجواب يسير ومعروف إذ لم يكد الانقلاب الصناعى يؤثر أثره حتى قفزت الولايات المتحدة واكتسبت أهميتها ، فمست يد السحر جميع مرافق الحياة فيها من تحسين فى زراعتها إلى استخدام آلات حديثة أقدر على أداء أغراضها ، فازدادت غلة الأرض عما كانت قبلا ، وإلى هذه التطورات عينها يرجع الفضل فى تكدس رؤوس الأموال فى بريطانيا وبفضلها استطاعت الخروج ظافرة من الحروب النابوليونية ولا شك أنه كان لهذه التطورات أثرها المباشر فى غرب المحيط الأطلسى كما كان لها أثرها

فى شرقه . ونستطيع أن نتعرف على مدى التغيير الذى أصاب أمريكا لو قارناها بما حدث لبريطانيا .

الخريطة رقم ٧٤



توزيع الفحم وتوزيع السكان فى بريطانيا

فلما بدأت بريطانيا فى استخراج الفحم من مناجمها المتناثرة فى المراعى الممتدة على جانبى جبال البنين ظهرت فى الوجود انجلترا أخرى جديدة أحدث عهدا من ولايات « نيوانجلند » التى أسست على الشاطئ الشرقى لأمريكا قبل الانقلاب الصناعى بقرنين من الزمان ، وحتى ذلك الأوان كانت مقاطعات يوركشير والمراعى المحيطة بها جميعها خالية من السكان تقريبا والناس يتكاثرون على الأراضى الخصيبة الممتدة إلى الجنوب منها . أما الآن فالناس يتزاحمون فيها بالمناكب وكل يبذل جهده فى توجيه طاقة الفحم الوجهة التى تجود بأحسن الثمرات . هذا وتختفى فى الولايات المتحدة أهمية التطور الجديد تحت ستار من التطور الزراعى فيها وما التطور الزراعى نفسه فى واقع الأمر إلا أحد مظاهر هذا التغيير الشامل .

كان الهندى الأصيل من سكان أمريكا يتجول فى قاربه الصغير فى الأنهار والبحيرات بينما أخذ المهاجرون الأوربيون يجوبون فى قواربهم البخارية — التى بنيت على طراز سفينة فولتون — الأنهار والبحيرات ثم القنوات فانتشرت الزراعة فى البلاد على أيديهم أسرع مما لوقدر لها إتباع وسائل أخرى .

ومنذ افتتاح قناة إيرى فى عام ١٨٢٥ توطد مصير نيويورك نهائياً كمنفذ تجارى للدولة ، ثم أنشئت السكك الحديدية فجرت أولا بحذاء البحيرات والأنهار ثم ابتعدت عنها لتخترق البقاع المتنائية — مما هيأ للانسان فرصة الاقتصاد فى الطاقة وسمحت له باستخدام طاقته البدنية على خير وجه ممكن . غير أنه حتى منتصف القرن التاسع عشر لم تكن تبشر الدلائل بما تمخض عنه هذا التطور فى نهاية هذا القرن ، فقد كانت باكورة النتائج لاستخدام الفحم فى صناعة الغزل والنسيج وفى طرق المعادن وسحبها قاصرة على استقرار السكان حيثما وجدوا ، وفى ولايات نيوانجلند أمكن استخدام القوى المائية فى إدارة الطواحين ثم اتخذ الفحم بديلا عنها نظراً للعدد الكبير من السكان الذين تجمعوا فيها أكثر من أى مكان آخر ممن اكتسبوا مهارة خاصة فى استخدام الآلات حتى وإن كانت من نوع بسيط . ثم تجمع السكان من ذوى المهارة شيئاً فشيئاً فى حقول الفحم الممتدة على طول الحافة الغربية لجبال الأبلاش ثم فى المنطقة المتوسطة جنوبى بحيرة مشيجان ولا تزال تمتد هذه الحقول نحو الجنوب الغربى — ولا تزال المناطق الحديثة فى نموها غير قادرة على الوقوف نداً لند مع تلك التى اكتسبت مهارة خاصة أما بتوارثها جيلا عن جيل وأما لأنها نقلتها إليها أو اقتبستها عن غيرها — ولا يهمنا أيا كانت الوسيلة التى توسلت بها إلى اكتساب تلك المهارة بقدر ما يهمنا أنها قد بدأت تنافس تلك البلاد ذات السبق فى الحضارة — والتى تستمتع بقوة القصور الذاتى التاريخية . وقد أمكن الآن إقامة الصناعة القطنية بنجاح فى مقاطعة ألباما ، ولو سار إنتاج الفحم فى زيادته بالمعدل الذى يسير عليه الآن — فلن يمضى طويل وقت قبل أن يبلغ الطرف الجنوبى لجبال الأبلاش فى إنتاجه للفحم قدر ما تنتجه مقاطعات نيوانجلند .

وليس التقدم كله وليد استخدام تلك القوى الضخمة المتولدة من الطاقة الفحمية ،

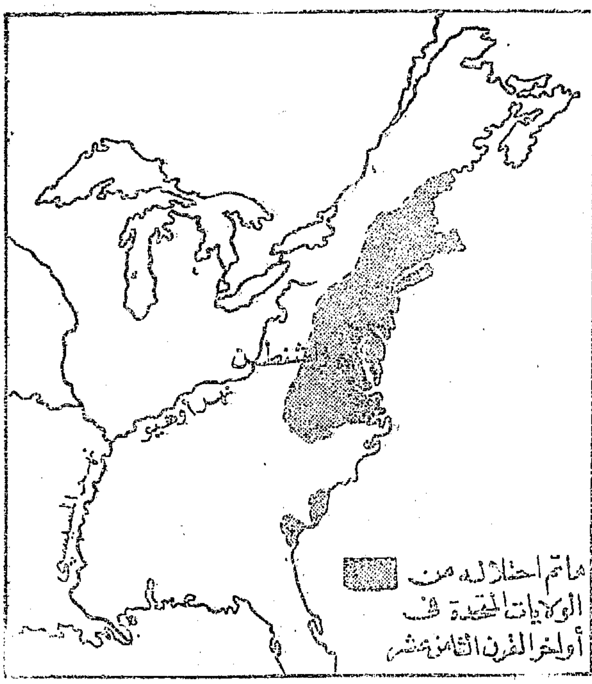
ولـكن هناك حقيقة تـكمن فى أن كل تقدم فى مرفق من مرافق الحياة يحفز على تقدم فى المرافق الأخرى، فدعت الضرورة بعدئذ إلى صناعة آلات جديدة تتناسب والظروف الجديدة المتطورة واستحدثت آلات تهيئ للانسان فرصة الانتفاع بطاقته البدنية وطاقة ما يستأنسه من حيوان لـكى يكون أكثر انتفاعاً عما كان قبلا . ومنذ أن نجح الإنسان فى أن يستبدل بيده عصاداً أو آلة حجرية ، والآلات تسير نحو الـكمال كلما تقادمت العصور . فلما حدثت الثورة الصناعية انتشرت عمليـة الاستبدال هذه انتشاراً واسعاً فشملت بلاداً أخرى بالإضافة إلى البلاد التى نتحدث عنها الآن ، غير أنها لم تبلغ من الظهور والوضوح فى أى قطر ما بلغته فى الولايات المتحدة .

وطبق الأمريكيون الدرس الذى تعلموه من الصناعة على الزراعة فاستخدموا الآلات بقصد الاقتصاد فى الطاقة واستغلالها ، فاختفى المنجل اليدوى ليحل محله المنجل الآلى وقد أدى استخدام الآلات إلى تخفيض تـكاليف الزراعة للمحاصيل بنحو ١٧٠ مليون جنيه فى مدى خمسين عاماً — وفيما بين عامى ١٨٥٥ و ١٨٩٤ نقص تباعاً الزمن الذى يستغرقه الفلاح فى انتاج البوشل الواحد من الذرة الهندية من أربع ساعات ونصف إلى ثلاثة أرباع الساعة ، وبين عامى ١٨٣٠ و ١٨٨٦ نقص الزمن الذى يستغرقة العامل لانتاج البوشل الواحد من القمح من ثلاث ساعات إلى عشر دقائق — وفى عام ١٨٦٩ كان نقل البوشل الواحد من القمح من شيكاغو إلى ليڤربول يتـكلف ٣٧ سنتيما فأصبح عام ١٩٠٥ يتـكلف نقله خمسة سنتيمات وحتى الآن على الرغم من تناقص قيمة النقد فى أيامنا هذه فلا تزيد نفقاته عن هذا الحد إلا قليلا[1] . ولم ينقص القمح أو الذرة فى قيمتهما الغذائية ولـكن حدث وفر فى الطاقة وانطلق الناس أحراراً يؤدون أعمالا جديدة فيفيدون من أوقاتهم فوائد أخرى .

---

(١) كتب هذا فى عام ١٩٢٧ .

الخريطة رقم ٧٥



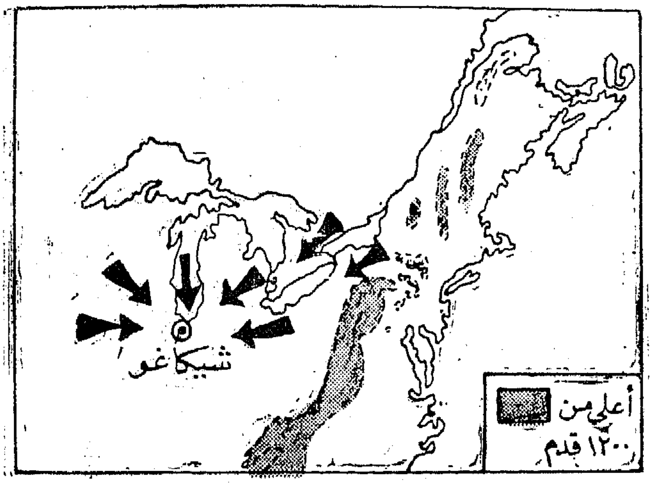
« المستعمرات البريطانية الأولى فى شرق الولايات المتحدة »
كانت واشنجتن مركزا مناسبا لتكون العاصمة فى الوقت الذى اختيرت فيه

ولما أنشئت السكك الحديدية أضحى التنظيم فى الأمريكتين أيسر تطبيقاً على نطاق واسع ، أوسع منه فى العالم القديم ،واختيرت واشنجتن بطبيعة الحال لتكون مقر الحكومة بحكم توسط موقعها بين مستعمرات نيوانجلند ومستعمرة ڤرجينيا حين كان السكان يزدحمون على الشواطئ الشرقية ، ومن الطبيعى بعدئذ أن تظل عاصمة البلاد ويتوقف بقاؤها كعاصمة لها على سهولة اتصالها بالولايات الواقعة فى الوسط أو النائية فى الغرب وقد كان لإنشاء سكة حديد كندا الباسيفيكية أثرها فى ضم كولومبيا البريطانية إلى كندا . كذلك كان أنشاء الخطوط الحديدية الأخرى عبر القارة حائلا دون نمو وحدات مستقلة على شواطىء المحيط الهادى .

لقد انتشرت السكك الحديدية فى كل دولة أوروبية غير أن انتشارها هنا كان أوسع نطاقا — وهناك ظاهرة تستحق الذكر وهى أن السكك الحديدية فى أمريكا

الشمالية خلقت مدنا فى المناطق التى مرت بها باستثناء شواطئ المحيط الأطلسى لأنها لم تخطط لتمر بالمدن الهامة ولكنها اتبعت فى سيرها الطرق التى تقل فيها المقاومة الطبيعية ما أمكن ، فلم يكن بد من التقائها فى بعض النقط كموقع مدينة شيكاغو مثلا حيث وجد الناس هذا المكان أكثر ملاءمة لسكناهم عن غيره من الأمكنة وهكذا نشأت المدن وليدة التقاء السكك الحديدية .

الخريطة رقم ٧٦



موقع شيكاغو

كذلك نرى فى الولايات المتحدة تلك القوى الآلية الجبارة التى سخرها الإنسان لخدمته وتقوم مقام الرقيق فى الأزمنة السالفة ، نراها تهيئ للإنسان قدراً من الطاقة على نطاق واسع يصل بالتنظيم والاقتصاد إلى أبعد الآفاق . والأمريكيون هنا مهندسون بارعون تفوق عبقريتهم الهندسية عبقرية سكان القارات القديمة ، يضعون الخطط الدقيقة للافادة على خير وجه من الطاقة التي يتم لهم اقتصادها — ويصرفون بعضها فى اكتشاف الوسائل المؤدية إلى زيادة الاقتصاد فيها ولا ينفقون ذلك عبثاً أو تعسفاً أو لمجرد هواية عارضة بل يتوخون الصبر فى بحوثهم — ولا تجارى الولايات المتحدة بلاد أخرى فى السخاء بكرمها

على البحوث العلمية من جميع أنواعها سواء بطريق مباشر أو غير مباشر فتسير حضارتها قدماً.

غير أن الأراضي الجنوبية في الولايات المتحدة رطبة وتختلف أحوالها عن تلك التي يألفها الأوربيون فاضطر سكانها في أول مراحل استقرارهم في البلاد إلى استقدام الزنوج من أوطانهم الأفريقية ليقوموا بالعمل اليدوي الشاق في الحقول وعلى الأخص لانتاج القطن لمصانع لنكشير، والزنوج عادة يتناسلون في سرعة، ويكونون جماعات متماسكة وقد بلغ تعدادهم عشرة ملايين نسمة[1] لا يختلطون بغيرهم من السكان بل ويتعذر على المجتمع تمثيلهم وهضمهم — وليست هناك صحراء هامة لتفصل بين الجنس الأبيض والأسود — ولم تقاس أمة أخرى ما قاسته الولايات المتحدة من مثل هذه المشكلة ولم تصل بعد إلى حل لها.

(١) تعداد الزنوج الآن في الولايات المتحدة يصل إلى ١٦ مليون نسمه.

الفصل الثامن عشر

توزيعات اليابس الكبرى — العالم كما هو

لقد تحدثنا حتى الآن عن دول مختلفة وكل واحدة منهـا كانت تزيد فى مساحتها عن سابقتها ، حتى الامبراطورية الرومانية وهى تـكاد تعادل فى مساحتها الولايات المتحدة لا يمكن مقارنتها بها إطلاقاً فى عدد السكان ، ولقــد زادت طرق المواصلات سهولة خلال الجيل أو الجيلين الأخيرين ، وبفضلها أصبح العالم الآن مجموعة اقتصادية واحدة ، ولم يعد جزء منه بقادر على الاستغناء عن الأجزاء الأخرى . حقاً أن هذا العالم أصبح الآن وحدة حية ولو أن تنظيمه لا يزال بعيداً عن حد الـكمال حتى من الناحية المادية .

ومن ثم ينبغى علينا فى دراستنا اعتبار العالم الحديث وحدة واحدة أكثر من اعتباره أجزاء منفصلة وهو كالـكائن الحى معقد كل التعقيد فى تركيبه حتى ليصعب التعبير عنه بتعريف بسيط غير أن هناك طريقة أو طريقتين للنظر إليه ، وقد تظهران لأول وهلة كيف قام التنظيم فى العالم أجمع وكيف وفرت الطاقة تبعاً لذلك كما تظهران الخطوط التى ســوف يجرى عليها التقدم فيما بعد ، ولـكل نظرة قيمتها .

ولعل أبسط الطرق عند النظر إلى توزيع اليابس هى أن نأخذ الجزء اليابس على أنه جزيرتان عظيمتان هما جزيرة متوازية الأضلاع تمثل العالم القديم وجزيرة أخرى هى عبارة عن الأمريكتين وكلتا الجزيرتين تقعان فى محيط عظيم . . ولم يجر ذكر الأمريكتين فى قصة العالم إلا حديثاً ، بينما نشــأت فى العالم القديم ثلاث حضارات عريقة مستقرة هى الحضارة الأوربية وقد انتشرت فى النطاق المنخفض والذى تغمر بعض أجزائه مياه البحر عبر الـكتلة اليابسة ، ثم الحضارتان الهندية والصينية وقد ازدهرتا على حافة المحيط ..

وينقسم متوازى الأضلاع الذى يكون العالم القديم إلى قسمين غير متساويين، تفصلهما الصحراء أكثر من أن يفصلهما نطاق البحر الممتد بينهما ، وهما القسم الأفريقى ولا تاريخ له والقسم الأوربى الآسيوى . كما يقع فى قلب الكتلة الأوراسية السهل الأعظم بمراعيه الاستبسية فى جنوبه ، تستند فى ظهرها إلى الغابات فى الشمال ثم إلى المحيط الشمالى الذى تعز الملاحة فيه ، هذا السهل هو الآن سهل الروسيا وإن ظل طويلا موطن الرعاة الرحل الذين طالما اندفعوا منه إلى البلاد التى تحف به .

وقد عرفنا أن البلاد الساحلية تحيط بهذا السهل وإن فصلتها عنه فى بعض المناطق هضاب عالية أو سلاسل جبلية ، وقد تطورت هذه البلاد فى نظمها حتى نضجت فأصبحت دولا مختلفة تتبعنا تاريخها فيما سبق من فصول واحتمت إلى حد كبير بحاجز الصحراء الكبرى فأمنت شر الخطر الزنجى .

أما الجزء الأوسط من هذه المنطقة فبعضه سهول وبعضه هضاب ، بعضه قد تناولته المدنية بأسبابها وبعضه بقى على الفطرة — وهو بحكم توسط مركزه ، وبحكم اتساع مساحته ذو موقع فريد فى العالم قديمة وحديثة — ويمكن ربط أطرافه بالطرق الحديدية بسهولة كبرى ، لا لأنه بعيد عن المحيط ، ولا لأنه مستقل عنه ؛ بل بسبب حقيقة واقعة وهى أن قلب هذا السهل أميل فى طبيعته إلى بيئة المراعى إن لم يكن إلى بيئة الصحراوات ، وتوحيد أجزائه أمر طبيعى لو قامت به قوة من القوى المستقرة فى أحد أطرافه أى بالقرب من حافاته فى الشرق أو فى الجنوب أو فى الغرب . وفى الواقع أن هذا القلب قد شمله التنظيم مرة بعد أخرى مدداً طالت أو قصرت بوسائل مختلفة ، وكانت جميع المحاولات استبدادية خالصة فى نظم حكمها — سواء خرجت تلك المحاولات من جبال التاى فى الشرق أو من هضبة طوران فى الجنوب ، أو تلك المحاولة التى بذلتها مقاطعة موسكو فى الغرب أخيراً ، وكانت أكثرها توفيقا .

وتوجد فى متوازى أضلاع أوراسيا أراض تقع على حافة المحيط وتتأثر بالبحر فى تاريخها ، وسكان معظم هذه البلاد فى القطاع الأوربى سادوا البحر زمناما كالعرب

والفينيقيين والاغريق والإيطاليين القدماء منهم والمحدثين والأسبان والبرتغاليين والبريطانيين والهولانديين والنرويجيين كلهم دانت لهم سيادة البحر أو سيادة المحيط معتمدين جل الاعتماد أو بعضه على سهولة النقل المائى ورخصه وأمنه ، وعلى مايشعرون به من ميل جارف نحو البحر نشأ عندهم من جراء طول ألفتهم له وركوبهم ظهره ، وأما فى القطاع الآسيوى فاليابانيون هم الذين انفردوا من بين سكان آسيا فى تقرير مصائرهم على متن البحار . أما الهند والصين فقد ظلتا تختلفان اختلافاً أساسياً عن البلاد الغربية — وإن بقيتا معرضتين للمؤثرات المحيطية ، إلا أنهما لم تحاولا قط أن تلعبا دورهما على مسرح البحر .

ولم تصادف السيادة البحرية البريطانية أى تحد لها تقريباً منذ موقعة الطرف الأغر فكانت سفن الأسطول البريطانى تمخر عباب البحار جميعا وتتجمع بكثافة فى بحر المانش أو بحر الشمال حين يحتمل ظهور الخطر فيه عن غيره من البحار وتسير فى دوريات منفردة فى المحيطات وفى شرق أفريقيا مثلا حيث لا يوجه لها أى تحد ، وكانت النتيجة الواضحة لهذا التفوق البحرى تكوين مجموعة الأمم البريطانية التى تعتمد على أمها بريطانيا فضلا عما يتبعها من ملحقات ومحميات ودول وضعت تحت انتدابها ومحطات متفرقة بعضها على حافات أوراسيا وتبعثر بعضها الآخر فى أنحاء المياه التى تحيط بالكرة الأرضية أو اشتط بها النوى إلى ما وراء الصحراء الكبرى ، ولكنها جميعا اشتركت فى صفة واحدة هى الاعتماد على البحار كلية فى اتصالها ببريطانيا ، وكذلك قامت السفن التجارية فى جميع البحار بدور لا يقل حيوية عن دور الاسطول فقد كانت واسطة الاتصال لجميع مواطن الاستعمار البريطانية وبجميع المواضع التى استغلت فيها الأموال البريطانية ، وتعاونت مع بريطانيا دول بحرية أخرى كفرنسا مثلا وهى التى ظلت عدوة لها حقبة طويلة وكإيطاليا بعد أن أعيد تنظيمها حول روما وأصبحت وريثة للتقاليد الرومانية ، وكالبرتغال وهى حليف قديم لبريطانيا وكاليابان وهى أحدث حلفائها فكونت هذه الدول مجموعة من القوى البحرية سيطرت عمليا على جميع الأراضى التى تحيط بقارتى أوربا وآسيا .

ولما شمل التنظيم قلب أوراسيا والدول البحرية كان من الضرورى أن تظهر بالتدريج منطقة تتقابل فيها القوتان وأن تقوم بالتدريج فى هذا النطاق مجموعة من الدول الصغرى هى فى أغلبها بقايا تاريخية لعهود غابرة ، حين كانت التنظيمات السياسية والاقتصادية محدودة ضيقة النطاق فاكتسبت كل دولة منها خصائص مميزة لها ، بعضها طبيعى وبعضها موروث من العهود القديمة ، وأصبح لها من شخصيتها ما يعصمها عن الذوبان فى غيرها — وظلت فى هـذا الوضع التمس كدول مانعة للتصادم أما لأنها عجزت أو لأنها عزفت عن الاتحاد مع غـيرها لتندمج فى وحدة كبرى ، فهى من الناحية السياسية مستقلة استقلالا مقلقلا مضطربا ولـكنها تلحق بغيرها دون شك من الناحية الاقتصادية . وقد اختلف نطاق الدويلات القليلة السكان من آن لآخر تبعا لتطور الظروف ، ولـكنه ظل يحتوى على فنلنده والسويد والنرويج والدانمرك وهولنده وبلجيكا ولـكسمبرج وسويسره وبولنده ودول البلقان وإيران وأفغانستان وسيام وكوريا . وفنلنده مثلا على بعد موقعها ليست سـوى قطاع ساحلى يصلح للزراعة يستند ظهره إلى غابات ومستنقعات تسكنها جماعات تختلف اختلافا أساسيا عن جيرانها . وتشترك اسكنديناوه والدانمرك فى كثير من الخصائص غير أنهما مسكونتان بشعوب تتباين وتختلف فى تاريخها وعاداتها ، وتشعر شعوراً قويا بهذا الاختلاف . أما الأراضى الواطئة فيسكنها الهولنديون والبلجيكيون وهم قلة غير أنهم يقدرون الفروق التى تميز بعضهم عن بعض تقديراً خاصاً ، فأهل هولنده رجال بحر وزراعة بينما نحا أهل بلجيكا نحو الأعمال التجارية والصناعيـة . والأراضى الواطئة بالاشتراك مع لـكسمبرج والألزاس واللورين وسويسرة تمثل الجزء الأوسط من امبراطورية شارلمان أى مملـكة لوثرنجيا التى كانت تقع بين الجزأين الشرقى والغربى وانفردت سويسرة بكونها البلاد الوحيدة التى احتفظت باستقلالها من بين سكان جبال الألب . وقد نشأت فى بادىء الأمر نتيجـة لتحالف أربع مقاطعات سيطرت على ممرات الطرق الـكبرى عند تقاطعها بين شعاب جبال الألب فيما وراء قمة أندرمات **Andermatt** وكان موقع هـذه الولايات أكثر

ملاءمة للدفاع عن استقلالها ، وتفضل غيرها من الولايات الألبية الأخرى ، إذ هيأت الطبيعة لسكان الوديان الجبلية فرصة لقاء المهاجرين فى الأراضى المنخفضة الواقعة إلى الشمال منهم مع احتمائهم فى نفس الوقت بسلاسل جبال الجورا وبحيرات جنيف وكنستانس . أما الدول البلقانية فسكانها مجموعة من رعاة الجبال وفلاحى الوديان وتجار البحار وهم خليط من السلاف واليونانيين ينتمون فى دياناتهم إلى المذهب الكاثوليكى وإلى الكنيسة اليونانية وإلى الدين الإسلامى ، كل فئة حسب ماضيها التاريخى ، ولكنهم يشعرون جميعا شعوراً قوميا ، ويحنون إلى التجمع فى وحدات قومية تتصل اتصالا وثيقا بظروف بيئاتهم الجغرافية ، وإلى الشمال منهم نشأت دول من شعوب تقطن السهل ، حدودها مائعة ولبعضها مواقع جغرافية هيأت لها تاريخا مستقلا قد يمتد إلى قرون مضت وقام بعضها الآخر فى أحضان الغابات فلم تستطع أن تقف على قدميها قط وبالأحرى لم تسنح لهـا فرصة الاستقلال .

وإلى الشرق تقع تركيا وقد مرت فى تاريخها بعهود مختلفة بدأت بعهد ما قبل الإغريق وتتابعت عليها عهود الإغريق والرومان والبيزنطيين والأتراك ولم تستقر حدودها على حال واتخذت مدينة القسطنطينية كعاصمة لها واعتمدت فى أساسها على أقليم آسيا الصغرى — وقد استوطن الأرمن المرتفعات وسكن الفرس الهضاب ولكل شعب من هؤلاء ذكرياته عن أمجاد غابرة سواء عسكرية أم فكرية أم روحية إلا أن إيران الآن بلاد تكاد تخلو من كل سلطة معترف بها حتى ليصعب على المرء أن يطلق عليها لفظ دولة[١] . أما أفغانستان وغيرها من دول الهمالايا فعلى الرغم من تأخرها فى الحضارة عن الدول الصغرى إلا أنها تستمتع بقسط حقيقى من الاستقلال أوفر حظا من تلك الدول الأوربية الصغرى نظراً لبعد مواطنها ولأنها أصعب منالا على القوات الغازية ، ولكنها فى الواقع أقل مقدرة على المقاومة لو أنها تعرضت لهجوم منظم .

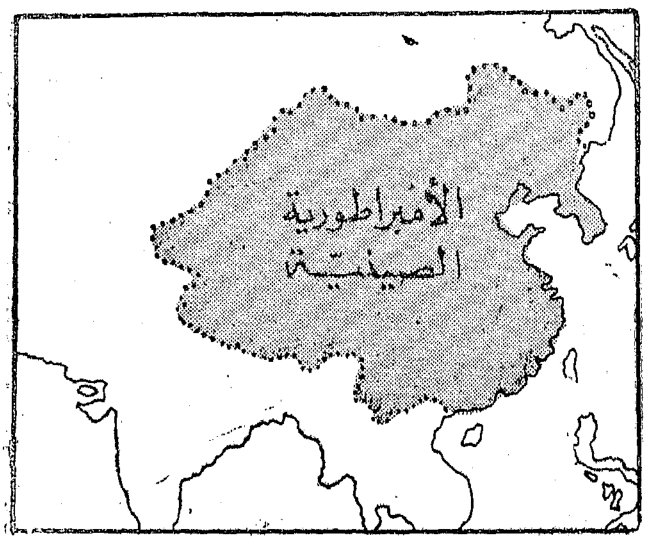
---

(١) كتب هذا فى عام ١٩٢٧ قبل أن تستقر أمور الحكم فى إيران .

ويجوز لنا اعتبار ألمانيا ، بمعنى ما ، داخلة فى هذا النطاق ، وكذلك الصين ، ذلك أن أوربا الوسطى تعتبر من منطقة التصادم هذه ما دامت بعيدة عن التنظيم مقطعة الأوصال تتنازع جماعاتها عوامل العداء ، غير أنها لو نظمت فى إطار من الوحدة لاختلف مركزها كل الاختلاف ولأصبحت قوة لا يستهان بها . وتعتبر ألمانيا دولة بحرية كبرى لما لها من الاتصال بالبحر الذى يغريها بالملاحة البحرية وموقعها على الحافة الغربية لقلب أوراسيا مع ما امتازت به هذه الحافة من ازدحام فى السكان يجعل منها على أية حال مركزا تنبعث منه محاولات لتنظيم هذا القلب .

أما الصين فهى عالم فى حد ذاتها — عظيمة جدا فى مساحتها متجانسة جدا فى سكانها إلى حد يجعلها القمة عسيرة الهضم على فاتحيها على الرغم من أن بعض أجزائها قد ينجح فى استغلاله أقوام أخر يجيئون إليها من بلاد أخرى . وقد رأينا أن أهل الصين بطبيعتهم يعزفون عن الاشتغال بالأعمال البحرية فى إعداد وفيرة إلا أن اتصالهم بالبحر يهيئ لهم مزايا هم حريصون على الإفادة منها والصين شأنها

الخريطة رقم ٧٧



اتساع الامبراطورية الصينية

كشأن ألمانيا بل هى أجدر من ألمانيا فى موقعها الذى يبيح لها السيطرة على قلب أوراسيا دون أن تتعرض لاحتمال أى تدخل أجنبى . ويجب ألا يغيب عن الذهن أن الصين سيطرت فى زمن ما على جزء كبير من هضاب الاستبس يمتد غربا حتى كاشغر وزنجاريا — وسادته الثقافة الصينية فى عهد من العهود ولا يخفى الآن أن بعض جنود البلاشفة هم من المرتزقة الصينيين . فالصين ولو أنها دولة قليلة الحركة إلا أنها ذات موقع فريد فى أهميته .

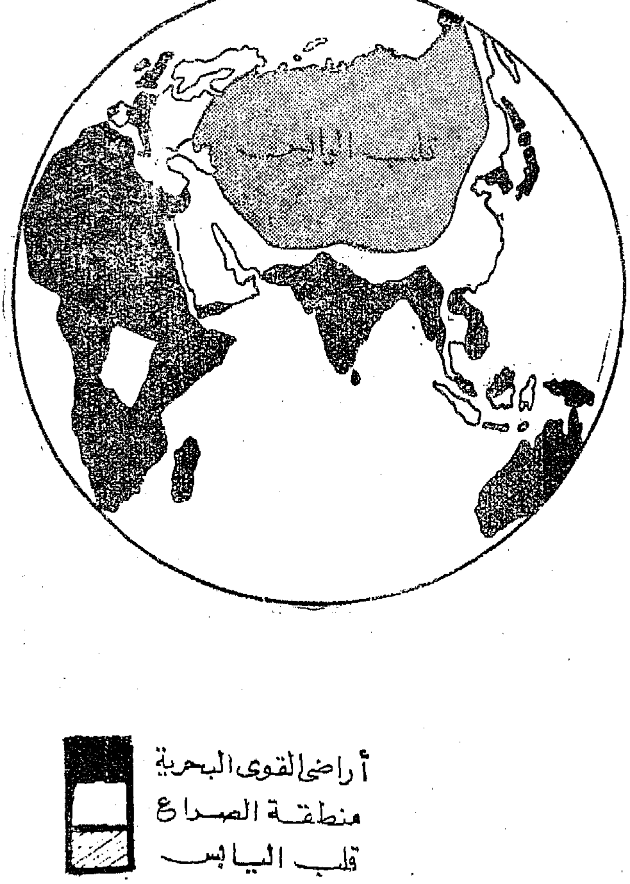
والهند نفسها ذات مركز أكثر تفردا من الصين ، ولو أن القليل من سكانها يعملون فى الملاحة البحرية والنهرية إلا أنها تستمتع بمزايا الاتصال البحرى السهل وتتمتع بسلامة مواصلاتها البحرية بحكم أنها جزء من مجموعة الأمم البريطانية . والواقع أن الهند لا تجمعها وحدة حقيقية بل تتكون من ولايات عديدة مختلفة متمادية فى أغلب الأحوال . والهند بهذا الوضع حلقة من حلقات منطقة التصادم بين القوتين إلا أنها وهى تستظل بالحكم البريطانى أقرب إلى الوحدة منها فى أى عهد من عهود تاريخها [1] ، فهى من بين البلاد الساحلية التى تحف بالمحيط أقربها إلى حافة قلب أوراسيا العظيم . وطبيعى أن تلعب الهند دورها فى السيطرة على هذا القلب ، غير أنه يلاحظ أنه منذ فجر التاريخ استمرت موجات الهجرة تدفع بالناس من قلب آسيا نحو الهند ، ولم يعرف قط أنه كان لهذه العملية رد فعل عكسى . هذا باستثناء ما حدث فى العصور السحيقة عند انتشار الإنسان على ظهر الأرض فهناك من الفروض ما يؤيد انتشار الهجرة البشرية فى إعداد وفيرة من الهند إلى داخل القارة .

وإن هذه الآراء عن قلب أوراسيا وما يحيط به دول بحرية وما بينهما من مناطق تصادم هى نتيجة مباشرة للحقائق الجغرافية الراهنة ، وقد نشأ هذا الوضع القائم الآن ثم تطور على مر الزمن ، وكلما تغيرت الظروف تفاعل ميراث الماضى مع عناصر الحاضر وهكذا تنتظم الأمور فى مرونة توائم تغير الظروف .

---

(١) كتب هذا فى عام ١٩٢٧ قبل أن تستقر دولتا الهند والباكستان .

الخريطة رقم ٧٨



قلب العالم القديم والمراكز التى سادته

ولا يعيش العالم القديم وحده فى هذه الكرة فإن العالم الجديد يحتل مكانه فى محيط أوسع مجالا ، وليس للظروف الجغرافية أو الماضى التاريخى للعالم الجديد ما يؤثر بطريق ما فى دول العالم القديم . ذلك أن الأراضى فى قلب العالم الجديد والدول البحرية فيه لا تنفصلان عن بعضهما بل تمتزجان ، ومن ثم انعدم ظهور نطاق التصادم بين القوتين ، والولايات المتحدة هى سيدة المسرح الأمريكى لأسباب ربما نكون قد تتبعنا بعضها حتى الآن ، حقا قد تصبح الولايات .

المتحدة دولة بحرية كبرى ، وتلعب فى التاريخ دورا أكبر مما لعبته بريطانيا فى الأزمنة السابقة غير أنها بعيدة — وإن لم تبعد كثيراً — عما قد يقوم فى العالم القديم من حروب ومنازعات وما يتمخض عنها من نتائج ، وقد عاشت فى عزلتها محتمية وراء محيطاتها وزودتها الطبيعة بأنواع من القوى المادية والاقتصادية والمعنوية مما يجعلها جديرة بحق بأن تكون مناط الزعامة والتحكيم فى المنازعات الدولية .

وقد ظهرت أحوال عالمية جديدة بظهور الولايات المتحدة وارتفاع مكانتها إلى دولة عظمى إذ اكتسب كشف كولمبس مغزى جديداً — فما من شك فى أن فكرته عن كروية الأرض هى التى أدت إلى كشف طريق آخر من غرب العالم القديم إلى شرقه ، كما أن كرويتها الآن تجعل الولايات المتحدة واقعة بين غرب العالم القديم وشرقه أيضاً ، وأن المسافة بين غرب الولايات المتحدة إلى شرق آسيا لهى أقرب من غرب أوربا إلى شرق آسيا وإن لم تقرب كثيراً . ولو نظرنا إلى الكرة الأرضية وتحققنا من المسافة عبر المحيط الهادى خصوصاً من جنوبه الشرقى إلى شماله الغربى لرأينا أن هذه المسافة بالذات هى التى حالت دون استخدام الطريق الغربى من أوربا إلى جزر الهند والشرق الأقصى استخداماً يعود بالفائدة الحقة ، وإلى أن نهضت الولايات المتحدة لم يكن العالم الجديد سوى أرض مترامية تقع على مسافة ما إلى الغرب من أوربا وليس لها كبير وزن .

والولايات المتحدة تخرج من نطاق مجموعة الدول التى كان لها أثر حتى الآن (١) وهى كتلة متماسكة متجانسة هيأت لها الطبيعة موارد ضخمة من الطاقة لا نهاية لها وتواجه المحيط الهادى والأطلسى فى وقت معاً ، وتتصل بكل من شرق أوراسيا وغربها ، وبفضل قناة بنما المحصنة أصبح فى قدرتها أن تنقل أسطولها من محيط إلى محيط — وقد حاولت أن تؤمن المنافذ المؤدية إلى تلك القناة بإعلانها مبدأ منرو الذى يحرم على دول العالم القديم جميعاً أن تبسط نفوذها على أى جزء من من أراضى العالم الجديد ، وقد اقتصر نجاحها فى الوقت الحاضر على حماية الدول الصغيرة الثانوية المحيطة بالبحار المؤدية إلى قناة بنما ، والولايات المتحدة تمتاز بميزة

(١) كان هذا قبل نشوب الحرب العالمية الثانية وتغير أساليب الحرب .

أخرى فهى ليست كأوربا مكونة من دول متشاحنة منقسمة على بعضها، يتكلم أهلها لغات متعددة ويذكرون دائماً العداوة والبغضاء التى سادت بينهم فى خلال تاريخهم الطويل، فهنا نرى بلاداً متسعة الأرجاء يتكلم أهلها لغة واحدة وليس لهم ماض ملئ بالحزازات والاختلافات . هذه هى الولايات المتحدة .

غير أن هذه النظرة فى توزيع الكتل اليابسة الكبرى لا تزال ناقصة إذ لم ندخل فى اعتبارنا كثيراً من الظاهرات الهامة فى هذا التوزيع — فإن أفريقيا فيما وراء الصحراء الكبرى واستراليا تعتبران إطاراً ضخماً للعالم القديم تتحكم فيه إلى حد كبير الدول البحرية العظمى ، كذلك يمكن اعتبار أمريكا الجنوبية كاطار ينفذ إليه نفوذ الولايات المتحدة ، وقد بسطنا فى الفصول السابقة لهذ المؤلف الأسباب التى فرضت على جنوب أفريقيا وأمريكا الجنوبية أن تكونا مجرد إطار للدول الكبرى غير أنه يمكن إدراك وضع هـــــذه البلاد بالإضافة إلى وضع استراليا بشكل أكثر وضوحاً لو أننا نظرنا إلى نظام توزيع اليابس نظرة أخرى . والواقع أننا لا نصدق كل الصدق عندما نقول أن هناك مجموعتين من اليابس هما العالم القديم والعالم الجديد .

ذلك أنه بظهور الولايات المتحدة اكتسب توزيع الكتل اليابسة الكبرى حول العالم معنى آخر وأهمية أخرى ، حقاً ظلت روسيا تستمتع بأهميتها كما ظلت الدول الساحلية فى أوضاعها غير أن المسألة أصبحت أبعد من ذلك أثراً — وعلى الرغم من أن اليابس يبدو فى توزيعه وكأنه لا يسوده نظام إلا أنه فى واقع الأمر يتبع نظاماً خاصاً، فهناك قارة عظيمة تحيط بالقطب الجنوبى كما تحيط مياه المحيط المتجمد الشمالى بالقطب الشمالى وتحيط بالقارة الجنوبية حلقة متصلة من المحيطات تحيط بها إحاطة السوار بالمعصم وتدور حلقة أخرى من اليابس متصلة تقريباً فتلتف حول المحيط الشمالى ويتدلى من هذه الحلقة اليابسة ثلاث مساحات من اليابس تمتد جنوباً وتفصلها ثلاثة محيطات تضيق تدريجياً نحو الشمال .

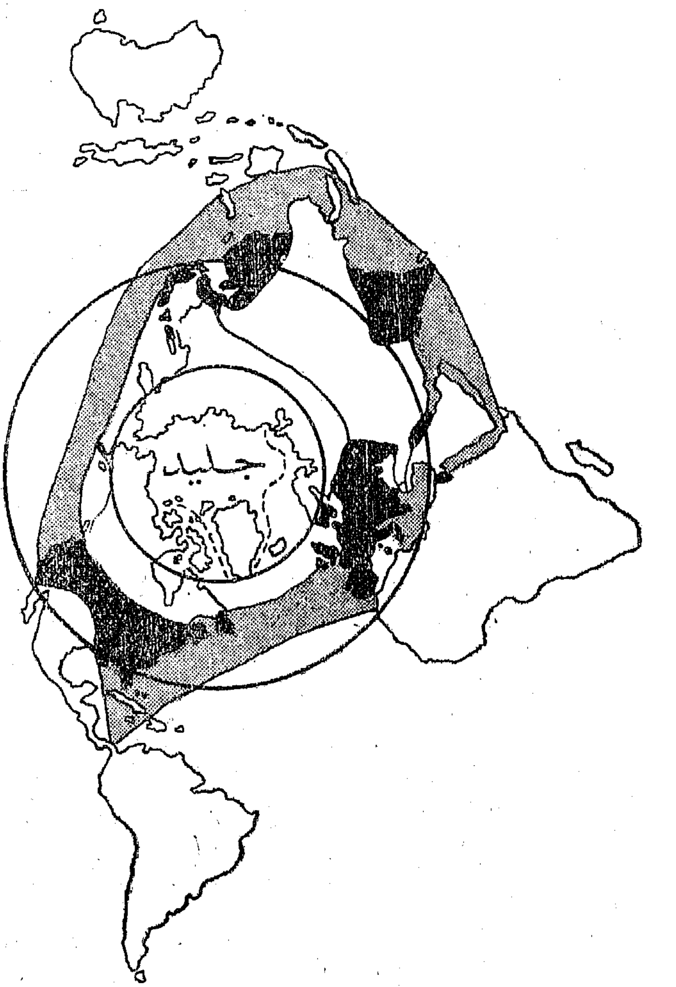
ولما كان الجزء الأعظم من اليابس يقع فى نصف الكرة الشمالى كان هذا

بعض السبب فى أنه امتاز بتلك الصحراوات الواسعة حيث بدأت فيها المدنيات القديمة وما يتبع ذلك من ازدهار المدنيات الأخرى فيما بين خطى عرض ٣٠،٦٠° شمالا ، وقد امتاز سكان المناطق الواقعة إلى الشمال من خط عرض ٣٥° شمالا بأنهم أكثر الأجناس البشرية نشاطاً. وخلا النصف الجنوبى من الصحراوات الواسعة، كما خلا من مساحات اليابس الصالحة لاستقرار شعوب سبق لها اكتساب خبرتها فى اقتصاد الطاقة فى مواطن أخرى ، ومن ثم نرى أن جميع البلاد الهامة تقع تقريباً فى نطاق متصل يدور حول مركز لها فى منطقة الأراضى القطبية الشمالية التى لا تصلح لسكنى الإنسان بسبب بردها القارس — هذا باستثناء قليل من الجماعات المنعزلة التى قطنت جنوب أفريقيا وجنوب أمريكا الجنوبية واستراليا — ونظراً لما عليه هذه الشعوب الشمالية من مدنية كان من الضرورى أن تسودها رغبة طبيعية فى الاتصال ببعضها البعض — فلما نهض الجزء الأنجلو السكسونى من أمريكا الشمالية أى الولايات المتحدة وكندا — واكتسب أهميته أصبح لزاماً أن تنشأ خطوط مواصلات ذهاباً وإياباً عبر المحيط الأطلسى وعبر قارتى أوربا وآسيا ، بل وأن تؤسس خطوط دائرية متصلة ، جيدة فى بعض الأماكن ، رديئة فى البعض الآخر ، تهيئ لسكان هذا النطاق فى كل مكان منه تسهيلات للانتقال بنفقات أقل مما لو لم يتهيأ لبلادهم ذلك الموقع ، وأصبح كل مكان فى هـذا النطاق حلقة فى سلسلة المواصلات الدائرية فقل بذلك عدد نهايات الخطوط والأماكن التى لا تؤدى إلى ما بعدها ، وأصبح كل مكان يؤدى إلى غيره .

وإننا نرى الآن خطوطاً حديدية تجرى عبر أمريكا الشمالية وسيبيريا وقد اكتسبت أهميتها لا لمجرد أنها تختزل الطريق البحرى اختزالا عظيما ولكن لأنها تمثل عدة حلقات من سلسلة الطريق الدائرى الذى ليس له بداية أو نهاية — بينما يظل الطريق المقترح إنشاؤه بين مدينة الكاب والقاهرة لمنافسة النقل البحرى على الجانبين لا يؤدى بعد نهايته الجنوبية إلى مكان ما ، ومدينة الكاب كمحطة نهائية لخط برى هى نهـــاية مغلقة بينما الأمر عكس ذلك فى الشمال فنرى مدناً كنيويورك ومنتريال وفانكوفرو وسن فرنسسكو مثلها تماما كمثل طوكيو

وتجازا كى وأمسك وموسكو وشانغهاى وكولومبو والاسكندرية وبرلين وباريس ولندن كلها تقع على الطرق الرئيسية بحراً وبراً وجواً .

الخريطة رقم ٧٩



« منطقة الانتقال والاستقرار فى النصف الشمالى »

غير أنه بدخول اليابان فى الموكب العالمى بعد منتصف القرن التاسع عشر ببضع سنين اتصلت الحلقة الأخيرة فى سلسلة خطوط المواصلات حول العالم — وبلاد اليابان ذات مناخ بارد فى الشمال جبلية فى معظمها رطبة دفيئة فى جنوبها

الغربى حيث تحيط ببحر شبه مقفل ، وحيث تقترب كثيراً من بلاد الصين ذات الحضارة العريقة — واليابان بطبيعتها مهد من المهاد التى تربى رجال البحر ولتاريخها شبه عجيب بتاريخ بريطانيا وأن ظل التاريخان يختلفان اختلافا كبيراً .

بقى شمال اليابان فترة طويلة مسرحاً لجماعات بربرية همجية ، فى حين أن الجنوب دخل فى حيز المدنية مبكراً فى العهد المسيحى وأسست مقاطعات الجنوب الغربى فى القرن الثانى الميلادى وكانت اليابان تستقبل دائماً إشعاع الحضارة الصينية كما شعرت بريطانيا بأثر الحضارة الأوربية — تتسرب إليها الأفكار إبان السلم كلما انتقل إليها اللاجئون من كوريا ومعهم خبرتهم بالفنون الحديثة كما نقل لاجئو أوربا خبرتهم إلى بريطانيا ، ومارست اليابان الطباعة قبل أن تعرفها أوربا بمائة وخمسين عاماً — ووصلت المهارة الفنية فيها درجة عالية من الكفاية والاتقان حتى أنه حين نقل البرتغاليون الأسلحة النارية إلى اليابان فى عام ١٥٤٥ سرعان ما قام صناع الأسلحة اليابانيون بمحاكاتها .

غير أن هذا الحافز لم يشبه تماما نظيره الذى تعرضت له بريطانيا فالحضارة الصينية تختلف عن الحضارة الأوربيه وقد تتابعت الدول البحرية فى أوربا واحدة أثر الأخرى فى خلال القرون المتوالية وقد تأثرت بريطانيا بكل منها من وجوه مختلفة — بينما وقفت اليابان وحيدة فى شرق آسيا ولم يطرأ على المؤثرات الحضارية الصينية تغيير يذكر ، فلم تواجه اليابان هجوماً جدياً غير تلك المحاولة التى قام بها المغول فى عام ١٢٨١ بعد أن أغرتهم ثروة اليابان المتراكمة . حقاً عانت اليابان بعض الحروب الأهلية من طراز الحروب الأهلية التي عرفت فى بريطانيا باسم حروب الوردتين — غير أن الشعب اليابانى أفراداً وجماعات ظل فى معظم تاريخه يصوغ مستقبله بنفسه دون أن يتدخل فى شئون القارة ودون أن يعانى تدخلا من أحد .

وربما كان من آثار هذه العزلة أن اليابانيين سلكوا اتبعوا لذلك مسلكا رجعيا إزاء الحضارة الغربية أبان موسم الاكتشافات البحرية ، وظلت البلاد أكثر من قرنين من الزمان وهى مغلقة فى وجوه الأجانب . ويجب أن نذكر أن اليابان

لم تكن كالمكسيك خالية من السلطات ، بل أن حكومتها تمكنت من أن تجعل هذه العزلة ناجحة ، ومن ناحية أخرى كانت تلك السياسة تمثل عهدا أو ظاهرة خاصة فقد كان البحر هو نسيم الحياة بالنسبة لليابانيين ، وكم ذكروا البحر فى قصصهم وأساطيرهم منذ أقدم العصور كما ذكره الأغريق فى قصصهم وأساطيرهم ، وكان صيادو السمك اليابانيون يخرجون دائما بنصيب وفير ، وحتى فى القرن الرابع عشر ما رست اليابان التجارة مع سيام ، فلما تخلت عن سياسة العزلة فجأة لم يكن ذلك سوى استئنافا للسير فى مصيرها الطبيعى ، ويرجع هذا التغيير المفاجئ إلى حقيقة واحدة وهى أن كروية الأرض فى ذلك الحين فقط أصبحت ذات أثر عملى محسوس فى تكييف حياتهم .

فلما نهض غرب الولايات المتحدة واكتسب أهمية فى منتصف القرن التاسع عشر وشعر العالم برغبة فى سهولة الاتصال بين سان فرنسسكو والصين بدت الحاجة ملحة لمحطة تمون السفن بالفحم فى رحلتها الطويلة بينهما ، والتى تبلغ من الطول ستة آلاف ميل . ولما كانت أقصر الطرق لا بد وأن تمر باليابان فقد أصبحت هى الموقع المختار الذى يصلح لأن يكون محطة تموين — وقد نزل الستار فجأة ، فاختتم مسرحية العزلة اليابانية حين ظهر فى خليج يدو اليابانى أسطول أمريكى حديث يطلب أن تقدم له اليابان بعض التسهيلات ، عندئذ زلزل النظام اليابانى من أساسه فجأة وبسرعة ، كما لو كان زلزالا حقيقا من بين الزلازل التى تعودتها البلاد من آن إلى آخر ، فلم يمض عليها عشرون عاما إلا ووجدت نفسها تقع فى الطريق الشمالى الذى يدور حول العالم ، ووجدت نفسها معدة لأن تأخذ مكانتها كدولة فى عالمنا الحديث ، ولما تم لها النصر على روسيا أخذت مكانتها كدولة عظمى وأصبحت السفن اليابانية الآن تبحر فى أركان المعمورة ، والنفوذ اليابانى ينتشر إلى أبعد من النطاق الجزرى لشرق آسيا .

وهكذا نجد فى نصف الكرة الشمالى طريقاً للمواصلات تتصل حلقاته لأن اليابس متصل إلى حد ما ، ولأن مساحات كبيرة تقع شمال خط عرض ٣٠° شمالا تتلائم نمو المدنيات الحديثة ، بينما قلت مساحات اليابس فى نصف الكرة الجنوبى

وتزداد قلة جنوب خط عرض ٣٠° جنوبا . والجماعات التى تسكن حافاتها الجنوبية ليست إلا سلالات تفرعت عن الأجناس التى تقطن إلى الشمال منها .

والبلاد الجنوبية تتشابه فى تركيب صخورها تشابهاً عجيباً ربما كان ذلك راجعا للتكوين الأول لقارات نصف الكرة الجنوبى ، فما هى سوى بقايا قارة قديمة ، هضبية فى تضاريسها ، ولا تزال بقاياها ممثلة فى جنوب أفريقيا وفى شرق أمريكا الجنوبية وفى غرب أستراليا تحف بها فى القارتين الأخيرتين جبال التوائية هى جبال الانديز فى أمريكا والسلسلة الشرقية فى أستراليا ، وتفصلهما البقاع المغمورة فى المحيطين الأطلسى والهندى .

كما تتشابه بلاد النصف الجنوبى تشابهاً عجيباً فى مناخها فلا تعتريها تغيرات مناخية عظمى بسبب عدم وجود الكتل اليابسة الكبرى والمساحات التى تصلح لسكنى الرجل الأبيض هى مساحات أغلبها صحراء فى غرب القارة يقابلها نطاق ساحلى فى شرقها — ويبدو هذا واضحاً بصفة خاصة فى أستراليا — وبهذه الظروف تتشابه القارات الجنوبية فى منتجاتها فقلت بذلك فرص تبادل التجارة فيما بينها كما أنها أكثر عزلة عن بعضها من عزلتها عن الأراضى الشمالية ، وليس هناك فى الحقيقة طريق مواصلات دائرى فى النصف الجنوبى ؛ فنجد مثلا جزيرة ترستان دى كونا تقع مباشرة بين بيونس أيرس ومدينة الرأس ، كما تقع جزيرة كرجولن مباشرة بين مدينة الرأس وملبورن ، غير أنه من أندر الحوادث أن تمر سفينة بإحداهما ، كما يقع بين أمريكا الجنوبية واستراليا بضعة جزائر تحمل اسماء لا نسمع بها إطلاقا .

وقبل أن تشق قناة السويس وقناة بنما كانت حركة النقل العالمى التى تجرى فى البحار تمر فعلا بمضيق ماجلان وحول رأس الرجاء الصالح ، وهى تحمل تجارة غالية الثمن صغيرة الحجم فاستمتعت أمريكا الجنوبية والطرف الجنوبى لأفريقيا فترة من الزمن بميزة وقوعهما على الطريق الرئيسى ، غير أنه لما أنشئت السكك الحديدية عبر القارات وافتتحت القنوات الكبرى فقدت كل منهما شيئا من أهميتها النسبية . ولم تهيأ لاستراليا قط تلك الميزة التى توافرت لهذه البلاد أى جنوب أفريقيا وأمريكا الجنوبية لأنه تفصلها عن الأراضى

الاسيوية مناطق شاسعة من البحار ولم يك ثمة ضرورة إلى الدوران حولها إذا دعا داع إلى الملاحة حول العالم ، ولهذا لم تكتشف إلا حديثاً وظلت بعيدة عن جميع الطرق التجارية الهامة ولا مناص من بقائها كذلك — ولا نعدو الحقيقة إذا قلنا أن بلاد أمريكا الجنوبيـــة واستراليا ونيوزيلند تقع فى أطراف العالم بكل ما تشمله الكلمة من معنى حرفى — ومن الجائز أن تكون هذه الحقيقة متصلة اتصالا وثيقاً بقلة سكان أستراليا الأصليين وبكونهم يمثلون حساً بدائياً تماماً .

وكان جنوب أفريقيا أكثر تعرضاً للمؤثرات المختلفة ، فضلا عن أنه لا يمتد كثيراً نحو الجنوب فيقتصر فى امتداده حتى عرض ٣٥° جنوبا . ويقطن هذا الجزء أجناس وطنية . أما استراليا فقد تركت فى سباتها حتى جاء عهد تفوق السيطرة البريطانية على البحار فأصبحت بعدئذ مستعمرة بريطانية خالصة تتعصب لسياستها البيضاء وربما كانت العلة فى تعصبها هى أنها بلاد قليلة السكان يسهل الوصول إليها من الأراضى الواقعة إلى شمالها وهى أقرب منالا لأهل تلك البلاد عنها بالنسبة للقادمين من الجزر القاصية الواقعة فى المحيط الأطلسى (يقصد بريطانيا) . أما جنوب أفريقيا فقد تم احتلاله حديثاً فى زمن متأخر نسبياً ، على الرغم من أن اكتشافه قد تم مبكراً وتحكمه الآن دول بحرية وتقطنه أعداد وفيرة من الوطنيين بينما تم احتلال أمريكا الجنوبية إبان عهد الاكتشافات الأولى وقد أصبحت أسبانية أو برتغالية فى ثقافتها وتتبع فى نظامها الاقتصادى النطاق الشمالى .

يتضح من ذلك أن أجزاء العالم الهامة هى التى انتظمت دولا تقع فى الإطار الشمالى للاستيطان والحركة ، ويتصل بهذا الإطار حواف تقل فى أهميتها نسبياً — وسواء انتظم الناس فى دول أم قسموا تبعاً لحرفهم ، وسواء كان نظام تقسيمهم أفقياً أم رأسياً وسواء كان توزيعهم قومياً أم دولياً فسوف يظل التوزيع الأساسى ذاته صحيحاً إلى الأبد .

أضف إلى ذلك أن العالم الآن بنطاقه الشمالى وما يتصل به من شُعَب هو وحدة اقتصادية واحدة ولكل شعب على سطح هذا الكوكب مكانه داخل هذه الوحدة بما فى ذلك الشعب الأمريكى القاطن فى الولايات المتحدة مهما بعدت به الدار ونأت

عن خطر الاشتباك العسكرى — وما دام سكان هذا الكوكب يعتمدون على جهود بعضهم بعضاً وما دام ساكن بريطانيا يفيد فى يوم واحد بطريق مباشر أو غير مباشر من جهود عشرات الآلاف من الناس لا من مواطنيه فحسب بل ومن السكان المنتشرين فى كل أنحاء العالم — وما دام رجل الاسكيمو يعتمد فى الحصول على آلاته على مصانع البلاد الصناعية كما يعتمد عليها الرجل الزنجى فى أواسط أفريقيا فى سبيل الحصول على ملابسه — ما دام كل هذا جارياً أضحى من المستحيل أن نعتبر استقلال الفرد مثلا أعلى فى حد ذاته . ولم تعد المشكلة الحقيقية كيف نعيش منفصلين عن بعضنا بعضاً ، بل أضحت كيف نعيش معاً ، ولا تزال غايتنا هى الحصول على أكبر قدر من الطاقة سواء كانت طاقة بشرية أم طبيعية . وإذ كان الإنسان بجهوده الفردى قد يبطىء فى استغلال الطاقة حتى ولو اشترك مع غيره فقد يمكن أن تسرو ، الجماعة أو الفرد فى استخدامها فتضيعها هباء منثوراً ، ولا يكاد المرء يصدق ذلك الإسراف الهائل فى موارد الطاقة التى ذهبت سدى فى الحرب العالمية الأولى — من فحم ومحاصيل وما توافرت على انتاجه المدن والصناعات المختلفة وتلك القوى البشرية الهائلة كلها ذهبت جفاء وقد يتطلب إصلاح ما أفسدته الحرب قدراً يقرب من خمس كميات الفحم الموجودة فى العالم — وهناك إسراف فى الطاقة حتى فى السلم يجل عن الوصف بسبب الاحتكاكات المختلفة بين الدول . أليس عجباً بعد ذلك أن يرغب العالم فى إقامة نوع من الحكومة العالمية ليحرس تلك الوحدة العالمية ؟ . . ولو أن العالم قد وفق إلى هيئة أمم قوية ناجحة لكان ذلك بمثابة بدء مرحلة جديدة فى سبيل التقدم واقتصاد الطاقة فيتجنب بعض النواحى التى تضيع فيها الطاقة هباء منثورا .

الفصل التاسع عشر

احتمالات الغد

لقد تتبعنا فى الفصول السابقة الخطوات الهامة التى مر بها العالم الحديث فى أثناء تطوره تدريجيا — ونظرنا إلى هذه الظروف باعتبارها أثراً من آثار تحكم الجغرافيا فى الإنسان وتوجيهها أياه فى أثناء محاولاته للحصول على قدر أوفر من الطاقة واستغلالها . وقد عرفنا ما هى هذه الضوابط الجغرافية الهامة ولاحظنا أنها تعمل عملها بطرائق مختلفة عديدة تبعا لمدى معرفة الإنسان وخبرته المكتسبة كما ونوعا — ويبقى علينا الآن أن نقوم بمحاولة لكشف النقاب عما يكنه المستقبل من تطور محتمل وعما إذا كانت الدنيا أوستتغير ستقطع شوطا آخر من أشواط التقدم .

ومهما كان الأمر ، يتضح من دراساتنا السابقة أن هناك احتمالا لأن تسير المدنية فى طريقين اثنين ، فقد تعمد تلك العوامل التى درسناها إلى العمل بأسلوب يختلف عن أسلوبها السابق ، وقد تصبح موارد الطاقة التى لم تستغل فى الماضى ميسورة فى متناول الإنسان ، وقد يصبح الانتقال سهلا فى أقاليم يتعسر فيها هذا الانتقال الآن ، وقد يجد الإنسان نفسه قادراً على استخدام موارد من الطاقة فى أقاليم يتعذر عليه الآن استغلالها . وسيصاحب هذه التغيرات فى استخدام الطاقة تغييرات فى أهمية الأقاليم بمقارنتها بغيرها — ومن ثم سوف تظل الجغرافيا تتحكم فى التاريخ وتوجهه فى مجراه غير أن توجيهها سوف يتبع أسلوبا مختلفا .

وأكثر من ذلك ، قد يكون هذا التغيير راجعا إلى نفاد موارد الطاقة التى يعتمد عليها الإنسان الآن وقد يزداد جفاف بعض البلاد بشكل محسوس فيعز بذلك نمو المحاصيل وزراعتها وتعجز موارد الغذاء عن الوفاء بحاجات السكان —

ولو أن ظاهرة الجفاف هذه شملت مساحة واسعة من الأراضى لتأثر التاريخ تأثراً كبيراً — حقا بذل بعض العلماء محاولات لإثبات أن قلب القارة العظمى آخذ فى الجفاف شيئاً فشيئاً وقال بعضهم أن هناك نظاما ثابتاً يقضى بمرور فترات منتظمة من الجفاف أو من الرطوبة ولكنها لا تطرد فى جفافها — وسواء صحت هذه النظرية أو تلك — فإن هذا لا يعنينا البتة ، فإنا نعلم علم اليقين أن فترات الجفاف طارئة فى التاريخ سواء كانت ذبذبتها دورية أم لا ، وقد أثرت فى التاريخ بأكثر من طريقة واحدة — وسواء تطورت المساحات القارية فازدادت جفافا أم لم تتطور فإن هذا التغيير بطىء جدا فى حدوثه مما يجعل التطورات الأخرى أعظم أثراً .

وقد سبق أن تكلمنا عن حقول الفحم التى يستمدمنها الإنسان أكبر مورد من موارد القوة ، ولا بد يوما من أن تصاب هذه بالعجز فتنفد مواردها ويصبح التغيير فى تلك الحالة من الخطورة بمكان ،لأن الفحم الذى يحترق مرة يفنى إلى الأبد ولا يمكن تعويضه أبداً ،ومن البين أن هناك قدراً محدوداً من الفحم فإذا استهلك لم نجد له عوضا ، وقد يظن البعض أن كميات الفحم فى العالم ضخمة بدرجة تطمئننا إلى استغلاله أحقابا لا حصر لها ولا تنذر بنفادها ،غير أن الحقيقة ليست كذلك . فقد تم مسح الكرة الأرضية الآن وإن كان مسحا غير تام فى بعض أجزائها تعوزه التفاصيل فى أجزاء أخرى ، وتم ذلك فى دقة تجعل من المستحيل تقريباً أن تختبىء موارد عظيمة من الفحم لم تكتشف بعد ، وعلى هذا الأساس لو ظل الاستهلاك الحالى على معدله لن يلبث الفحم الموجود فى بريطانيا وألمانيا أكثر من فترة تتراوح بين خمسمائة عام وألف عام ولن يستغرق استهلاك الفحم فى الولايات المتحدة أكثر من ستة آلاف عام، ولو فرض واستمر الاستهلاك يزيد بمعدل زيادته فى السنين الأخيرة فإن جميع الفحم الذى يصلح للاستغلال فى هذه البلاد (أى بريطانيا) بظروفها الراهنة سوف ينفد فى بحر مائة وخمسين عاما ، وقد لا يكون هـذا النفاد فى حد ذاته خسارة كبرى ، وقد يصبح حافزاً يدفع إلى زيادة الاقتصاد واستمرار التقدم . أما الدافع إلى الاقتصاد فقد بدأ فعلا فى محاولات تجعل الآلات تفيد بأكبر قدر من

الطاقة المتولدة عن احتراق الفحم ، ولا يعدو ما تستخدمه آلة بخارية جيدة أكثر من ١٢ ٪ من طاقة الوقود الذى تحرقه وهو تقريباً نفس النسبة التى يستخدمها الإنسان فى أداء أعماله من مجموع الطاقة المتولدة من غذائه . غير أن نسبة ما يسخره الطوربين فعلا قد تبلغ ٣٠ ٪ من طاقة وقوده وقد تعلو هذه النسبة قليلا فى الآلات التى تستخدم غاز الاستصباح . ومع هذا فهو تبذير لو قارنا ذلك بالطاقة التى تستهلكها حشرة اليراع لتعطى ضوءها وإن كفايتها الضوئية لا تقل عن ٩٩½ ٪ من مجموع طاقتها .

ومهما كان الأمر وحتى لو فرض واستخدمت كل الطاقة الكامنة فى جميع موارد الفحم الموجودة فى العالم كله فى أغراض نافعة فمن الواضح أننا واصلون إلى مجاعة فى الفحم بعد حين من الزمان قد يبدو بعيداً ، باعتبار مقاييسنا العادية ولكنه قصير بلا شك باعتبار العهود التى نقيس بها الأزمنة التاريخية . وإذا ما نفذت حقول الفحم ضاعت أهمية البلاد التى تمتلكها ، وكلما أمكن للدولة أن تستخرج الفحم من باطنها عهوداً أطول كلما زادت أهميتها بقدر مناسب ، هذا على فرض بقاء الظروف الأخرى على حالها . ولهذا تكتسب حقول الفحم الشاسعة فى الصين أهمية خاصة كلما رنونا بنظرنا إلى المستقبل .

كما أن البترول مصدر هام من مصادر الطاقة ، ولو أن معلوماتنا عن منابعه تقل عن معلوماتنا عن مناجم الفحم إلا أنه يكاد يكون من المؤكد أن هذه الموارد لا تتجدد على مر الأيام وأن مجموع الكميات التى تصلح للاستغلال لا تقارن البتة بكميات الفحم وأنها سوف تكون أسبق فى النفاد — ويلاحظ أن كميات البترول فى الولايات الشرقية من أمريكا تتناقص تناقصا سريعا — هذا على الرغم من أن الناتج فى ازدياد فى الولايات الواقعة فى غربى نهر المسيسبى ، ومع هذا فلو سار الحال على هذا المنوال لنفدت كميات البترول فى الولايات المتحدة فى مدى قرن من الزمان ولو ظل معدل الاستهلاك فى زيادة لرأى هذا الجيل بعينيه نفاد كمياته .

فماذا يتبقى لنا من موارد الطاقة الأخرى ؟ لقد ظل أهالى شمال غرب أوربا يستخدمون لمدى ألف عام أو يزيد القوة المتولدة عن ارتفاع المد مرتين يوميا

فحملت موجات المد السفن فى داخل الخلجان الممتدة إلى مسافات بعيدة فى اليابس ضد اتجاه الرياح وعكس تيارات الأنهار ، وكانت الطاقة المتوفرة عن هـذا الاستغلال ذات فائدة كبرى — وقد يبدو ممكنا استخدام هـذه القوى التى تضيع هباء فتستغل فى جميع الوجوه النافعة غير أنه لا يمكن أن تحل محل الفحم فى جميع البلاد باستثناء بعض مواضع محظوظة — وقد لا يبدو محتملا — حتى مع فرض نفاد الفحم — أن يلجأ إليها الإنسان إلا باعتبارها الملاذ الأخير أن عزت عليه موارد القوى الأخرى . وحتى فى ذلك الزمان فسوف يكون ضائعها أكثر من ناتجها — وربما دمرت الزوابع المؤسسات الكبرى التى يتطلبها استغلال مثل هذه القوى .

أما طاقة الرياح والمياة الساقطة فهى شبيهة بالمد والجزر فى أنها تتجدد دائما بعكس طاقة الفحم . وقوى الرياح شأنها كشأن المد والجزر يقل ناتجها عن ضائعها وأما مجموع القوى المائية فهو لا يوازى اطلاقا القدر اللازم لتأخذ المكانة التى تحتلها طاقة الفحم اليوم هذا إذا عجزت موارد الفحم فى يوم من الأيام . وتقدر القوى المائية فى الولايات المتحدة مثلا بأنها تتراوح بين ٣٦ و ٦٦ مليون حصان وهذا القدر على فرض تسخيره جميعه يقل بكل تأكيد عن نصف الطاقة التى يوفرها الفحم المستخرج الآن من مناجمه فى الولايات المتحدة ، وقد يقل عن هذا كثيرا ، وتقدر جميع القوى المائية على سطح الكرة الأرضية بمائتى مليون حصان تقريبا ، وهو قدر أقل بكثير مما يهيئه الفحم اليوم ، فإذا غاب الفحم عن الوجود فلن تستطيع القوى المائية أن تسد جميع احتياجاتنا ، وإن أصبحت ذات نفع عميم — وعلى العموم فإن طاقة المياه الساقطة تمتاز بأنها أكثر اقتصادا من الطاقة المستمدة من الهواء أو المد والجزر ، وبعبارة أخرى أن أى كمية معينة منها تعطى من صافى ناتجها قدرا أوفر من أيهما ، وربما نرى فى مستقبل الأيام الأقاليم المرتفعة الغزيرة الأمطار أرفع مكانة وأبعد شأوا فى ركب الحضارة العالمية .

ويحتمل بطبيعة الحال أن يكتشف عامل جديد يهيىء لنا استخدام صور من الطاقة التى تصدر عن بعض المواد كالراديوم مثلا وهو أهمها أو نتحكم فى الطاقة التى تصدر عن الحرارة الكامنة فى باطن الأرض ، ولكن هذا لا يزال فرضا بعيدا

فلن يستخدم أى قدر معقول من الطاقة المتولدة عن أى من هذين المصدرين .

ولهذا يبدو أن أقرب التطورات احتمالا تلك التى تقول بنفاد كميات الفحم ، وانتشار استخدام القوى المائية والقدرة المتزايدة على الإفادة من موارد الطاقة بأساليب أكثر اقتصادا . أى أنه على فرض تساوى الظروف جميعا ربما بلغت الأقاليم التى تحتفظ بفحمها دون نفاد أطول أجل ممكن والتى تتوفر لهاموارد كبرى من القوى المائية ، من المحتمل أن تبلغ هذه الأقاليم منزلة كبرى بين أقاليم العالم الأخرى التى حرمت مثل هذه المزايا .

ولنأخذ بعين الاعتبار التوزيعات الأساسية الأكثر أهمية فنقول أن موارد الفحم والبترول هى فى طبيعتها رأس مال تجمع لنا فى عهود سحيقة ماضية وباستهلاكنا إياها لا نجمع طاقة إطلاقا ، وهى تختلف فى أساسها عن طاقة الإنسان البدنية والتى هى طوع إرادته والتى يولدها فى جسمه بعد تناوله الغذاء المستمد من الطاقة الشمسية والتى وفرت للنبات أو الحيوان فرصة النمو قبل ذلك بأيام أو شهور ، وقد كانت هذه هى وسيلة الإنسان الوحيدة الممكنة فى أداء أعماله حتى مائة وثلاثين عاما خلت ، ولهذا فإن استخدام طاقة الفحم والبترول ضرب من قبيل الصدفة العارضة التى لا تلبث أن تزول بآثارها ، ولكننا ونحن فى زهوة الانقلاب الصناعى وما تستتبعه من تطور وتغيير لا نشعر بخطر نسيان أنه أمر حادث وإن الإشعاع الشمسى هو المصدر الأخير للجزء الأعظم من الطاقة التى نسخرها على ظهر الأرض وعلى الأخص فإن النباتات النامية تهىء لنا موارد من الطاقة فى أحسن أشكالها ملاءمة للإنسان ، ولا شك أن فلاحة الأرض سواء زرعت بساتين أو محاصيل أو أشجار وسواء كانت هى أقدم الحرف الإنسانية أم لم تكن . هى بلا شك الأساس الأول لطاقة الإنسان .

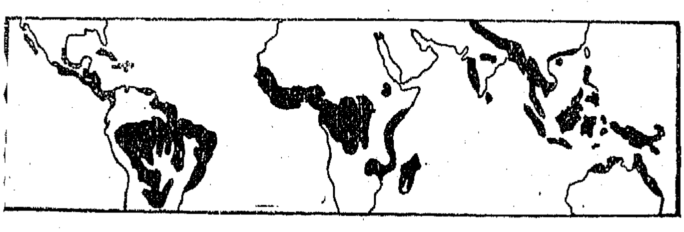
وقد أصبنا تقدما فى اقتصاد الطاقة باستخدام أحسن الآلات وباتباع خير أنواع التنظيم حتى يقل الضائع ماأمكن وحتى نصل إلى أحسن النتائج ، كما أصبنا خطوات أخرى من التقدم بحصولنا على زيادة فى المحاصيل كنتيجة للبحوث التى نجريها على المشكلات المختلفة والتى لا يبدو حلها لأول وهلة مؤديا إلى اقتصاد فى الطاقة ، فنتج مثلا عن الدراسات التى أجريت فى علم الوراثة أن ربيت أنواع

من القمح تقاوم الأمراض أو تستغرق وقتا أقصر فى نموها مما تمخض عنه ظهور سلالة من القمح أفضل مما وجد حتى الآن ، وأدت البحوث التى أجريت على الطفيليات التى تعيش فى التربة وفى غيرها من الأماكن ، أن عرفت وسائل للقضاء على الكائنات الحية التى تعيش فى التربة وتفترس أنواعا خاصة من البكتريا تمتاز بأنها تزود النباتات بغذائها فى شكل صالح لها ، كما أنه بفضل الأبحاث التى أجريت على الظاهرات الجوية فى الطبقات العليا وسقوط الأمطار فى أماكن متفرقة كجنوب أمريكا والساحل الشرقى لأفريقيا — وهى ملاحظات فى حد ذاتها ذات طابع علمى بحت — أصبح فى الإمكان أن نزود فلاحى الهند مثلا ببيان عما يحتمل سقوطه من الأمطار بفضل الرياح الموسمية . ولهذا نرى بعض البلاد تحرز الآن تقدما فى مقدرتها على الحصول على قسط أوفر من الطاقة المستمدة من التربة وتحرص أشد الحرص على ألا تفقد منها إلا أقل قدر ممكن — مثل هذه البلاد تجمع أعظم قسط من الطاقة حيث نرى أكثر سكانها قادرين على بناء الحضارة وهم أكفأ الناس على استخدام وسائل العلم الحديث . مثل هذه المساحات فى أغلبها توجد حيث يعظم القدر المختزن من الطاقة فيستطيع أهلها أن يخصصوا جانباً منها لإنفاقه على ترقية هذه البحوث . وبعبارة أوضح هى البلاد التى تحوى أكبر قدر من الفحم ، ومن ثم نرى فى الوقت الحاضر أن نتائج التقدم فى زراعة التربة قد تختفى بعض الشيء تحت قناع من التقدم الذى طرأ على البلاد من جراء استخدام الفحم .

ولولا تصدير الفحم أو المصنوعات التى تم صنعها بفضل طاقته لفقدت أراضى الدول الكبرى خصوبتها فعلا — فمثلا حقول القمح فى ايست انجليا تحتفظ بخصوبتها بسبب استخدام الأسمدة الكيميائية أو العضوية ، ويدفع ثمن الأسمدة الكيميائية مما تحصله البلاد من ثمن صادرات الفحم ومما تصنعه من مصنوعات ، كذلك يدفع ثمن المواد العضوية بنفس الطريقة حيث أن الماشية تعتمد فى غذائها على المواد المستوردة . ولو أن بريطانيا أو ألمانيا أو فرنسا أو حتى الولايات المتحدة اعتمدت على نفسها بمفردها لقلت قدرتها الانتاجية شيئاً فشيئاً ، وتنفرد الصين وحدها بقدرتها على الاحتفاظ بخصوبتها دون مساعدة خارجية .

ويبدو محتملا أن أعظم تقدم قد يحدث فى المستقبل حين يتناول العالم بالتنظيم البلاد التى تكون فيها النباتات أسرع فى نموها عما فى غيرها بفضل الطاقة الحرارية وبفضل وجود نسبة كافية من الرطوبة والأمطار ، وقد رأينا حتى الآن أن الغابات الاستوائية ظلت بعيدة عن التنظيم العالمى ، ولم يقدر لأية حضارة قديمة أن تنمو بها لأن نمو النباتات فيها أسرع من أن يتحكم فيه البشر — غير أن الإنسان ازداد خبرة وعلما بما تيسر له من تحكم فى قوى عظمى وضعها الفحم تحت تصرفه ، فأصبح الآن قادرا على استخدام مصادر أخرى عظيمة من موارد الطاقة ، فى الأقطار الشمالية لا ينمو بها إلا محصول واحد فى العام ونموه يسير فيها بطيئاً بالنسبة لغيرها من البلاد ، بعكس أحواض الأمازون والكنغو وجزائر الهند الشرقية حيث ينمو النبات على الدوام وفى سرعة كبيرة ، وفى هذا ينبوع من الطاقة يتجدد دائما فهل نستطيع الإفادة منه ؟ نحن فى البداية الآن — وتنظيم هذه الأماكن يأخذ مجراه ، ذلك أن العالم يستمد من غاباتها احتياجاته من المطاط ، ولكن هذا أمر تافه على أهميته لأن المطاط ليس مصدرا من مصادر القوى ، وفائدته محصورة فى أنه يهدف إلى اقتصاد الطاقة فقط ونتوقع لهذه الأقاليم أن تصبح يوما ما مصدرا مباشرا يزود الإنسان بألوان من الطاقة — سواء كانت مستمدة من مواد تصلح وقودا للاحتراق — وهذا مشكوك فيه — أو من الكحول المقطر من النباتات أو بأى شكل كان فهذا أمر ليس بذى بال بالنسبة لتلك الحقيقة الراهنة وهى أن الطاقة موجودة بها فعلا ويمكن استغلالها .

الخريطة رقم ٨٠



النطاق الذى تشتد فيه الحرارة
وتغزر فيه الأمطار وتنمو به الغابات

وهناك فى الحقيقة سببان يحولان دون نجاح الإنسان فى استغلال هذه الأقاليم حتى الرجل الأبيض على ما عرف عنه من عبقرية فى التنظيم — ولعل السبب الذى يأتى فى المقام الأول هو إن أحوالها الجغرافية تختلف اختلافا بيناعن تلك الأحوال التى ترعرع الرجل الأبيض فيها فى الأقاليم الشمالية ، ولهذا عزف عن أن يبذل محاولات ليحل المشاكل التى تواجهه أو أن يحاول تكييف نفسه ليعيش فيها عيشة راضية . وبمعنى آخر من الصعوبة بمكان أن نجعل الناس يغيرون عاداتهم التى نشأوا عليها أو أن يغيروا أساليبهم فى تأدية أعمالهم لأن القصور الذاتى الكامن فى نفوسهم أقوى من أن يناله أى تغيير . وقد عُرفت أفريقيا وجنوب أمريكا قبل أن تُرتاد الولايات المتحدة وكندا بزمان طويل ، ولكن الناس فى الدولتين الآخيرتين يعيشون فيها بطرائق لا تختلف كثيرا عن تلك التى اعتادوا عليها فى بلادهم الأولى ، بينما كل شىء غريب عليهم فى البلاد الأخرى ويجب تدبير الحياة فيها على أساس مختلف . ولهذا لا تهاجر العناصر البيضاء إليها فى أعداد وفيرة لتستقر فيها — وعلى أحسن الفروض فهم يرغبون فى المهاجرة إليها فى أعداد صغيرة ولبضع سنوات فقط كما يذهبون إلى الهند مثلا .

ولهذا فلن يبعث على الدهشة أن رأيناها تصيب تقدماً قليلا ثم يأتى فى المقام الثانى أن الظروف الجغرافية فيها ليست مختلفة فحسب ولكنها تهدد الحياة بالخطر وقد رأينا اليونانيين والرومانيين يظهرون بمظهر من فقد الحيوية والقوة فى عهودهم الأخيرة لو قارناهم بتاريخهم الأول — وربما كان هذا راجعاً لانتشار الملاريا بينهم بعد أن انتقلت إليهم من البلاد الدفيئة التى سيطروا عليها . وسواء كان هذا الزعم صحيحاً أم لم يكن ، فمن الثابت أن الأمراض غير المعروفة فى البلاد الباردة تصبح شديدة الفتك فى ضحاياها لو أنهم انتقلوا إلى البيئات ذات الحرارة المرتفعة . وفى هذا خسارة فى الأرواح لا يقابلها أى اقتصاد — غير أنه يبدو فى هذا الميدان أن الإنسان أصاب تقدماً ، فقد بحثت هذه الأمراض وعللها وتوصل الإنسان بعض الشىء إلى اكتشاف وسائل الوقاية منها . ولم تبشر هذه الأبحاث فى أول الأمر بأنها ستنقذ الإنسانية من بعض آلامها ، ولم يساورنا أمل فى إمكان اقتصاد الطاقة عن

طريقها . فمنذ جيل مضى لم يتنبأ إنسان بأن هذه المعرفة بمقاومة الأمراض تكتسب عن طريق دراسة الحشرات بأنواعها المختلفة وعاداتها وعن طريق جمعها وفحصها تحت المجهر — إلا أن هذا كان الواقع بعينه — فقد ثبت أن الأمراض تنتقل من إنسان إلى إنسان بوساطة أنواع خاصة من الحشرات كالبعوض مثلا — مثل هذه الأمراض نقصت كثيراً أو أمكن القضاء عليها بإفناء الحشرات الناقلة لها ، ومثلا انتشرت الحمى الصفراء فى ريودى جانيرو فى عام ١٨٩٨ ومات بسببها ١٠٧٨ شخصاً إلا أن ضحاياها فى عام ١٩٠٨ كانوا أربعة — وفى هافانا مثلا فيما بين عامى ١٨٥٣ و ١٩٠٠ كان معدل الوفيات السنوى من الحمى الصفراء يصل إلى ٧٥٤ نسمة بينما نجده فيها فى عام ١٩٠٧ يقتصر على حالة واحدة فقط وفى عام ١٨٨٧ مات فى إيطاليا ٢١٠٣٣ من جراء فتك الملاريا إلا أن هذا العـــدد تناقص حتى أصبح ٤١٦٠ فى عام ١٩٠٧ وفى الإسماعيلية بلغت الإصابات بالملاريا ٢٠٠٠ إصابة فى عام ١٩٠٢ ثم اختفت فيها تماماً فى عام ١٩٠٥ كذلك طهرت بور سعيد أيضاً من الملاريا .

ولنتخذ النقود مقياساً ، فنجد فيها أدلة على اقتصاد الطاقة . ففى عام ١٩٠٣ كلف انتشار الملاريا شركة قناة السويس مبلغ ٣٨,٢٠٠ فرنك بينما لم تتكلف مقاومتها عام ١٩٠٨ إلا نصف هذا المبلغ . وإن حفر قناة بنما نفسها لم يصبح ميسوراً إلا بعد اكتشاف الإجراءات اللازمة للتغلب على الأمراض فطهرت المنطقة من مرض الطاعون والحمى الصفراء كما نقصت إصابات الملاريا نقصاً كبيراً . وقد هبط معدل الوفيات بين الموظفين فى قناة بنما من ٤٠ فى الألف فى عام ١٩٠٦ إلى ١٠,٦٤ فى الألف فى ١٩٠٩ وهى نسبة أقل بكثير مما يوجد فى أغلب مدن العالم المتحضر . كما نقصت فى منطقة بنما إصابات الملاريا من ٨٢١ فى الألف فى عام ١٩٠٦ إلى ١٣ فى الألف فى عام ١٩١٧

هذا ويقال أن مناخ الأقاليم الاستوائية ليس مؤذياً فى حد ذاته وكل مايؤخذ عليه أنه يسبب ضربة الشمس لمن يخرج فى العراء إبان حرارة النهار دون أن يكسى رأسه بغطاء واق لها . كما أنه يسبب للانسان رغبة فى النوم بعد تناول وجبة الغذاء ويقال أن السل والحمى الروماتزمية والأنفلونزا أمراض لا وجود لها هناك وأنه

لو أمكن للانسان تجنب ذبابةالتسي تسي لنجا من مرض النوم، ولو تجنب البعوض لخلص من الملاريا — ويُنصح دائماً بعدم النوم على الأراضي الموحلة وألا تنصب الخيام على مواضع المعسكرات القديمة تحاشياً للبق والقراد — وعلى الإنسان إبعاد الفيران عنه ليكون بمأمن من الإصابة بالطاعون — كما قيل أنه لو اتخذ الحرص والانتباه ديدناً له لكانت الحياة فى البلاد المدارية أقل تعرضاً للامراض منها فى البلاد المعتدلة ذات المناخ البارد والتى تنتشر فيها الإنفلونزا انتشاراً ذريعاً .

قد يصعب على الإنسان اتباع هذه النصيحة وإنه لمن الرقى أن يعرف المرء النصح الذى يسديه وإلى أن يتيسر للبشر أن يتبعوا هذه النصائح وأن يفيدوا من من نتائج علمهم ومعرفتهم حينئذ فقط يمكن استغلال مواردالطاقة الهائلة المختزنة فى الغابات الاستوائية ولن تجرى بعدئذ أنهار الكنغو والأمازون فى أقاليم خاوية من سكانها .

ثم أن هناك احتمالا آخر — فقد خلت من النباتات فيافى الصحراء الكبرى بسمائها الصافية وأمطارها المعدومة التى لا تسقط فيها سنين متوالية حتى عجز الإنسان عن الحياة فيها . ولو قدر للانسان أن يسخر لخدمته بطريقة مباشرة الطاقة المستمدة من إشعاع الشمس التى تظل تلفح الأرض بأشعتها باستمرار من مطلعها حتى مغيبها بدرجة تقل قليلا عما تسديه الشمس لأراضى العروض الاستوائية ، لو أن الإنسان وفق إلى شىء من هذا لتحول أقليم آخر لا يزال خاويا من سكانه إلى أقليم يعول عدداً كبيراً من السكان ولبلغت منزلته شأواً عظيما .

لو أننا اتخذنا فى الصحراء مساحة تقرب من مساحة لندن على أوسع حدودها لوجدنا أنها تستقبل من الطاقة الشمسية فى كل عام ما يوازى الطاقة المتولدة عن احتراق الفحم المستخرج من جميع مناجم بريطانيا بأسرها ، وقد أجريت تجارب على بعض الآلات التى تعطى كفاية حرارية عالية ، ولكن التجارب لا تزال فى مهدها والوقت لم يحن بعد لنقول أنه قد اتخذت الخطوات الأولى فى سبيل ثورة صناعية كبرى .

ومن الثابت أنه كلما اقترب الإنسان من خط الاستواء كلما زادت إمكانيات الاقتصاد فى الطاقة ، ومن المؤكد أيضاً أن تلك المناطق تحوى موارد من الطاقة سنلجأ إليها حتما إذا ما نفد الفحم وأننا سنستخدمها إن عاجلا أو آجلا . وإذا اتخذنا الماضى قياسا للمستقبل فلا بد وأن يقترن استخدامها بتغيير — آت لا ريب فيه — فى توزيع سكنى البشر وفى أساليب الحياة وفى جميع الأمور مما يؤثر أثراً عميقا فى مجرى التاريخ . وسيكون للتاريخ الماضى دوره فى تعديل هذا التطور فتظل فى الوجود أشياء لا سبيل إلى تغييرها لأنها وجدت وأصبحت من صميم الكون .

والآن وقد آن الأوان لكى نترك رواية القصة فنختم الكتاب بهذه النظرة إلى المستقبل، وقد لا يكون المقام مناسبا لأن نسبق الزمن فنقول أن الأحداث تجرى نحو غاية معلومة فى خلال مراحلها العجيبة وأن النواميس الآلهية تؤدى رسالتها فى دقة بالغة وأن كانت تسير سيراً بطيئا .

فهرست

الاسم	الصفحة

(ت)

(و)

(ى)

تصويب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٥١	٢١	صقلية	قليقية

صدر من كتب العلوم الإنسانية فى مجموعة الألف كتاب

(اجتماع ، اقتصاد ، عربية ، علم نفس ، تاريخ وتراجم ، جغرافيا رحلات ، دين ، سياسة ، فلسفة ، قانون ، معارف عامة)

١ — تفسير القرآن
٢ — حضارة الإسلام تأليف جوستاف جرو ينبادم
٣ — الفكر الخوالد تأليف مولاى محمد على
٤ — اتجاهات الفلسفة المعاصرة تأليف اميل برهييه
٥ — البوليس والكشف عن الجريمة اليوم تأليف ريجنالد موريش
٦ — سكتلنديارد تأليف سير هارولد سكوت
٧ — الحياة العامة اليونانية تأليف ا . ا . زمرن
٨ — فلسفة الخير تأليف لويس دكنسن
٩ — رجال ذللوا الصحراء تأليف رتشى كولدر
١٠ — حركات الشباب للصاغ الدكتور محمد فتحى
١١ — بلاد ما بين النهرين تأليف ل . ديلابورت
١٢ — بسمرك تأليف اميل لدفيج
١٣ — آثار حضارة الفراعنة للأستاذ محرم كمال
١٤ — الحياة الناجحة تأليف اوستاس تشمسر
١٥ — كيف تقرأ الجريدة تأليف ادجار ديل
١٦ — الحياة اليومية فى مصر القديمة تأليف الن شورتر
١٧ — الديانات فى أفريقيا السوداء تأليف ه . ديشان

١٨ — الطفل من الخامسة إلى العاشرة تأليف ارنولد جزل

١٩ — علم نفسك الاقتصاد تأليف س . ايفلين توماس

٢٠ — تاريخ الملاحة تأليف ا . تومازى

٢١ — تاريخ العالم من ١٩١٤ — ١٩٥٠ تأليف دافيد تومسون

٢٢ — التاريخ الجغرافى للقرآن تأليف السيد مظفر الدين

٢٣ — نحو مجتمع أفضل تأليف برتراند رسل

٢٤ — الأحلام والجنس تأليف فرويد

٢٥ — تاريخ طابع البريد تأليف يوجان فاييه

٢٦ — تاريخ الجيوش تأليف جورج كاستلان

٢٧ — الجغرافيا والسيادة العالمية تأليف چيمز فيرجريف

ألوان وأرقام مجموعة الألف كتاب

لكل كتاب رقمان . الأول ، الرقم العام و يدل على رقم الكتاب في السلسلة وهو مكتوب على الصحائف الأولى وعلى كعب الكتاب ، بين اسم الكتاب واسم المؤلف. والثانى الرقم الخاص ويدل على رقم الكتاب من حيث الموضوع وهو مكتوب على الغلاف عند أسفل الكعب .

والمجموعة كلها مقسمة إلى أربعة موضوعات رئيسية لكل منها لون خاص .

١ — الأدب (أخضر) و يشمل . الأدب العام ، تاريخ الأدب ، النقد ، الشعر ، القصص

٢ — العلوم (أزرق) وتشمل . الزراعة ، الصناعة ، الطب ، الكيمياء ، الفلك ، الحيوان ، الرياضيات .

٣ — العلوم الإنسانية (أحمر) وتشمل. الاجتماع ، الاقتصاد ، التربية ، علم النفس التاريخ والتراجم، الجغرافيا ، الرحلات ، الدين ، السياسة ، الفلسفة ، القانون ، المعارف العامة .

٤ — الفنون (بنى) وتشمل . الإذاعة ، التصوير، الرسم، المرح، الموسيقى ، الرياضة البدنية.

أهداف هذه المجموعة

* تكوين مكتبة عربية متكاملة ، يجد القارىء العربى فيها كل ما هو بحاجة اليه من المعلومات فى شتى الموضوعات ، معروضة عرضا سهلا ، يتقبله القارىء العادى ، ويجد فيه المتخصص الحقائق والنظريات والاراء مبسوطة بغاية الدقة ، متمشية مع آخر ماوصل اليه العلم فى تلك الموضوعات .

* نشر هذه المكتبة فى أوسع نطاق ممكن ، وذلك بتخفيض السعر قدر الامكان ، واشراك اكبر عدد من الناشرين فى نشرها .

* النهوض بالكتاب العربى من حيث الشكل والموضوع .

* تشجيع عادة اقتناء الكتب وقراءتها .

* الافادة بصورة عملية من جهود العلماء والادباء فى شتى الأمم ، باتاحة الفرصة أمام القارىء العربى للاطلاع الواسع على ماعندهم .

* افساح المجال أمام الشباب الطامح الى الاشتغال بالعلم والأدب للمساهمة بصورة ايجابية فى النهضة العلمية والأدبية .

* تشجيع الناشرين فى مصر والدول الشقيقة على الاقبال على نشر كتب العلم والثقافة العالمية ، وتعويضهم تعويضا مجزيا .

* تجديد النشاط الفكرى فى العالم العربى عن طريق الكتب القيمة التى تحمل اليه العلم والمعرفة .

